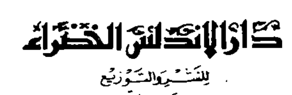
# الأثر السياسي للعلماء في عصر المرابطين

تأليف

محمد محمود عبد الله بن بيه

دار ابن حزم








الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م


الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها


دار الأندلس الخضراء

المملكة العربية السعودية - جدة
الإدارة: ص.ب ٤٢٣٤٠ جدة ٢١٥٤١
هاتف: ٦٨١٠٥٧٧ - فاكس ٦٨١٠٥٧٨

المكتبات: • حي السلامة - شارع عبد الرحمن السديري - مركز السلامة التجاري
هاتف: - فاكس ٦٨٢٥٢٠٩

• حي الثغر - شارع باخشب - سوق الجامعة التجاري
هاتف: ٦٨١٥٠٢٧ - فاكس: ٦٨١٠٥٧٨

• فرع الرياض: حي السويدي الغربي - بجوار أسواق اليمامة
هاتف: ٤٣٣٣٧٣١ - فاكس ٤٣٣٣٦٥٧

http: //www. al-andalus-kh.com

E-MAIL : info @ al-andalus-kh. com

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٧٠١٩٧٤

# الإهداء

إليك شيخي الوالد الجليل... حفظك الله ورعاك.

إليك أيتها الوالدة الكريمة... حفظك الله.

# تقديم

## ١ ـ أهمية الموضوع:

ظفر تاريخ المغرب والأندلس بحظ وافر من عناية الباحثين عرباً وغير عرب، على أن هذه العناية تركزت على بلورة ما كان للحكام ـ أمراء وخلفاء ـ من أعمال وإنجازات وغزوات وفتوحات، على حين ظل ما أسهم به غيرهم من فئات الشعب المغربي والأندلسي في صنع تاريخ هذا البلد ونسج رقعته الواسعة غير مدروس ولا معرف به، ولعل هذا كان في جملة ما تذرع به المستشرقون للطعن في التاريخ الإسلامي حين وصفوه بأنه تاريخ أمراء وخلفاء وليس تاريخ أمة بمجموع فئاتها.

ومع أننا ندرك جيداً أن تاريخ الأمة الإسلامية في المغرب أو الأندلس أو في غيرهما كان يتجسد في تاريخ خلفائها خاصة حينما تستقيم سيرهم ويلتحمون مع شعوبهم، إلا أننا لا ننكر أن الاهتمام برصد الإسهام الذي كان لمختلف أبناء الأمة في صنع تاريخها أمر بالغ الأهمية، لأننا نستطيع به أن نستكمل حلقات البحث التاريخي ونصل بينها، وفي نفس الوقت نستطيع أن نضع من خلال ما ننجزه من دراسات حول إسهام هذه الفئة أو تلك في هذا القطر أو ذلك من أقطار الإسلام في صنع تاريخ أمتها وتوجيهه نماذج حية نابضة بالحركة تحت أنظار أبناء الأمة للعلم والذكرى والاحتذاء.

وإذا كان المؤرخون المتخصصون في تاريخ الغرب الإسلامي لم يولوا

ـ شأنهم في ذلك شأن غيرهم من غالبية المؤرخين ـ غيَّر الحكام اهتمامهم، فإن المؤرخين القدامى والأندلسيون خاصة أوْلوا إحدى فئات المجتمع الأندلسي، وهي فئة العلماء عناية بالغة حين ترجموا لرجالاتها فيما ألَّفوا من معاجم، وحين تتبَّعوا مروياتهم ومبادراتهم العلمية وغير العلمية، وفيما ألَّفوا من فهارس، وفي هذا كما هو واضح رد غير مردود على مطاعن المستشرقين (بجزئية) التاريخ الإسلامي.

ومن المؤكد أن هذه الفئة، وهي فئة العلماء، وإن كانت قد ظفرت من المؤرخين القدامى بمثل العناية المشار إليها آنفاً لم يلتفت إليها ـ إلا نادراً ـ من قبل المؤرخين المحدثين، فكان هذا وذاك مما دفع بي إلى التفكير في إجراء البحث والحفريات التاريخية عن دور العلماء ليس في مجال الدرس العلمي وما إليه ـ فهذه كلها قد استهلكت بتكرار البحث فيها وإعادة درسها ـ ولكن في مجال السياسة والحكم، ورأيت أنه يمكن إنجاز مثال لهذه الدراسة في هذا الموضوع من خلال البحث في الدور السياسي للعلماء في عصر المرابطين. وهو موضوع بكر ـ على حد علمي ـ.

فباستثناء دراستين اثنتين حول العلماء في تاريخ الغرب الإسلامي لا نعلم أن أحداً من الدارسين من العرب والمستشرقين عني بالبحث في هذا الموضوع. أما الدراستان المذكورتان فإحداهما جزئية وهي حول علماء الأندلس في عهد دول الطوائف، وقد تتبع فيها كاتبها الدكتور/ محمد بن عبود، ما نهض به علماء الأندلس خلال حكم الطوائف من أدوار هامة اجتماعية وسياسية، وهي كما نلاحظ تتعلق بالفترة السابقة لفترة المرابطين. أما الدراسة الثانية فهي دراسة اجتماعية وهي التي أنجزها الدكتور (دومنيك أرفوي) بعنوان: «عالم العلماء الأندلسيين من القرن الخامس إلى القرن السادس الهجري» باللغة الفرنسية.

وكانت الغاية عند مؤلف هذه الدراسة تطبيق المنهج الرياضي الإحصائي على العلماء في القرنين المذكورين؛ لذا اكتست أهمية خاصة باعتبارها تجربة فريدة تطبق منهجاً سيسيولوجياً عصرياً على فترة تاريخية

قديمة، ومن الإنصاف القول أنها أسهمت في الكشف عن المعالم الرئيسية لحركة العلماء في القرنين المذكورين الثقافية والفكرية خاصة، كما أنها استطاعت أن تقدم كشفاً بالتخصصات الثقافية والاتجاهات الفكرية لدى علماء الفترة المذكورة.

## ٢ ـ عرض لمصادر البحث ومراجعه:

ورغم أهمية الموضوع فإن مصادره عزيزة، فلا يجد الباحث في كثير من المظان إلا عبارات مبهمة وإشارات خاطفة وإيماءات خفية، ومع ذلك فقد حاولت أن أشيد من تلك الحصيات بناءً وأن أشكل من تلك المتفرقات نظاماً.

وقد اعتمدت في بحثي على كثير من المصادر ثم على بعض المراجع العربية والأجنبية. وكانت كتب التراجم هي معتمدي الأكبر، فمنها تعرفت على العلماء موضوع البحث عن كثب: حياتهم وثقافتهم. ولئن امتازت هذه الكتب بوفرة في المعلومات عن الحياة العلمية للعلماء فإنها في غالبها فقيرة في تسجيل الحياة السياسية لهذه الطبقة.

وسأكتفي هنا بذكر أهم كتب التراجم التي اعتمدت عليها: كانت كتب القاضي عياض بن موسى بن عياض (ت٥٤٤هـ) من أهم ما رجعت إليه من كتب التراجم، فهو إمام ثقة صدوق معاصر للدولة المرابطية وعاش في كنفها وتولى القضاء في ظلها، فكانت تراجمه للعلماء في عهدها شهادة عيان وبالتالي ذات قيمة كبرى. وقد اعتمدت أساساً على كتابيه «**ترتيب المدارك وتقريب المسالك بمعرفة أعلام مذهب مالك**» وهو موسوعة عظيمة الفائدة بسط فيها القول عن علماء المالكية ابتداءً بالإمام مالك بن أنس إلى عصر المؤلف، فجاءت مليئة باللمحات التاريخية، والمباحث العلمية والوقائع السياسية، وقد طبع الكتاب في ثماني مجلدات، بتحقيق مجموعة من الباحثين، ونشرته وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية ١٩٦٨م.

أما كتابه الثاني فهو «**الغنية**» وقد ترجم فيه للشيوخ الذين أخذ عنهم، وقد طبع هذا الكتاب سنة ١٩٧٨م بتونس بتحقيق د. محمد بن عبدالكريم.

ومن الجدير بالذكر أن القاضي عياض ألف كتاباً عن تاريخ الدولة المرابطية، أشار إليه في كتاب «**المدارك**» عند ترجمته للإمام عبدالله بن ياسين حيث ذكر أنه بسط الحديث عنه في هذا الكتاب، غير أنه لم يُعثر إلى الآن على هذا الكتاب.

أما المصدر الثالث فهو كتاب «**الصلة**» لابن بشكوال، وهو في نفس أهمية سابقيه، إن لم يكن في بعض الأحيان أهم منهما. فمؤلفه أبو القاسم خلف بن عبدالملك المعروف بابن بشكوال (**٤٩٤هـ ـ ٥٧٨هـ**) معاصر للقاضي عياض وممن عاش في عهد الدولة المرابطية، وقد أثنى العلماء عليه ووثقوه. وكتاب «**الصلة**»، كما يدل على ذلك اسمه، تتمة لكتاب سابق هو كتاب «**تاريخ علماء الأندلس**» للقاضي ابن الفرضي (ت**٤٠٣**هـ)، فبدأ حيث انتهى ابن الفرضي ثم مضى يترجم لمن جاؤوا بعده إلى سنة **٥٣٤**هـ، كما أنه ترجم لمن أهملهم ابن الفرضي ممن سبقوه. وقد ترجم ابن بشكوال في كتابه هذا لألف وخمسمائة وواحد وأربعين شخصاً. وقد حوى الكتاب بين ثنايا التراجم أخباراً تاريخية مهمة، يندر وجودها في الكتب الأخرى، وتتعلق بأحوال العلماء وأخلاقهم وما تعرضوا له من المضايقات والنكبات، ونصوصاً عن الفتن والاضطرابات وموقف العلماء منها، ومع هذا فإنه يعرض في كثير من الحالات عن ذكر سبب بعض المحن التي تعرَّض لها بعض العلماء ويكتفي بالتلميح دون التصريح. وقد طبع هذا الكتاب عدة مرات، منها طبعة بتحقيق عزت العطار الحسيني، القاهرة، **١٩٩٤**م (الطبعة الخامسة).

وممن عاصروا الفترة المرابطية عبدالحق بن عطية (ت**٥٤١**هـ)، وقد خلف لنا فهرساً عن شيوخه، وقد استفدت بعض المعلومات منه، وقد نشر هذا الكتاب بتحقيق محمد أبو الأجفان، ومحمد الزاهي ـ لبنان **١٩٨٠**م.

ومن كتب التراجم المهمة كتابا محمد بن عبدالله القضاعي المعروف بابن الأبار (ت**٦٥٨**هـ) «**المعجم في أصحاب أبي علي الصدفي**» وكتاب «التكملة»، فكتاب المعجم ترجم فيه ابن الأبار لتلاميذ علم كبير من أعلام العهد المرابطي هو أبو علي حسين بن سكرة الصدفي (ت**٥١٤**هـ)، وهو

رغم صغر حجمه كتاب نفيس يحتوي على كثير من المعلومات التاريخية عن العلماء في الفترة المرابطية، ويفصح أكثر من ابن بشكوال عن ملابسات عدد من الأحداث التي كان العلماء طرفاً فيها، وإن كان مع ذلك يتوخى الإيجاز فلا يذكر كثيراً من التفصيلات والأحداث. وقد طبع هذا الكتاب أكثر من مرة إحداها بتحقيق إبراهيم الإبياري سنة ١٩٨٩م.

أما كتاب **«التكملة»**، فهو تتمة لكتاب **«الصلة»** لابن بشكوال، السالف الذكر، فابتدأ حيث وقف سلفه واستدرك ما أهمله، فجاء كتابه موسوعة حافلة تضم أكثر من ألفي ترجمة فيها الكثير من الفوائد. وقد طبعت **«التكملة»** طبعات غير كاملة، منها طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م التي نشرها عزت العطار الحسيني.

ولابن الأبار كتاب آخر مهم هو كتاب **«الحلة السيراء»**، ويتناول أخبار المغرب والأندلس منذ الفتح الإسلامي إلى منتصف القرن السابع الهجري. وقد طبع الكتاب بتحقيق د.حسين مؤنس بالقاهرة ١٩٦٣م. وقد أفدت من هذا الكتاب بعضاً من المعلومات المهمة.

وإلى جانب كتب تراجم العلماء اعتمدت موسوعات أدبية ترجم فيها مؤلفوها لكثير من أعيان أهل الأندلس، وفي مقدمة هذه الموسوعات كتاب **«الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة»** لابن بسام الشنتريني (ت٥٤٢هـ). ويمتاز هذا الكتاب بكون مؤلفه معاصراً للفترة التي ندرس، فجاء كتابه مليئاً بكثير من الفوائد التاريخية، وكان في كثير من الأحيان في ما يقدمه من تاريخ المترجم له يظهر جوانب حياته المختلفة وتفاعله مع أحداث عصره ووقائعه السياسية والاجتماعية ويربطها بغيرها من أحداث العصر؛ لكن المؤسف أن هذه الموسوعة لا تغطي إلا جزءاً من الفترة الزمنية موضوع البحث إذ أن ابن بسام أنهى تأليف كتابه حوالي ٥٠٥هـ ثم لم يضف إليه شيئاً بعد ذلك رغم أنه عاش بعد ذلك مدة مديدة. وقد حقق هذا الكتاب د.إحسان عباس ونشره ١٩٧٩م في ثماني مجلدات.

وإلى جانب الذخيرة هناك كتابا الفتح بن خاقان (ت٥٢٩هـ)، **«قلائد**

**العقيان»** و**«مطمح الأنفس»** وكلاهما مطبوع، ورغم أن ابن خاقان عاش في الفترة التي نؤرخ لها وترجم لبعض من العلماء والشخصيات السياسية فإن معلوماته عامة مقتضبة، وهو فيما يبدو معني بالمبنى أكثر منه بالمعنى فجاءت تراجمه خالية من القيمة التاريخية. لذلك استعملت كتابي ابن خاقان استئناساً لا أساساً.

وإلى جانب الصنفين السابقين من المصادر استعملت كتب التاريخ العام ومن أهمها كتاب **«التبيان»** للأمير عبدالله بن بلقين بن زيري آخر ملوك بني زيري في غرناطة، والكتاب يؤرخ لدولة بني زيري في غرناطة في القرن الخامس الهجري. وتكمن أهمية هذا الكتاب في أن صاحبه معاصر للأحداث التي يكتب عنها وطرف رئيسي في كثير منها، فجاء كتابه تسجيلاً لشهادة أحد صانعي تلك الأحداث، ولا شك أن شهادته تمثل على الأقل جزءاً من الحقيقة خصوصاً بالنسبة للعشرين سنة الأخيرة من فترة ملوك الطوائف (**٤٦٩**هـ - **٤٨٩**هـ) وهي فترة مهمة تميزت باشتداد «حرب الاسترداد النصرانية» وبتدخل المرابطين في شؤون الأندلس ثم أخيراً خلع ملوك الطوائف وكان الأمير عبدالله أولهم. والكتاب مطبوع سنة **١٩٩٥**م بالرباط بتحقيق أمين توفيق الطيبي الذي كان تحقيقه عملاً رائعاً.

كما اعتمدت على كتاب أحمد بن عذارى: **«البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب»**، وخاصة الجزء الخاص بتاريخ المرابطين وهو الجزء الرابع من الطبعة الثالثة **١٩٨٣**م، بتحقيق د. إحسان عباس. وقد احتوى هذا الجزء على كثير من المعلومات المهمة عن دولة المرابطين وتطورها التاريخي ولكن - لسوء الحظ - يوجد فراغ في القطعة المنشورة من سنة **٤٦٩**هـ إلى عام **٤٩٥**هـ باستثناء قطعة عن بلنسية، وقد حاول د. إحسان عباس أن يسد تلك الثغرة بإلحاق بعض النصوص التي تعالج الفترة المفقودة. ولكن رغم أهمية ذلك بالنسبة للقارىء العادي فإن هذه الضمائم تظل بالنسبة للباحث غير متناسقة مع كتاب ابن عذارى إذ هي إنتاج آخرين.

وإلى جانب **«البيان المغرب»** اعتمدت كتاب **«الحلل الموشية»** لمؤلف

مجهول (مطبوع)، فرغم صغر حجمه فهو كتاب قيم ومفيد يمدنا بمعلومات مهمة عن الدولة المرابطية استمدها من كتب أصيلة عاصر أهلها الدولة المرابطية مثل كتاب **«الأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية»** لابن الصيرفي الذي كان كاتباً للأمير تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين في غرناطة. وكتاب ابن الصيرفي هذا مفقود إلى الآن.

وقد أفدت كثيراً من كتاب **«الأنيس المطرب بروض القرطاس»** لابن أبي زرع إذ فيه كثير من التفاصيل المهمة عن الدولة المرابطية في معظم مراحلها. ولا يقلل من شأن هذا الكتاب في شيء ما وجهه إليه بعض الباحثين من نقد[1]، إذ لكل مؤلف سقطاته وهفواته.

كما اعتمدت في بعض الفصول على كتابي لسان الدين ابن الخطيب: **«أعمال الأعلام»** و**«الإحاطة في أخبار غرناطة»** ففيهما كثير من الفوائد التاريخية بالنسبة لموضوعنا وخصوصاً **«أعمال الأعلام»**.

وقد عطرت أرجاء هذه الرسالة بأرواح ندية من **«نفح الطيب»** و**«أزهار الرياض»** للمقري واتخذتهما مصدرين تكميليين.

ومن كتب الرحلات ومعاجم البلدان فقد عولت كثيراً على أبي عبيد البكري في **«المسالك والممالك»**، فعلاوة على أنه معاصر لقيام الدولة المرابطية فقد كان دقيقاً في ما جمع من أخبار، فجاءت معلوماته قيمة ومفيدة عن الفترة الأولى من تاريخ المرابطين.

وكما أفدت في التعريف بكثير من البلدان والمواقع على كتاب **«الروض المعطار في خبر الأقطار»** للحميري.

وأراني غنياً عن ذكر استفاداتي من كتاب **«العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر»** لعبدالرحمن بن خلدون إذ هو مصدر لا غنى عنه لكل باحث في تاريخ المغرب حتى القرن الثامن الهجري.

---

(١) أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص٣٧٤.

وقد استعنت أيضاً بكثير من المراجع استقيت منها في معظم الأحوال آراء أصحابها حول بعض الأحداث؛ مستأنساً بتلك الأقوال في تأييد وجهة نظري أو سارداً لها للرد عليها من زاوية رؤيتي.

وتأتي في مقدمة هذه المراجع موسوعة محمد عبدالله عنان «**دولة الإسلام في الأندلس**» وخاصة الجزءين الخاصين بـ«**دول الطوائف**» و«**عصر المرابطين**» إذ قد جمع فيها فأوعى لكن أحكامه واستنتاجاته بالنسبة للدولة المرابطية لم تكن كلها مصيبة.

كما أفادتني موسوعة عنان بما نقلته من روايات نصرانية للأحداث. كما استفدت كثيراً من تحليلات وبعض استنتاجات د. عصمت دندش في كتبها المختلفة حول دولة المرابطين وخصوصاً في كتابيها: «**الأندلس في نهاية المرابطين وبداية الموحدين**» وكتاب «**أضواء جديدة على المرابطين**».

كما أفدت من مقالات د. حسين مؤنس وكتبه، وخصوصاً كتاب «**شيوخ العصر**»، وكذلك من كتب د. محمد بن عبود وخصوصاً كتابه «**جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري**».

ومن المراجع المهمة التي أفدت منها كتاب يوسف أشباخ: «**الأندلس في عصر المرابطين والموحدين**»، ورغم أنه فيه كثير من التحامل على المرابطين، فإنه مفيد لما يحويه من روايات نصرانية عن الأحداث.

كما استفدت من بعض المراجع الأجنبية ومن أهمها كتاب: ج. كوك: «**تاريخ انتشار الإسلام في غرب أفريقيا**».

J.Cuoq: Histoire de L'ISLAMISATION de L'Afrique de L'ouest ففيه بعض الاستنتاجات الجيدة عن انتشار الإسلام في غرب أفريقيا في عهد المرابطين.

وكتاب H.TERRASSE: Histoire du MAROC هـ. تيراس: «**تاريخ المغرب**».

فإن تكن إصابة، فتوفيق من الله سبحانه وتعالى، وإن يكن تقصير فقد بذلت جهد المقل.

# التمهيد
# العلماء وأدوارهم التاريخية (السياسية) في المغرب الإسلامي قبل المرابطين

الحمد لله، والصلاة والسلام على محمد رسول الله، أما بعد:

لقد أرسل الله نبيه محمداً ﷺ بالإسلام لينقذ الناس من الظلمات إلى النور ويهديهم سبيل الرشاد صراط الله المستقيم. وجعل الله هذه الرسالة خاتمة الرسالات الخالدة إلى يوم الدين. وبعد أن انتقل رسول هذه الأمة عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة، حمل لواء الإسلام من كل جيل عدوله ينيرون سبل الأمة ويحفظون عليها دينها الذي هو مصدر وجودها وضمان استمرارها.

إن هؤلاء العدول الأخيار هم العلماء ورثة الأنبياء الذين بهم يصلح الناس وترشد المجتمعات. فهم الذين ينيرون درب الحياة فيرشدون الأمة إلى مستقيم الطرق، ويدلونها على الخير ويأمرونها به وينهونها عن المنكر.

إن علماء هذه الأمة الإسلامية قد وعوا منذ تنزلت الرسالة على رسول الله ﷺ أن واجبهم في هذه الحياة هو أن يكونوا ضمير الأمة الحي الذي أنيط به واجب تمييز الخبيث من الطيب، والحق من الباطل، والظلمات من النور، بالدعوة إلى العزيز الحميد والحفاظ على الأمة أن تجتالها الشياطين فتخسر الدنيا والآخرة. إن هذه الرسالة الخاتمة الخالدة هي

الطريق المستقيم الذي ارتضاه الخلاق العليم لهذه البشرية من أجل صلاح أمرها في الدنيا وفلاحها في الآخرة.

ولما كان العلماء هم حفظة هذا الدين كانوا أمناء هذه الأمة وقوادها في خضم هذه الحياة يجلون ليلها ويبينون سنن الهدي إذا اشتبهت الأمور وينصحون لها ويضربون على يد منحرفها لينقذوا سفينة الخير من الغرق. إن هؤلاء العلماء الذين كانوا المثل الأعلى الذي تحتذيه الأمة، ظهروا في كل أنحاء بلاد الإسلام مرشدين بالقول والعمل. وقد كان لبلاد المغرب الإسلامي(1) من هذه الفئة (العلماء) نصيب وافر. فأثروا في تاريخها وصيرورة أحداثها، منذ أن دخل الإسلام هذه البلاد ابتداءً من سنة ٢٠ للهجرة.

فقد تنبه المسلمون إلى أن الفتح لا يمكن أن يؤتي أكله ويرسخ جذوره إلا عن طريق التعليم على أيدي العلماء العاملين، فنرى حسان بن النعمان الذي أوكل إليه الفتح ما بين سنتي **٧٣-٨٥هـ** يوزع الفقهاء على سائر أنحاء البلاد لتعليم البربر قواعد الدين ونشر اللغة العربية لغة القرآن فأقبل البربر على الإسلام في حماس منقطع النظير(2).

---

(1) يطلق المؤرخون العرب تسمية المغرب على بلاد شمال أفريقيا والأندلس (عبدالرحمن بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، طبع مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت، ج٦/ ص٤٠٠ والمعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبدالواحد المراكشي، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العلمي الطبعة ٧ دار الكتاب، الدار البيضاء، ص٧، ١٩٧٨)؛ أما تسمية الغرب الإسلامي فهو تسمية حديثة استعملها الفرنسيون فقالوا **L'occident Musulman** ويشمل بلاد المغرب والأندلس وصقلية وجزائر البحر المتوسط (الأوسط والغربي) والصحراء الكبرى (حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته ج١، الطبعة الأولى ١٩٩٠ الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة ص١٩).

(2) ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج١ تحقيق ج.س. كولان وإ.ليفي بروفنسال، ليدن (هولندا) ١٩٤٨م ص٣٨؛ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري السلاوي: الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى تحقيق ولدي المؤلف جعفر ومحمد، دار الكتاب الدار البيضاء بالمغرب ١٩٥٤م، ج١ ص٩٤.

وهو نفس الأمر الذي سنراه مع موسى بن نصير الذي تولى الفتح من سنة ٨٦ ـ ٩٦هـ فإنه لما استكمل فتح المغرب الأقصى بفتح طنجة وما والاها أقام عليها طارق بن زياد وترك معه ١٧ رجلاً من العرب الفقهاء يعلمون البربر القرآن وشرائع الدين الإسلامي، فبدأ إسلام أهل المغرب الأقصى على يد هؤلاء[١]. ولا شك أنه فعل ذلك أيضاً في المناطق الأخرى من المغرب.

وقد تواصل هذا النهج المعتمد على إرسال العلماء إلى المغرب لتثبيت الإسلام وتعميقه ونشر اللغة العربية. فلقد قام الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز، عند تعيينه لإسماعيل بن عبيدالله والياً على المغرب سنة ١٠٠هـ، بإرسال مجموعة من التابعين أهل علم وفضل، لتفقيه البربر في دينهم حتى يتمكن الإسلام من القلوب[٢]. وهؤلاء التابعون هم عبدالله بن يزيد المعافري[٣] وأبو مسعود سعد بن مسعود التجيبي[٤]، وإسماعيل بن عبيد الأنصاري[٥] وأبو الجهم عبدالرحمن بن رافع

---

(١) عبيدالله بن صالح: نص جديد عن فتح العرب للمغرب نشر ليفي بروفنسال وعلق عليه د. حسين مؤنس في صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد ١٩٥٤م ص٢٢٤.

(٢) أبو العرب محمد بن تميم: طبقات علماء أفريقية وتونس تحقيق علي الشابي ونعيم اليافي، ١٩٦٨، الدار التونسية للنشر تونس، ص٨٤.

(٣) عبدالله بن يزيد الحنبلي المعافري (ت١٠٠): تابعي روى عن جماعة من الصحابة: منهم أبو أيوب الأنصاري وعبدالله بن عمرو بن العاص توفي بتونس. (أبو العرب طبقات علماء أفريقية وتونس، ص٨٦؛ أبو زيد عبدالرحمن بن محمد الأنصاري، الدباغ: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، ج١ تحقيق: إبراهيم شبوح، ط٢، ١٩٦٨، مكتبة الخانجي بمصر ص١٨٠).

(٤) سعد بن مسعود التجيبي: تابعي صحب جماعة من الصحابة منهم عبدالله بن عباس وعبدالله بن عمر، سكن القيروان وبها مات (أبو العرب طبقات علماء أفريقية وتونس ٨٦؛ الدباغ معالم الإيمان ج١ ص١٨٤).

(٥) إسماعيل بن عبيد الأنصاري الملقب بتاجر الله: تابعي صحب جماعة من الصحابة وروى عنهم، سمي بتاجر الله لأنه جعل ثلث كسبه لله يصرفه في وجوه الخير توفي عام ١٠٧هـ (الدباغ معالم الإيمان ج١ ص١٩٠).

التنوخي[١] وأبو سعيد جعثل بن هاعان بن عمير الرعيني[٢] وحيان بن أبي جبلة القرشي[٣] وموهب بن حبي المعافري[٤]، وغيرهم. وقد تولى إسماعيل بن عبيدالله بن أبي المهاجر والي المغرب توزيع هؤلاء التابعين في أنحاء المغرب. وبفضل هؤلاء وأمثالهم دخل البربر إلى الإسلام ولم يبق على غير الإسلام في المغرب سوى جماعة من الروم وطائفة من اليهود.

ويذكر المؤرخون أن البربر أسلموا جميعهم في أيام إسماعيل بن أبي المهاجر[٥]، الذي كان عالماً داعياً إلى الله بالقول والعمل، تابعياً جليلاً وإماماً زاهداً، وبهذا كان مصلحاً من أعظم ولاة بني أمية على المغرب. فقد ورث عن جده أبي المهاجر دينار[٦] صفات الحزم والحكمة وحسن التدبير وكان يجمع إلى ذلك كياسة وورعاً وتقوى ولذلك نراه يتفانى في نشر الإسلام بين قبائل البربر ويعمل جهده على تعليمهم[٧].

لقد كان للدور الهام والكبير الذي قام به العلماء في نشر الإسلام وتثبيته وتعميقه في نفوس أهل المغرب الإسلامي ونشر اللغة العربية في هذه الربوع أن عظمت مكانة العلم وأهله. ونتيجة لذلك لعب العلماء أدواراً

---

(١) عبدالرحمن بن رافع التنوخي (ت١١٣هـ): تابعي سكن القيروان ونشر العلم فيها (الدباغ معالم الإيمان ج١ ص١٩٨).

(٢) جعثل بن هاعان (ت١١٥): كان فقيهاً صالحاً ولاه هشام بن عبدالملك قضاء جند أفريقية (معالم الإيمان ج١ ص٢٠٢).

(٣) حيان بن أبي جبلة القرشي المصري (ت١٢٢هـ) تابعي روى عن جماعة من الصحابة (معالم الإيمان ج١ ص٢٠٩).

(٤) موهب بن حبي: تابعي صحب ابن عباس وروى عنه، سكن القيروان وبث فيها العلم وفيها توفي (الدباغ: معالم الإيمان ج١ ص٢١٣؛ أبو العرب: طبقات علماء أفريقية ص٨٧).

(٥) ابن عذارى: مصدر سابق ج١ ص٤٥.

(٦) أبو المهاجر دينار: والي أفريقية للدولة الأموية من سنة ٥٥ ـ ٦٢هـ؛ ابن عذارى: مصدر سابق، ج١ ص٢١ـ٢٣.

(٧) ابن عذارى: مصدر سابق ج١ ص٤٥.

تاريخية كبيرة في المسيرة التاريخية لبلاد المغرب في الحقب التالية للفتح واستقرار الإسلام.

وكما هو حال كل البلاد المفتوحة حديثاً فقد كان أهل العلم في المغرب من القادمين من المشرق. لكن أهل المغرب ما لبثوا وبأعداد متزايدة أن رحلوا إلى المشرق في طلب العلم، حيث بذلوا جهوداً محمودة لتحصيله، وقد ظهر منهم أئمة كبار سنتعرض لهم لاحقاً.

## أدوار العلماء في المغرب في أواخر الدولة الأموية وبداية الدولة العباسية:

لقد كان لإسلام منطقة المغرب وإقبال أهلها الشديد على الإسلام مع جهلهم باللغة العربية وبعدهم عن مراكز الإشعاع العلمي في مطلع القرن الثاني الهجري أن صارت هذه البلاد مرتعاً لكل النحل ومسرحاً لكل المذاهب. فقد دخل المغرب جماعات من الخوارج[١] صفرية[٢] وأباضية[٣]. وسيتلوهم لاحقاً دعاة الشيعة.

ولقد وجد هؤلاء الدعاة أرضاً خصبة لدعوتهم وقبولاً حسناً بين البربر[٤]، ويعود سبب هذا القبول إلى عدة عوامل[٥]، لعل من أهمها ما كان يدعو إليه دعاة الخوارج من المساواة بين المسلمين وأن الله لم يقصر حق القيادة والإمامة على العرب وحدهم بل جعله حقاً مطلقاً لكل مسلم صالح دون أية تفرقة جنسية، وهوَّنوا عليهم شأن الخروج على الحكام باعتبارهم ظلمة.

---

(١) أحمد بن علي المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ج٢ ص٣٣٣.

(٢) الصفرية: فرقة من الخوارج تنسب إلى زياد بن الأصفر. وعنهم تفرعت فرق الخوارج غير الأزارقة والأباضية والنجدات وهم يجوزون التقية في القول دون العمل.

(٣) الأباضية: فرقة من الخوارج تنسب إلى عبدالله بن أباض التميمي ومقالاتهم معتدلة إذا ما قيسوا بالخوارج الأزارقة.

(٤) حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته ج١ ص١٤٣.

(٥) دائرة المعارف الإسلامية ج٦ ص٥٧٨.

ولقد ساعد على تقبل البربر لهذه الدعاية ما كان يتميز به بعض ولاة بني أمية من جور وعسف وظلم للرعية من أمثال يزيد بن أبي مسلم الذي ولي عام ١٠١هـ وأدت سياسته إلى أن قتل سنة ١٠٢هـ[١] وعبيدة بن عبدالرحمن السلمي الذي ولي عام ١١٠هـ وعبيدالله بن الحبحاب الذي ولي سنة ١١٦هـ وعامله على طنجة عمر بن عبدالله المرادي[٢]. هذا الظلم الذي مارسه بعض الولاة أدى إلى اعتناق البربر للمذاهب الخارجية وبالتالي إلى الثورة على ولاة بني أمية وعمالهم، وشكلت هذه الثورة خطراً كبيراً على مذهب أهل السنة في المغرب مما أدى بفقهاء أفريقية إلى الوقوف إلى جانب ولاة بني أمية في وجه هذا الخطر الداهم، فاشتركوا في الجيوش لمحاربة الخوارج بل قادوا هذه الجيوش كما كان الحال مع القاضي عبدالرحمن بن عقبة الغفاري قاضي أفريقية الذي حارب الخوارج إلى أن استشهد سنة ١٢٤هـ، كما اشترك الفقهاء في معركتي القرن[٣] والأصنام[٤] مع الوالي حنظلة بن صفوان سنة ١٢٥هـ وكانتا نصراً عظيماً على الخوارج الصفرية.

سقطت الخلافة الأموية سنة ١٣٢هـ وقامت على أنقاضها دولة بني العباس في العراق. وتميز عهد الولاة العباسيين الأوائل على أفريقية بظهور فقهاء أعلام كان لهم دور كبير في نشر العلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أمثال عبدالرحمن بن أنعم[٥] (ت١٦١هـ) قاضي أفريقية.

---

(١) محمد بن جرير الطبري: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم طبعة دار المعارف بمصر ١٩٦٤م الجزء السادس ص٦١٧؛ علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبدالواحد الشيباني المعرف بابن الأثير: الكامل في التاريخ، طبعة دار صادر بيروت ١٩٨٢م، المجلد الخامس ص١٠١.

(٢) إبراهيم بن القاسم، الرقيق القيرواني: تاريخ أفريقية والمغرب، تحقيق المنجي الكعبي، الطبعة الأولى ١٩٦٨م، نشر رفيق السقطي تونس، ص٩٩.

(٣) القرن: موضع غربي القيروان.

(٤) الأصنام: موضع على بعد ٤٠٠ كيلومتر غربي القيروان.

(٥) عبدالرحمن بن أنعم المعافري: عالم محدث ولي القضاء بالقيروان لأبي جعفر المنصور توفي سنة ١٦١هـ (طبقات علماء أفريقية وتونس لأبي العرب بن تميم ص٩٥).

غير أن الحدث الأهم والذي سيكون له أثره العميق في تاريخ أفريقية والمغرب عموماً هو انتشار مذهب الإمام مالك بن أنس في هذه الأصقاع.

وقد دخل هذا المذهب على يد فقهاء من أتباع مالك أخذوا عنه العلم والعمل، ومن أوائل هؤلاء علي بن زياد[1] والبهلول بن راشد[2]. وسوف يتخذ أهل المغرب من المذهب المالكي هوية قومية لهم تجمعهم، وسيتعصبون له ويرفضون كل ما سواه من مذاهب.

لكن ما هي الأسباب التي دفعت أهل أفريقية والمغرب عموماً إلى اعتناق المذهب المالكي دون سواه؟

لقد تعددت التفسيرات لكن أقربها وأكثرها واقعية هو ما نحا إليه ابن خلدون[3] فهو يرى أن سبب تمسك أهل المغرب بالمذهب المالكي يعود إلى سببين رئيسيين: أولهما أن رحلة المغاربة كانت إلى الحجاز لأداء الحج فكان من الطبيعي أن يلتقوا بالإمام مالك وأتباعه.

أما السبب الثاني فهو تشابه البيئة بين الحجاز والمغرب، فهم جميعاً أقرب إلى البداوة وبالتالي كان الفقه الذي أفرزته البيئة الحجازية أقرب إلى نفوس المغاربة وواقعهم.

ولعلي أضيف إلى هذه الأسباب الوجيهة التي ساقها عبدالرحمن بن

---

(١) علي بن زياد التونسي العبسي، أبو الحسن (ت١٨٣هـ): إمام، حافظ، بارع في الفقه سمع من مالك وسفيان الثوري والليث بن سعد. وهو أول من أدخل الموطأ إلى المغرب (عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ج٣، تحقيق عبدالقادر الصحراوي، الطبعة الأولى ١٩٦٨، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، الرباط، ص٨٠ـ٨٤).

(٢) البهلول بن راشد، أبو عمرو (ت١٨٣هـ): كان ثقة مجتهداً ورعاً، سمع من مالك والثوري والليث بن سعد. وأخذ الموطأ عن علي بن زياد وكان شديد الإنكار على أهل الأهواء والبدع. (عياض: المدارك ج٣ ص٨٧ـ١٠١).

(٣) عبدالرحمن بن خلدون: المقدمة ج٢ تصحيح وفهرسة أبو عبدالله السعيد المندوه، الطبعة الأولى ١٩٩٤، مؤسسة الكتب الثقافية بيروت، ص١٣٢.

خلدون سبباً آخر، وهو انتشار المذهب المالكي في ذلك الوقت في مصر وبروز علماء أعلام على هذا المذهب من أمثال ابن القاسم العتقي[1] وأشهب[2]. وغيرهما كثير، ومصر هي أقرب حواضر الإسلام الكبرى إلى إقليم المغرب وهي طريق أهل هذا الإقليم إلى الحج وطلب العلم، من ثم كان اختيارها المذهبي مؤثراً في المغرب.

ومنذ النصف الثاني من القرن الثاني الهجري سيلعب علماء المالكية أدواراً بارزة في تاريخ المغرب والأندلس ناشرين العلم وهو واجبهم الأول ولازم صفتهم، آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر.

تميزت فترة النصف الثاني من القرن الثاني الهجري، في أفريقية بظهور علماء مالكيين كبار من أمثال علي بن زياد والبهلول بن راشد وأسد بن الفرات[3] ثم سحنون[4]، رفعوا قدر العلم وأهله وصدعوا بالحق ابتغاء وجه الله.

## أدوار العلماء في الدولة الأغلبية:

لعب العلماء أدواراً تاريخية في عهد الدولة الأغلبية التي أسسها

---

(١) عبدالرحمن بن القاسم العتقي المصري (ت١٩١هـ): أحد كبار أصحاب مالك، لزمه يأخذ عنه عشرين سنة حتى صار أفقه الناس بمذهب مالك. روى عنه الموطأ وكان ثقة، ورعاً، عابداً، زاهداً (عياض: المدارك ج٣ ص٢٤٤ـ٢٦١).

(٢) أشهب بن عبدالعزيز القيسي العامري، أبو عمرو (ت٢٠٤هـ): أحد كبار أصحاب مالك المصريين، كان فقيهاً، حسن النظر، ثقة فيما روى عن مالك وانتهت إليه رئاسة العلم في مصر بعد موت ابن القاسم (عياض: المدارك ج٣ ص٢٦٢ـ٢٧١).

(٣) أسد بن الفرات (ت٢١٤هـ): أبو عبدالله مولى بني سليم، سمع من مالك بن أنس موطأه ولقي أصحاب أبي حنيفة، كان ثقة خلياً من البدع. ولاه زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب على الجيش الذي وجهه إلى صقلية سنة ٢١٢هـ فاستشهد فيها سنة ٢١٤هـ. (أبو العرب بن تميم القيرواني: طبقات علماء أفريقية ص١٦٣ـ١٦٦).

(٤) سحنون: عبدالسلام بن سعيد التنوخي (١٦٠ـ٢٤٠هـ) فقيه قيرواني انتهت إليه رئاسة العلم بالمغرب في عصره وولي قضاء القيروان عام ٢٣٤هـ (أبو العرب: طبقات علماء أفريقية وتونس ص١٨٤).

إبراهيم بن الأغلب[١]. ومن أبرز هؤلاء العلماء أسد بن الفرات قاضي أفريقية الذي كان له دور فعال في الجهاد، فقد قاد جيش المسلمين المتجه لفتح صقلية سنة ٢١٢هـ وذلك في عهد زيادة الله الأول الأغلبي (٢٠١-٢٢٢هـ). وكان الفقهاء في مقدمة موكب خروج المجاهدين وتشييعهم من القيروان إلى سوسة. وقد احتفظ أسد بن الفرات بوظيفته كقاضٍ للجيش إلى جانب عمله كقائد للحملة[٢]. وظل أسد يواصل الفتح مظفراً إلى أن توفي سنة ٢١٤هـ بصقلية مجاهداً.

ومع مطلع القرن الثالث الهجري أصبح الفقهاء يكونون فئة اجتماعية متميزة، معظم أفرادها قد رحلوا إلى المشرق لسماع مالك أو أصحابه. ورجعوا بعلم وافر وبأفكار ومواقف جريئة في الحق.

وسيتجلى هذا الواقع الجديد في شخص الإمام سحنون بن سعيد (١٦٠-٢٤٠هـ) الذي كان يوصف بالفقه البارع والورع الصادق والصرامة في الحق والزهادة في الدنيا[٣]. وقد صنف المدونة في الفقه فاعتمد أهل المغرب عليها وتركوا ما سواها[٤]. وقد كثر أصحابه فانتشر علمه في المغرب كله.

لقد بوأت هذه الصفات سحنوناً لأن يكون إمام عصره فيؤثر تأثيراً كبيراً في دولة الأغالبة، وقد عرف له أمراء هذه الدولة هذه المكانة فتعاملوا معه وفقها، فولوه القضاء على شروطه، ولم يتعرضوا له في نهيه وأمره وإن كان بعض ذلك على مضض منهم[٥]. لقد كون الإمام سحنون بسلوكه

---

(١) إبراهيم بن الأغلب: (ت١٩٦هـ) مؤسس الدولة الأغلبية في أفريقية سنة ١٨٤هـ في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ) الذي أقره على ولاية أفريقية (ابن خلدون: العبر ج٤ ص٤٢٠).

(٢) ابن فرحون: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ج١، تحقيق د. محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة ص٢٠٣.

(٣) أبو العرب بن تميم: طبقات علماء أفريقية ص١٨٤.

(٤) ابن فرحون: الديباج ج٢ ص٣٤.

(٥) عياض: المدارك ج١ ص٦٠٤.

وعلمه منهجاً قويماً لا يهدف إلا إلى الإصلاح قدر المستطاع، وقد عبر عنه خير تعبير عندما كتب إليه محمد بن الأغلب يتوعده بالقتل إثر خلاف بينهما فأجابه سحنون بقول الله تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾﴾ الآية[1].

كان ذلك مذهبه رحمه الله ومذهب تلاميذه من بعده: الدعوة إلى نجاة المجتمع المسلم.

إن الإحساس بالمسؤولية تجاه المجتمع كان هو السلوك البارز لعلماء المالكية في زمن الدولة الأغلبية، فكانت مواقفهم تتسم بالإيجابية مع الأوضاع السائدة أي المشاركة المفيدة التي تعود على الأمة بالصلاح، آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر ضاربين المثل الحي بأنفسهم في ذلك.

غير أن عاملاً جديداً سيطرأ على المنطقة يجعل العلماء في القيروان يتشبثون بالدولة الأغلبية. هذا العامل هو دخول أبي عبدالله الشيعي[2] إلى أفريقية مع وفد حجاج كتامة في سنة ٢٨٠هـ[3] ونجاحه في نشر الدعوة الشيعية بين قبيلة كتامة فقويت شوكته بهم فشكل تهديداً حقيقياً للدولة الأغلبية.

رأى العلماء أنهم أمام هذا الوضع الجديد عليهم الاختيار بين السيء: الذي تمثله دولة الأغالبة وحاكمها زيادة الله الثاني، وبين الأسوأ الذي يمثله أبو عبدالله الشيعي ودعوته. ونتيجة لذلك قام العلماء بإظهار اللعنة والبراءة من الشيعي وتحريض الناس على قتاله والفتوى بمجاهدته[4]، لكونه كافراً

(١) الآية ٤١ من سورة غافر.

(٢) أبو عبدالله الشيعي: الحسين بن أحمد بن زكريا الصنعاني. أحد الدعاة الكبار للشيعة الإسماعيلية، استطاع بذكائه الخارق وحسن تدبيره أن يقيم دولة شيعية في المغرب بفضل مؤازرة قبيلة كتامة البربرية. وكان أبو عبدالله يدعو باسم عبيدالله المهدي. وبعد قيام الدولة الشيعية وتولي عبيدالله المهدي مقاليد الأمور خاف من داعيته فقتله سنة ٢٩٨هـ. (ابن خلدون: العبر ج٤ ص٣١ـ٣٧).

(٣) ابن عذارى: مصدر سابق، ج١ ص١٢٤.

(٤) المصدر السابق، ص١٣٧.

خارجاً عن الملة[1].

إلا أن هذا السند القوي الداعم للدولة الأغلبية، والمتمثل في علماء المالكية لم يغير ميزان القوى لصالح هذه الدولة ربما لأن الدولة الأغلبية قد استنفدت مبررات وجودها لدى الرعية بسبب ظلم بعض ولاتها وخصوصاً زيادة الله الثالث[2]، فلم تعد لها عصبية تحمي حوزتها من السقوط، وبالتالي لم يكن ليجدي حسن نوايا العلماء في هذا الظرف الدقيق فقد اتسع الخرق على الراتق. وكانت النتيجة الحتمية سقوط الدولة الأغلبية بفرار زيادة الله سنة ٢٩٦هـ ليبدأ العلماء طوراً جديداً من أطوار صراع الحق والباطل مع قيام دولة العبيديين[3].

## أدوار العلماء بدولة الفاطميين:

لم يكن من المتوقع أن تتسم علاقة الفاطميين بالعلماء المالكيين بالود، وذلك نظراً للعداء المستحكم الذي كان سائداً بين أهل السنة والشيعة على امتداد بلاد الإسلام، إلا أن حالات الهدنة التي كانت تسود من حين لآخر بين الطرفين، لم تعرفها بلاد أفريقية وباقي المغرب منذ أقام الفاطميون دولتهم سنة ٢٩٧هـ، فقد حاول عبيدالله المهدي[4] أن يرغم الناس بحد السيف، على اعتناق مذهب الدولة الجديد.

---

(١) المصدر السابق ص١٣٨.

(٢) زيادة الله الثالث: آخر أمراء الدولة الأغلبية تولى الحكم بعد قتله لأبيه سنة ٢٩١هـ ولكن الأمور لم تصف له بسبب تغلب أبي عبدالله الشيعي على البلاد ففر زيادة الله إلى مصر ٢٩٦هـ.

(٣) دولة العبيديين: هي الدولة الفاطمية التي أقامها الشيعة الإسماعيلية ما بين سنتي ٢٩٧هـ - ٣٦٢هـ في المغرب ثم نقلوا مقر حكمهم إلى مصر حيث بقيت دولتهم إلى سنة ٥٦١هـ للتفصيل: المقريزي: إتعاظ الحنفا، حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية.

(٤) عبيدالله المهدي: أول خلفاء الدولة الفاطمية يرفع الشيعة نسبه إلى علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء توفي سنة ٣٢٢هـ بالمهدية.

ولما لم يجد أذناً صاغية من الناس ومن قيادتهم المتمثلة في العلماء بدأ بقتل هؤلاء فأمر بذبح الفقيهين أبي إسحاق بن محمد المعروف بابن البردون وأبي بكر بن هذيل[1]؛ وتفنن في أنواع التنكيل ولأدنى الأسباب فنراه يقطع لسان مؤذن لأنه نسي أن يقول في أذانه: حي على خير العمل[2]. أما إيذاء العلماء فقد عمت به البلوى ولم ينج منه أحد من علماء القيروان[3].

إلا أن هذا العسف والتنكيل لم يفلح في تغيير موقف علماء المالكية من الفاطميين ومذهبهم بل زادهم إصراراً عليه إلى الحد الذي رؤي فيه الفقيه المالكي عبدالله بن التبان[4] يبكي بحرقة فقيل له في ذلك فقال: خشية أن يشك الناس في كفر بني عبيد فيدخلوا النار.

لقد اتخذت مقاومة الفاطميين أشكالاً كثيرة ابتداءً بترك شهود الجمعة معهم إلى أن تناهى الحال حتى لم يعد يحضرها من أهل القيروان أحد[5].

مروراً بلعنهم ونسبتهم إلى الكفر والمروق عن الدين[6] والامتناع عن طاعتهم والإفتاء بأن دفع الزكاة لهم لا يجزىء وقد أفتى بذلك القابسي[7]

---

(١) أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الضبي يعرف بابن البردون (ت٢٩٩هـ) فقيه، بارع في العلم، ورع، كان شديد الإنكار على الشيعة، وذاباً عن السنة، فتعرض جراء ذلك لبطشهم. (أبو بكر بن عبدالله بن محمد المالكي: رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وأفريقية ج٢ تحقيق بشير البكوش، الطبعة الأولى ١٩٨٣، دار الغرب الإسلامية ـ بيروت ص٤٧ـ٤٨).
أبو بكر بن هذيل (ت٢٩٩هـ) فقيه قيرواني، ورع قتله الشيعة بسبب إنكاره عليهم ومجاهرته بذلك (المالكي: رياض النفوس ج٢ ص٤٩ـ٥٠).

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب ج١ ص١٨٢.

(٣) الدباغ: معالم الإيمان ج٢ ص١٣٧.

(٤) أبو محمد عبدالله بن إسحاق بن التبان: أحد كبار فقهاء القيروان ومتكلميهم توفي سنة ٣٧١هـ (عياض: المدارك ج٢ ص٥٢١).

(٥) ابن عذارى: البيان المغرب ج١ ص٢٢٧.

(٦) عياض: المدارك ج٤ ص١٥٧.

(٧) علي بن محمد بن خلف المعافري المعروف بأبي الحسن القابسي (ت٤٠٣هـ) فقيه =

والجبنياني[1].

وقد تردد ابن أبي زيد[2] في البداية في هذه المسألة وأجاز دفع الزكاة إلا أنه رجع عن ذلك وقال بعدم جواز ذلك لأنها تنفق في الخمور والمعاصي[3].

وأدى هذا العداء المتنامي والمستحكم إلى نتائج أخرى أعظم: منها خروج العبيديين من القيروان وبناءهم مدينة خاصة بهم هي المهدية التي لجأوا إليها سنة ٣٠٨هـ بعداً عن أجواء القيروان وأهلها المعادين.

إلا أن تحول الفاطميين إلى المهدية[4] لم يكن ليخفف من حدة التوتر بين الطرفين. بل إن الأمور تطورت في ظل الجور والعسف الذي يمارسه الفاطميون إلى مجابهة مسلحة حمل العلماء فيها السلاح ثائرين على هذا الواقع المرير الذي لم تجد شتى السبل في إزالته، واعتبر العلماء قتيل الفاطميين خير قتيل[5].

---

= أصولي متكلم، إمام في علم الحديث. أخذ عنه كثير من أهل العلم منهم أبو عمران الفاسي وأبو عمرو الداني. له تآليف عدة منها كتاب «الممهد في الفقه» و«أحكام الديانة» و«المنقذ من شبهة التأويل». توفي بالقيروان سنة ٤٠٣هـ ودفن بها. (محمد بن محمد مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، الطبعة الأولى ١٣٤٩هـ، المطبعة السالفية ـ القاهرة، ص٩٧).

(١) إبراهيم بن أحمد، أبو إسحاق الجبنياني البكري (ت٣٦٩هـ) أحد العلماء العاملين كان من أعلم الناس باختلاف العلماء، مجمع على فضله وورعه. (ابن فرحون: الديباج المذهب ج١ ص٢٦٤ـ٢٦٥).

(٢) أبو محمد عبدالله بن أبي زيد عبدالرحمن النفزي القيرواني (ت٣٨٦هـ) إمام المالكية في وقته، وقدوتهم، كان واسع العلم كثير الحفظ والرواية. كانت إليه الرحلة من الأقطار وكثر الآخذون عنه. له كتب مشهورة منها كتاب «النوادر والزيادات على المدونة» وكتاب «مختصر المدونة» وكتاب «الرسالة». توفي بالقيروان سنة ٣٨٦هـ وقبره معروف بها (ابن فرحون: الديباج ج١ ص٤٢٧ـ٤٣٠؛ مخلوف: شجرة النور الزكية ص٩٦).

(٣) عياض: المدارك ج٢ ص٧١٤.

(٤) المهدية: مدينة أنشأها عبيدالله المهدي وكانت العامة تسميها المردية تفاؤلاً بهلاكها.

(٥) الدباغ: المعالم ج٢ ص٢٠٤.

لقد وجد العلماء فرصة حمل السلاح وخلع العبيديين في الانضمام إلى ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني المعروف بصاحب الحمار (ت٣٣٦هـ) وهي ثورة استغرقت نحو ٢٥ سنة من عمر الدولة الفاطمية في المغرب[١]. غير أن حركتها الفعلية بدأت سنة ٣٣٠هـ.

وقد بدأت هذه الثورة في شكل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثم تطورت إلى تكفير الشيعة ثم الخروج على سلطانهم.

وصلت هذه الثورة ذروتها عندما احتل أبو يزيد القيروان ورقادة سنة ٣٣٣هـ وحاصر المهدية عاصمة الفاطميين حصاراً شديداً اضطر أهلها فيه إلى أكل الدواب[٢]. ولقد انضم إلى هذه الثورة كثير من أعيان الفقهاء من أمثال ربيع القطان[٣] وأبو العرب محمد بن تميم[٤]. وقد اعتبر الفقهاء الخروج مع أبي يزيد، مع أنه خارجي النحلة أهون لأنه من أهل القبلة على حين أن الفاطميين كفار[٥]. إلا أن هذه الثورة التي استشهد فيها كثير من العلماء لم تصل إلى الهدف المنشود وهو إسقاط الدولة الفاطمية[٦]. لقد كانت مشاركة العلماء المالكيين في هذه الثورة محاولة يائسة للتخلص من واقع مرير أكثر منها عملاً مدروساً محسوب السلبيات والإيجابيات.

وكما هو متوقع لم يستتبع هذه الثورة إلا مزيد من العداء بين

(١) حسين مؤنس: تاريخ المغرب ج١ ص٤٩٧.

(٢) ابن خلدون: العبر ج٤ ص٤٢.

(٣) ربيع القطان: أبو سليمان بن عطاء الله القرشي، إمام فقيه شاعر زاهد توفي سنة ٣٣٣هـ في جهاد الفاطميين (مخلوف: شجرة النور الزكية ص٨٦).

(٤) أبو العرب محمد بن تميم القيرواني (٢٥٠-٣٣٣هـ) عالم من علماء أفريقية، اشتهر بكتابه طبقات علماء أفريقية وتونس (عياض: المدارك ج٢ ص٧٣).

(٥) عياض: المدارك ج٣ ص٥٦٤؛ الدباغ: المعالم ج٣ ص٣٧؛ ابن عذارى: البيان ج١ ص٢٠٠.

(٦) من أسباب فشل ثورة مخلد بن كيداد، النفور الذي حصل بين العلماء ومخلد. أما العامل الأساسي فهو وصول صنهاجة المغرب الأوسط بقيادة بلكين بن زيري للدفاع عن المهدية. (مؤنس: تاريخ المغرب مج١ ص٥٠٠).

الفاطميين والعلماء إلى أن انتقلت الدولة الفاطمية إلى مصر سنة ٣٥٨هـ.

غير أن محنة العلماء لم تنته برحيل المعز لدين الله وكتامة إلى مصر بل أن صنهاجة المغرب الأوسط حملت لواء الدعوة الفاطمية من بعدهم وقامت دولة بني زيري التي لم تأل جهداً في نشر المذهب الشيعي بكل الوسائل ترغيباً وترهيباً. على أن العلماء المالكيين ظلوا أوفياء لمبادئهم، فخلافهم مع الفاطميين لم يكن خلافاً مع أشخاص بعينهم بل خلافاً مع مبادىء. وطالما بقيت تلك المبادىء ستظل المعارضة والمحاربة.

وسيؤتي الصبر على المبدأ والمثابرة عليه أكله، فقد نجح العلماء المالكيون عن طريق التعليم في الوصول إلى أهدافهم المتمثلة في القضاء على مذهب الشيعة. لقد أوكل الأمير باديس بن منصور ثالث أمراء بني زيري الذي حكم ما بين (٣٨٦ـ٤٠٦هـ) بتربية ولده المعز إلى الفقيه المالكي أبو الحسن بن أبي الرجال، الذي كان رجلاً ورعاً زاهداً، فنشأ ربيبه على حب المذهب السني والانصراف عن المذهب الشيعي الفاطمي ودله على مذهب مالك[1].

وما كاد المعز بن باديس[2] يتولى الحكم بعد والده حتى بدأ الغرس يؤتي ثماره، فبعد سنة واحدة من توليه (٤٠٧هـ) هاج العامة بالشيعة وقتلوا منهم مقتلة كبرى في القيروان وتونس وطرابلس وغيرها. وكان للفقهاء دور فاعل في هذه الثورة فهم الذين حرضوا الناس عليها وكان أولهم في ذلك ابن أبي الرجال[3].

ولم تكن ثورة سنة (٤٠٧هـ) إلا الحلقة الأولى من سلسلة الثورات على الشيعة. فستتلوها ثورة في سنة (٤١٧هـ) قتل فيها الكثير من الشيعة.

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب ج١ ص٢٧٣.

(٢) المعز بن باديس: رابع أمراء بني زيري الصنهاجيين في أفريقية حكم ما بين ٤٠٦ـ٤٥٣هـ.

(٣) ابن الأثير: الكامل ج٩ ص١٣٢؛ عياض: المدارك ج٢ ص٦٢٥؛ ابن عذارى: البيان ج١ ص٦٢٥.

لقد كانت هذه الثورات إيذاناً بانتهاء الوجود الشيعي في أفريقية، فلم تزل الأحداث تتفاعل في اتجاه القطيعة ما بين الصنهاجيين والفاطميين، إلى أن أعلن المعز باديس انسلاخه من الولاء للفاطميين بل ولعنهم على المنابر[1] ووصفهم بأشنع الأوصاف وذلك سنة ٤٤٠هـ[2].

لقد كانت هذه نهاية الصراع بين الفاطميين والعلماء المالكيين في المغرب، نهاية كللت جهاد هؤلاء وتضحياتهم عبر أكثر من قرن من الزمن بالنصر المبين. مما أدى إلى تجذر المذهب المالكي في نفوس أهل أفريقية، وعمق تأثير علماء هذا المذهب في سكان هذه المنطقة، ومن هؤلاء في هذه الفترة أي النصف الأول من القرن الخامس الهجري عالم كبير ومصلح عظيم هو الشيخ أبي عمران الفاسي الذي سنتحدث عنه في الفصل التالي من هذا البحث.

إلا أننا قبل ذلك، سنتحدث عن جزء آخر من أجزاء المغرب الإسلامي لنستجلي مدى ما قام به العلماء في هذا الجزء وهو الأندلس. ولكن لماذا لا نعرج على المغرب الأقصى قبل ذلك؟ إن عدم وجود دولة[3] في هذا الجزء من المغرب الإسلامي جعل المؤرخين لا يذكرون عن هذه المنطقة إلا النذر القليل. لذا ظلت هذه المنطقة أساساً منطقة صراع بين الدولة الفاطمية والإمارة الأموية[4]. فلم يزدهر فيها العلم ولا نسب إليها العلماء إلا في فترة متأخرة[5].

---

(١) الدباغ: معالم الإيمان ج٣ ص١٩٦.
(٢) ابن عذارى: البيان المغرب ج١ ص٢٧٧؛ ابن خلدون: العبر ج٦ ص١٥٩.
(٣) إننا إذا استثنينا دولة الأدارسة (بين سنتي ١٧٢هـ - ٣١٠هـ) فإن المغرب ظل منطقة عبور بين أفريقية والأندلس وهما المنطقتان الرئيسيتان في منطقة المغرب قبل قيام دولة المرابطين. وحتى دولة الأدارسة لم تعرف قوة وازدهاراً إلا لفترة قصيرة ما بين ١٧٢-٢١٣هـ.
(٤) حسين مؤنس: تاريخ المغرب ج١ ص٣٩٢.
(٥) إن كتب التراجم لا تذكر علماء في المغرب الأقصى إلا ابتداء من النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، فأول من ذكر هو دراس بن إسماعيل (ت٣٦٢هـ) وتصفه المصادر بأنه ممن أدخل مذهب مالك إلى المغرب (عياض: ترتيب المدارك ج٤ ص٣٩٥؛ أحمد بن القاضي: جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس ج١، ١٩٧٣، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط ص١٩٤-١٩٦).

## مكانة العلماء في المجتمع الأندلسي:

لقد كانت منزلة العلماء منزلة عالية في سلم المجتمع الأندلسي، فسمة الفقيه عندهم جليلة، والمذهب السائد بين علماء الأندلس هو المذهب المالكي.

والمالكية امتازت بأنها لم تكن مذهباً فقهياً فحسب بل كانت مذهباً سلوكياً[1]، قائماً على تعظيم شأن العلم وأهله.

وقد رحل الأندلسيون إلى مالك فأخذوا عنه العلم الغزير، ومن أوائل هؤلاء الطلاب الذين رحلوا في طلب العلم زياد بن عبدالرحمن الملقب بشطبون[2]. سمع من مالك الموطأ وكان أول من أدخله إلى بلاد الأندلس[3]. وممن رحل أيضاً عيسى بن دينار الطليطلي[4] فسمع من ابن القاسم تلميذ مالك وصحبه ثم عاد إلى الأندلس فكانت الفتيا تدور عليه.

ولعل أشهر من رسخ مذهب مالك وبث موطأه هو يحيى بن يحيى الليثي[5]. فقد رحل إلى المشرق وسمع من مالك ومن ابن القاسم. وبه انتشر مذهب مالك في الأندلس.

لقد كانت لهؤلاء الفقهاء مثلهم مثل الرعيل الأول من شيوخ المالكية سلطة روحية معنوية وسياسية دون أن يثيروا مخاوف أهل السلطان.

فقد كانت لهم في قلوب الناس محبة ومكانة كبرى، فهم تلاميذ إمام

---

(١) حسين مؤنس: شيوخ العصر، الطبعة الأولى ١٩٦٥، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ص١٦.

(٢) شطبون: زياد بن عبدالرحمن (ت١٩٣هـ) فقيه أندلسي من الطبقة الأولى من أصحاب مالك (ابن فرحون: الديباج ج١ ص٣٧٠).

(٣) ابن فرحون: الديباج المذهب ج١ ص٣٧٠.

(٤) عيسى بن دينار الطليطلي (ت٢١٢هـ) فقيه مالكي جليل ولي قضاء طليطلة (الديباج المذهب ج٢ ص٦٤).

(٥) يحيى بن يحيى الليثي (ت٢٣٤هـ) فقيه مالكي ممن لقي مالك وروى عنه موطأه (الديباج ج٢ ص٣٥٢).

دار الهجرة وحفاظ الحديث ورجال الشرع الذين درسوا الموطأ وأرشدوا الناس إلى الطريق المستقيم.

لقد كانت لهذه المكانة تبعاتها فقد كان العلماء مطالبين بالدفاع عن الحق بقول المعروف والنهي عن المنكر وتحمل عواقب ذلك، فهم قواد المجتمع الحقيقيون.

وفي سبيل رسالة العلم ونشره والصدع بالحق تعامل العلماء الأندلسيون مع الأمراء والحكام فوجدوا منهم الليّن المنتفع بالنصح والإرشاد الساعي إلى الإصلاح، كما وجدوا الفظ الغليظ الذي لم يعد يفقه وعظاً ولا يستبين رشداً.

ففي حين كان الأمير هشام بن عبدالرحمن الداخل[١] أميراً ليناً لأهل الدين متقرباً إليهم[٢] نرى خلفه الحكم بن هشام[٣] عنيفاً قاسياً لا يقيم وزناً لأمر آمر بالمعروف ولا ناه عن المنكر. وكان من الطبيعي أن ينجذب العلماء إلى هشام ويولوه نصحهم ويشيدوا بخصاله، في حين عارضوا سياسة الحكم ووصلت تلك المعارضة في بعض الأحيان إلى حد الثورة عليه[٤]. على أن

---

(١) هشام بن عبدالرحمن الداخل (١٣٩ـ١٨٠هـ): ثاني أمراء الدولة الأموية بالأندلس حكم ما بين سنتي ١٧٢ـ١٨٠هـ وكان شديد الورع والتقوى مشغوفاً بالجهاد؛ (ابن عذارى: ج٢ ص٦٥)؛ (محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ج١ ص٢٢٤).

(٢) الخشني: تاريخ قضاة الأندلس ص٤٤؛ ابن عذارى: البيان المغرب ج٢ ص٦٥؛ عنان: دولة الإسلام في الأندلس ج١ ص٢٣٠.

(٣) الحكم بن هشام (١٥٤ـ٢٠٦هـ): ثالث أمراء بني أمية بالأندلس حكم ما بين ١٨٠ـ٢٠٦هـ كان طاغياً مسرفاً في الدماء (أبي عبدالله محمد بن أبي نصر الحميدي: جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس ج١ تحقيق إبراهيم الإبياري، الطبعة الثانية ١٩٨٣، دار الكتاب اللبناني بيروت ص٣٩؛ المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج١، تحقيق يوسف البقاعي، الطبعة الأولى ١٩٨٦ دار الفكر للطباعة والنشر بيروت ص٣٢٤ـ٣٢٩).

(٤) لقد ثار العلماء على الحكم بسبب انهماكه في اللذات ومجاهرته بالمعاصي فكانت ثورة «الربض» سنة ٢٠٢هـ التي قمعها الحكم بقسوة متناهية فقتل عدداً من العلماء المشهورين مثل الفقيه أبي زكريا يحيى بن مضر القيسي، الذي كان قدوة في الدين والورع وهو ممن أخذ عن سفيان الثوري ومالك بن أنس (المقري: نفح الطيب ج١ ص٣٢٩).

الحكم بن هشام في سياسته العنيفة تجاه العلماء لم يكن يمثل الاتجاه العام الذي سلكه أفراد البيت الأموي تجاه العلماء، بل كانت سياستهم في معظمها قائمة على توقير العلماء وإعلاء شأنهم لإضفاء الشرعية على حكمهم[1].

ولم يكن العلماء في معظمهم مفتقرين إلى دعم الأمراء ومساندتهم من أجل علو شأنهم وترسخ نفوذهم. بل إن الكثير من العلماء أقاموا شهرتهم ووطدوا مكانتهم عن طريق نشر العلم والعمل به منقطعين إلى ذلك.

إن سيرة العلماء الأندلسيين في الفترة السابقة لقيام دولة المرابطين تظهرهم لنا وقد سلكوا مسلكين مختلفين في موقفهم من السياسة وأهلها: ففي حين داخل بعض العلماء الأمراء واشتركوا في السياسة بكل ما تؤدي إليه أو تستوجبه من مهادنة في بعض الأحيان، اختار آخرون طريق العلم والتعليم بوصفه المهمة الرئيسية التي يجب أن يهتموا بها. وسنعرض لبعض نماذج من الطائفتين.

### ١ ـ شيوخ البلاط:

إنهم طائفة من العلماء رأت في التقرب إلى السلطان وخوض لجج السياسة بما تحمله من مخاطر، أنها يمكن أن تؤثر على الأحداث وتكون من بطانة الخير التي تعين على الحق وتهدي إلى سبله، أو على الأقل التخفيف من سيطرة الأهواء والانحراف.

ومن أشهر علماء هذه الطائفة منذر بن سعيد البلوطي[2] الذي كان له دور عظيم في الحد من طغيان الأمراء[3]، فكان يذكرهم بأيام الله ويخوفهم عاقبة الإسراف والركون إلى الدنيا[4]، وكانت دعوته صمام أمان حتى لا

---

(١) حسين مؤنس: شيوخ العصر ص٢٦.

(٢) منذر بن سعيد البلوطي (٢٦٥ـ٣٥٥هـ) عالم وخطيب تولى قضاء الجماعة بقرطبة في عهد الخليفة الأموي الناصر وابنه الحكم (الفتح بن خاقان: مطمح الأنفس ص٢٣٨).

(٣) المقري: أزهار الرياض ج٢ ص٢٧٩.

(٤) أبو الحسن النباهي: تاريخ قضاة الأندلس ص٧٢.

يجرف تيار الهوى الأمة رؤساء ومرؤوسين.

ورغم مخالطة هؤلاء العلماء للسلطان ووصفهم بأنه «شيوخ البلاط»[1] فإن هؤلاء الشيوخ كانوا يرعون حق العلم ولا يقبلون تدنيسه، فهذا الفقيه أبو إبراهيم[2] وهو أحد الفقهاء المشاورين[3]، في عهد عبدالرحمن الناصر[4]، يتخلف عن شهود حفل كبير أقامه الناصر بمناسبة إعذار[5] أولاد ابنه عبيدالله، ودعي له وجهاء مملكته، وغضب الناصر لهذا التغيب وكتب لأبي إبراهيم يسأله عن سبب تخلفه ويلومه على ذلك. فأجابه الفقيه أبو إبراهيم بهذه الجملة: « . . .إنهم (أي سلف الناصر) كانوا يستبقون من هذه الطبقة (أي طبقة العلماء) بقية، لا يمتهنونها بما يشينها ولا بما يغض منها. . . فلهذا تخلفت»[6].

وكان من الطبيعي أن تولد مداخلة العلماء للسلطان وأهله رغبة لدى بعض العلماء في أن يشاركوا مشاركة أكبر في أمر الحل والعقد والأمر والنهي. وكانت تحدو البعض منهم النية الحسنة في إصلاح الأمور. في حين كان البعض الآخر طلاب دنيا وسعاة إلى المناصب. وكما اختلفت مقاصدهم، اختلفت حظوظهم في التوفيق بين محقق لآماله وبين متورط نادم حين لات مندم.

ولعل أبرز نماذج العلماء السياسيين الطامحين إلى المناصب الكبرى بعد سقوط دولة الخلافة الأموية في أوائل القرن الخامس الهجري

---

(١) د. حسين مؤنس: شيوخ العصر ص٧٠.

(٢) أبو إبراهيم: إسحاق. أحد كبار فقهاء المالكية في عصر عبدالرحمن الناصر لدين الله (المقري: نفح الطيب ج١ ص٣٥٩).

(٣) الفقهاء المشاورون: جماعة من كبار العلماء يختارهم الأمير لاستشارتهم في ما يعرض عليه من المشاكل.

(٤) عبدالرحمن الناصر (٢٧٧هـ ـ ٣٥٠): خليفة أموي أندلسي، أول من تسمى بأمير المؤمنين من بني أمية في الأندلس دامت خلافته ٥٠ سنة (٣٠٠ـ٣٥٠هـ) (الحميدي: جذوة المقتبس ص٤١).

(٥) الإعذار: الختان.

(٦) المقري: نفح الطيب ج١ ص٣٦٠.

(٤٢٢هـ)[1]، شخصيات من أمثال القاضي أبي القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد[2] الذي استبد بأشبيلية منذ سنة ٤١٤هـ وكون فيها دولة من دول الطوائف[3] ورثها بنوه عند وفاته سنة ٤٣٣هـ.

ولم يكن إنشاء هذه الدولة بالأمر السهل في عصر اتسم بالفوضى، بل كان نتيجة عشرين سنة من الحروب والمكائد وتصفية الحسابات.

ولئن كانت الأقدار واتت ابن عباد فاستطاع تكوين دولة قاعدتها أشبيلية فلقد كان ذلك على حساب عالم آخر طامح إلى النفوذ هو محمد بن محمد الزبيدي، وهو أحد ثلاثة أسندت إليهم رئاسة أشبيلية أوان الفتنة وهم: محمد بن إسماعيل بن عباد ومحمد بن مريم ومحمد بن محمد الزبيدي هذا[4]، إلا أن فترة الحكم الجماعي هذه لم تدم طويلاً، إذ سعى محمد بن عباد إلى التفرد بالحكم إلى أن تمكن من ذلك[5]، إلا أن مكانة محمد الزبيدي ظلت مرموقة في أشبيلية إلى أن وصل إلى الحكم في أشبيلية المعتضد بن محمد بن عباد[6] فافتتح عهده باضطهاد القاضي محمد الزبيدي

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب ج٣ ص١٣٦؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام تحقيق ليفي بروفنسال، ط٢، ١٩٥٦، دار المكشوف بيروت ص١٣٨.

(٢) محمد بن إسماعيل بن عباد (ت٤٣٣هـ): قاضي أشبيلية بعد والده القاضي إسماعيل بن عباد، ثم تغلب على أشبيلية أيام الفتن، وكان من أهل العلم والأدب (الحميدي: جذوة المقتبس ج١ ص١٣٤).

(٣) دول الطوائف: لقد نتج عن سقوط الدولة الأموية، أن انقسمت الأندلس إلى دويلات صغيرة متنازعة واستقل كل أمير بناحيته وأعلن نفسه ملكاً عليها فسميت تلك الدويلات بدول الطوائف (ابن عذارى: البيان المغرب ج١ ص١٥٢؛ محمد عنان: دولة الإسلام بالأندلس ج٣).

(٤) الحميدي: جذوة المقتبس ج١ ص٥٤؛ البيان المغرب: لابن عذارى ج٣ ص٣١٤.

(٥) ابن الأبار: الحلة السيراء ج٢ ص٣٧؛ ابن عذارى: البيان المغرب ج٣ ص١٩٦.

(٦) المعتضد: عباد بن محمد بن عباد (ت٤٦١هـ) ثاني أمراء دولة بني عباد في أشبيلية حكمها بين (٤٣٣-٤٦١هـ) ابن عذارى: البيان المغرب ج٣ ص٢٠٤؛ الحميدي: جذوة المقتبس ج٢ ص٤٦٨.

ثم أخرجه من أشبيلية[١]، ولم يكن الزبيدي العالم الوحيد الموتور في هذه الدولة الأشبيلية التي قامت على أكتاف العلماء، بل إن عالماً جليلاً ممن شارك في قيام دولة بني عباد سيكون أحد ضحاياها، هو عمر بن الحسن الهوزني[٢]، الذي كان أحد أعيان أشبيلية المرموقين لذا ضاق به المعتضد ذرعاً وأوجس منه ذعراً، خصوصاً بعد أن ألح الهوزني على المعتضد داعياً إياه إلى الجهاد في الوقت الذي كان فيه هذا الأخير منشغلاً بالحرب مع جيرانه المسلمين[٣]. فما كان من المعتضد إلا أن قتله شر قتلة متولياً ذلك بنفسه سنة ٤٦٠هـ[٤]. وقد حذا حذو محمد بن عباد في النزوع إلى التآمر والتفرد بالأمر والنهي، الفقيه أبو بكر يعيش بن محمد بن يعيش الأسدي[٥] الذي آلت إليه وإلى صاحبه أبي عمر أحمد بن سعيد بن كوثر[٦] رئاسة بلدهما طليطلة في أيام الفتنة[٧].

ثم تفرد ابن يعيش برئاسة البلد وحسنت سياسته ونفع الله به أهل بلده[٨] وظل مع ذلك مقتصراً على اسم الفقيه، لا يفارق زي العلماء[٩].

---

(١) الحميدي: جذوة المقتبس ج١ ص٧٤.

(٢) عمر بن الحسن الهوزني، أبو حفص (ت٤٦٠هـ): فقيه وشاعر أشبيلي (أبو القاسم خلف بن عبدالملك المعروف بابن بشكوال: الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم، ج١، تحقيق السيد عزت العطار الحسيني، الطبعة الثانية ١٩٩٤، مكتبة الخانجي القاهرة ص٣٨١).

(٣) ابن بسام الشنتريسي: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الثاني، المجلد الأول، تحقيق د.إحسان عباس، الطبعة الأولى ١٩٧٩، دار الثقافة، بيروت، ص٨٣؛ المقري: نفح الطيب ج٢ ص٩٣.

(٤) ابن بشكوال: الصلة ج١ ص٣٨١.

(٥) يعيش بن محمد بن يعيش (ت٤١٨هـ): فقيه طليطلي، كان حافظاً للفقه ذاكراً للمسائل (ابن بشكوال: الصلة، ج٢ ص٦٥٠).

(٦) أحمد بن سعيد بن كوثر: أحد أعيان طليطلة، نكب في صراعه على الحكم مع يعيش فنفي إلى شنترين حيث قتل (القاضي عياض: ترتيب المدارك ج٨ ص٤١).

(٧) ابن بشكوال: الصلة ج٢ ص٦٥٠.

(٨) عياض: ترتيب المدارك ج٨ ص٤٢.

(٩) عياض: ترتيب المدارك ج٨ ص٤٢.

ورغم ما عرف به يعيش من حسن تدبير فقد خلعه أهل طليطلة، فخرج إلى قلعة أيوب، وتوفي بها سنة ٤١٨هـ.

وقد لعب عالم آخر دوراً كبيراً في تاريخ طليطلة زمن الطوائف هو أبو بكر بن الحديدي[١]، الذي كان كبير الجماعة بطليطلة عندما تولاها بنو ذي النون. وقد اعتمد عليه إسماعيل بن ذي النون[٢] في تدبير شؤون الدولة وكذلك فعل خلفه المأمون بن ذي النون[٣]. ولكن مكائد السياسة كانت له بالمرصاد فقد قتله حفيد المأمون بن ذي النون سنة ٤٦٨هـ بعد أكثر من أربعين سنة في خدمة دولتهم.

وفي نفس الفترة التي ظهر فيها القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد ويعيش بن محمد ظهرت في قرطبة عاصمة الخلافة الأموية شخصية علمية لعبت دوراً بارزاً ومتميزاً في قرطبة بعد سقوط الخلافة، تلك الشخصية هي أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور[٤]، فلقد أسند إليه أهل قرطبة زمام أمورهم بعد سقوط الخلافة وما أعقبها من فوضى ودمار وذلك سنة ٤٢٢هـ بيد أن جهور سلك في الحكم مسلكاً تفرد به بين زعماء الطوائف الذين أعقبوا سقوط الخلافة الأموية. فقد انتهج أبو الحزم جهور منهج الشورى الإسلامي، فلم ينفرد بالحكم ولم يستأثر بتدبير الأمور والبت فيها. ولكنه جمع حوله صفوة الزعماء والقادة يتحدث باسمهم[٥]، أو باسم «الجماعة»

---

(١) أبو بكر بن الحديدي (ت٤٦٨هـ): فقيه، مقدم في الشورى، متفنن في العلوم (ابن بسام: الذخيرة ج٧ ص١٥٠).

(٢) إسماعيل بن ذي النون (ت٤٣٥هـ): أول من حكم طليطلة من بني ذي النون ودام حكمه سبع سنوات (٤٢٨هـ ـ ٤٣٥هـ). (ابن عذارى: البيان المغرب ج٣ ص٢٧٧).

(٣) المأمون بن ذي النون (ت٤٦٧هـ): أعظم أمراء الدولة بني ذي النون في طليطلة طالت فترة حكمه لمدة ثلاث وثلاثين سنة من سنة ٤٣٥ـ٤٦٧هـ (ابن بسام: الذخيرة ج١ ص٩٩؛ المقري: نفح الطيب ج٢ ص٥٢٣.

(٤) جهور بن محمد بن جهور (ت٤٣٥هـ): أحد علماء قرطبة وأعيانها تولى حكمها بعد سقوط الخلافة سنة ٤٢٢هـ. (ابن بشكوال: الصلة ج١ ص١٣٠).

(٥) عبدالواحد المراكشي: المعجب ص٩١؛ ابن عذارى: البيان المغرب ج٣ ص١٨٦.

كما سماهم، يرجع إليهم في كل أمر فإذا طلب منه مال أو إمضاء أمر من الأمور قال: ليس لي من عطاء ولا منع إنما هو «للجماعة» وأنا أمينهم[1].

وهو في هذا لم يحط نفسه بأي مظهر من مظاهر الأبهة والفخامة، بل «لبث على سابق رسمه من الانزواء والتواضع والقناعة وخفض الجناح ومعاملة الجميع بالرفق والحسنى، جارياً على سنن الصالحين» كما يقول الحميدي[2].

وقد آتت هذه السياسة المستمدة من المنهج الشرعي أكلها فقد سادت قرطبة السكينة والأمن والدعة طيلة اثنتي عشرة سنة إلى أن توفي سنة ٤٣٤هـ.

وكانت حكومته بحق نموذجاً بديعاً من حكم الشورى في عصر سادت فيه نزعة الرئاسة الفردية والحكم المطلق[3].

إنه نموذج نيِّر للعالم الحاكم المخلص في أمره ابتغاء مرضاة الله فصلح به حال قرطبة في بحر هائج من الاضطراب والفتن.

وقد أعجب المؤرخون المحدثون[4] بهذه التجربة في الحكم، إلا أن الباحث يرى أنهم في ذكرهم للأسباب التي دفعت أبا الحزم جهور إلى اختيار صيغة الحكم الجماعي، نسوا أو تناسوا السبب الرئيسي وهو: تكوين أبا الحزم الديني، فكونه عالماً هو الذي دفعه إلى اختيار الشورى والعمل بها.

إن هذه الأمثلة التي ذكرنا تمثل فئة من الفقهاء أو اتجاهاً داخل طبقة

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب ج٣ ص١٨٦؛ الفتح بن خاقان: مطمح الأندلس ص١٨٣.

(٢) الحميدي: جذوة المقتبس ج١ ص٦١؛ ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب ج١ ص٥٦.

(٣) محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الثاني ص٢٢.

(٤) من أمثال شيخ مؤرخي الأندلس محمد عبدالله عنان في كتابه دولة الإسلام في الأندلس.

العلماء حاول التأثير في مسار الأمور في الأندلس عن طريق المشاركة السياسية الفعالة. وقد وصل البعض منهم، من خلال تلك المشاركة، إلى إصلاح ما أمكن إصلاحه في حين عجز آخرون لأسباب ذاتية وأخرى موضوعية[١].

## ٢ ـ شيوخ العلم:

إنه الوجه الثاني لفئة العلماء، وقد اتجه هؤلاء إلى العلم وتعليمه كواجب وهدف في هذه الحياة، فجعلوه شغلهم الشاغل، لا يكتفي في تحصيله بالشيخ والشيخين بل قد يتجاوز العدد ألف شيخ، فالفقيه الوليد بن بكر بن مخلد الغمري[٢] لقي في رحلته العلمية نيفاً وألف شيخ ما بين محدث وفقيه[٣].

وقد كان تعلم العلم وأخذه عن الشيوخ طيلة الحياة دأب الكثيرين. فهذا الحسين بن علي الفاسي وصفه الحميدي بأنه من أهل العلم والفضل مع العقيدة الخالصة والنية الجميلة لم يزل يطلب العلم ويختلف إلى العلماء محتسباً إلى أن مات[٤].

---

(١) لعلنا نذكر هنا نموذجين من الأسباب الموضوعية التي حالت دون وصول بعض العلماء إلى الاستقرار في الحكم: المثال الأول هو الفقيه يعيش الذي حكم طليطلة أيام الفتنة فرغم ما عرف عنه من عدل وزهد وحسن تدبير فقد خلعه أهلها ومات سنة ٤١٨هـ منفياً. وأمام استغراب هذا الحادث يكشف لنا ابن عذارى السر وهو: أن أهل طليطلة على قديم الدهر أهل فتن وقيام على الملوك (ابن عذارى: ج٣ ص٢٧٦). أما المثال الثاني فهو للفقيه عيسى بن مزين الذي بايعه أهل شلب سنة ٤٤٠هـ فأقام فيهم العدل وضبط الأمور، غير أن أموره لم تستقر بسبب النزعة التوسعية لجاره المعتضد بن عباد الذي تمكن من خلعه وقتله في آخر سنة ٤٤٥هـ فكانت دولته خمس سنين (ابن عذارى: البيان المغرب ج٣ ص٢٩٦ـ٢٩٧).

(٢) الوليد بن بكر بن مخلد الغمري (ت٣٩٢هـ): فقيه سرقسطي، عالم فاضل (الحميدي: جذوة المقتبس ج٢ ص٥٧٦).

(٣) ابن بشكوال: الصلة ج٢ ص٦٠٧.

(٤) الحميدي: جذوة المقتبس ج١ ص٢٩٩.

لقد كان طلب العلم عندهم مما يحتسب عند الله وتبتغى به الجنة. وقد اشتهر في الأندلس علماء كبار ممن أعطوا العلم حقه فدرسوه بجدّ ودرّسوه. فأخذ العلم عنهم أجيال من الطلبة.

وقد كان الطلبة يرحلون إلى الشيوخ المبرزين في العلم والعمل أيضاً، فقد كان الطلبة حريصين على أن يأخذوا عن من تحلى بصفات العلم وانقطع إليه.

وكانت معاييرهم في ذلك تصل إلى حد الإفراط، وتبين لنا القصة التي رواها ابن بشكوال عن عبدالله بن المفوز[1] تلك الحالة من الإفراط، فقد حكى في ترجمته قال: روى ابن المفوز عن أبي عمر بن عبدالبر[2] كثيراً ثم زهد فيه لصحبته السلطان[3].

فهذا الطالب يزهد في شيخ مثل الحافظ ابن عبدالبر ويترك الأخذ عنه لأنه يدخل على أهل السلطة. وابن عبدالبر هو إمام عصره وأعلم أهل زمانه وواحد دهره[4] ألف كتباً كثيرة نفع الله بها مثل كتاب التمهيد[5] والاستذكار[6]، وقد كان مثال العالم المنقطع إلى العلم حقاً، فكتابه التمهيد

---

(١) عبدالله بن المفوز المعافري (ت٤٧٥هـ): عالم من أهل شاطبة (ابن بشكوال: الصلة ج١ ص٢٧٤).

(٢) ابن عبدالبر: أبو عمر يوسف (ت٤٦٣هـ): الحافظ، شيخ علماء الأندلس وكبير محدثيها في وقته وأحفظ من كان فيها في عصره (عياض: المدارك ج٨ ص١٢٧؛ الحميدي: جذوة المقتبس ج٢ ص٥٨٦).

(٣) ابن بشكوال: الصلة ج١ ص٢٧٤.

(٤) ابن بشكوال: الصلة ج٢ ص٦٤٠؛ عياض: المدارك ج٨ ص١٢٧.

(٥) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد: كتاب في الحديث مرتب على أسماء شيوخ مالك حسب ترتيب حروف المعجم. وقد قامت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية بطبع هذا الكتاب في ٢٤ مجلداً من سنة ١٩٦٧-١٩٩١ بالرباط. بتحقيق مجموعة من الباحثين.

(٦) الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار وعلماء الأقطار فيما تضمنه الموطأ من معاني الرأي والآثار. الطبعة الأولى ١٤١٤هـ، تحقيق د.عبدالمعطي أمين قلعجي، نشر دار قتيبة للطباعة والنشر - بيروت، دار الوعي - حلب - القاهرة. في ٢٧ مجلداً.

أمضى ثلاثين سنة في تأليفه[1].

وقد اضطر ابن عبدالبر إلى الرد عن نفسه بتأليف رسالة في مسألة قبول جوائز السلطان[2].

إن هذا الموقف الذي اتخذه ابن المفوز إنما ينم عن ضن الطلبة بسمعة مشايخهم وحرصهم على أن يكونوا فوق الشُّبه، وأن يظلوا قدوة في أخذ أنفسهم بالعزائم وأن لا يترخصوا فيما يترخص فيه غيرهم.

لا غرو إذاً أن تكثر في تراجم علماء الأندلس أوصاف مثل: كان جميل الطريقة، منقطعاً إلى الخير، متصاوناً، مقبلاً على ما يعينه.

وقد أورثهم هذا الانقطاع إلى العلم والتحلي به تقدير العامة والخاصة والتفاف الطلبة حولهم وتعظيمهم لشأنهم. فنالوا عزاً لا يدانيه عز[3].

ولم يكن العلماء يريدون بذلك العلم دنيا عريضة ولا منصباً ولا رضى الحكام. وتصور لنا رواية العالم تمام بن غالب التياني (ت٤٣٣هـ) مع مجاهد العامري[4]، مدى عزوف العلماء عن ابتذال علمهم من أجل المال والجاه.

فقد ألف تمام بن غالب كتابه في اللغة المسمى «تلقيح العين في اللغة»

---

(١) يقول ابن عبدالبر عن التمهيد: سمير فؤادي مذ ثلاثين حجة: وصاقل ذهني والمفرج عن همي. (عياض: المدارك ج٨ ص١٣٠).

(٢) المقري: نفح الطيب ج٤ ص٢٢٢ـ٢٢٤.

(٣) لقد أورد الحميدي رواية عن أبي مروان الطبني توحي بما كانوا يحسون به من عزة العلم وأهله. فذكر أن الطبني لما رجع إلى قرطبة وأملى اجتمع إليه في مجلس الإملاء خلق كثير فلما رأى كثرتهم قال:

إني إذا احتوشتني ألف محبرة ... يكتبن حدثني طوراً وأخبرني
نادت بعقوتي الأقلام معلنة ... هذي المفاخر لا قعبان من لبن

(الحميدي: جذوة المقتبس ج٢ ص٤٥).

(٤) مجاهد العامري: أبو الجيش (ت٤٣٦هـ) أحد الفتيان العامريين، تغلب أيام الفتنة على دانية والجزر الشرقية وأنشأ فيها دولة ابتداءً من ٤٠٥ـ٤٣٦هـ كان ألمع ملوك الطوائف وقد ازدهر العلم في بلاطه (ابن عذارى: البيان المغرب ج٣ ص١٥٥؛ ابن الأبار: الحلة السيراء ج٢ ص١٢٨).

وأجاد فيه كل الإجادة، وسمع مجاهد العامري بالكتاب، فأرسل إلى تمام ألف دينار وكسوة على أن يضيف إلى ترجمة الكتاب جملة واحدة هي «هذا مما ألّفه تمام بن غالب لأبي الجيش مجاهد» فرد تمام الدنانير والكسوة وأبى ذلك وقال: «كتاب ألّفته لله وللعلم أصرفه إلى اسم ملك لا يكون هذا أبداً»[1].

والأندلسيون الذين قامت شهرتهم على العلم تدريساً وتأليفاً ومنهجاً سلوكياً لا يحصون كثرة فنكتفي بذكر بعض الأسماء التي أطبق ذكرها البلاد.

فمن هؤلاء بقي بن مخلد[2] (ت٢٧٦هـ) وهو أحد حفاظ الحديث المشهورين وأئمة الدين، رحل إلى المشرق فروى عن أعلام يزيدون على المائتين وكتب المصنفات الكبار ورجع إلى الأندلس فملأها علماً وألف كتباً حساناً.

ومنهم أبو عمر عثمان بن سعيد الداني (ت٤٤٤هـ)[3] الذي يعتبر أحد مفاخر الأندلس في القراءات، اكتسب منزلة سامية بين علماء عصره ومن أتى من بعدهم ونال من الثناء ما هو جدير به، فكان العلماء من بعده عالة على كتبه ومصنفاته[4].

ومن أمثال يونس بن مغيث[5] وأبي عمر الطلمنكي[6] ومكي بن أبي طالب[7] ومحمد بن الحذاء[8] ..................................

---

(١) الحميدي: جذوة المقتبس ج١ ص٢٨٣؛ ابن سعيد: المغرب ج١ ص١٦٦، واللفظ للأخير.

(٢) الحميدي: جذوة المقتبس ج١ ص٢٧٤.

(٣) الحميدي: جذوة المقتبس ج٢ ص٤٨٣.

(٤) ابن خلدون: المقدمة (ص٤٣٧).

(٥) يونس بن عبدالله بن مغيث (ت٤٢٩هـ): قاضي الجماعة بقرطبة وصاحب الصلاة بجامعها (ابن بشكوال ج٢ ص٦٤٦).

(٦) أبو عمر أحمد بن عبدالله الطلمنكي المقرىء (ت٤٢٩هـ): عالم متفنن غلب عليه القرآن والحديث (عياض: المدارك ج٨ ص٣٢).

(٧) مكي بن أبي طالب المقرىء (ت٤٣٧هـ): كان من أهل التبحر في علوم القرآن والعربية (ابن بشكوال: الصلة ج٢ ص٥٩٧).

(٨) محمد بن الحذاء (ت٤١٦هـ): أحد رجال الأندلس فقهاً وعلماً (ابن بشكوال: الصلة ج٢ ص٤٧٨).

ومحمد بن عتاب[1]، والقاضي أبي الوليد سليمان الباجي[2]، وغيرهم كثير.

إن هؤلاء العلماء الأجلاء، الذين ذكرنا في هذه المقدمة الدور الذي كانوا يضطلعون به في منطقة المغرب الإسلامي، ذكراً موجزاً، في الفترة السابقة لقيام دولة المرابطين في القرن الخامس الهجري، شكلوا منهجاً سلوكياً لطبقة العلماء تميز بالإخلاص لله والنصح للأمة سواءً عن طريق المشاركة الفعالة في الأحداث أو عن طريق تنشئة الأجيال على المبادىء القويمة وبث الخير والعمل به وإعطاء القدوة الحسنة.

على أن بلاد المغرب لم تكن كلها على هدى وصراط مستقيم بل كانت هناك بعض المناطق قد انتشر فيها الانحراف، وكثرت فيها البدع وظهر فيها الدجالون. وكانت منطقة المغرب الأقصى أكثر بلاد المغرب تأثراً بهؤلاء المتنبئين وبدعهم.

لذلك سنعرض للأوضاع الدينية التي كانت سائدة في المغرب الأقصى قبيل قيام دولة المرابطين.

## ٣ ـ الأوضاع التي كانت سائدة في المغرب الأقصى:

لقد انتشرت المذاهب الضالة في المغرب الأقصى في وقت مبكر من تاريخه الإسلامي، ففي القرن الثاني الهجري ظهر في قبيلة برغواطة رجل يدعى صالح بن طريف ادّعى النبوة، وشرّع لهم ديانة جديدة.

ويذكر ابن خلدون أن صالح هذا كان من أهل العلم والخير في قومه ثم انسلخ من آيات الله وانتحل دعوى النبوة[3].

---

(١) محمد بن عتاب (ت٤٦٢هـ): كان إماماً جليلاً، شيخ المفتين بقرطبة، (عياض: ترتيب المدارك ج٨ ص١٣١).

(٢) أبو الوليد سليمان بن خلف (ت٤٧٤هـ): أحد أعلام الأندلس المشهورين (ابن بشكوال: الصلة ج١ ص١٩٧).

(٣) ابن خلدون: العبر ج٦ ص٤٢٨هـ؛ البكري: المسالك والممالك ص٨١٩، سورة التحريم الآية ٤.

ادَّعى صالح النبوة، وادَّعى لذلك أنه تلقى من الله قرآناً باللغة البربرية، وكان يحتج بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾، وكان يذكر أن محمداً رسول الله ﷺ نبي حق، عربي اللسان مبعوث إلى قومه وإلى العرب خاصة، وأنه صادق فيما أتى به من القرآن والأحكام، وإياه أراد الله عز وجل بقوله: ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ فإنه هو صالح المؤمنين(١).

وقد شرَّع لهم صالح أحكاماً منها: صوم رجب بدل رمضان، وفرض عليهم عشر صلوات خمس في النهار، وخمس في الليل، والتضحية في اليوم الحادي عشر من المحرم.

وألغى الأذان والإقامة، وأن يجمعوا يوم الخميس ضحى بدل الجمعة. وأن يقتل السارق، ويرجم الزاني، وينفى الكاذب، ورأس كل حيوان عليهم حرام، والحوت لا يؤكل إلا أن يذكى والبيض عندهم حرام(٢).

هذا بعض من الشرائع التي سنّ صالح بن طريف لقومه برغواطة، وقد حاول الأدارسة(٣) لأول قيام دولتهم القضاء على برغواطة فاكتسحوا أراضي هذه القبيلة وهي بلاد تامسنا(٤). ورغم الجهد المتواصل الذي بذله الأدارسة للقضاء على البرغواطيين فإن نحلتهم بقيت.

وقد جرت محاولات عدة بعد ذلك للقضاء على برغواطة وعلى دينهم الفاسد، فيحدثنا ابن حوقل أنه في سنة أربعين وثلاثمائة كان محمد بن الفتح المعروف بالشاكر لله(٥) بسجلماسة يدعو إلى ........................

---

(١) ابن حوقل: صورة الأرض ص٨٠، البكري: المسالك والممالك ص٨٢٠.

(٢) البكري: المسالك والممالك ص٨٢٤.

(٣) الأدارسة: دولة أقامها إدريس بن عبدالله الحسني (ت١٧٧) في المغرب الأقصى عاشت هذه الدولة من سنة ١٧٢ـ٣٧٥هـ (السلاوي: الاستقصا ج١ ص١٥٥).

(٤) السلاوي: الاستقصا ج١ ص١٥٦.

(٥) محمد بن الفتح (ت٣٥٤هـ): أحد حكام الدولة المدرارية بسجلماسة بعد خضوعها للفاطميين، تولى الحكم من ٣٢١ـ٣٤٧هـ قطع الدعوة عن خلفاء الفاطميين ورفض =

غزوهم[1]. غير أن هذه المحاولة لم تكن أكثر نجاحاً مما قام به الأدارسة.

وفي بداية القرن الخامس الهجري نجد الأمير تميم اليفرني[2] يخوض جهاداً مريراً ضد برغواطة لردهم عن ضلالتهم[3].

وكما ظهر في برغواطة متنبىء ابتدع لهم، وانتحل، فقد ظهر في قبيلة غمارة متنبىء يدعى حاميم بن من الله[4]. وذلك في بداية القرن الرابع الهجري. وقد جعل حاميم لقومه الصلاة صلاتين: واحدة عند طلوع الشمس وأخرى عند غروبها[5]. وكما فعل قبله صالح بن طريف فقد وضع لقومه قرآناً بلسانهم. على أن حاميم هذا كان أقل حظاً من صالح فقد قتل هذا المتنبىء سنة ٣١٥هـ في أحواز طنجة[6].

غير أن نحلة هذا المفتري وإن لم تنتشر انتشار فريات صالح البرغواطي فإنها ظلت موجودة في قومه[7].

ولم تكن النهاية الدامية لحاميم بالتي تردع الأفاكين، فقد ادعى النبوة بعده آخرون. يذكر ابن خلدون منهم رجلاً يدعى عاصم بن جميل

---

= الخارجية وأخذ بمذهب أهل السنة فزحف إليه جوهر الصقلي قائد المعز لدين الله الفاطمي سنة ٣٤٧هـ وتمكن من القبض عليه وسجنه. وبوفاته انقرضت دولة آل مدراد. (السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المغرب الكبير ج٢ ص٥٩٨).

(١) ابن حوقل: صورة الأرض ص٧٣.

(٢) تميم بن زيري اليفرني الزناتي (ت٤٤٨هـ): أمير بني يفرن استولى على مدينة فاس سنة ٤٢٤هـ التي كان يحكمها حمامة بن المعز بن عطية المغراوي. واستمر حكمه لها سبع سنوات ثم استعادها منه حاكمها السابق. وكان تميم هذا مولعاً بجهاد برغواطة فكان يغزوهم في السنة مرتين فيقتل منهم ويسبي (ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص١٠٩؛ ابن القاضي: جذوة المقتبس ج١ ص١٧٢-١٧٣).

(٣) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص١١٠.

(٤) البكري: المسالك والممالك ص٧٣٦.

(٥) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص٩٩؛ البكري: المسالك والممالك ص٧٧٦.

(٦) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص٩٩.

(٧) البكري: المسالك والممالك ص٧٧٧.

اليزدجومي ويقول أن له أخباراً مأثورة[1].

وإلى جانب بدع المتنبئين ونحلهم التي انتشرت بين قومهم، نجد في المغرب الأقصى نحل أهل الشيعة الروافض وكانوا يقيمون في جنوب المغرب الأقصى ببلاد السوس[2].

إن هذا الوضع الديني المنحرف المليء بالمتنبئين والروافض والجهل العام بالدين القويم، كان يحتم أن تظهر جماعة مصلحة تصلح الأوضاع وتبين الهدى وتقضي على الشر.

وأحق من سيقوم بهذا الدور الإصلاحي الرائد هم العلماء المالكيون الذين صقلتهم تجارب الصراع بين الحق والباطل على مدى قرون.

إن علماء المالكية في المغرب الإسلامي، مع منتصف القرن الخامس الهجري، سيحاولون أن يطبقوا مبادىء الإصلاح ونشر الحق عن طريق إنشاء دولة هي الدولة المرابطية.

وسنتحدث في الفصول التالية عن هذه الدولة وعن دور العلماء في تكوينها وازدهارها.

---

(١) ابن خلدون: العبر ج٦ ص٤٢٩.

(٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص١٢٩.

# الباب الأول
# العلماء والدولة المرابطية

الفصل الأول: العلماء وتأسيس الدولة.

الفصل الثاني: أثر العلماء في الاتجاه الفكري للدولة.

الفصل الثالث: العلماء وسياسة الدولة الوحدوية.



# الفصل الأول

## العلماء وتأسيس الدولة

عاش المغرب الأقصى في العقد الثالث من القرن الخامس الهجري بداية تحول تاريخي عظيم سيؤدي إلى تغيير في وجه التاريخ في منطقة المغرب الأقصى وموريتانيا وأفريقيا الغربية والأندلس. هذا التحول التاريخي ستقوم به قبائل من صنهاجة اللثام بإنشائهم دولة المرابطين.

### التعريف بصنهاجة اللثام:

صنهاجة اللثام أو الملثمون هم فرع من قبيلة صنهاجة البربرية، وقد تميز الملثمون عن باقي صنهاجة باتخاذ اللثام شعاراً لهم[1].

والملثمون مجموعة قبائل من أهمها جدالة ولمتونة ومسوفة وجزولة ولمطة[2].

ومضارب الملثمين تمتد من الشمال إلى الجنوب شاملة وادي السوس

---

(١) البكري المغرب في وصف أفريقية والمغرب ج٢ ص٨٥٧؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٧ ص١٢٨؛ ابن خلدون: العبر ج٦ ص١٨٩؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس ص١١٩.

(٢) مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ص١٧؛ ابن خلدون، العبر ج٦ ص١٨١.

H.TERASSE: Histoire du Maroc P.213.

ووادي درعة[1] وموريتانيا الحالية إلى شاطىء نهر السنغال[2].

وكانت هذه القبائل في معظمها تعيش حياة بدوية وإن كان لبعضها مدن مثل مدينة أزوكي[3] ومدينة أوليل[4]. إلا أن هذه المدن كانت في الأساس مراكز تجارية ومحطات ربط بين المغرب وبلاد السودان.

عرف الملثمون الإسلام منذ القرن الأول الهجري، إذ تذهب بعض الروايات إلى أن عقبة بن نافع قد وصل إلى مدينة نول[5]في المغرب الأقصى[6]. وبذلك يكون عقبة قد توغل في ديار الملثمين وهناك ابتنى مسجداً في مدينة ماسة[7]. وقد ترك بين هذه القبائل بعض أصحابه يعلمونهم شرائع الإسلام[8].

واستمرت جهود الولاة العرب في نشر الإسلام فأرسل عبيدالله بن الحبحاب، حبيباً ابن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري[9] غازياً إلى بلاد السوس الأقصى سنة ١١٧هـ فوصل إلى المناطق الجنوبية للصحراء حيث بلاد مسوفة ولمتونة وأخضع القبائل الموجودة في تلك الأقاليم فعاد بعدد

---

(١) وادي السوس: بلاد تقع بين الأطلس الكبير والأطلس الصغير، الحميري: (الروض المعطار ص٣٢٩)؛ وادي درعة: واد بجنوب المغرب تقع به مدينة درعة التي تبعد ثلاث مراحل من سجلماسة (الحميري: الروض المعطار ص٢٣٦).

(٢) الحلل الموشية: ص١٧؛ ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص١٢٠.

(٣) أزوكي: قرية توجد على بعد (١٥) كيلومتر شمال مدينة أطار بموريتانيا.

(٤) أوليل: جزيرة على الساحل الموريتاني بها ملاحة مشهورة (الإدريسي ص٦٢).

(٥) نول: مدينة من مدن الملثمين تنسب إلى قبيلة لمطة تقع على نهر يحمل نفس الاسم خلفتها اليوم مدينة تندوف (الإدريسي: ص٧٥؛ محمد شعيرة: المرابطون تاريخهم السياسي ص١٦).

(٦) المالكي: رياض النفوس ص٢٨؛ د.حسن محمود قيام دولة المرابطين ص٦١.

(٧) ماسة: مدينة في السوس الأقصى جنوب أغادير الحالية (الحميري: الروض المعطار ص٥٢٢).

(٨) ابن عذارى: البيان المغرب ج١ ص٤٢.

(٩) حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع: قائد من قواد بني أمية كان له ولأبيه وجده دور كبير في فتح بلاد المغرب.

وفير من السبي وأحمال عظيمة من التبر[١].

وعندما قامت دولة الأدارسة وأنشأت مدينة فاس ازداد إسلام الملثمين وانضووا تحت لواء الأدارسة، وأصبحوا جزءاً من أملاكهم يولون عليهم الولاة ويخضعونهم للحكومة المركزية في فاس[٢]. فما كاد القرن الثالث يطلع حتى كان الإسلام قد عم الملثمين وانتشر بينهم[٣].

وكان لإسلام الملثمين أثر بالغ في تاريخ المغرب والسودان، فقد نتج عن ذلك قيام تحالف قوي بين بعض قبائل الملثمين (لمتونة، مسوفة وجدالة). وكان هذا الحلف بزعامة لمتونة. أما الهدف الأساسي منه فهو مجاهدة جيرانهم من السودان[٤].

ويرجع الفضل في هذا الحلف إلى تيولوتان اللمتوني[٥] الذي نشر الإسلام في السودان الغربي[٦] فملك الصحراء بأسرها ودان له بها أزيد من عشرين ملكاً من ملوك السودان كلهم يؤدون له الجزية[٧].

وقد اتخذ من مدينة أودغشت[٨] عاصمة له بعد أن استخلصها من يد

---

(١) ابن عذارى: ج١ ص٥١؛ ابن خلدون ج٤ ص٤٠٤.

(٢) د.حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين ص٧٠؛ محمد عبدالهادي شعيرة: المرابطون ص٢٦.

(٣) ابن خلدون: العبر ج٦ ص١٨٢.

(٤) البكري: المسالك ج٢ ص٨٥٧.
Terrasse: Histoire du Maroc P.213.

(٥) تيولوتان اللمتوني: تيولوتان بن تيكلان (ت٢٢٢هـ) من أعظم ملوك الملثمين قبل قيام دولة المرابطين وصف البكري اتساع رقعة ملكه بأنها مسيرة شهرين في مثلها وأنه كان يعتد في مائة ألف نجيب (البكري: المسالك ج٢ ص٨٦٢؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص١٢١).

(٦) السودان الغربي: يطلقها المؤرخون المسلمون على الممالك الزنجية التي تقع جنوب المغرب الأقصى.

(٧) ابن حوقل: صفة الأرض ص١٠٠؛ ابن خلدون: العبر ج٦ ص٣٧١.

(٨) أودغشت: مدينة من مدن الملثمين كانت الباب الجنوبي الذي تقف عنده القوافل في طريقها إلى السودان (الإدريسي: صفة المغرب وأرض السودان ص٣٢).

ملك غانة[1] وَقد خَلَفَ تيولوتان على زعامة الحلف عند موته سنة ٢٢٢هـ حفيده: الأثير (ت٢٨٦هـ)[2] ثم ابنه تميم (ت٣٠٦هـ).

إلا أن هذا الحلف تشتت بمقتل تميم ولم يلتئم لمدة مائة وعشرين سنة[3]. ثم تكون الحلف الصنهاجي الثاني من نفس القبائل السابقة بزعامة الأمير أبي عبدالله بن تيفاوت المعروف بتارستا اللمتوني فاجتمعوا إليه وقدموه على أنفسهم سنة ٤٢٦هـ[4].

وكان أبو عبدالله بن تيفاوت من أهل الدين والفضل والصلاح والحج والجهاد وقد دامت رياسته ثلاث سنوات انتهت باستشهاده مجاهداً لقبائل من السودان الغربي الذين كانوا على دين اليهودية[5].

وبعد استشهاد الأمير أبي عبدالله تارستا آلت زعامة الحلف إلى يحيى بن إبراهيم الجدالي صهر أبي عبدالله.

ومع وصول يحيى بن إبراهيم الجدالي إلى زعامة الملثمين ستشهد منطقة الصحراء الكبرى ـ موريتانيا الحالية ـ والمغرب الأقصى بداية تحول عميق في تاريخها.

## ظهور المرابطين:

عندما تولى يحيى بن إبراهيم الجدالي زعامة الملثمين تاقت نفسه إلى الحج كما فعل أسلافه فخرج إلى الحج سنة ٤٢٩هـ مع طائفة من زعماء قومه[6]

---

(١) مملكة غانة: أقدم مملكة بأفريقيا السوداء الغربي (من القرن ٣ ميلادي ـ ١٣ ميلادي) عاصمتها كومبي صالح بموريتانيا الحالية (د. إبراهيم طرخان: إمبراطورية غانة الإسلامية ص٢١).

(٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص١٢٠.

(٣) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص١٢١؛ (الناصري السلاوي: الاستقصا ج٢ ص٥).

(٤) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص١٢١؛ البكري: المسالك والممالك ج٢ ص٨٥٨.

(٥) البكري: المسالك ج٢ ص٨٥٨؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص١٢١.

(٦) مجهول: الحلل الموشية ص١٩؛ ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص٧.

وأناب عنه في رئاسة صنهاجة اللثام ابنه إبراهيم[1].

ولا تذكر المصادر من محطات حج يحيى إلا محطة القيروان في رجوعه من الحج فقد قصد الأمير يحيى بن إبراهيم وصحبه أبا عمران الفاسي وكان هدفهم أن يجروا على العادة في جعل الحج مقروناً بطلب العلم. وأن يستفتوا فقيه القيروان وشيخ المالكية، فيما يحتاجون إليه من الفتاوى[2].

وكان مما طلبه أمير الملثمين من أبي عمران الفاسي أن يزودهم بفقيه يعلمهم أمر دينهم ويرجعون إليه في نوازلهم[3]. وشكا إليه حال قومه وكونهم منقطعين لا يصل إليهم إلا بعض الجهال حرفتهم التجارة، وأن قومه حريصون على تعلم القرآن وطلب العلم لو وجدوا من يعلمهم ذلك[4]. وتقول الروايات أن أبا عمران الفاسي لم يجد بين تلاميذه من يقبل هذه المهمة بل استوعروها جميعهم. وعندئذ كتب أبو عمران الفاسي إلى أحد طلبته بالسوس الأقصى وهو الفقيه اللمطي وجاج بن زولو[5].

على أن الرواية التي يذكرها صاحب كتاب «بيوتات فاس الكبرى» تعطي اللقاء بين يحيى بن إبراهيم الجدالي وأبي عمران الفاسي بعداً وأهمية جديران بمكانة هذين الزعيمين.

فهذه الرواية تذكر أن أبا عمران الفاسي لما اجتمع مع يحيى بن إبراهيم ندبه إلى قتال برغواطة ببلاد السوس وزناته على ما صدر منهم من الظلم واستنزال رؤسائهم من الولاية، فوعده الأمير يحيى بالنهوض

---

(١) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص١٢٢.

(٢) مجهول: الحلل الموشية: ص١٩؛ د. محمد عبدالهادي شعيرة: المرابطون تاريخهم السياسي ص٣٣.

(٣) ابن أبي زرع: المصدر السابق ص١٢٣؛ البكري: المسالك ج٢ ص٨٥٨.

(٤) ابن خلدون: العبر ج٦ ص٣٧٤.

(٥) البكري: المسالك ج٢ ص٨٥٩؛ ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص٨؛ بيوتات فاس الكبرى: ص٢٨؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص١٢٣.

إلى ذلك[١].

فهذا النص يشير بصراحة إلى أن الرجلين فكرا في الأوضاع القائمة في المغرب الأقصى والصحراء جنوبه، ووصلا إلى نتيجة مفادها ضرورة تغيير الأوضاع القائمة.

وإذا رجعنا إلى تاريخ الفقيه أبي عمران الفاسي نجد أنه رجل إصلاح وسياسة وتدبير[٢] إلى جانب كونه رجل علم. ثم أنه ثار على الأوضاع السيئة السائدة في فاس وطنه الأصلي، وبسبب أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر أخرجه عامل مغراوة[٣] على فاس[٤] فاستقر بالقيروان إلى أن توفي سنة ٤٣٠هـ.

وفي القيروان كان للفقيه أبي عمران دور كبير في التصدي للمذهب الشيعي. وقد أدت جهوده وجهود العلماء المالكيين الآخرين في القيروان إلى القضاء على مذهب الشيعة في المغرب وانسلاخ الصنهاجيين من التبعية للدولة الفاطمية[٥].

إن الفقهاء في القيروان وعلى امتداد حقب من الزمن كانوا يمثلون مدرسة المالكية المناضلة[٦] أي التي تجمع العلم بالعمل وتحاول إصلاح

---

(١) مؤلف مجهول: بيوتات فاس الكبرى ص٢٨.
(٢) عبدالله كنون: ذكريات مشاهير رجال المغرب العدد ٣٤ ص١٤؛ عبدالقادر رزمامة: أبو عمران الفاسي ص٦٥.
(٣) مغراوة: قبيلة بربرية زناتية كانت لها دولة في المغرب الأقصى (ق٤هـ - ٥هـ) (٣٦٨-٤٦٢هـ) عاصمتها فاس (ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص١٠٢؛ أحمد بن القاضي: جذوة الاقتباس ج١ ص١٩٨).
(٤) مؤلف مجهول: بيوتات فاس الكبرى ص٤٤.
(٥) الدباغ: معالم الإيمان ج٣ ص٢٠١-٢٠٢.
(٦) المالكية المناضلة: اسم أطلقه الأوروبيون على الفقهاء المالكيين الملتزمين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

J.DEVISSE: The Almoravids P.337.

H.Mones: le Rôle des Hommes de Religion dans L'Histoire de L'Espagne Musulmane Jusqu'a la fin du califat P.47.

الأمور بشتى الطرق ومن أولها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

كل هذا يدفعنا إلى الاعتقاد أن أبا عمران الفاسي ويحيى بن إبراهيم تباحثا خلال لقائهما حول الأوضاع السائدة وسبل تغييرها، واتفقا على أن بلوغ هذا الهدف لا يتأتى إلا بإنشاء دولة مجاهدة ربي أفرادها على سلوك الحق والجهاد في سبيله.

لذا يمكن أن نعتبر أن اجتماع يحيى بن إبراهيم مع أبي عمران الفاسي كان اللبنة الأولى لتشييد دولة المرابطين وأن الفقيه الفاسي كان وراء فكرة إنشاء هذه الدولة المجاهدة المؤمنة[١]. هذا على الأقل إذا لم نصل إلى ما استنتجه د. عبدالله العروي من أن إنشاء دولة المرابطين كان ضمن خطة شاملة مرسومة من طرف الخلافة العباسية لتطويق الدولة الفاطمية بالجيوش السلجوقية شرقاً والمرابطين غرباً. واعتمدت الدعاية السنية العباسية على الأشاعرة في الشرق ولعب الدور الرئيسي فيها أبو بكر الباقلاني (ت٤٠٤هـ) وعلى مالكية القيروان في الغرب وعلى رأسهم أبو عمران الفاسي (٤٣٠هـ) الذي كان تلميذاً للباقلاني[٢]. إن النتائج التي توصل إليها العروي نتائج جريئة، ولكن نعتقد أنها تحميل للوقائع بأكثر مما تحتمل. فرغم أن فكرة التصدي للشيعة كانت لدى علماء السنة وقد عمل كل على مستواه لتنفيذها، فإن فكرة المخطط العام للقضاء عليهم لم تكن موجودة أو على الأقل لم نجد ما يشير عليها.

وتنفيذاً للأفكار التي توصل إليها يحيى بن إبراهيم وأبو عمران الفاسي فقد أحال هذا الأخير ضيفه إلى أحد أتباعه في السوس الأقصى ليزوده بأحد طلبة العلم ممن يثق في دينه وحسن سياسته وعلمه[٣] لتنفيذ الخطة المتفق عليها.

---

(١) أحمد العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس ص٢٩١؛ عبدالقادر رزمامة: أبو عمران الغفجومي ص٧٢.

(٢) عبدالله العروي: مجمل تاريخ المغرب ج٢ ص١١٢-١١٣؛ وقد تأثر بعبدالله العروي في هذا الطرح د. إبراهيم بو تشيش في كتابه المغرب والأندلس في عصر المرابطين ص١٠. Cuoq: Histoire de L'Islamisation de L'Afrique de L'ouest P.30.

(٣) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص١٢٣.

إن الدافع وراء إرسال يحيى بن إبراهيم إلى وجاج من طرف الفقيه أبي عمران الفاسي قد لا يكون لعجز هذا الأخير عن العثور على أحد من طلابه يقوم بهذه المهمة، لأنهم استوعروها، بل قد يرجع إلى رغبته في أن يقوم بمهمة الإصلاح، التي اتفق مع يحيى بن إبراهيم عليها، واحد من أبناء منطقة الملثمين أو المناطق القريبة من ديارهم كما هو حال السوس، لأنه أقدر على فهم طباع هؤلاء وبالتالي الطرق الأسلم للتغيير. كما أنه مطلوب ممن ينتدب لهذه المهمة أن يكون على معرفة بلسان الملثمين حتى يستطيع أن يوصل إليهم الدين القويم[1].

وصل الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي إلى وجاج بن زولو بمدينة نفيس[2] وكانت له بها دار سماها دار المرابطين كانت مأوى للطلبة والعباد[3].

ولا شك أن الهدف الذي كان يسعى إليه وجاج من وراء إنشاء هذه (المدرسة) الدار هو تعليم الطلبة العلم مع العمل به. فقد كان وجاج نفسه مثالاً للفقيه العالم العامل الزاهد في الدنيا الساعي إلى إصلاح الناس عن طريق التعليم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[4].

وقد كانت هذه الدار حصناً من حصون الحق في منطقة عمَّها الجهل والضلال في بداية القرن الخامس الهجري لذا كانت قبلة طلاب الحق ومنها ينطلق دعاته.

واستجابة لطلب أبي عمران اختار وجاج أحد تلاميذه النبهاء لمصاحبة

---

(١) د. حسن محمود: قيام دولة المرابطين ص١١٢؛ د. إبراهيم بوتشيش: المرجع السابق ص٩.

(٢) نفيس: مدينة من منطقة أجلو قريبة من مدينة تزنيت (محمد السوسي: سوس العالمة ص١٧).

(٣) التادلي: التشوف إلى رجال التصوف ص٨٩.

(٤) محمد العلمي: الحركة الدينية في عهد المرابطين؛ مجلة دعوة الحق ص١٩ـ٢٠ عدد٣.

يحيى بن إبراهيم الجدالي وكان هذا الطالب هو عبدالله بن ياسين. وباختياره يبتدىء عهد جديد من تاريخ المغرب.

## عبدالله بن ياسين ودوره في قيام دولة المرابطين:

هو عبدالله بن ياسين بن مكوك الجزولي[١] ولد في قرية قرب أودغشت في طرف صحراء غانة ولا تذكر المصادر شيئاً عن الفترات الأولى من حياته سوى أنه رحل في طلب العلم إلى الأندلس في عهد ملوك الطوائف وأقام بها سبع سنين، وأنه حصل علماً كثيراً[٢].

ثم رجع إلى المغرب الأقصى حيث هاله الوضع المتردي الذي كان يعيشه وحالة التشرذم والفوضى التي كانت سائدة ومجانبة تعاليم الدين الصحيح. وحاول عبدالله أن ينصح ويدعو إلى الألفة والخير بتطبيق شرع الله وتوحيد الصف وراء إمام ينفذ حكم الله، لكن دعوته لم تلق أذناً واعية[٣] فالقلوب مشربة بالضلال فما كان الوعظ الحسن ليؤثر فيها.

وأمام الإعراض الذي لقيه ارتحل عبدالله بن ياسين إلى دار المرابطين حيث تتلمذ على شيخها وجاج بن زولو[٤]. وقد تأثر عبدالله بن ياسين بشيخه وجاج أيما تأثر واكتسب منه صفات فقهاء المالكية الكبار مثل البعد عن السلطان والزهد والتقشف والإيواء إلى الربط تقرباً إلى الله. هذه النشأة العملية العلمية

---

(١) الجزولي نسبة إلى قبيلة جزولة في أقصى المغرب (البكري: المسالك ج٢ ص٨٥٩؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص١٢٤). ويميل الدكتور حسن محمود إلى نسبة عبدالله بن ياسين إلى قبيلة جدالة بدلاً من جزولة: قيام دولة المرابطين ص١١٤ (لم يذكر د. حسن محمود مستنداً لرأيه هذا وقد أشار محمد المختار السوسي في كتابه (المعسول ج٨ ص٣٢٤) بأنه وقف على «نسبة ابن ياسين في عداد السملاليين»).

(٢) الحلل الموشية: ص٢٠؛ محمد شعيرة: المرابطون ص٣٥.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب ص١٠؛ سامي النشار: مقدمة تحقيق كتاب السياسة للمرادي ص١٣.

(٤) الحلل الموشية: ص٢٠؛ عصمت دندش: دور المرابطين في نشر الإسلام في أفريقيا ص٦٣.

خلقت لدى عبدالله بن ياسين شخصية متميزة فكان شهماً قوي النفس حاذقاً ذا رأي وتدبير حسن ذكياً نبيلاً من أهل الفضل والدين والورع، مهيباً[١].

ولما وقع اختيار وجاج بن زولو على عبدالله بن ياسين ليقوم بمهمة الإصلاح[٢] وأمره أن يسير مع يحيى بن إبراهيم الجدالي إلى وطنه وطن الملثمين حيث سيكون مسرح الأحداث.

وصل عبدالله بن ياسين إلى بلاد الملثمين «موريتانيا الحالية» صحبه الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي الذي كان يحدوه الأمل أن يكون هذا القدوم بداية تحول إلى الطريق المستقيم[٣].

لقي عبدالله بن ياسين كل ترحيب وحفاوة، لكن واقع الملثمين هاله لما وجدهم عليه من بعد عن الدين وخروج على مبادئه وجهل بالمعروف من الدين بالضرورة، فكان الرجل منهم يتزوج من النساء ما شاء[٤] وبعضهم يرتكب أفعال الزنا وغير ذلك، فنهاهم عن ذلك. وكان عبدالله بن ياسين يتدرج بهم في فهم الإسلام من البسيط إلى المعقد فكان يفسر لهم القرآن ويروي لهم الحديث[٥].

وقد استطاع ابن ياسين بفضل ذكائه وخبرته بطباع الناس أن يستحوذ على القلوب فحفظوا فتاويه بحيث أضحت عندهم مما لا يعدلون عنه[٦]. واعتبروها سبيلهم إلى النجاة.

---

(١) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص١٢٣؛ سعدون نصرالله: دولة المرابطين ص٢٢.

(٢) د. صباح الشيخلي: حقائق جديدة عن الحركة المرابطية؛ مجلة المؤرخ العربي العدد ٢٧ ص٩٠.

(٣) يدل على ما كانوا يحسونه من مستقبل عظيم بقدوم عبدالله بن ياسين ما رواه النويري أن أحد شيوخ الملثمين لما رأى عبدالله بن ياسين على جمله داخلاً أرضهم قال: أرأيتم هذا الجمل لا بد أن يكون له في هذه الصحراء شأن عظيم. (النويري: كتاب تاريخ المغرب الإسلامي من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب ص٣٧٧).

(٤) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص١٢٤؛ عبدالله كنون: عبدالله بن ياسين ص٩.

(٥) الحلل الموشية: ص٢٠؛ د. حسن محمود: قيام دولة المرابطين ص١١٩.

(٦) عياض: ترتيب المدارك ج٨ ص٨٢.

لقد كانت تعاليم عبدالله بن ياسين ثورة حقيقية على النمط السائد في حياة الملثمين بكل جوانبه ومحاولة لإعادة تشكيله على نمط جديد مبني على الدين القويم. ولم يقتصر عبدالله بن ياسين على إصلاح العقائد والإلزام بالأحكام بل نفذ إلى أبعد من ذلك فإنه كان يريد بناء أساس متين لدولة الحق لذلك أمر الملثمين ببناء مدينة جديدة أسموها أرتنني[١] وأمرهم أن لا يشرف بناء بعضهم على بعض[٢]. أدرك الملثمون بأنهم أمام تحول جذري زمامه بيد عبدالله بن ياسين، فضاق أصحاب النفوذ من ذوي النفوس الخبيثة بالفقيه المصلح الذي سيقوض بدعوته ما أقاموه من مجد[٣].

بدأ هؤلاء بمناوأة عبدالله بن ياسين والطعن في آرائه وعلمه، وقد تزعم هذا الحزب المعارض فقيه يدعى الجوهر بن سكيم[٤] مع بعض من كبار الجداليين فثاروا عليه وعزلوه عن المشورة والرأي وقبضوا منه بيت مالهم الذي كانوا قد أسندوه إليه وكانت تجمع فيه زكواتهم، ثم اتبعوا هذه الخطوات بطرده من أرضهم[٥]. وقد كانت هذه الثورة على عبدالله بن ياسين بعد أن توفي حاميه ورفيقه يحيى بن إبراهيم الجدالي[٦]. كتب عبدالله بن

---

(١) أرتنني: مدينة أنشأها المرابطون في بداية حكمهم يعتقد أن موقعها شرقي مدينة تشيت الحالية بموريتانيا.

F.de la chapelle: Esquisse d'une histoire du sahara P.62.

(٢) البكري: المسالك ج٢ ص٨٥٩ HENRI TERRASSE: Histoire du Maroc P.215.

(٣) عبدالله كنون: ذكريات مشاهير رجال المغرب (عبدالله بن ياسين) ص١٠.
Marcais: La Berberie Musulmane P.238.

(٤) الجوهر بن سكيم: فقيه ذكره البكري (المسالك ج٢ ص٨٦٠) كما ذكره ابن عذارى (البيان المغرب ج٤ ص٨) وأسماه الجوهر بن سحيم ولم يزيدا على ذكر أنه هو الذي تزعم الناقمين من الجداليين، على تعاليم عبدالله بن ياسين.

(٥) البكري: المسالك ج٢ ص٨٦٠.

(٦) لقد إختلف المؤرخون في ثورة الجداليين على عبدالله بن ياسين متى وقعت فيذهب ابن أبي زرع (الأنيس المطرب ص١٢٤) إلى أنها حدثت في عهد يحيى بن إبراهيم الجدالي، وأن هذا تمسك بابن ياسين وكان ممن دخل معه الرباط. إلا أن رواية ابن عذارى للأحداث، يفهم منها أن يحيى بن إبراهيم قد توفي. ويعزز هذا الاحتمال =

ياسين بما حصل له إلى شيخه وجاج بن زولو، فهو الذي بعثه إلى هذه الأرض، فما كان يمكنه تركها دون الرجوع إليه[1]. فكتب وجاج رسالة إلى بعض أشياخ جدالة، يعاتبهم على ما كان منهم إلى عبدالله وأعلمهم أن من خالفه فقد فارق الجماعة وأن دمه هدر[2]. وفي تلك الأثناء كان عبدالله بن ياسين قد عزم على اتباع طريقة أخرى في محاولات الإصلاح وهي إنشاء الرباط.

## مرحلة الرباط:

قرر عبدالله بن ياسين إنشاء رباط يعتزل فيه غمرة الحياة اليومية بين الناس، يصلح فيه نفسه ومن آوى إليه من الناس عن طريق العلم والعبادة.

ولم يكن عبدالله بن ياسين حين أقام رباطه بمبتدع بل كان يسلك طريقة سلكها أهل الخير منذ ابتداء الإسلام استجابة لدعوة الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾[3]. وقد أقام ولاة الثغور كثيراً من الربط لحماية حدود الدولة الإسلامية فكان في بلاد ما وراء النهر عشرة آلاف رباط[4].

وكان أول رباط في أفريقية هو الذي بناه هرثمة بن أعين[5] سنة

---

= الأخير أننا لا نجد ذكراً في كل المصادر ليحيى بن إبراهيم في فترة الرباط بل ينحصر ذكرها في يحيى بن عمر اللمتوني (ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص٩).

(١) يذكر البكري أن عبدالله بن ياسين ارتحل إلى شيخه وجاج وأن هذا الأخير أمره بالرجوع إلى الملثمين بعدما أرسل إليهم يعاتبهم. غير أن ابن أبي زرع لم يذكر هذه الرواية في حين يصرح ابن عذارى بأن عبدالله إنما كتب إلى شيخه ولم يتوجه إليه (ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص٩؛ البكري: المسالك ج٢ ص٨٦٠، ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص١٢٤).

(٢) البكري: مصدر سابق ج٢ ص٨٦٠؛ ابن أبي زرع: مصدر سابق ص١٢٤.

(٣) سورة آل عمران، الآية ٢٠٠.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية: مادة رباط ج١٠ ص١٩.

(٥) هرثمة بن أعين: والي أفريقية للعباسيين من سنة ١٧٩ـ١٨١، وقد بنى قصر المنستير وهو من أهم الأربطة في أفريقية (ابن الأثير: الكامل ج٥ ص٩٦).

١٧٩هـ. وقد انتشرت الربط في عهد الأغالبة وانتشرت من الإسكندرية إلى المحيط الأطلسي(١). وكانت الربط إلى جانب مهمتها العسكرية في مدافعة العدو مأوى للعباد والنساك.

وقد اختلف المؤرخون في تحديد مكان رباط عبدالله بن ياسين وتضاربت آراؤهم، فيرى فريق منهم أنه في جزيرة قبالة البحر الغربي أي المحيط الأطلسي(٢). في حين يرى فريق آخر أنها جزيرة في مصب نهر السنغال(٣). ويذهب بعض الباحثين الأوروبيين المتأخرين(٤) إلى تحديد مكان الرباط في جزيرة «تدرا» على الشاطىء الموريتاني وذلك بناءً على دراسات ميدانية قاموا بها(٥).

المهم من الأمر أن الرباط كان بمكان منقطع عن العمارة بعيد عن مجتمع أهل البطالة والمشاغبين الذين تألبوا على عبدالله بن ياسين.

دخل عبدالله بن ياسين الرباط في نفر قليل تحدده بعض الروايات بتسعة أشخاص(٦) عاشرهم عبدالله بن ياسين. وكان هؤلاء النفر هم النواة التي كونت المجتمع الجديد، ومن أبرز رفاق ابن ياسين في هذه المرحلة الحاسمة يحيى بن عمر اللمتوني وأخوه أبو بكر بن عمر اللذين سيكون لهما دور كبير في إقامة صرح دولة المرابطين.

كان رباط عبدالله بن ياسين قائماً على التجرد من طلب المنافع الدنيوية، والتقشف القائم على الخشونة، وعلى الطاعة المناسبة للجهاد وعلى

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية: مادة رباط ج١٠ ص١٩-٢٠.

(٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص١٢٤؛ عبدالله كنون: عبدالله بن ياسين ص١٠.

(٣) د. حسن محمود: قيام دولة المرابطين ص١٢٥؛ السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المغرب الكبير ج٢ ص٦٩٣؛ Marcais: La Berberie Musulmane P.239؛ إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ ص١٧٠ ج١١.

(٤) F.DELA Chapelle: Esquisse d'une Histoire du sahara occidental P.62.

(٥) Gruvel & Chudeau: A Travers la Mauritanie occidentale P.124-125.

(٦) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص١٢٥.

طلب العلم والعبادة[1].

وكانت الحياة في هذا الرباط قائمة على أساس الاكتفاء الذاتي فكان رجال الرباط يقومون بتموين أنفسهم بأنفسهم عن طريق صيد ما يحتاجون إليه من صيد البر والبحر وإعداد الطعام لأنفسهم وبناء الرباط وصنع الثياب والسلاح[2].

وكانت العبادة في الرباط من أهم ركائزه، ومن أهمها شهود الجماعة في الصلوات الخمس وقد وضعت عقوبات لمن خالف ذلك، فمن فاتته ركعة ضرب خمساً ومن تخلف عن الصلاة ضرب عشرين، هذا مع مطالبة من تركها في الماضي بأداء ما فاته. وقد ألزم عبدالله بن ياسين أهل الرباط بالاحترام الكامل لمسجد الرباط ومحاسبة من يتكلم في أمور الدنيا فيه وحملهم على الخشوع لله في بيته فمن رفع صوته في المسجد ضرب على قدر ما يراه الضارب له صلاحاً[3][4]. وكان دور ابن ياسين الأساسي هو تعليم أهل الرباط فكان يقوم بهذه المهمة بنفسه يعلمهم الكتاب والسنة، والوضوء والصلاة والزكاة وما فرض الله عليهم من ذلك[5] ولم يقصر

---

(١) د. محمد عبدالهادي شعيرة: المرابطون ص٣٩.

(٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص١٢٥.

(٣) البكري: المسالك ج٢ ص٨٦٤؛ د. حسن محمود: قيام دولة المرابطين ص١٤٢.

(٤) يبدو من هذه العقوبات حرص الإمام عبدالله بن ياسين على تعويد أتباعه على شهود الجماعة لما في ترك شهودها من وعيد إلى الحد الذي اعتبر فيه الظاهرية صلاة المنفرد باطلة، فيما اعتبر الإمام أحمد وأبو ثور صلاة الجماعة واجبة إلا أنهم اعتبروا صلاة المنفرد صحيحة مع الحرمة. (ابن قدامة: المغني ج٢ ص١٧٦) ولعل تعليل القاضي عياض لفعل ابن ياسين، الذي هو من باب التعزير، قريب من الصواب حيث قال: «وكان أخذ جميعهم بصلاة الجماعة، إذ كانوا عنده ممن لا تصح له صلاة إلا مأموماً لجهلهم بالقراءة وأحكام الصلاة» (ترتيب المدارك ج٨ ص٨٢) وقد نص علماء المالكية على أن من لا يحسن الفاتحة وجب عليه الاقتداء (الدردير: الشرح الصغير ج١ ص٣٠٩) وأما أمره أتباعه بقضاء ما فاتهم من الصلوات في الماضي فهو مذهب مالك (المصدر السابق ج١ ص٣٦٤).

(٥) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٢٥.

عبدالله بن ياسين نشاطه الدعوي ومهمة التبليغ على أهل الرباط بل كان يبعث بعوثاً إلى القبائل لترغيب الناس في مذهب أهل الرباط[١]. ولم يكن الانضمام إلى الرباط والقبول فيه بالأمر الميسور فقد وضعت شروط لذلك. فالراغب في الانضمام يمتحن ويخضع لفترة مراقبة للتأكد من استعداده لقبول نظام الرباط فإذا توفر فيه الاستعداد قبل عضواً في جماعة الرباط.

ويظهر من صرامة الشروط أن عبدالله بن ياسين كان يريد أن يميز الخبيث من الطيب فلا يبقي معه إلا من اتصف بالعزم والصبر والجد وقبل السير على درب الحق مع تحمل تبعات ذلك فالانضمام إلى الرباط ليس لعباً ولهواً بل سلوكاً لطريق الجنة الذي حف بالمكاره.

وقد ذكر البكري[٢] أن عبدالله بن ياسين كان يقيم الحد على المنتسبين الجدد إلى رباطه عما ارتكبوه من الذنوب قبل دخول الرباط وقد شنع البكري ومن نقل ذلك عنه على الإمام عبدالله بن ياسين ورموه بالجهل والشذوذ في الأحكام، ولا شك أن هذا النوع من الروايات إنما هو من تزايدات الرواة وتشنيع الخصوم. ومع ذلك فإن العلماء على أن الحدود لا تسقط بالتوبة، عدا الحرابة والردة، كما أن التقادم لا يسقطها[٣]. على أن ما يستشف من الروايات أن كثيراً مما كان يقوم به عبدالله بن ياسين إنما كان من باب التعزير. والتعزير كما ذكر العلماء عقوبات واسعة حسب الجرم والمجرم والزمان والمكان، وأن للإمام أن يعزر بما يراه رادعاً عن العودة إلى المخالفة[٤].

لم تمض غير فترة وجيزة حتى تسامع الناس بأخبار ابن ياسين وأخبار أهل الرباط، فبدأ الناس يتوافدون من كل ناحية وكل قبيلة. أخذ عبدالله بن ياسين يقرئهم القرآن، ويعلمهم السنة، ويستميلهم إلى الآخرة، ويرغبهم في

---

(١) نفس المصدر ونفس الصفحة؛ د. حسن محمود: قيام دولة المرابطين ص١٤٢.
(٢) البكري: المسالك والممالك ج٢ ص٨٦٤.
(٣) ابن قدامة: المغني ج٨ ص٢٩٦؛ الدردير: الشرح الصغير ج٤ ص٤٨٩.
(٤) الونشريسي: المعيار ج٢ ص٤١٦.

ثواب الله عز وجل. فلم تمر إلا مدة يسيرة حتى اجتمع له من التلاميذ نحو ألف رجل من أشراف صنهاجة[1].

لم يكن الرباط والحياة فيه هدفاً في حد ذاته بل كان في نظر عبدالله بن ياسين وسيلة لإعداد فئة مؤمنة تربت على التعاليم الإسلامية الصميمة. والآن وقد حقق ما كان يصبو إليه من تكوين هذه الفئة القادرة على تحمل عبء دعوة الناس بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبالجهاد إذا لزم الأمر، قام عبدالله بن ياسين خطيباً في تلاميذه فوعظهم وذكرهم بنعمة الله عليهم بأن هداهم الصراط المستقيم وأن عليهم الآن أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر وأن يجاهدوا في الله حق جهاده[2]. عند هذا النداء ظهر ما كان عبدالله يعتقد من طاعة هؤلاء التلاميذ وتفانيهم في ذلك فقد كان جوابهم قاطعاً: مرنا بما شئت تجدنا سامعين طائعين[3].

عندئذ أعلن عبدالله ملامح المرحلة التي سيقبل عليها هؤلاء التلاميذ الذين أطلق عليهم اسماً جديداً هو اسم المرابطين[4] للزومهم رباطه وهو يعبر عن ذوبان انتماءاتهم القبلية وهي انتماءات طالما فرقت بينهم. أما اليوم فتجمعهم العقيدة والسلوك والولاء لله ولرسوله وللمؤمنين. إن المرحلة الجديدة التي يراد منهم تنفيذها هي مرحلة الجهاد باللسان والسنان.

## مرحلة الخروج من الرباط:

لما اطمأن عبدالله بن ياسين إلى طاعة أتباعه وولائهم المطلق له

---

(١) ابن أبي زرع: مصدر سابق ص١٢٥.

(٢) نفس المصدر والصفحة؛ ابن خلدون: العبر ج٦ ص٣٧٥.

(٣) ابن أبي زرع: مصدر سابق ص١٢٥.

(٤) اختلف المؤرخون حول أصل هذا الاسم فذهب ابن أبي زرع (روض القرطاس ص١٢٥)؛ وابن خلدون (كتاب العبر ج٦ ص٣٧٥) إلى أن عبدالله بن ياسين أطلقه على أتباعه للزومهم رباطه، فيما يذهب ابن عذارى (البيان المغرب ج٤ ص١٢) وصاحب (الحلل الموشية ص٢١) إلى أن عبدالله أطلقه على لمتونة إثر معركة انتصروا فيها على بعض من البربر.

ولمبادئه أمر هؤلاء المرابطين أن يخرجوا على بركة الله لينذروا قومهم ويخوفوهم عقاب الله ويبلغوهم حجته «فإن تابوا ورجعوا إلى الحق فخلوا سبيلهم، وإن أبوا من ذلك وتمادوا في غيّهم ولجوا في طغيانهم استعنا بالله تعالى عليهم، وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين»[1].

سار كل رجل منهم إلى قومه وعشيرته فوعظهم وأنذرهم ودعاهم إلى الإقلاع عمّا هم بسبيله من التقاليد المنافية للدين، فلم يصغ لهم أحد من أقوامهم[2].

خرج عبدالله نفسه إلى أشياخ القبائل ورؤسائهم فجمعهم وحذرهم وأقام عليهم الحجة. وكان هذا اللقاء الجديد بينه وبينهم بعد القطيعة السابقة، إبلاغاً في النصح وقطعاً للعذر. وأقام عبدالله سبعة أيام يدعوهم إلى التوبة والإنابة.

لم يجد عبدالله رغم ذلك إلا الصدود والنفور فقلوب القوم أشربت الجهل فلم تعد تقبل النصح، عندئذ قال لأصحابه: قد أبلغنا في الإعذار للقوم وقد وجب علينا جهادهم فاغزوهم على بركة الله[3].

بدأ المرابطون بقبيلة جدالة فغزوهم في ثلاثة آلاف فقتل منهم خلق كثير وأسلم الباقون إسلاماً صحيحاً وأدوا جميع ما فرض الله عليهم وذلك في سنة ٤٣٤هـ[4].

ثم سار عبدالله بن ياسين إلى لمتونة فنزل بهم وقاتلهم حتى ظهر عليهم وأذعنوا إلى الطاعة والتوبة، وبايعوه على إقامة الكتاب والسنة.

ثم سار إلى مسوفة فقاتلهم حتى أذعنوا له وبايعوه على ما بايعته عليه لمتونة وجدالة. فلما رأى ذلك باقي قبائل صنهاجة سارعوا إلى التوبة،

---

(١) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص١٢٦.

(٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص١٢٥.

(٣) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص١٢٦؛ إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ ج١ ص١٧٠.

(٤) ابن أبي الزرع: الأنيس المطرب ص١٢٦؛ Ki-Zerbo: Histoire de L'Afrique Noire P.115.

وأقروا له بالسمع والطاعة، فقبل منهم[1]. وجعل هو وصحبه يعلمونهم القرآن وشرائع الإسلام ويأمرونهم بالصلاة والزكاة وإخراج العشر. كان إخضاع قبائل صنهاجة نصراً كبيراً لعبدالله بن ياسين وتلاميذه المرابطين، فقد أضحوا اليوم هم أصحاب الكلمة العليا في الصحراء يقودون كماً هائلاً من الناس ويوجهونهم داخل إطار وحلف جديد، فقد كانت الأحلاف السابقة تقوم على أسس مادية صرفة، من دفع خطر مشترك أو الاحتفاظ بالتجارة عبر الطرق الصحراوية، أما حلف اليوم فقد أقيم على أسس تختلف عن هذه تماماً، أقيم على رباط من الدين لبسط العدل والإخاء وإخراج الناس من الظلمات إلى النور.

استدعى هذا الواقع الجديد من عبدالله بن ياسين أن ينشىء جهازاً يدير أمور هذا المجتمع الجديد، فاختار عبدالله أمير لمتونة يحيى بن عمر[2] ليكون أمير المرابطين وأطلق عليه لقب أمير الحق[3] وكان اختصاصه أساساً في النظر في شؤون الجهاد واقتصر عبدالله على النظر في أمر الدين وأحكام الشرع وأخذ الزكاة والأعشار[4].

ضرب عبدالله بن ياسين باختياره ليحيى بن عمر أميراً للمرابطين مثلاً عظيماً من أمثلة الزهد في المناصب والمصلحة الشخصية وبرهن أنه لم يكن من السعاة إلى الملك والمجد وإنما كان مبتغي إصلاح وناشر دين. ولخّص عبدالله للمرابطين دوره في هذا المجتمع الجديد بقوله: إنما أنا معلم دينكم[5]. وهذه المنزلة التي اختارها عبدالله كانت بلا شك منزلة عظيمة في

---

(١) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص١٢٦؛ البكري: المسالك ج٢ ص٨٦٠.

(٢) يحيى بن عمر بن تكلاكين اللمتوني (ت٤٤٧هـ) أمير لمتوني كان من أوائل من انضم إلى عبدالله بن ياسين وكان من أهل الدين المتين وكان شديد الانقياد لعبدالله كثير الطاعة له فيما يأمره وينهاه (ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص١٢٧؛ البكري: المسالك ج٢ ص٨٦١؛ ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص١٢).

(٣) ابن عذارى: البيان المعرب ج٤ ص١٢.

(٤) الحلل الموشية: ص٢١؛ د.حسن محمود: قيام دولة المرابطين ص١٤٨.

(٥) الحلل الموشية: ص٢١؛ عبدالله كنون: عبدالله بن ياسين ص١٨.

مجتمع المرابطين الجديد. وإضافة إلى تعيين أمير للجماعة فقد اتخذ بيت مال يجمع فيه الزكاة والعشر وينفق منه على الجيوش المعدة للجهاد وشراء السلاح[1].

انتهى عبدالله بن ياسين من تنظيم مجتمعه الجديد ليبدأ في توجيهه إلى ميادين الجهاد في المنطقة المحيطة بالملثمين. ففي الجنوب تقوم مملكة غانة السونوكية[2] الوثنية وكان على المرابطين أن يواصلوا دور الفاتحين الأولين في سبيل نشر الإسلام بين قبائل بلاد السودان الغربي.

كانت مدينة أودغست أهم المدن التابعة لمملكة غانة والقريبة من بلاد المرابطين وكانت فيما مضى تحت سيطرة صنهاجة لكن مملكة غانة احتلتها[3]. لذا قرر عبدالله بن ياسين جهاد مملكة غانة وكلف الأمير يحيى بن عمر بدخولها غازياً. وقد قام يحيى بعدة حملات تكللت بالنجاح وكان النصر فيها حليف المرابطين، وكان من نتائجها احتلال مدينة أودغست سنة ٤٤٦هـ وطرد الغانيين منها[4].

ويظهر أن المرابطين اكتفوا إلى حين بهذا النصر على مملكة غانة فقد عاد يحيى بن عمر إلى ديار الملثمين حيث كانت تنتظره مهمات جديدة.

## الجهاد في المغرب الأقصى:

شاع في بلاد المغرب الأقصى خروج المرابطين بالصحراء وأن «دعوتهم مبنية على دين متين وتأسيس بفقه وأنه إسلام جديد، فحدقت إليهم العيون وصرفت إليهم الوجوه»[5].

---

(١) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص١٢٦.
(٢) السونوكي: شعب من شعوب السودان الغربي كانوا يعيشون في الحافة الجنوبية للصحراء وقد أقاموا أقوى إمبراطوريات السودان الغربي وهي إمبراطورية غانة (إبراهيم طرخان: إمبراطورية غانة الإسلامية ص١٨؛ Ki-Zerbo: Histoire de L'Afrique P.107.
(٣) البكري: المسالك ج٢ ص٨٦٢.
(٤) البكري: المسالك ج٢ ص٨٦٢؛ J.Cuoq: Histoire de l'Islamication de L'oust P.40.
(٥) ابن الخطيب: أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام ص٢٤٣.

وكان المغرب الأقصى في هذا العهد يخضع لحكم زناتة وتتولى السلطة فيه قبيلتان منها هما مغراوة وبنو يفرن[١]، وكان الصراع بينهما على أشده، فانعدم الاستقرار وانعدم الأمن وتضررت الرعية من سوء الحكم وانتشار الفساد والسياسة الضرائبية المجحفة وفوق ذلك انتشار البدع والمخالفات[٢].

تعلقت إذن آمال أهل المغرب الأقصى بالمرابطين وإمامهم عبدالله بن ياسين لإنقاذهم مما هم فيه ولإصلاح أحوالهم.

فبدأت الرسائل تترى على عبدالله بن ياسين، شاكية وضع المغرب ومستغيثة به. وبدأ عبدالله يفكر جدياً في الانسياح شمالاً، ليبدأ بذلك فتح صفحة جديدة من تاريخ المغرب بإنشاء إمبراطورية عظمى قائمة على الجهاد. وهو ما لم تعهده ربوع المغرب الأقصى[٣]. لكن هل كان اهتمام عبدالله بن ياسين بالمغرب الأقصى وجهاده فيه لأسباب ودوافع غير الدافع الديني؟

لقد تعرضت دولة المرابطين لكثير من الحقد والتحامل والطعن فألصقت بها شتى العيوب ورميت بكل شنيعة وطمست فضائلها وأهمها أنها دولة قامت على الدين وبنيت على الجهاد. لذا انبرى هؤلاء المتحاملون[٤] إلى سوق شتى الحجج والبراهين لإثبات أن دخول المرابطين إلى المغرب، وفتحهم له، إنما كان عملاً بربرياً، مما يقوم به عادة البدو على مراكز

(١) بنو يفرن: قبيلة من زناتة كان لهم نفوذ في المغرب خلال القرن ٤ و٥هـ (الأنيس المطرب بروض القرطاس ص١٠٢).

(٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص١١٣؛ أحمد العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس ص٢٩٧.

(٣) عبدالله العروي: مجمل تاريخ المغرب ج٢ ص١١٨.

(٤) لعل أشهر هؤلاء الحاقدين على الدولة المرابطية: البيدق، صاحب كتاب: أخبار المهدي بن تومرت، عبدالواحد المراكشي في كتابه: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص٢٦٠ ومن المستشرقين راينهارت دوزي في كتابه: الإسلام الإسباني وأرشيبالد لويس في كتابه: القوى البحرية في حوض البحر المتوسط.

الحضارة فيخربونها ويحيلونها أثراً بعد عين.

ويحلو لهؤلاء أن يشبهوا المرابطين بالهلاليين وما قاموا به من نهب وسلب في أفريقية[١].

ويرى بعض الكتاب أن حركة المرابطين إلى الشمال جاءت نتيجة قحط بلادهم وشح مواردها، فدعاهم عبدالله بن ياسين إلى النزوح شمالاً. ويوردون لذلك تاريخ ٤٥٠هـ بوصفه بداية الانسياح شمالاً من أجل الخصب[٢].

ويضيف آخرون[٣] إلى هذه الأسباب سبباً رئيسياً بل وعلة الأسباب في نظرهم وهو: الصراع التاريخي بين صنهاجة وزناتة وبالتالي فإن اتجاه الملثمين شمالاً إنما كان للانتقام من زناتة الذين طالما أذلوا صنهاجة وأبعدوها عن المناطق الخصبة في المغرب.

إن النظرة الفاحصة المتأنية للأسباب التي ساقها هؤلاء المؤرخون تكشف أنها لا تقوم على أساس متين من الواقع التاريخي والبراهين بل هي في معظمها تخرصات وأهواء يراد لها أن تكون حقائق بلا دليل.

إن اتهام المرابطين بأنهم قوم بداة هجروا صحاريهم إلى الشمال المتمدن فعاثوا فيه فساداً هو افتراء واضح لا يحتاج إلى كبير جهد لرده. فالمرابطون هم أول من عرف المغرب الأقصى معهم الوحدة فوحدوا جميع مناطقه وكونوا فيه أول دولة عظمى يشهدها في تاريخه[٤]. عمّ بها الرخاء

---

(١) ارشيبالد لويس: القوى البحرية في حوض البحر المتوسط ص٣٦٢.

(٢) النويري: تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط (من كتاب نهاية الإرب) ص٣٨٠؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٨ ص١٧٧ F.DE LA Chapelle: Esquisse d'une Histoire du Sahara Occidental P.62.

(٣) د. حسن محمود: قيام دولة المرابطين ص١٨٩ H.TERRASSE: Histoire du Maroc P.217.

(٤) د. حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته ج٢ ص٢٧؛ د. سامي النشار: مقدمة كتاب السياسة للمرادي ص٦.

والأمن طيلة قرن من الزمن[1].

أما أنهم هجروا أرضهم بسبب قحطها كما أورد ابن الأثير والنويري، وأن عبدالله دعاهم إلى ذلك، فأمر يحتاج إلى إثبات لكون ابن الأثير متأخر زمنياً بحوالي القرنين ولم نجد له سلفاً فيما قال. ثم إن التاريخ الذي يذكره لبداية الهجرة المرابطية إلى الشمال وهو سنة ٤٥٠هـ[2] تاريخ مستبعد لأن المسكوكات المرابطية التي عثر عليها الباحثون يشير بعضها إلى أنها ضربت بسجلماسة عام ٤٥٠هـ[3]. وهذا دليل على أنهم فتحوا هذه البلاد قبل هذا التاريخ. ثم إن الملثمين هم من سكان الصحراء وهؤلاء تعودوا سنين القحط والخصب ومن الصعب أن يخرجوا من بلادهم بسبب قحط أصابهم.

أما الدوافع القبلية فالأساس الذي قامت عليه دعوة عبدالله بن ياسين وهو إيجاد غاية مثلى وهدف سام في هذه الدنيا، هو رفع راية الإسلام وإحياء شرع الله في النفوس جعل الفوارق القبلية والعصبية تذوب في بوتقة الحزب الجديد حزب المرابطين.

فالعداوة كانت مستحكمة بين قبائل الصحراء أنفسهم، وبفضل دعوة عبدالله بن ياسين ها هم يكونون جيشاً ومجموعة واحدة هويتها وانتماؤها إلى الإسلام الذي هو هوية أوسع وأشرف من القبيلة.

---

(١) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص١٦٧.

(٢) النويري: تاريخ المغرب (من كتاب نهاية الأرب) ص٣٨٠؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٨ ص١٧٧.

(٣) H.Lavoix: Catalogue de Monnaies de la biblioteque Nationale P.556 Piece 567.

(٤) لا يرى بعض الحاقدين من المستشرقين في الفتوح الإسلامية منذ بداية الإسلام إلا أنها مجرد هجمات وغارات من أجل المغانم. يقول ألفرد بل عن خروج المرابطين إلى الشمال: ولا شك أن الأمل في المغانم نتيجة الفتوح كان له نفس التأثير الذي كان على البدو من الجزيرة العربية قبل ذلك بأربعة قرون (ألفرد بل: الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي ص٢٣٢).

إن الباحث قد لا ينكر بعض المحفزات المادية الاقتصادية[1] في اتجاه المرابطين إلى الشمال، فالحدث التاريخي بطبيعته حدث مركب ناتج عن تفاعلات أكثر من سبب لكن بنسب متفاوتة، لذا فإن نسبة تأثير كل سبب من تلك الأسباب هي المهمة.

وفي رأينا أن نسبة العامل الديني كانت هي السائدة. فالمغرب في ذلك العهد كان يعاني محنة دينية وسياسية خطيرة وكان في حاجة إلى معجزة تنقذه من هذا الوضع، وكانت تلك المعجزة هي المرابطين[2].

إن التفسير الواضح لخروج المرابطين من الصحراء إلى المغرب الأقصى هو أن هذا الخروج كان بقصد الجهاد لنشر الدين الصحيح وإبطال البدع والانحرافات والظلم والفساد[3].

وكان ذلك ضمن خطة مرسومة بإحكام وهي التي ندب أبو عمران الفاسي يحيى بن إبراهيم إليها وهي قتال الظلمة الزناتيين وجهاد برغواطة[4].

كانت مهمة عبدالله بن ياسين في هذه الخطة هي تكوين الأداة القادرة على تنفيذ الخطة، ثم الإشراف على التطبيق. لذا لما اطمأن عبدالله على متانة وصلابة جند دعوته وقدرتهم على الاضطلاع بمهمة إنقاذ المغرب الأقصى بدأ تنفيذ الخطة. ويؤكد هذه الحقيقة أن الاتجاه إلى المغرب الأقصى جاء نتيجة استدعاء من وجاج بن زولو اللمطي، شيخ عبدالله، الذي شكا إليه ما نال المسلمين من العسف والجور على أيدي بني وانودين

---

(١) عبدالله كنون: ذكريات مشاهير رجال المغرب (عبدالله بن ياسين) ص٢٠؛ إبراهيم الجمل: الإمام عبدالله بن ياسين، ص١٠١.

(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٢٧؛ أحمد الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج٢ ص١٢.

(٣) مجهول: بيوتات فاس الكبرى: ص٢٨؛ عبدالقادر زمامة: أبو عمران العفجومي (البينة ع٣٠) ص٦٦.

(٤) ابن خلدون: ج٦ ص٢٧٥.

المغراويين، أمراء سجلماسة، وحرضه على تغيير الوضع[1].

كانت أولى محطات الجهاد المرابطي في المغرب الأقصى، هي منطقة سجلماسة[2] ودرعة، فقد اجتمع فقهاؤها سنة ٤٤٦هـ، وكتبوا إلى عبدالله بن ياسين ويحيى بن عمر وأشياخ المرابطين يرغبون إليهم الوصول إلى بلادهم، ليطهّروها مما هي فيه من المنكرات، وشدة العسف من الأمراء، وعرفوهم بما هم فيه من الذل والصغار جراء أميرهم مسعود بن وانودين المغراوي[3].

كان هذا النداء مدعماً بخطاب من وجاج يؤكد فيه ضرورة نجدة أهل سجلماسة ودرعة[4].

جمع عبدالله رؤساء المرابطين وقرأ عليهم ما وصله من مخاطبات وشاورهم في الأمر، فقالوا له: أيها الشيخ الفقيه هذا ما يلزمنا ويلزمك فسر بنا على بركة الله[5]. بدأ عبدالله بن ياسين بالاستعداد وخرج في جيش عظيم من المرابطين سنة ٤٤٦هـ فاحتل درعة واشتبك مع مسعود المغراوي فكان النصر للمرابطين وقتل مسعود[6] وكثير من جيشه، وقد استولى المرابطون

(١) سجلماسة: مدينة تقع في جنوب المغرب، على وادي ملوية، أنشأها الخوارج الصفرية سنة ١٤٠هـ، وصارت عاصمة لدولتهم دولة بني مدرار، وظلت مركزاً أساسياً من مراكز التجارة بين السودان الغربي وبين المغرب والأندلس (ابن عذارى ج١ ص٢١٥).

(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٢٧؛ الناصري: الاستقصّا ج٢ ص١٢.

(٣) مسعود بن وانودين: ابن خزرون بن فلفول الهزرجي (ت٤٤٦هـ) أمير من أمراء مغراوة الزناتيين. (الناصري: الاستقصا ج٢ ص١٢).

(٤) تعتقد الدكتورة صباح الشيخلي أن رسالة وجاج ليست إلا تذكيراً واستحثاثاً لعبدالله بن ياسين لتنفيذ ما اتفق عليه من قبل مع يحيى بن إبراهيم الجدالي (حقائق عن حركة المرابطين) مقال منشور في مجلة المؤرخ العربي العدد ٢٧ سنة ١٩٨٦ بغداد ص٩١.

(٥) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٢٧ـ١٢٨؛ إبراهيم الجمل: الإمام عبدالله بن ياسين ص١٠١.

(٦) كان الذي تولى قتله الفقيه لمتاد بن بكين اللمتوني وهو من فقهاء المرابطين وعبادهم والمثل يضرب بفتياه في بلاد الصحراء (عياض: المدارك ج٨ ص٨٠).

على غنائم كثيرة[1].

قام عبدالله بن ياسين بإخراج الخمس من تلك الغنائم وفرقه على فقهاء سجلماسة ودرعة وصلحائهم وقسم الباقي على المرابطين[2][3]. لقد كان عبدالله بن ياسين يرى في هذه الفئات التي قسم عليها الغنائم السند والامتداد الحقيقي لدعوته دعوة الحق، وبرهن أن انتصار المرابطين هو انتصار للعلماء في كل مكان لأن المرابطين إنما ينفذون توجيهات العلماء ونصائحهم.

وقد كان تجاوب طبقة الفقهاء مع المرابطين تاماً مما يدل على أن دعوتهم ذات أساس ديني قويم ومنهج صحيح.

بعد احتلال درعة دخل عبدالله بن ياسين سجلماسة وأقام بها حتى أصلح أحوالها وغير ما وجد بها من المنكرات وقطع آلات اللهو وأحرق الدور التي كانت تباع فيها الخمور وأزال المكوس والمغارم ومحا ما أوجب الكتاب والسنة محوه[4].

لقد كانت أعمال عبدالله بن ياسين في سجلماسة ثورة حقيقية على العادات المبنية على الفساد بكل أنواعه ومحاولة إصلاحية للأوضاع وإرجاعها إلى النهج الإسلامي القويم بما فيه من عدل وإزالة للمظالم، إنه منهج متكامل يشمل كل مناحي الحياة العقائدية والاجتماعية والاقتصادية.

عاد عبدالله بن ياسين إلى الصحراء مع معظم جيش المرابطين وترك

---

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٢٨؛ الحلل الموشية: ص٢٢؛ البكري: المسالك ج٢ ص٨٦١.

(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٢٨؛ الناصري: الاستقصا ج٢ ص١٣.

(٣) لقد اختلف العلماء في خمس الغنيمة وكيفية تقسيمه بناءاً على ما في الآية ٤١ من سورة الأنفال فذكر القرطبي أن قول مالك: هو أن تقسيم الخمس «موكول إلى الإمام واجتهاده، فيأخذ منه من غير تقدير، ويعطي منه القرابة باجتهاده، ويصرف الباقي في مصالح المسلمين، وبه قال الخلفاء الأربعة وبه عملوا» (الجامع لأحكام القرآن، طبعة دار الكتاب المصرية ١٩٦١، القاهرة ج٨ ص١١).

(٤) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٢٨؛ عبدالله بن كنون: عبدالله بن ياسين ص٢٠.

في سجلماسة حامية لرعاية مصالح المواطنين وقدم على المدينة عاملاً من لمتونة لإدارة شؤونها[١].

لم يستسلم المغراويون للواقع الجديد الذي حرمهم من السيادة وحرية الفساد والطغيان، لذا ما كاد عبدالله يصل صحراء الملثمين حتى انقض المغراويون على حامية المرابطين في سجلماسة وفتكوا بها[٢].

لم يستطع أهالي سجلماسة دفعاً لممارسات المغراويين فكتبوا إلى عبدالله بن ياسين يشرحون له الوضع ويدعونه إلى القدوم وتواترت رسلهم بذلك[٣].

قرر عبدالله بن ياسين أن يسير من جديد إلى سجلماسة لمحاربة مغراوة الذين ثاروا على كل ما حققه عبدالله من إصلاحات وأرجعوا الوضع في سجلماسة إلى سالف عهده. غير أن مسير عبدالله إليها من جديد لم يكن محل إجماع قبائل المرابطين، فقد اعترضت قبيلة جدالة عليه ورفضت المسير مع ابن ياسين لأسباب لم تذكرها المصادر. وقد قررت جدالة بدلاً من ذلك الرحيل إلى مضاربها على ساحل البحر المحيط[٤].

اعتبر عبدالله بن ياسين موقف جدالة خروجاً على الطاعة ونكوصاً عن تحمل واجب الجهاد والصبر على تبعات الدعوة المرابطية لذا فقد أمر الأمير يحيى بن عمر بتأديب جدالة[٥]. لم يكن هذا الوضع ليثني عبدالله عن المسير إلى سجلماسة فخرج إليها في نفر قليل من المرابطين وانضم إليه أثناء المسير أبو بكر بن عمر الذي كان أميراً على درعة في أعداد كثيفة من

---

(١) البكري: المسالك ج٢ ص٩٦١؛ ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص١٣؛ ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٢٨.

(٢) البكري: المسالك ج٢ ص٨٦١؛ ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص١٣.

(٣) البكري: المسالك ج٢ ص٨٦١؛ ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص١٣.

(٤) البكري: المسالك ج٢ ص٨٦١؛ H.TERRASSE: Histoire du Maroc P.220.

(٥) ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص١٤؛ DELAChapelle: Esquisse d'une Histoire du Sahara P.63.

لمتونة ومسوفة ولمطة وترجة. وقد تمكن عبدالله بهذه الأعداد أن يهزم مغراوة وأن يستعيد سجلماسة[1].

أدرك عبدالله بن ياسين أن تغيير الأوضاع في المغرب الأقصى يحتاج من المرابطين أن يكون لهم وجود دائم في المنطقة. فالعمل الذي يقوم به ابن ياسين ليس غارة لجني بعض المكاسب المادية الآنية ولكنه عملية إصلاح يراد لها البقاء. لهذا فقد قرر عبدالله بن ياسين إنشاء مدينة مرابطية في هذه المنطقة هي مدينة تبلبلا[2].

وفي الوقت الذي كان فيه عبدالله بن ياسين يستعيد سجلماسة، كان الأمير يحيى بن عمر يخوض معارك شرسة ضد قبيلة جدالة[3] التي خرجت على الطاعة، وقد استشهد يحيى في هذه المعارك بتيفريلي سنة ٤٤٨هـ[4].

كان مقتل الأمير يحيى بن عمر ضربة للمرابطين، غير أن هؤلاء قد بلغوا في ذلك الوقت درجة من البناء والرسوخ لم يعد معها يؤثر في بنيانهم موت قائد. لذا فقد بادر عبدالله بن ياسين بترشيح أبي بكر بن عمر اللمتوني أخي الأمير يحيى ليحل محله. وقد وافقت قبائل المرابطين على هذا الترشيح فأصبح أبو بكر بن عمر أميراً للمرابطين وقلده عبدالله بن ياسين أمر

---

(١) البكري: المسالك ج٢ ص٨٦٢؛ H.TERRASSE: Histoire du Maroc P.220.

(٢) تبلبلا: مدينة أنشأها لمرابطون على الطريق بين تفيلالت وتوات.
DELA Chapelle: Histoire du Sahara P.46.

(٣) اشترك في هذه المعارك الملك لبي بن ورجابي ملك التكرور إلى جانب الأمير يحيى بن عمر اللمتوني مما يدل على انتشار الإسلام في أفريقيا جنوب الصحراء بفضل جهود المرابطين (البكري: المسالك ج٢ ص٨٦٢)؛ J.Cuop: op.cit P.43.

(٤) البكري: المسالك: ج٢ ص٨٦٢؛ اختلف المؤرخون حول استشهاد يحيى بن عمر فذهب البكري (المسالك ج٢ ص٨٦٢) وابن عذارى (البيان المغرب ج٤ ص١٤) وصاحب الحلل الموشية (ص٢٣) إلى أنه استشهد عام ٤٤٨هـ في حرب جدالة بينما يذكر ابن أبي زرع (روض القرطاس ص١٢٨) أنه استشهد في إحدى غزواته ببلاد السودان.

الحرب[1]. ولم يقتصر عبدالله في أخذ البيعة لأبي بكر بن عمر على المرابطين بل تعداهم إلى رعايا الدولة الجدد مثل الزناتيين وغيرهم[2].

كان عبدالله بن ياسين الحاكم الفعلي المطاع للمرابطين وكان بإمكانه لو رغب أن يتولى الإمارة ولكنه أثبت مرة أخرى أن لا رغبة لديه في الإمارة وأن مهمته التوجيهية تعلو على الأغراض المادية الدنيوية البحتة.

كان أبو بكر بن عمر أهلاً للإمارة فقد كان رجلاً صالحاً متورعاً كأخيه يحيى، وكان من أوائل أصحاب ابن ياسين الذين دخلوا معه الرباط[3].

واصل عبدالله عمله الدعوي الدائب سالكاً فيه المنهج الإسلامي، فكان يدعو إلى الحق بالحسنى والموعظة ولا يلجأ إلى السلاح إلا عندما يستنفد كل الوسائل السلمية. فلما أكمل بيعة أبي بكر بن عمر ارتحل إلى قبائل وريكة وهيلانة[4] يدعوهم إلى الحق ونبذ ما هم فيه من الفتنة. واستطاع عبدالله بما أوتي من خطابة وحسن تبليغ أن يقنعهم بمبادئه وأن يدخلوا في جماعة المرابطين ويلتزموا مبادئها ويبايعوا أميرها: «ليصلح الله به أحوالهم»[5].

ندب عبدالله بن ياسين الأمير الجديد أبا بكر بن عمر إلى غزو السوس وبلاد المصامدة فخرج إليها في جيش عظيم سنة ٤٤٨هـ فبدأ بغزو جزولة ثم فتح مدينة ماسة وقد أطاعته تلك البلاد كلها ولم تبد مقاومة تذكر[6] وتقدم الجيش المرابطي إلى تارودانت[7] وكان فيها قوم من الشيعة الروافض

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص١٤؛ ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٢٨؛ الحلل الموشية: ص٢٣.

(٢) الحلل الموشية: ص٢٣؛ ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص١٤.

(٣) عبدالله بن كنون: مشاهير رجال المغرب (عبدالله بن ياسين) ص٢٢.

(٤) وريكة وهيلانة: قبيلتان من قبائل المصامدة تنسب إليها أغمات بطرفيها فهناك أغمات وريكة وأغمات هيلانة.

(٥) ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص١٥.

(٦) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٢٩؛ الحلل الموشية ص٢٣.

(٧) تارودانت: قاعدة منطقة السوس (الإدريسي: نزهة المشتاق ص٣٩).

يدعون البجلية نسبة إلى عبدالله البجلي الرافضي[١] فقاتلهم المرابطون حتى فتحوا مدينتهم، وقتل بها من الروافض خلق كثير، فرجع من بقي منهم إلى السنة وأخذ عبدالله أموال من قتل منهم غنيمة للمرابطين[٢].

اهتم عبدالله بتنظيم البلاد المفتوحة، كما هي عادته، فعين على نواحيها عمالاً من المرابطين وأمرهم بإقامة العدل وإظهار السنة، واستخلاص الزكاة والعشر وإسقاط ما سوى ذلك من المغارم الجائرة[٣]. وفي أثناء ذلك كانت وفود البلاد المجاورة والأقاليم المتاخمة تتوارد على عبدالله بن ياسين مقدمة طاعتها وانضمامها للجماعة الجديدة ومبادئها، وكان عبدالله يعلِّم هؤلاء الداخلين ويرشدهم ويأخذ عليهم العهد بإقامة شعائر الدين[٤].

واصل عبدالله جهاده إلى بلاد المصامدة ففتح جبل درن وبلاد نفيس[٥] ثم خرج قاصداً مدينة أغمات[٦] وبها يومئذ أميرها لقوط بن يوسف

---

(١) عبدالله البجلي: أحد دعاة الشيعة الروافض قدم إلى السوس حين قدم عبيدالله الشيعي إلى أفريقية فأشاع بالسوس مذهبه، فيذكر البكري أنه كان يدعو أتباعه إلى سب الصحابة رضوان الله عليهم، وأحل لهم المحرمات وزعم أن الربا بيع من البيوع وزادهم في الأذان بعد «أشهد أن محمداً رسول الله»: أشهد أن محمداً خير البشر ثم بعد «حي على الفلاح»: حي على خير العمل آل محمد خير البرية. (البكري: المسالك ج٢ ص٨٥٢؛ ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٢٩).

(٢) البكري: المصدر السابق نفس الصفحة؛ ابن أبي زرع: المصدر السابق نفس الصفحة.

(٣) ابن أبي زرع: المصدر السابق نفس الصفحة.

(٤) ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص١٥.

(٥) جبل درن: اسم يطلق عادة على الأطلس الكبير الغربي، جنوب مراكش (الحميري: الروض المعطار ص٢٣٤) بلاد نفيس: منطقة تقع إلى الجنوب الغربي من مراكش يجري بها وادي النفيس الشهير (المصدر السابق ص٦٧٨).

(٦) أغمات: اسم لمدينتين هما أغمات وريكة وتقع على بعد ثلاثين ميلاً شرقي مدينة مراكش أما الثانية فهي أغمات إيلان (هيلانة) وكانت على الشمال الشرقي من الأولى على بعد أميال قليلة وقد خربت هذه الأخيرة وأصبح اسم أغمات يطلق مجرداً ليدل على أغمات وريكة وأغمات اليوم أطلال بالية (العباس بن إبراهيم: الأعلام ج١ ص١٠٠؛ الصديق بن العربي: كتاب المغرب، الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ، نشر دار الغرب الإسلامي، ص٥٨).

المغراوي[١] فضيق عليها الحصار، وقد قام لقوط بالدفاع بقوة عن مدينته، فلما لمس تفوق المرابطين وعبث مقاومته لهم اضطر إلى الفرار عنها إلى تادلا[٢].

دخل المرابطون مدينة أغمات سنة ٤٤٩هـ وأقام بها عبدالله شهرين يمهد أمرها ويستصلح أحوالها ويريح جنده[٣]. ثم نهض إلى بلاد تادلا وكانت خاضعة لبني يفرن من زناتة ففتحها وقتل من وجد بها من بني يفرن وظفر بلقوط المغراوي فقتله[٤].

بعد تادلا زحف عبدالله بن ياسين إلى تامسنا[٥] وكانت بها قبائل برغواطة وكانوا ذوي نحلة ضالة وعقائد فاسدة، وقد حاول من حكموا المغرب قبل المرابطين مثل بني يفرن، أن يقضوا على هذه النحلة وأن يرجعوا هذه القبائل إلى الحق لكن جهودهم كانت تبوء بالفشل[٦].

كان جهاد هؤلاء البرغواطيين المارقين عن الدين من أوكد الأمور عند

---

(١) لقوط بن يوسف المغراوي: آخر أمراء أغمات من مغراوة. قتله المرابطون سنة ٤٥٠هـ وتزوج الأمير أبو بكر بن عمر زوجته زينب بنت إسحاق النفزاوية وكانت مشهورة بالجمال والرياسة ولها في ذلك أخبار مشهورة (ابن خلدون: العبر ج٦ ص٣٧٦).

(٢) تادلا: منطقة تقع على بعد ٢٠٠ك.م. جنوب شرق الدار البيضاء الحالية يخترقها وادي وانسيفن (أم الربيع حالياً) قاعدتها الآن مدينة داي (الصديق بن العربي: مصدر سابق ص٩١).

(٣) ابن أبي زرع: مرجع سابق ص١٢٩.

(٤) المصدر السابق نفس الصفحة؛ ابن خلدون: مصدر سابق ص٣٧٦.

(٥) تامسنا: سهل يقع إلى الشمال من وادي أم الربيع يمتد على ساحل المحيط من الرباط (الحالية) إلى الدار البيضاء ويسمى الآن بالشاوية (الحميري: مصدر سابق ص١٢٩؛ ابن العربي: مصدر سابق ص٩٧).

(٦) ابن أبي زرع: مصدر سابق ص٣٠؛ الناصري: الاستقصا ج١ ص٢٢١؛ N.Slauch: L'EMPIRE de Berghouata, Revue du Monde Musulman, Tome x, 1910, P.P.294-400. ويذهب ناحوم سلوتش في مقاله هذا إلى أن دولة برغواطة كانت يهودية في أساسها واتجاهها ويستند في ذلك إلى بعض العادات التي كانت عند برغواطة ويرى أنها ذات أصل يهودي.

عبدالله بن ياسين، واعتبره من أولويات المرابطين لاستئصال شأفة هذا المنكر المستشري.

سار عبدالله بن ياسين إليهم في أعداد كبيرة من المرابطين ومن أتباعه الجدد المصامدة يصحبه الأمير أبو بكر بن عمر[١]. نشبت بين الطرفين وقائع عظيمة قتل فيها من الطرفين خلق كثير واستشهد فيها إمام المرابطين عبدالله بن ياسين سنة ٤٥١هـ[٢].

كان عبدالله بن ياسين حريصاً على نصح المرابطين حتى وهو في آخر رمق من حياته، فإنه لما أصيب في المعركة وحمل إلى عسكره وبه رمق جمع أشياخ المرابطين ورؤساءهم وقال لهم: «يا معشر المرابطين إنكم في أرض أعدائكم وإني ميت في يومي هذا فإياكم أن تجبنوا أو تفشلوا فتذهب ريحكم، وكونوا أعواناً على الحق وإخواناً في ذات الله تعالى...»[٣] إنه إحساس بالمسؤولية عظيم وسعي دائم لتحقيق ما نذر نفسه له من إنشاء دولة أفرادها أعوان على الحق إخوان في ذات الله تعالى.

لقد قطع عبدالله بن ياسين شوطاً كبيراً من درب تكوين دولة المرابطين، فعند رحيله كان المرابطون قوة سياسية واجتماعية واقتصادية وعسكرية قوامها الدين. تحتل رقعة ترابية شاسعة تمتد من حدود نهر السنغال إلى وسط المغرب الأقصى[٤] لها عملة مضروبة[٥]، وعاصمة وبيت مال. تسير ذلك كله

---

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٣١.

(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٣٢؛ البكري: المسالك ج٢ ص٨٦٣؛ ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص١٦؛ الناصري: الاستقصا ج٢ ص١٩؛ يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ص٦٤؛ على أن القاضي عياض في المدارك ج٨ ص٨٣ وابن خلدون: العبر ج٦ ص٣٧٦ يذكران أن وفاة عبدالله بن ياسين كانت سنة ٤٥٠هـ.

(٣) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٣٢؛ عبدالله كنون: عبدالله بن ياسين ص٢٦.

(٤) حسن محمود: قيام دولة المرابطين ص١٥٣؛ عبدالواحد شعيب: دور المرابطين في الجهاد بالأندلس ص١٩.

(٥) الحبيب الجنحاني: دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي ص١٠٢.

حكومة منظمة ذات أمير مختار على أساس من الكفاءة والدين، ومجلس شورى يستشار في المسائل الكبرى للجماعة[1]، وجيش قوي يحمل الدعوة ويحميها. وقد أدخل عبدالله على المرابطين طريقة جديدة في القتال بالنسبة للمنطقة هي طريقة القتال صفاً فكسب المرابطون بذلك قوة قتالية كبرى[2].

وفوق هذا كله ترك عبدالله بن ياسين لأتباعه هدفاً سامياً يعيشون من أجله هو إعلاء كلمة الله، وقد حرص عبدالله أن يتجلى هذا في كل أعمال المرابطين، فالنقود التي ضربوها منذ سنة ٤٥٠هـ مكتوب عليها الشهادتان والآية الكريمة: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾[3]. وقد نهج عبدالله بن ياسين لقومه نهجاً قويماً ليسيروا عليه لبلوغ الهدف المنشود، وقوام هذا النهج هو الالتزام بشرع الله في كل الأمور صغيرها وكبيرها. وقد أثمر ذلك المنهج: انمحاء البدع والفرق الضالة وتوحيد المغرب الأقصى مذهبياً على مذهب أهل السنة والجماعة لأول مرة في تاريخه[4]. كما أزال الظلم الاجتماعي والاقتصادي بالقضاء على المكوس والمغارم السلطانية مما أدى إلى ظهور فترة من الأمن الاقتصادي والرخاء[5] فنشطت الحركة التجارية وانخفضت الأسعار[6]. لقد كانت هذه الإصلاحات ذات أثر بعيد المدى في تاريخ الدعوة المرابطية إذ أظهرت للناس في المغرب أن المرابطين قوم لا يبغون جاهاً ولا مالاً وإنما يبتغون الإصلاح وإنقاذ الناس مما تردوا فيه من جور وعسف[7].

---

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٢٧.

(٢) البكري: المسالك ج٢ ص٨٦١؛ عبدالله العروي: مجمل تاريخ المغرب ج٢ ص١١٤.

(٣) J.Devisse: Tegaoust I, 154؛ حبيب الجنحاني: دراسات في التاريخ الاقتصادي للمغرب ص١٥٣.

(٤) عبدالله كنون: عبدالله بن ياسين ص٢٣؛ محمد رزوق: دراسات في تاريخ المغرب ص٧٤.

(٥) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٦٧؛ J.Cuop: op.cit. 56.

(٦) الحبيب الجنحاني: دراسات في التاريخ الاقتصادي للمغرب ص٩٦.

(٧) محمد عبدالهادي شعيرة: المرابطون ص٥٥؛ سعيد أعراب: عبدالله بن ياسين (دعوة الحق. ع٧) ص١٠٥.

لم يكن عبدالله بن ياسين مجرد فقيه بل كان صاحب دعوة في الإصلاح[1]، وكان من رأيه أنه لا يعصم المجتمع من الفساد إلا استعمال اللين والقوة كل في مكانه المناسب وكل من أجل الحق.

لقد كان يدعو ويعظ ويذكّر، لكنه كان مقتنعاً أن الحق والصلاح لكي يثمرا لا بد لهما من دولة ترعاهما وتقوم عليهما. والنموذج الحاضر في ذهنه الذي كان يترسم خطاه ويريد الوصول إليه هو دولة الإسلام في عهدها المجيد عهد رسول الله ﷺ وأصحابه من بعده. لقد تمكن عبدالله بن ياسين أن يصل إلى أهدافه بفضل صفات نادرة اجتمعت فيه، فقد كان ذا علم واسع[2] وخطيباً مفوهاً بليغاً ومؤمناً مخلصاً لرسالته متفانياً في تحقيقها صابراً على ما أصابه فيها. وكان عبدالله نموذجاً حياً لما يدعو إليه فقد كان كثير الصوم متورعاً لا يأكل إلا من الصيد أو عمل يده متقشفاً في المأكل والمشرب[3]، زاهداً في المكاسب الدنيوية من مال وجاه ومنصب، ومن أظهر أمثلة هذا الزهد أن المرابطين لما احتلوا سجلماسة وبدأوا بضرب سكة يتعامل بها سنة ٤٥٠هـ لم يكتب على هذه السكة اسم عبدالله بن ياسين مع أنه هو الحاكم الفعلي للمرابطين بل كتب عليها اسم الأمير أبي بكر بن عمر إلى جانب اسم الخليفة العباسي[4].

لقد كتب المرابطون اسم الخليفة العباسي على سكتهم ليرسخوا مبدأ الوحدة وتبعية ديار المسلمين مهما بعدت لحاكم واحد هو الخليفة العباسي، مهما كانت تلك التبعية اسمية فقط.

إن كتابة اسم الخليفة العباسي على السكة المرابطية تعبر عن نفسية

---

(١) حسن محمود: قيام دولة المرابطين ص١٦٠؛ الحسن السائح: الحضارة الإسلامية في المغرب ص١٧٤.

(٢) الحلل الموشية: ص٢٠؛ ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص١٠.

(٣) البكري: المسالك ج٢ ص٨٥٩؛ ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٢٤.

(٤) الحبيب الجنحاني: دراسات في التاريخ الاقتصادي للمغرب ص١٠٣.
H.Lavoix: Catalogue des monnaies de la Bib. Nat. P.556. Piece 507.

رافضة لحالة التشرذم التي كانت تعيشها الأمة الإسلامية عامة وبلاد المغرب الأقصى خاصة، مبشرة بأمل وحدة مهما كان حجمها[١].

ومما هو جدير بالتسجيل أن عبدالله بن ياسين لم يلجأ في سعيه لإنجاح دعوته إلى شعوذة ولا ادّعاء فلم يدّع لنفسه ولا ادّعى له أصحابه أنه مهدي ولا أنه يعلم الغيب، ولم ينتحل لنفسه نسباً مميزاً كما فعل ذلك كثيرون غيره[٢].

## الأمير أبو بكر بن عمر ومواصلة جهود عبدالله بن ياسين:

لقد حرص عبدالله بن ياسين بعد أن جرح في المعركة مع البرغواطيين أن يندب المرابطين إلى تجديد البيعة لأبي بكر بن عمر اللمتوني وأن تضاف إليه بعض المهام التي كان يقوم بها عبدالله بن ياسين مثل تقسيم الفيء وأخذ الزكوات والأعشار[٣]، وقد قبل أشياخ المرابطين تقديم أبي بكر عليهم وأجمعوا على ذلك[٤].

كما اتفقوا على تقديم الفقيه سليمان بن عذراء[٥] ليرجعوا إليه في

---

(١) وهذا العمل لا يدل على ما ذهب إليه د. العروي من محاولة لتطويق الفاطميين، ويشهد لذلك أن المرابطين اهتموا أساساً بالجهاد شمالاً ولم يتوغلوا شرقاً، ثم أن اتصالهم بالعباسيين لم يكن اتصال توجيه بل اقتصر على التبعية الشكلية.

(٢) أمثال عبيدالله المهدي (ت٣٢٢هـ): الذي ادّعى أنه الإمام المنتظر والمهدي الذي يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً، وهو أول خلفاء الدولة الفاطمية ومؤسسها، وكذلك فعل المهدي بن تومرت الذي سنتحدث عنه في فصل لاحق. (ابن خلدون: العبر ج٦ ص٢٢٣).

(٣) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٣٢؛ عبدالله كنون: مرجع سابق ص٢٦.

(٤) ابن أبي زرع: المصدر السابق ص١٣٢.

(٥) سليمان بن عذراء الجزولي (ت٤٥٢هـ): أحد رفاق عبدالله بن ياسين وأبناء عمومته وأحد تلاميذ شيخه وجاج بن زولو اللمطي (عياض: ترتيب المدارك ج٨ ص٨٠؛ ابن خلدون: العبر ج٦ ص١٨٣ وقد سماه ابن خلدون سليمان بن عدو) هذا ولم تذكر المصادر، هل كان تعيين سليمان بأمر من عبدالله بن ياسين أم لا؟.

مشاكلهم الدينية[١]. ما كاد أبو بكر بن عمر ينتهي من دفن عبدالله بن ياسين بكريفلة[٢] حتى عبأ قواته واستأنف عمل شيخه في جهاد برغواطة، وقد تمكن الأمير أبو بكر من استئصال شأفتهم وتمزيق شملهم فأذعنوا له بالطاعة واعتنقوا الدين الحق فلم يبق لنحلتهم أثر[٣].

ويبدو أن هذه المعارك كانت من الشراسة بحيث دامت أشهراً عدة، واستشهد فيها شيخ المرابطين الجديد الفقيه سليمان بن عذراء سنة ٤٥٢هـ[٤]. ويبدو أن المرابطين لم يعينوا أحداً لخلافته[٥]، ربما لانتشار العلم بين المرابطين فظهر منهم علماء كبار من أمثال لمتاد بن بكين اللمتوني وأبي القاسم بن عذراء[٦]. كما أن المناطق التي دخلها المرابطون فاتحين كانت تضم فقهاء أجلاء هم السند الآن للدولة المرابطية والتي قربتهم وأعلت شأنهم وقسمت فيهم الأموال[٧].

اتخذ الأمير أبو بكر بن عمر من مدينة أغمات مركزاً لقيادته، ثم تابع

---

(١) ابن خلدون: المصدر السابق من نفس الصفحة.

(٢) كريفلة: موضع قريب من مدينة الرباط الحالية.

A.BENACHENHOU: Sidi ABDALLAH Mou -1- gara ou ABDALLA ibn Yassin, Hesperis 1946 P.406-413.

(٣) ابن أبي زرع: مصدر سابق ص١٣٣؛ مجهول: بيوتات فاس الكبرى ص٢٩.

(٤) ابن خلدون: مصدر سابق ص١٨٣؛ عياض: مصدر سابق ص٨٠.

(٥) تذكر د. عصمت دندش (دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب أفريقيا ص٩٧) أن المرابطين اختاروا أبا القاسم بن عذراء ليخلف أخاه الشيخ سليمان ونسبت ذلك القاضي عياض في المدارك ولكن بالرجوع إلى النص المذكور نجد أنه لا يذكر هذه المعلومة بل اقتصر على وصف أبي القاسم بأنه أخو سليمان القائم بأمر المرابطين بعد عبدالله بن ياسين (عياض: المدارك ج٨ ص٨٠).

(٦) أبو القاسم بن عذراء الجزولي: فقيه، أخو سليمان بن عذراء وأحد تلاميذ وجاج بن زولو اللمطي شيخ عبدالله بن ياسين (عياض: المدارك ج٨ ص٨٠).

(٧) يرى بعض المستشرقين في عدم تعيين مرشد ديني للمرابطين خلفاً لسليمان نوعاً من التخلي عن الطابع الديني للدولة وأن المرابطين أصبحوا مجموعة غزاة H.TERRASSE: Histoire du MAROC P.221.

طريق الجهاد الذي رسمه له عبدالله بن ياسين فجهز جيشاً كبيراً من صنهاجة وجزولة والمصامدة ففتح بلاد فازاز[1] ثم فتح بلاد مكناسة[2] ثم عرج على بلاد لواتة[3] ففتحها عنوة ورجع إلى أغمات.

كان الأمير أبو بكر بن عمر يدرك أن السبيل الوحيد للسيطرة على جنوب المغرب الأقصى أولاً والانطلاق إلى الشمال ثانياً، هو أن تتجمع جنوده عند أقدام جبال الأطلس الجنوبية، فتكون هذه متكأ وملجأ ويكون السهل تحت عيونهم والطريق الجبلي إلى فاس على مسمع منهم، وكانت أغمات مناسبة لتجسيد هذا المخطط إلا أن أهلها ضاقوا بأعداد المرابطين المتزايدة وشكا أشياخ قبيلتي وريكة وهيلانة[4] إلى الأمير أبي بكر بن عمر هذا الوضع فطلب منهم إرشاده إلى موضع يرتحل إليه مع جيشه فاختاروا له مكان مراكش الحالية فنزله أبو بكر ومعه قومه من المرابطين وأشياخ المصامدة فبدأ في بناء معسكره فيها[5] وذلك سنة ٤٥٤هـ[6].

---

(١) فازاز: قبيلة من قبائل البربر (ابن خلدون: العبر ج٦ ص٨٩).

(٢) مكناسة: قبيلة من قبائل بربر زناتة لعبت دوراً هاماً في سياسة المغرب الأقصى وكان القسم الأكبر من أفرادها يسكنون شرقي المغرب الأقصى. وإلى هذه القبيلة تنسب مدينة مكناس الحالية (محمد بن غازي: الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون).

(٣) لواتة: قبيلة من قبائل البربر البتر (ابن خلدون: العبر ج٦ ص٨٩-١٠٠).

(٤) الحلل الموشية: ص٢٣؛ ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص١٩.

(٥) ليفي بروفينسال: الإسلام في المغرب والأندلس ص٢٤٣؛ نقولا زيادة: أفريقيا ص١٠٤.

(٦) لقد اختلف المؤرخون في تاريخ إنشاء مراكش كما اختلفوا في مؤسسها فقد ذكر مؤلف الحلل الموشية (ص٢٣) وابن عذارى (البيان المغرب ج٤ ص١٩) وصاحب بيوتات فاس الكبرى (ص٢٩) أن مراكش أسست سنة ٤٦٢هـ وأن الذي أسسها هو أبو بكر بن عمر اللمتوني ويذهب إلى هذا الرأي من المحدثين د. أحمد العبادي في بحثه (دراسة حول كتاب الحلل الموشية) ص١٤٣ وحسين مؤنس (تاريخ المغرب ج٢ ص١٩) ود. إبراهيم بوتشيش (المغرب والأندلس في عصر المرابطين ص١٣) ومن المؤرخين الأجانب.

Levi - Provencal: La fondation de MarraKech (462-1070). Melanges d'Histoire et d'Archeologie de l'occident Musulman tom II P.117.

- A.Huici Mirinda: La Salida de los Almoravides del deierto, Hesperis 1959.

= - G. Deverdun.

في هذه الأثناء وردت على أبي بكر بن عمر رسل تخبره بوقوع الفتنة بين قبائل المرابطين في الصحراء[1] وكان الأمر خطيراً إذ أن قبائل الملثمين بالصحراء وخصوصاً لمتونة هم القاعدة الخلفية والاحتياط البشري للمرابطين. «وهم أصل أعياصهم ووشايج أعراقهم، ومنبع عددهم، فخشي افتراق الكلمة وانقطاع الوصلة»[2].

واتخذ أبو بكر قراراً حاسماً بأن يعود إلى الصحراء بنفسه ليعيد الأمور إلى نصابها ويزيل أسباب الفرقة ودواعي الشحناء.

لقد استشعر الأمير أبو بكر أن مهمته هذه ستستغرق زمناً قد يطول لأنه أضاف إلى هدفه الأصلي هدفاً جديداً وهو الجهاد في أرض السودان الغربي. وفي سبيل هذه الأهداف اضطر الأمير المجاهد أن يترك زوجته وأهله. فقد قال لزوجته زينب[3] عند فراقه لها: يا زينب إني سائر إلى أرض الصحراء برسم الجهاد لعلي أرزق الشهادة ولا يمكنني أن أمشي عنك وأنت في عصمتي والرأي أن أطلقك. ثم اقترح على ابن عمه يوسف بن

---

= في حين يرى كل من ابن أبي زرع (روض القرطاس ص١٣٨) وابن خلدون (العبر ج٦ ص٣٧٨) وتبعهم في ذلك من المحدثين محمد عبدالله عنان (دول الطوائف ص٣١٠) د. محمد الهادي شعيرة (المرابطون ص٥٦) ومن المؤرخين الأجانب: H.Terrasse: Histoire du Maroc P.222 أن يوسف بن تاشفين هو الذي أسس مراكش سنة ٤٥٤هـ. والذي يظهر أن أبو بكر بن عمر هو الذي اختار موقع مراكش ولكن الظروف اضطرته للسفر عنها فكان يوسف هو المؤسس الحقيقي لها.

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٣٤؛ ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص٢٠.

(٢) ابن خلدون: العبر ج٦ ص٣٧٧.

(٣) زينب بنت إسحاق النفزاوية: امرأة أجمعت المصادر على وصفها بالجمال والفطنة والذكاء تزوجها قبل الأمير أبي بكر، كل من يوسف بن علي شيخ وريكة وهزرجة ثم لقوط بن يوسف المغراوي حاكم أغمات الذي قتله المرابطون عند استيلائهم على أغمات سنة ٤٥٠هـ؛ وقد ذكر ابن أبي زرع في روض القرطاس أنها توفيت سنة ٤٦٤هـ وهذا يتعارض مع ما ذكره ابن عذارى من أنها ولدت ابنها الفضل سنة ٤٦٩هـ وفي الإحاطة لابن الخطيب ج٣ ص٥٢٣ أن ابن اسباط التحق بخدمتها سنة ٤٧٢هـ فلعلها توفيت بعد هذا التاريخ.

تاشفين أن يتزوجها لأنها امرأة مسعودة، فتزوجها يوسف[1].

لقد حتم هذا الظرف الجديد على الأمير أبي بكر بن عمر أن يختار أحد رجاله لإنابته على شؤون المغرب الأقصى ومواصلة جهود الإصلاح التي كان أبو بكر بن عمر وإمامه عبدالله بن ياسين قد بدءاها. وقد وقع اختيار الأمير أبي بكر بن عمر على قائد لامع من قواد المرابطين هو يوسف بن تاشفين اللمتوني[2]. وقد بدأ اسم يوسف في الظهور عندما جعله الأمير أبو بكر على مقدمة جيشه السائر لفتح بلاد المصامدة وبلاد السوس وذلك سنة ٤٤٨هـ[3].

لقي اختيار يوسف بن تاشفين رضى أشياخ المرابطين الذين يتكون منهم مجلس الشورى المرابطي لما يعلمون من دينه وشجاعته وحزمه ونجدته وعدله وورعه. فعقد له الأمير أبو بكر بن عمر على المغرب وفوض إليه أمره[4]. واقتسم معه الجيش فسار أبو بكر بنصفه وترك النصف الآخر[5] مع يوسف ليواصل الجهاد شمالاً.

مر الأمير أبو بكر في طريقه[6] إلى صحراء الملثمين بتادلا وسجلماسة ليتفقد أحوال الرعية. كان مسير الأمير أبي بكر إلى الصحراء سنة **٤٥٤هـ** حيث تمكن من حل المشاكل القائمة بين قبائل المرابطين في الصحراء.

---

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٣٤؛ ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص٢١.

(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٣٤؛ ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص٢١؛ ابن خلدون: العبر ج٦ ص٣٧٧؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٧ ص١١٢.

(٣) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٢٨.

(٤) ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص٢١؛ ابن خلدون: العبر ج٦ ص٣٧٧.

(٥) يذكر صاحب الحلل الموشية (ص٢٤) أن الأمير أبا بكر أخذ ثلثي الجيش معه إلى الصحراء وترك ثلثاً مع يوسف في حين ذكر ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٣٤ أن الأمير أبا بكر قسم الجيش نصفين.

(٦) سمي الطريق الذي سلكه الأمير أبو بكر بن عمر عائداً إلى الصحراء بطريق اللمتوني (نقول زيادة: أفريقيا ص٣٤٨)؛
F.De la Chapelle: Esquisse d'une Histoire du Sahara Occidental P.64.

ولتعزيز حال السلم هذه ندب الأمير أبو بكر قبائل الملثمين إلى ما هو أجدى لهم وهو الجهاد في سبيل الله بأرض السودان الغربي.

لقد انحصر اهتمام المرابطين بالجنوب في فترة عبدالله بن ياسين باحتلال مدينة أودغست سنة ٤٤٦هـ ثم انصب اهتمامهم بالشمال. وبعودة الأمير أبي بكر هذه بدأ الاهتمام بالجنوب من جديد.

لا يتحدث المؤرخون عن هذا الجهاد بالتفصيل بل إن معظمهم يكتفي بالإشارة إليه إشارة عابرة. على أن هذه الإشارة على اقتضابها تدل على أهمية الجهد الذي قام به الأمير أبو بكر بن عمر فقد هدن الصحراء وسكن أحوالها وجمع جيوشاً كثيرة وخرج إلى غزو بلدان السودان فجاهدهم حتى فتح من بلادهم مسيرة ثلاثة أشهر[١].

لقد انشغل المؤرخون بمتابعة أعمال المرابطين في الشمال ورصد تحركات قائدهم يوسف بن تاشفين، ففي الوقت الذي كان فيه الأمير أبو بكر بن عمر يجاهد في أرض السودان كان يوسف يسير لتحقيق المهمة التي ندبه إليها أميره أبو بكر بن عمر، فلما وصل إلى وادي ملوية عمد إلى توزيع عبء القيادة على فرسان قومه وأنجادهم فقسم جيشه إلى أقسام واختار لكل قسم قائداً من أشهر القواد وهم: سير بن أبي بكر اللمتوني[٢] ومحمد بن تميم الجدالي[٣] وعمر بن سليمان المسوفي[٤] ومدرك التلكاني[٥]

---

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٣٥؛ ابن خلدون: العبر ج٦ ص٣٧٧.

(٢) سير بن أبي بكر بن تاشفين (ت٥٠٧هـ): ابن أخي يوسف بن تاشفين وأحد قواده وأعاظم رجال دولته، وهو الذي استنزل ملوك الطوائف عن عروشهم، وكانت له مقامات صدق في الجهاد بالأندلس (العباس بن إبراهيم: الأعلام ج١٠ ص١٦٢).

(٣) محمد بن تميم الجدالي: نسبة إلى قبيلة جدالة أحد قواد المرابطين (ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٣٨).

(٤) عمر بن سليمان المسوفي: نسبة إلى قبيلة مسوفة أحد قواد المرابطين (ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٣٨).

(٥) مدرك التلكاني: أحد قواد المرابطين، وقد ورد اسم مزدلي بدلاً منه (أعمال الأعلام: لابن الخطيب ص٢٣٤). ويظهر من خلال هذا التوزيع أن يوسف راعى الوضع القبلي.

وعقد لكل واحد منهم على خمسة آلاف رجل وبعث بهم إلى أنحاء المغرب لقتال القبائل العاصية، وتولى يوسف قيادة بقية الجيش وزحف إلى أحواز فاس التي كان يحكمها معنصر بن المعز الزيري[1] آخر ملوك مغراوة بفاس، وقد أبدى هذا الأخير شجاعة عظيمة في مقاومة المرابطين ولكن يوسف استطاع دخول فاس سنة ٤٥٥هـ[2] وقد فر منها معنصر. خلف يوسف على فاس عاملاً ثم مضى لمحاربة غمارة وفتح كثيراً من حصونها وقلاعها. انتهز معنصر الفرصة ودخل مدينة فاس وقتل عامل يوسف عليها ومن كان بها من المرابطين.

كان يوسف آنذاك مشغولاً بمحاصرة قلعة مهدي من بلاد فازاز فوجه بعض قواته لمحاصرة فاس وقد تمكنت هذه القوات من تضييق الخناق على فاس وقتل معنصر سنة ٤٦٠هـ[3]، فخلفه ابنه تميم. فلما فرغ يوسف من أمر غمارة سنة ٤٦٢هـ زحف إلى فاس وحاصرها أياماً ثم افتتحها الفتح الثاني سنة ٤٦٢هـ[4].

وفي سنة ٤٦٤هـ شعر الأمير أبو بكر بن عمر أن الوضع في جبهة الجنوب قد استقر وأن أسباب الفرقة قد زالت بين قبائل الملثمين وأن الجهاد أصبح الشغل الشاغل لهذه القبائل لذا فقد قرر العودة إلى الشمال[5].

وصل الأمير أبو بكر بن عمر إلى أغمات سنة ٤٦٥هـ وكانت أنباء

---

(١) معنصر بن المعز بن زيري بن عطية المغراوي: آخر ملوك مغراوة بفاس والتي حكمها من (٤٥٥-٤٦٠هـ) كان ذا حزم وشجاعة ونجدة (ابن القاضي: جذوة الاقتباس ج١ ص٣٣٧؛ ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١١٢).

(٢) لقد اضطرب المؤرخون في تواريخ دخول فاس وعدد الدخلات كما اضطربوا في أسماء من كان بها من مغراوة، ومجمل الأمر أنها دخلت أكثر من مرة (روض القرطاس ص١١٣؛ ابن خلدون: العبر ج٦ ص٣٧٩؛ ابن القاضي: جذوة الاقتباس. ج١ ص٣٣٧).

(٣) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١١٣؛ ابن القاضي: جدوة الاقتباس ج١ ص٣٣٧.

(٤) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١١٣؛ ابن خلدون: العبر ج٦ ص٣٨٠.

(٥) ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص٢٣؛ مجهول: الحلل الموشية ص٢٥.

رجوعه قد سبقته. وشعر يوسف بدقة الموقف وحرجه، إذ لا يمكنه أن يتمرد على إمامه وأميره الشرعي أبي بكر فدينه يأبى له ذلك، في حين يتعرض لضغط زوجته زينب[1]، بأن لا يتخلى عما بيده من ملك. ويبدو أن يوسف قد ضعف أمام إغراء التشبث بالسلطة فانصاع لرأي زوجته التي حبكت له خطة محكمة ليصل إلى مبتغاه، وتقوم هذه الخطة على إظهار القوة والجفاء والغلظة مع الملاطفة بالهدايا. وكانت زينب مقتنعة بنجاح الخطة لأن الأمير أبا بكر، كما قالت ليوسف، «رجل متورع عن سفك الدماء ولا تسهل عليه الفتنة»[2]. وهذا الحكم صادر عن معرفة شخصية، فزينب، كما ذكرنا من قبل، كانت زوجة لأبي بكر بن عمر.

طبق يوسف بن تاشفين الخطة المرسومة: فوصل للقاء الأمير أبي بكر، في جنوده وعبيده وتلقاه في منتصف الطريق بين أغمات ومراكش، فسلم عليه راكباً، ولم تكن هذه عادته. وقد تعجب الأمير أبو بكر بن عمر مما رأى من ضخامة ملك ابن تاشفين ووفرة جنوده فقال له: «يا يوسف ما تصنع بهذه الجيوش كلها؟ قال: أستعين بها على من خالفني»[3] لقد كان الجواب يفصح عن النوايا المبيتة. ونظر الأمير أبو بكر إلى ألف بعير موقورة قد أقبلت فسأل يوسف من جديد عن هذه الإبل فقال يوسف: «أيها الأمير جئتك بكل ما معي من مال وثياب وشيء من الإدام والطعام لتستعين بها على الصحراء»[4].

كانت تلك الإجابات غنية عن الشرح فيوسف قد قرر نتيجة ضغط زوجته أن يخلع ربقة الطاعة لأميره، وأن يتمرد على أميره منتهكاً بذلك مبدأ أساسياً من مبادىء الإسلام وهو وجوب طاعة ولي الأمر وحرمة الخروج

---

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٣٥؛ ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص٢٣.
(٢) ابن أبي زرع: مصدر سابق ص١٣٥؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام ج٣ ص٢٣٣.
(٣) ابن عذارى: المصدر السابق ص٢٥؛ ابن أبي زرع: مصدر سابق ص١٣٥؛ الحلل الموشية: ص٢٦.
(٤) ابن أبي زرع: مصدر سابق ص١٣٥.

عليه، وخصوصاً إذا كان ذلك الأمير أميراً مجاهداً صالحاً مثل أبي بكر بن عمر.

كان الموقف الجديد يقتضي من أبي بكر أحد إجراءين: إما مواجهة يوسف عسكرياً وإخضاعه وإما التخلي له عن ما بيده من حكم وسلطة.

ولما كان الأمير أبو بكر بن عمر ورعاً تقياً وهب حياته لإعلاء كلمة الله سعياً لنيل الدرجات الباقية، فإنه لم يكن ليبيع الباقية بالفانية، وتلك إحدى نتائج التربية العميقة التي رباه عليها الإمام عبدالله بن ياسين. ولا شك أن وصية ذاك الإمام الأخيرة وهو يجود بنفسه ما زالت أصداؤها تتكرر في مسمع الأمير أبي بكر: «يا معشر المرابطين إياكم أن تجبنوا أو تفشلوا فتذهب ريحكم وكونوا أعواناً على الحق وإخواناً في ذات الله تعالى وإياكم والمخالفة والتحاسد على طلب الرياسة، فإن الله يؤتي ملكه من يشاء ويستخلف في أرضه من أحب من عباده»[1].

كل هذه العوامل أدت بالأمير أبي بكر بن عمر إلى قبول الواقع الجديد الذي فرضه يوسف. فجمع الأمير أبو بكر أشياخ المرابطين من لمتونة وأعيان الدولة والكتاب والشهود وأشهدهم على نفسه بالتخلي ليوسف عن المغرب[2].

ورغم هذا التصرف غير المشروع الذي قام به يوسف والذي يدل على الطمع وحب الرئاسة، فإن يوسف كان يتحلى بصفات حميدة كثيرة لعل أبرزها الشجاعة والحزم والنجدة وسداد الرأي، وقبل ذلك كله دينه القويم[3].

---

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٣٢.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص٢٥؛ مجهول: الحلل الموشية ص٢٦؛ ابن أبي زرع: المصدر السابق ص١٣٢.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٧ ص١١٢؛ ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص٢٥؛ مجهول: الحلل الموشية: ص٢١؛ ابن أبي زرع: مصدر سابق ص١٣٦؛ أحمد بن القاشي: جذوة الاقتباس ج٢ ص٥٤٥.

أوصى الأمير أبو بكر يوسف بالوصية التالي: «يا يوسف إني وليتك هذا الأمر وإني مسؤول عنه فاتق الله في المسلمين وأعتقني وأعتق نفسك ولا تضيع من أمور رعيتك شيئاً فإنك مسؤول عنهم. والله تعالى يصلحك ويمدك ويوفقك للعمل الصالح والعدل في رعيتك، وهو خليفتي عليك وعليهم»[١].

إنها وصية ناصح مشفق يعرف أن تولي أمر المسلمين أمانة وحمل ثقيل وليست غنماً وفيئاً. إنه الفهم الصحيح لمعنى المسؤولية وتولي شؤون المسلمين، منبعه تربية وتعليم العلماء العاملين.

لم يكن هذا اللقاء نهاية دور الأمير أبي بكر بن عمر بل كان مرحلة انتقال إلى مهمة جديدة من مهام الجهاد الذي عاش من أجله.

## الأمير أبو بكر بن عمر والجهاد في السودان الغربي:

عهد الأمير أبو بكر بأمر المغرب إلى يوسف بن تاشفين ثم ارتحل ميمماً أرض الملثمين بموريتانيا لمواصلة جهاد المشركين من أهل السودان الغربي. كان يحكم بلاد السودان الغربي في ذلك الوقت مملكة غانة التي تعتبر أقدم دولة في غرب أفريقيا. وقد رجح المؤرخون أن تاريخ نشأتها يرجع إلى القرن الرابع الميلادي[٢].

وأضحت هذه المملكة في القرن العاشر الميلادي إمبراطورية عظمى. وقد وصف ابن حوقل الذي زار أودغست سنة ٣٤٠هـ ملوك غانة في ذلك الوقت بقوله: «وملوكها أيسر من على وجه الأرض بما لديهم من الأموال المدخرة من التبر»[٣].

وكانت عاصمة هذه الدولة من أعظم مدن السودان الغربي في تلك القرون. وقد امتد نفوذ هذه المملكة ما بين نهر السنغال ونهر النيجر وجزء

---

(١) ابن أبي زرع: مصدر سابق، ص١٣٥.

(٢) إبراهيم طرخان: إمبراطورية غانة الإسلامية ص. ٢٢

J.Ki-Zerbo: Histoire de L'Afrique Noire P.107.

(٣) ابن حوقل: صورة الأرض ص٩٨.

من الصحراء الموريتانية. وكان لموقعها على الطريق التجاري الذي يصل الشمال الأفريقي بمصادر الذهب في الجنوب أثر في ثرائها وقوتها. لقد كان اتصال الإسلام بهذه المملكة قديماً عن طريق التجار والمراكز التجارية الإسلامية التي كان يردها أهل غانة. وقد كان للإسلام وأهله مكانة واحترام كبير لدى ملوك غانة فسكنت جالية كبيرة من المسلمين عاصمة غانة وكان لهم بها مساجد وفيها فقهاء وحملة علم[١].

لقد غرس هؤلاء الدعاة البذور الأولى للإسلام في السودان الغربي.

وإلى جانب مملكة غانة كانت هناك دول أخرى مثل دولة التكرور في حوض السنغال التي أسلم ملكها وارجابي بن رابيس في مطلع القرن الخامس الهجري على يد هؤلاء الدعاة التجار. وقد أقام وارجابي (ت٤٣٢هـ) شرائع الإسلام وحمل رعاياه عليها وحقق بصائرهم فيها[٢]. ولم يكتف هذا الملك التكروري بهذا بل حمل دعوة الإسلام إلى الممالك المجاورة فأسلم أهل سلي على يديه[٣].

ويبدو أن ملوك التكرور كانوا على إسلام صحيح ومنهج قويم بدليل تحالفهم مع دولة المرابطين من أول وهلة من قيامها. فقد ذكرت المصادر

---

(١) لقد اختلف المؤرخون حول موضع عاصمة غانة واسمها وأقرب الاحتمالات أن موقع عاصمة غانة هو المكان المسمى اليوم كومبى صالح والواقع في المنطقة الشرقية من موريتانيا إلى الجنوب من مدينة تنبدغة، وقد أخطأ إبراهيم طرخان (إمبراطورية غانة ص٣٣) عندما جعلها في دولة مالي الحالي. وقد ذهب عدد من المؤرخين:

-Delafosse, M.: Ghana & Mali et l'EMPLACEMENT de leurs capitales B.C.E.H.S. 1924 P.379.

- Desire - Vuiliemen: Les Capitales de l'oust African villes mortes et capitales de Jadis.

J.Ki-ZERBO: Histoire de L'Afrique Noire P.111.

إلى أن عاصمة غانة تحمل نفس الاسم الذي أطلق على الإمبراطورية.

(٢) البكري: المسالك ج٢ ص٨٦٨.

(٣) المصدر السابق: نفس الصفحة.

أن ملك التكرور لبي بن وارجابي نهض لمساندة الأمير يحيى بن عمر اللمتوني لما حاصر جدالة سنة ٤٤٨هـ[١].

إلا أن انتشار الإسلام في السودان الغربي ظل محدوداً إلى أن حملت لواء نشره حركة المرابطين التي تكونت في المنطقة المحاذية للسودان الغربي.

ولئن كان اهتمام الإمام عبدالله بن ياسين بالجنوب محدوداً فإن الأمير أبا بكر بن عمر أعطاه جل اهتمامه وحيزاً مهماً من حياته. فقد جاهد في السودان الغربي عندما عاد إلى الصحراء عودته الأولى سنة ٤٥٤هـ لحل مشاكل قبائلها، واستمر جهاده إلى سنة ٤٦٤هـ ثم عاد من جديد إلى صحراء الملثمين سنة ٤٦٥هـ ليتفرغ كلياً للجهاد ونشر دين الله في منطقة السودان الغربي.

إن مما يؤسف له أن المؤرخين لم يهتموا كثيراً بنقل تفاصيل جهاد الأمير أبي بكر بن عمر بل اكتفوا بالإشارة إليه إشارة عابرة غير دقيقة في أغلبها.

أمضى الأمير أبو بكر بن عمر خمسة عشر عاماً في الجهاد احتل خلالها الكثير من الأراضي التابعة للدولة الغانية. وكان أهل هذه المناطق يخيرون بين دخول الإسلام أو دفع الجزية. وقد توجت جهود الأمير أبي بكر بن عمر بسقوط دولة غانة بيد المرابطين سنة ٤٦٩هـ[٢]. وقد اعتنق ملك غانة الإسلام فأبقاه الأمير أبو بكر في ملكه تابعاً للمرابطين[٣]. وقد وصلت فتوحات الأمير أبي بكر إلى مناطق واسعة فاحتل المرابطون مناجم الذهب من بلاد السودان[٤].

ولئن نزحت بعض القبائل الزنجية من مواضع تواجدها وانحازت

---

(١) البكري: المصدر السابق ص٨٦٢.

(٢) إبراهيم طرخان: إمبراطورية غانة الإسلامية ص٥٣.

J.Cuoq: Histoire de L'Islamisation de L'Afrique de L'ouest P.42.

(٣) J.KIZERBO: Histoire de L'Afrique Noire P.111.

(٤) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٣٥.

جنوباً[1] فقد اندمجت الأغلبية عن طريق إسلامها وكونت أمة واحدة في إطار الدولة المرابطية وأصبحوا شركاء مع الملثمين في هذه الدولة[2].

لقد كان للعلماء دور كبير في نشر الإسلام في ربوع السودان الغربي وتعميق معارف أهله بالإسلام. ولعل أشهر من قام بهذا الدور في فترة الأمير أبي بكر هو أبو بكر محمد بن الحسن المرادي الحضرمي الذي اصطفاه الأمير أبو بكر بعد موت الإمام عبدالله بن ياسين. وقد انتقل الإمام المرادي مع الأمير أبي بكر إلى صحراء الملثمين.

لقد كان الإمام المرادي بمثابة المعلم الثاني للمرابطين بعد ابن ياسين. فقد كان قاضياً بمدينة أزوكي بالصحراء وداعية ومؤلفاً[3]. لقد كان المرادي مثل أسلافه من علماء ودعاة الدولة المرابطية متشبثاً بالمهمة التي اضطلع بها وهي الدعوة إلى الله على بصيرة. فلقد ظل يؤدي واجبه بعد وفاة أميره أبي بكر ولم يفارق الصحراء إلى أن توفي بها سنة ٤٨٩هـ[4].

ظل الأمير أبو بكر بن عمر يجاهد في الله بالقول والعمل إلى أن استشهد[5] سنة ٤٨٠هـ[6]. وقد دفن الأمير أبو بكر بموضع استشهاده وهو

---

(١) - DELA Chapelle: Esquisse d'une Histoire du sahara P.64.

(٢) - J.Cuoq: op.cit P.43.

(٣) لم نجد في ما بين أيدينا من تراجم للمرادي ذكر لمؤلفات سوى كتاب «الإشارة في تدبير الإمارة» الذي سنتحدث عنه بتفصيل أكبر في الفصل التالي.

(٤) ابن بشكوال: الصلة ج٢ ص٥٧٢؛ ابن الزيات: التشوف إلى رجال التصوف ص١٠٦ العباس بن إبراهيم: الأعلام ج٤ ص١٢.

(٥) كان سبب استشهاده أن أحد زعماء قبائل الموسى الوثنية أرسل بعض أتباعه إلى منطقة تكانت ومعه السحرة والأدلاء لاغتيال زعيم المرابطين الذي «أتى بعقيدة تسخر من السحر وقوى الطبيعة التي كانوا يعبدون» وقد تمكن أحد هؤلاء من إصابة أبي بكر بسهم مسموم رماه به وهو قائم يصلي فقتله (محمد أحمد الغربي: موريتانيا ومشاغل المغرب الأفريقية ص٩٢؛ J.Kizerbo: Op.cit. P.118).

(٦) لقد اختلف المؤرخون في سنة استشهاد الأمير أبي بكر بن عمر فقد ذكر ابن عذارى (البيان المغرب ج٤ ص٢٦) وصاحب الحال الموشية (ص٢٨) أن وفاته كانت سنة ٤٦٨هـ في حين اتفق كل من ابن أبي زرع (روض القرطاس ص١٣٥) وابن خلدون =

المقسم[1] بأرض تكانت في موريتانيا.

إنها الشهادة التي كان يسعى إليها ويرجوها الأمير أبو بكر بعد عمر قضاه في سبيل الله باذلاً في ذلك النفس والنفيس. وكانت نتيجة هذا الجهد المتواصل المخلص دولة كبرى تمتد من أعماق السودان إلى البحر المتوسط قائمة على الحق ساعية إلى نشره.

ومع موت الأمير أبي بكر بن عمر كانت الدولة المرابطية قد ترسخت، ففي الشمال في المغرب الأقصى كان الأمير يوسف بن تاشفين الذي يعتبر بجدارة المؤسس الثاني لدولة المرابطين بعد المؤسسين الأوائل الإمام عبدالله بن ياسين ويحيى بن إبراهيم والأمير أبي بكر بن عمر، كان يوسف قد واصل الفتوحات فأخضع قبائل زناتة لحكمه وأصبح الأمير يوسف بن تاشفين سيد المغرب المطلق بلا منازع. وقد قام الأمير يوسف ببناء مراكش وجعلها عاصمة المرابطين. وكان الحدث الأهم الذي تميزت به السنوات القليلة التي أعقبت انصراف الأمير أبي بكر بن عمر إلى الصحراء هو اجتماع أشياخ المرابطين ووجوه قبائل المغرب وأقنعوا يوسف باتخاذ لقب جديد[2] واتفق في النهاية معهم على أن يكون لقبه أمير المسلمين وناصر الدين[3] وكان ذلك سنة ٤٦٦[4].

---

= (العبر ج٦ ص٣٧٧) والناصري (الاستقصا ج٢ ص٢٤) على أن وفاته كانت سنة ٤٨٠هـ ومما يرجح هذه الرواية أن السكة استمرت تضرب باسم الأمير أبي بكر إلى سنة ٤٨٠هـ. J.Ki-Zerbo: op.cit P.118.

(١) المقسم: ويسمى أيضاً البيبة موضع بوسط موريتانيا الحالية يقع إلى الجنوب من مدينة تجكجة على بعد ٥٥ كيلومتر (أحمد بن الأمين: الوسيط في تراجم أدباء شنقيط طالرابعة ص٤٤٧).

(٢) يذكر كل من ابن عذارى (البيان المغرب ج٤ ص٢٧ـ٢٨) وصاحب الحلل الموشية (ص٢٩) أن شيوخ المرابطين ووجهاء الدولة عرضوا على يوسف أن يتخذ لقب أمير المؤمنين فقال لهم: حاشا لله أن أتسمى بهذا الاسم، إنما يتسمى به خلفاء بني العباس لكونهم من تلك السلالة الكريمة وإنما أنا رجلهم والقائم بدعوتهم في بلاد الغرب.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص٢٨؛ الحلل الموشية: ص٢٩.

(٤) لقد اختلف المؤرخون حول السنة التي اتخذ فيها يوسف لقب أمير المسلمين =

إن اتخاذ يوسف بن تاشفين لهذا اللقب هو إيذان بانتهاء مرحلة وابتداء مرحلة أخرى، انتهاء مرحلة التأسيس والقيام وابتداء مرحلة عظمة الدولة وتوسعها وسعيها إلى لعب دور المنقذ في منطقتها المضطربة والمليئة بالأزمات. إن هذا الصرح العظيم الذي وحد في هذا الوقت المغرب الأقصى سياسياً لأول مرة في تاريخه ووحده أيضاً مذهبياً ولأول مرة أيضاً وهذا التوحيد الأخير هو الذي سنتعرض له في الفصل التالي.

وكما كان فضل العلماء ظاهراً وسابغاً في قيام دولة المرابطين وتوحيدها لأجزاء المغرب الأقصى فسنرى في الفصل التالي أنهم بذلوا نفس الجهد من أجل توحيد هذا الكيان المرابطي ضمن مذهب فقهي وعقائدي واحد.

---

= وناصر الدين فقد ذكر صاحب الحلل (ص٢٩) وابن عذارى (البيان المغرب ج٤ ص٢٧) أن ذلك كان في سنة ٤٦٦هـ في حين ذكر ابن أبي زرع (روض القرطاس ص١٤٩) أن يوسف بن تاشفين تسمى بأمير المسلمين يوم انتصار الزلاقة عام ٤٧٩هـ إلا أن تاريخ ٤٦٦هـ الذي أورده ابن عذارى وصاحب الحلل الموشية أقرب إلى الصواب بدليل أن المعتمد بن عباد لما راسل يوسف ليستغيث به ضد ملك النصارى اذ فونش بداية ٤٧٩هـ كان يخاطبه بأمير المسلمين (الحلل الموشية: ص٤٧؛ السيد عبدالعزيز سالم: المغرب الكبير ج٢ ص٧٢٢).

# الفصل الثاني

## أثر العلماء في الاتجاه الفكري للدولة

لكي تقوم الدول والمجتمعات وتتوطد، لا بد لها من مذهب يسوسها ويحكم تصرفات أفرادها في ما بينهم، وفي ما بينهم وبين حكامهم، ليحول دون جنوح الحكام إلى الظلم والفساد. وذلك حتى تصل إلى أهدافها وغاياتها. ولما كانت دولة المرابطين تهدف لتحقيق شرع الله اختار مؤسسوها وهم من العلماء، مذهباً فقهياً وعقائدياً لترتكز عليه دولتهم، سعياً منهم لتحقيق هدفهم.

### ١ ـ المذهب الفقهي للمرابطين:

في مطلع القرن الخامس الهجري كان المغرب الأقصى يعج بالمذاهب والنحل، كما أشرنا إلى ذلك سالفاً. فهناك مذهب الشيعة والخوارج والنحل الضالة. وإلى جانب ذلك مذهب مالك في بعض الحواضر والرباطات العلمية مثل رباط الفقيه وجاج بن زولو اللمطي في السوس الأقصى الذي تتلمذ على شيوخ المالكية في القيروان[1].

على أن الاضطرابات السياسية في عهد الزناتيين (٣٦٨هـ ـ ٤٦٢هـ) لم

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٢٢؛ مجهول: الحلل الموشية ص٢٠؛ ابن الزيات: التشوف ص٨٩.

تمكن من ظهور علماء كثيرين في المغرب الأقصى، كما أنها أدت إلى رحيل من وجد من العلماء.

فقد اضطر الفقيه أبو عمران الفاسي (ت٤٣٠هـ) إلى النزوح عن وطنه فاس بسبب العنت الذي لقيه على يد عمال مغراوة الزناتيين[١].

لقد كان من نتائج حال المغرب الأقصى تلك أن تأخر بالنسبة لجيرانه في ولوج ميدان العلم. لذا فعندما هب للحاق بالركب وجد العلم قد مر بأطوار ونضج واكتسب كثيراً من الوثوقية الشيء الذي لم يبق معه إمكان لمراجعة الأصول والمسلمات.

فكان على أهل المغرب الأقصى أن يأخذوا البضاعة العلمية جاهزة وقد اعتورتها أيدي العلماء من أصقاع مختلفة[٢].

إن الاختيار بين تلك البضاعة الفقهية هو الدور الذي قام به العلماء المؤسسون للدولة المرابطية. فوقع اختيارهم على المذهب المالكي ليكون المذهب الفقهي للدولة.

إن مؤسسي الدولة المرابطية هم في المقام الأول علماء درسوا العلم في القيروان وقرطبة[٣]، فنهلوا من العلوم التي كانت سائدة فيها.

كانت تلك الحواضر في مطلع القرن الخامس الهجري قلاعاً من قلاع المالكية منذ أمد، فكان من الطبيعي أن يتخرج أمثال: أبو عمران الفاسي ووجاج وعبدالله بن ياسين مشبعين بالفقه المالكي.

إن الأسباب التي دعت أهل القيروان والأندلس إلى اتخاذ المذهب

---

(١) مجهول: بيوتات فاس الكبرى ص٤٤ـ٤٥.

(٢) عبدالله كنون: النبوغ المغربي ص٥٢؛ عبدالله التواتي: الثقافة المغربية قبل عهد المرابطين، مجلة الثقافة، العدد رقم٧ ص١٢١.

(٣) لقد كانت للإمام عبدالله بن ياسين رحلة علمية إلى قرطبة (ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص١٠) ولم تذكر المصادر تاريخ تلك الرحلة بل اكتفى ابن عذارى بالقول إنها في عهد أمراء الطوائف مما يعني أنها في مطلع القرن الخامس.

المالكي هي في مجملها نفس الأسباب التي حملت أهل المغرب الأقصى ممثلين في المرابطين إلى اتخاذ المذهب المالكي والتمسك به. ومن هذه الأسباب:

١ ـ إن انتماء مالك للمدينة المنورة: مركز الإسلام وعاصمة الرسول عليه الصلاة والسلام والراشدين من بعده، جعل المغاربة ينظرون إليه من زاوية خاصة. فأعجبوا بعلمه وفضله واقتنعوا أنه أقرب إلى حقيقة الشريعة من فقهاء العراق والشام أو غيرهم.

٢ ـ للأثر الوارد في عالم المدينة وهو قوله عليه الصلاة والسلام: **«يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل في طلب العلم فلا يجدون أعلم من عالم المدينة»**[(١)].

٣ ـ أن رحلة المغاربة كانت غالباً إلى الحجاز وهو منتهى سفرهم. والمدينة يومئذ دار العلم ومنها خرج إلى العراق، ولم يكن العراق في طريقهم فاقتصروا على الأخذ عن علماء المدينة وشيخهم يومئذ وإمامهم مالك فرجع إليه أهل المغرب وقلدوه دون غيره[(٢)].

وقد تعددت الرحلة من المغرب إلى الحجاز للأخذ عن إمام دار الهجرة، فرحل إليه علماء سجلماسة التي روي «أن أحد الأعلام بها أخذ عن الإمام مالك بالمدينة ثم رجع إلى سجلماسة ودرس العلوم بها»[(٣)].

كما رحل إليها كثير من فقهاء حواضر المغرب الأخرى كالقيروان

---

(١) الإمام أحمد بن حنبل: المسند ج٢، الطبعة الأولى ١٩٦٩م، نشر المكتب الإسلامي للطباعة والنشر ودار صادر للطباعة والنشر، بيروت ص٢٩٩، الترمذي: الجامع الصحيح (مع شرح تحفة الأحوذي للمبار كفوري) ج٣، د.ت. نشر دار الكتاب العربي بيروت ص٣٨٠، الحافظ النيسابوري: المستدرك على الصحيحين ج١، الطبعة الأولى ١٩٦٨، الناشر مكتبة ومطابع النصر الحديثة الرياض ص٩٠ـ٩١؛ عياض: المدارك ج١ ص٦٨ـ٦٩.

(٢) ابن خلدون: المقدمة ج٢ ص١٣٢.

(٣) إدريس العلوي: الدرر البهية ج١ ص٦٣.

والأندلس وأخذوا مباشرة عن مالك بن أنس نذكر منهم على سبيل المثال: البهلول بن راشد وعلي بن زياد وأبو مسعود بن أشرس وعبدالله بن فروخ وعبدالله بن غانم وغيرهم.

وبالإضافة إلى هذا السبب فقد شكل استقرار بعض أئمة المالكية في مصر حافزاً لأهل المغرب للأخذ بهذا المذهب. فقد كانت مصر أقرب حواضر العلم إلى المغرب كما أنها طريقهم في الحج[١].

٤ ـ طبيعة المذهب المالكي نفسه: فهو لا يقوم على الرأي والقياس بقدر ما يقوم على النص والنقل وعلى الأثر والرواية. هذا بالإضافة إلى واقعيته القائمة على اعتماد عمل أهل المدينة باعتباره نوعاً من الإجماع[٢]. فهو بهذا يميل إلى البساطة واليسر وإلى السهولة والوضوح وإلى الواقعية والعمل الملموس.

إن طبيعة المذهب المالكي هذه كانت توافق طبائع أهل المغرب لذا لم يجد المرابطون عنتاً كبيراً في إقراره والعمل به.

إن العلماء المرابطين قد وضعوا باختيارهم للمذهب المالكي كمذهب رسمي لدولتهم، إطاراً جديداً للانتماء سوف يشكل مع الزمن نوعاً من الهوية لأهل المغرب[٣]. وسوف يصبح المذهب المالكي منذ الخطوة المرابطية هذه جزءاً من المكونات العميقة لشخصية أهل هذه المنطقة[٤].

---

(١) إبراهيم حركات: تاريخ المغرب ص١٩٣.

(٢) عياض: ترتيب المدارك ج١ ص٤٧؛ إبراهيم حركات: النظام السياسي والحربي في عهد المرابطين ص١٢٠؛ عباس الجراري: أسباب انتشار المذهب المالكي ص١٩٤ (ندوة الإمام مالك ج١).

(٣) محمد زنيبر: اتجاه عياض الفكري (المناهل العدد ١٩ ص٤١٦)؛ محمد عبدالقادر السلاوي: دور عياض في توطيد المذهب المالكي في المغرب (دورة القاضي عياض ج١ ص١٥٣).

(٤) عباس الجراري: أسباب انتشار المذهب المالكي في المغرب (ندوة الإمام مالك ج١ ص١٧٧).

إن العلماء بجعلهم المذهب المالكي المذهب الرسمي للدولة لم يكونوا بدعاً في ذلك بل كانوا تبعاً في هذه العادة، ولعل أبرزها اتخاذ دولة الخلافة العباسية المذهب الحنفي مذهباً رسمياً لها[1]، ولم يكتف المرابطون بجعل المذهب المالكي مذهباً رسمياً بقرار من السلطة الحاكمة، بل سعوا إلى جعله اختياراً علمياً مدعوماً بالحجج والبراهين يصمد أمام آلية النقد.

فألّفوا الكتب في مناقب الإمام مالك وأصحابه وبيّنوا فضل مذهب مالك وحجيته، ولعل أبرز مثال على ذلك هو الجهد الموسوعي الذي قام به القاضي عياض[2] بتأليفه كتاب: «ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك»[3].

فالقاضي عياض في هذا الكتاب يرغب في المذهب المالكي بنشر فضائله وعرض محاسن إمامه الإمام مالك بن أنس ومحاسن أصحابه من بعده، وإظهار ما خصهم الله به من الأوصاف الحميدة والآراء السديدة، لأنه «حق على طالب العلم، ومريد تعرف الصواب والحق أن يعرف أولى الأئمة بالتقليد ليعتمد على مذهبه ويسلك في التفقه سبيله.

وها نحن نبين أن مالكاً هو ذاك، لجمعه أدوات الإمامة وتحصيله درجة الاجتهاد وكونه أعلم القوم بل أهل زمانه»[4].

والقاضي عياض في احتجاجه لمذهب مالك يثبت مزايا الأئمة الآخرين ولا ينكرها، ولكنه يؤكد أن مالكاً جمع ما لم يجمعه غيره. وحاز قصب السبق[5].

---

(١) إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ ص١٩٤.

(٢) القاضي عياض بن موسى اليحصبي (ت٥٤٤هـ): أحد أعلام المذهب المالكي وأبرز علماء المغرب في العهد المرابطي، تولى القضاء في سبتة وغرناطة. له مؤلفات مشهورة تدل على علمه منها كتاب: الشفاء، وكتاب المدارك، وغيرها كثير (محمد بن عياض: التعريف بالقاضي عياض؛ المقري: أزهار الرياض في أخبار عياض).

(٣) طبع كتاب المدارك أكثر من مرة، ولعل أكملها تلك التي أشرفت على طباعتها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالرباط، في ٨ أجزاء تاريخ آخرها سنة ١٤٠٣هـ.

(٤) عياض: المدارك ج١ ص٦٧.

(٥) نفس المصدر السابق ج١ ص٤٢.

لم يكن العمل الذي قام به علماء المرابطون بتوحيد أهل دولتهم على مذهب واحد بالذي يرضي أعداءهم ومناوئيهم، فاعتبروا هذا العمل مما يحسب سلباً لا إيجاباً على العلماء المالكيين، وكان أول المنددين المؤرخ الموحدي عبدالواحد المراكشي صاحب كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب؛ فقد اعتبر أن إقرار المذهب المالكي جعل طلبة العلم يهتمون بالفروع ويهملون الكتاب والسنة «فلم يكن يقرب من أمير المسلمين ويحظى عنده إلا من علم علم الفروع، أعني فروع مذهب مالك، فنفقت في ذلك الزمن كتب المذهب وعمل بمقتضاها ونبذ ما سواها وكثر ذلك حتى نسي النظر في كتاب الله وحديث رسول الله ﷺ»[1] وقد تلقف تلك التهمة بعض من المستشرقين من أمثال دوزي وألفريد بل الذي يقول: «وانحطاط الدراسات الدينية سواءً فيما يتعلق بالعقيدة وبالشريعة، على يد الفقهاء المالكيين بمساندة حكومة المرابطين؛ كان مما يتلاءم مع سكان المغرب الإسلامي»[2].

ولنا أن نتساءل: هل كان المرابطون وعلماؤهم فروعيين لا يفقهون آية ولا حديثاً؟ إن إلقاء نظرة فاحصة على كتب التراجم في عهد المرابطين تجعل الباحث يصل إلى نتيجة معاكسة لما توصل إليه عبدالواحد المراكشي. لقد انتشر في العهد المرابطي طلب العلم بعامة والحديث والقرآن بخاصة فقد اشتهر كثير من أهل الحديث وأئمة علوم القرآن وأخذ عنهم ألوف الطلاب.

إذ كيف يكون النظر في حديث رسول الله ﷺ مهجوراً وطلبة شيخ واحد من شيوخ الحديث في العهد المرابطي ممن استحق أن يترجم لهم أكثر من ثلاثمائة؟ فابن الأبار ألّف كتاباً كاملاً ترجم فيه لثلاثمائة وخمسة عشر من طلبة الإمام أبي علي الصدفي[3]. وهذا العدد، من غير شك، إنما

---

(١) المعجب: ص٢٥٤.

(٢) الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي: ص٢٤٢؛ انخل جنثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص٢٠ـ٢١.

(٣) ألف ابن الآبار كتاباً سماه «معجم أصحاب أبي علي الصدفي» وهو مطبوع ومن أواخر هذه الطبعات طبعة بتحقيق إبراهيم الإبياري نشر دار الكتاب المصري القاهرة ١٩٨٩.

هو عدد لبعض المشاهير، أما من هم دون هؤلاء في الشهرة فأعداد لا تحصى. ويلخص ابن بشكوال تلك الكثرة بقوله عن الإمام أبي علي الصدفي «قصد مرسية فاستوطنها فرحل الناس من البلدان إليه وكثر سماعهم عليه»[1].

وطلب الحديث لم يقتصر على طلبة العلم من عوام الناس، بل إن أفراد البيت المرابطي الحاكم كانوا ممن اشتهر بطلب الحديث والاعتناء به وأخذه عن شيوخه المعتبرين.

فالأمير ميمون بن ياسين اللمتوني (ت٥٣٠هـ)، كان ممن عني بالرواية والسماع وله رحلة حج فيها عام ٤٨٢هـ فسمع صحيح البخاري، وصحيح مسلم، ولما رجع من رحلته حدّث بما رواه فسمع منه الناس بأشبيلية وغيرها. وقد أخذ عنه أعلام من أهل الأندلس[2]. وهناك الأمير منصور بن الحاج داوود بن عمر، أحد رؤساء لمتونة الذي سمع من أبي محمد بن عتاب وأبي علي الصدفي بمرسية، وقد نبغ في معرفة الأخبار والسنن والآثار واجتمع له في الدواوين والأصول الشيء الكثير[3].

وبرع الأمير أبو بكر الصنهاجي في العلم وتبحر فيه[4]. وكان هذا الاعتناء بالحديث عاماً في البيت الحاكم المرابطي، فأمير المسلمين علي بن يوسف استجاز أبا عبدالله محمد الخولاني جميع مروياته لعلو سنده فأجازه[5].

إن طلب الحديث لم يكن نافلة بل كان للعمل به، فهذا قاضي الحضرة بمراكش أبو محمد عبدالله بن إسماعيل الأشبيلي، قال عنه ابن

---

(١) الصلة: ج١ ص٢٣٦.

(٢) ابن الأبار: التكملة ج٢ ص٦١٦.

(٣) نفس المصدر السابق: ج١ ص١٦٣.

(٤) Levi-Provencal: INSCRIPTIONS Arabes d'Espagne P.123.

(٥) ابن الأبار: التكملة ج٢ ص٥٦.

بشكوال، أنه كان يميل في فقهه إلى النظر واتباع الحديث[1]. وقد ظل الأشبيلي قاضياً ليوسف بن تاشفين إلى أن توفي سنة ٤٩٧هـ.

أما أعلام المحدثين في العهد المرابطي فهم أكثر من أن يحصوا ونكتفي بذكر نماذج منهم، ممن أضحوا فخراً للأندلس والمغرب. فمن هؤلاء أبو علي الحسين الجياني (ت٤٩٨هـ) الحافظ الحجة محدث الأندلس في زمانه. يقول عنه تلميذه أبو الحسن بن مغيث: «كان من أكمل من رأيت علماً بالحديث ومعرفة بطرقه وحفظاً لرجاله، جمع من سعة الرواية ما لم يجمعه أحد أدركناه»[2].

ومنهم القاضي أبو عبدالله محمد بن حسين التميمي السبتي (ت٥٠٥هـ)، والقاضي أبو بكر العربي المعافري (ت٥٤٣هـ) الذي رحل إلى المشرق واستغرقت رحلته نحواً من أحد عشر عاماً رجع بعدها إلى الأندلس بعلم كثير لم يدخله أحد قبله ممن كانت له رحلة، فكان «خاتمة علماء الأندلس وآخر أئمتها وحفاظها» على حد تعبير تلميذه ابن بشكوال[3]. والقاضي أبو بكر دون شك من أكبر علماء الأندلس قاطبة[4].

ومن هؤلاء المحدثين الكبار: القاضي عياض (ت٥٤٤هـ) الذي أجمع أهل العلم، ممن جاء بعده، على تقدمه في علمي الرواية والدراية[5]. فكان

---

(١) الصلة: ج٢ ص٤٣٩.

(٢) ابن بشكوال: الصلة ج١ ص٢٣٣.

(٣) الصلة: ج٣ ص٨٥٦.

(٤) الفتح بن خاقان: مطمع الأنفس ص٢٩٧؛ الضبي: بغية الملتمس ص٩٢؛ النباهي: تاريخ قضاة الأندلس ص١٠٥؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٤ ص٢٩٦؛ المقري: نفح الطيب ج٢ ص٢٥.

(٥) ابن بشكوال: الصلة ج٢ ص٦٦٠؛ الضبي: بغية الملتمس ص٥٧٢؛ ابن الأبار: معجم أصحاب الصدفي ص٢٩٦؛ وقد ألف ولده محمد كتاباً عنه سماه «التعريف بالقاضي عياض» كما ألف أحمد المقري (ت١٠٤١هـ) كتاباً عن سيرته بعنوان «أزهار الرياض في أخبار عياض» وكلا الكتابين مطبوع وقد طبع الكتاب الأول بالرباط بتحقيق محمد بن شريفة ونشرته وزارة الأوقاف المغربي (د.ت) أما الثاني فقد طبع في المغرب مرتين أخراهما سنة ١٩٨٠.

«لا يدرك شأوه، ولا يبلغ مداه في العناية بصناعة الحديث وتقييد آثاره»[١] إن آثار القاضي عياض الحديثية تدل على تبحره في هذا العلم وتفوقه فيه. ومن هذه الآثار كتاب «مشارق الأنوار على صحاح الآثار»[٢] وله كتاب: «الألماع في ضبط الرواية وتقييد السماع»[٣] ويعتبر هذا الكتاب أول كتاب جامع في علم الحديث لعالم من أهل المغرب الأقصى. وقد أضحى هذا الكتاب معتمد المؤلفين في مصطلح الحديث من بعده مثل ابن الصلاح (ت٦٤٣هـ)[٤] والعراقي (ت٨٠٦هـ)[٥] وابن حجر (ت٨٥٢هـ)[٦] والسيوطي (ت٩١١هـ)[٧].

ولعل أشهر محدِّث عرفه هذا العصر المرابطي، هو القاضي الشهيد أبو علي الحسين بن محمد الصدفي (ت٥١٤هـ)[٨]، فهو إمام المحدثين

---

(١) ابن الأبار: معجم أصحاب الصدفي ص٢٩٦.

(٢) طبع مرتين إحداهما سنة ١٣٢٨هـ والثانية تحت إشراف وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالرباط (١٤٠٢ ـ ١٤٠٨هـ) في ثلاثة أجزاء. وقد قال ابن فرحون عن هذا الكتاب: «لو كتب بالذهب أو وزن بالجوهر لكان قليلاً في حقه» (الديباج المذهب ج٢ ص٤٩).

(٣) طبع هذا الكتاب بتحقيق الأستاذ السيد أحمد صقر عن دار التراث بالقاهرة سنة ١٩٧٠.

(٤) تقي الدين أبو عمرو عثمان بن عبدالرحمن بن الصلاح (ت٦٤٣هـ): محدث، مفسر، أصولي، أفتى بدمشق وتوفي فيها. له عدة مؤلفات منها كتاب: «مشكل الوسيط» و«الفتاوي» و«معرفة أنواع علم الحديث» يعرف بمقدمة ابن الصلاح (الزركلي: الأعلام ج٤ ص٢٠٧).

(٥) الحافظ عبدالرحيم العراقي (ت٨٠٦هـ): فقيه شافعي وقف جهده على الحديث حتى كان العلم الشامخ فيه، من مؤلفاته: «المغني عن حمل الأسفار في الأسفار» و«الألفية» في مصطلح الحديث و«الألفية» في غريب القرآن وغيرها (الزركلي: الأعلام ج٣ ص٣٤٤).

(٦) أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ): من أئمة العلم والمبرزين فيه ولد في القاهرة، وبها توفي. له تصانيف كثيرة منها: «الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة» أربع مجلدات مطبوع، و«لسان الميزان» ٦ أجزاء مطبوع؛ غير أن أشهر كتبه هو كتاب: «فتح الباري في شرح صحيح البخاري» وقد طبع عدة مرات (الزركلي: الأعلام ج١ ص١٧٨).

(٧) عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ): إمام حافظ مؤرخ أديب له نحو ٦٠٠ مصنف منها: «الإتقان في علوم القرآن» «الأشباه والنظائر» «تاريخ الخلفاء»، (الزركلي: الأعلام ج٣ ص٣٠١).

(٨) ابن بشكوال: الصلة ج١ ص٢٣٥؛ الضبي: بغية الملتمس ص٣٥٣؛ المقري: نفح =

بالأندلس. كتب بيده علماً كثيراً وكان حافظاً لمصنفات الحديث قائماً عليها، ذاكراً لمتونها وأساليبها ورواياتها[1]. وكان ممن رحل إلى المشرق فأخذ عن أهله، وعند رجوعه إلى الأندلس أقبل عليه الطلبة من كل حدب وصوب. وأخذ عنه الجم الغفير منهم. وقد تفرغ أبو علي لنشر العلم وبثه بعد أن استعفى من قضاء مرسية بعد أن سار فيه سيرة فضحت من كان قبله وأتعبت من جاء بعده[2] على حد تعبير ابن عطية.

ومن هؤلاء الأعلام المحدثين عبدالله بن علي الرشاطي (ت٥٤٢هـ) صاحب كتاب «الأعلام بما في كتاب المؤتلف والمختلف للدارقطني من أوهام»[3] وعلي بن النعمة الأنصاري المري (ت٥٦٧هـ) صاحب كتاب «الإمعان في شرح مصنف النسائي»[4]. وعبدالله بن عيسى الشيباني (ت٥٣٠هـ) الذي كان يحفظ البخاري وسنن أبي داوود عن ظهر قلب[5].

إن هذه الأعداد الكثيرة من المحدثين وطلبة علم الحديث لتدل دليلاً قاطعاً على أن حديث رسول الله ﷺ لم يهجر بل كان الإقبال عليه كبيراً عكس ما يزعم عبدالواحد المراكشي ومن تبعه[6].

والعلماء المالكيون كان كل سعيهم وهدفهم انتشار العلم وأن تكون دولة المرابطين دولة علم ودين. وقد أضحت بالفعل كذلك لأنها تأسست على أيدي أهل العلم. وظل البيت المرابطي بيت علم ومأوى للعلم وأهله.

أما الاعتناء بالقرآن الكريم فلا يحتاج إلى استدلال لأن كتاب الله هو

---

= الطيب ج٢ ص٩٠ المقري: أزهار الرياض ج٣ ص١٥١؛ مخلوف: شجرة النور الزكية ج١ ص١٢٨ وغيرهم كثير.

(١) إبراهيم الأبياري: مقدمة المعجم في أصحاب القاضي الصدفي لابن الأبار ص٩؛ حسين مؤنس: شيوخ العصر ص٩٢.

(٢) ابن عطية: الفهرست ص٧٥.

(٣) الضبي: بغية الملتمس ص٤٥٢.

(٤) الضبي: بغية الملتمس ص٥٥٢.

(٥) ابن بشكوال: الصلة ج٢ ص٤٤٧.

(٦) من أمثال ألفرد بل في كتابه الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي ص٢٤٠.

الأساس الذي يقوم عليه كل علم. فلا يمكن أن يوصف أحد بصفة العلم، وخصوصاً في تلك العصور، ما لم يكن من أهل القرآن. فالطالب المبتدىء لا بد أن يبدأ بحفظ القرآن وتجويده ليتجه بعد ذلك إلى الفنون الأخرى[١] وقد ازدهر علم القراءات في عهد المرابطين ونبغ فيه علماء أعلام منهم أبو عبدالله محمد بن سعيد المقري (ت٥٤٧هـ) المعروف بابن غلام الفرس. وكان من أمهر مجودي القرآن ومتقنيه «وانتهت إليه الرئاسة في معرفة القراءات»[٢].

ومن هؤلاء الأعلام أحمد بن خلف المعروف بابن الباذش (ت٥٤٠هـ) صاحب كتاب «الإقناع» و«الطرق المتداولة» وهما من الكتب المهمة في القراءات[٣]. وقد صنف أبو الحسن محمد بن الطفيل العبدي المعروف بابن عظيمة (ت٥٤٣هـ) في القراءات وما يتعلق بها كتباً نافعة منها: «جالب الإفادة في مخارج الحروف» وله أرجوزة في القراءات السبع. وكانت إليه وإلى بنيه الرياسة في الإقراء[٤].

ومن هؤلاء العلماء العالم الجليل والمقرىء المجود أبو الحسن علي بن النعمة (٥٦٧هـ) الذي كان مفسراً محدثاً راوية حافظاً وفقيهاً مشاوراً بارعاً في علوم اللسان[٥].

أما تفسير القرآن فقد نبغ فيه كثير من العلماء في عصر المرابطين. فاشتهر أبو القاسم أحمد بن عمر المعروف بابن ورد (ت٥٤٠هـ) الذي كان من جلة الفقهاء المفسرين المحدثين[٦]. ولأبي محمد عبدالجليل المعروف

---

(١) ابن خلدون: المقدمة ج٢ ص٢٣٨؛ عبدالبديع الخولي: الفكر التربوي في الأندلس ص١٦١.

(٢) ابن الأبار: التكملة ج٢ ص٤٧٥.

(٣) ابن فرحون: الديباج المذهب ج١ ص١٩٠؛ ابن الخطيب: الإحاطة ج١ ص١٩٤.

(٤) ابن الأبار: التكملة ج١ ص٤٤٥.

(٥) ابن عبدالملك: الذيل والتكملة سفر ٥ ق١ ص٢٢٦.

(٦) ابن فرحون: م.س. ج١ ص١٨٥؛ ابن الخطيب: م.س. ج١ ص١٦٩.

بالقصري تفسير لكتاب الله[1]. وللقاضي أبو بكر بن العربي المعافري كتاب في التفسير مشهور هو كتاب «أحكام القرآن»[2].

إلا أن أشهر مفسر في العصر المرابطي هو الإمام أبو محمد عبدالحق بن عطية المحاربي (ت٥١٤هـ)[3] وهو أحد رجالات الأندلس الجامعين الفقه والحديث والتفسير والأدب. وكتابه في التفسير «المحرر الوجيز»[4] كتاب جليل الفائدة اعتنى العلماء به كثيراً ولازموه طويلاً[5]. وقد اعتمد عليه جماعة من المفسرين ممن جاؤوا بعده[6].

إن هذه الأمثلة التي سردنا سابقاً لبعض العلماء المبرزين في علوم القرآن والتفسير والحديث لتدحض بشكل قاطع زعم عبدالواحد المراكشي أنه «نسي النظر في كتاب الله وحديث رسول الله ﷺ»[7] وتؤكد أن العلماء في هذا العصر المرابطي نبغوا في كل علوم الإسلام وصاروا أئمة في كثير من ميادينها فلم يتعصبوا للفقه المالكي على حساب العلوم الأخرى.

---

(١) ابن الزبير: صلة الصلة الترجمة رقم ٤٤ ص٣٠.

(٢) طبع كتاب «أحكام القرآن» طبعتين الطبعة الأولى سنة ١٣٣١هـ مطبعة السعادة بمصر، أما الثانية ففي سنة ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م تحقيق البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي - القاهرة.

(٣) ابن بشكوال: الصلة ج١ ص٣٦٧؛ ابن خاقان: قلائد العقيان ص٢٣٩؛ الضبي: بغية الملتمس ص٣٧٦؛ ابن الأبار: المعجم في أصحاب ابن علي الصدفي ص٢٦٥؛ النباهي: المرقبة العليا ص١٠٩؛ . . . وغيرهم.

(٤) طبع هذا التفسير في دولة قطر ابتداءً من سنة ١٩٧٧م.

(٥) من الأمثلة على ذلك ما ذكره ابن فرحون عن عمه العالم عبدالله بن فرحون أنه قال: لازمت تفسير ابن عطية حتى كدت أحفظه (الديباج ج١ ص٤٥٥).

(٦) لقد أخذ عنه جماعة منهم: الإمام أبو عبدالله محمد بن أحمد القرطبي (ت٦٧١هـ) في كتابه «الجامع لأحكام القرآن» فقد اعتمد على كثير مما فيه ويظهر هذا الاعتماد منذ الصفحات الأولى من الكتاب ص٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧ (ج١، الطبعة الثانية ١٩٥٢) كما أخذ عنه أبو حيان الغرناطي في تفسيره «البحر المحيط» (ج١ ص١٠) وممن أخذ عنه واعتمده من المحدثين محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره «التحرير والتنوير» (ج١ ص١٤).

(٧) عبدالواحد المراكشي: المعجب ص٢٥٤.

## ٢ ـ مذهب العلماء في الحكم في عهد المرابطين:

لقد سعى العلماء في العهد المرابطي إلى جعل الدولة ذات منطلق ومرتكز ديني. لقد كان للعلماء من أمثال الإمام عبدالله بن ياسين والإمام محمد بن الحسن الحضرمي[١] رؤية خاصة لهوية الدولة التي يسعون إلى تحقيقها من خلال مبادىء الإسلام ومعطيات الواقع. لقد كان الهدف والمبدأ هو وحدة ديار الإسلام تحت لواء قيادة الخلافة العباسية وكان الواقع هو استحالة هذه الوحدة الشاملة في الظرف الحالي. ولتجاوز هذا الإشكال أعطى هؤلاء العلماء لدولتهم هدفاً وهوية يتمثل في الجهاد بمعناه الشامل من مدافعة للعدو إلى إقامة الحق الذي يعين ويهيىء سبل تلك المدافعة. وقد عرف علماء الأحكام السلطانية مثل الفراء[٢] هذا النوع من الدول القائم على الجهاد والمعترف بسيادة الخلافة بأنه «إمارة يفوض الأمير جميع أحكامها، ويتم التأكيد على تدبير الحرب كأحد أهم أحكامها»[٣]. فالعلماء إذاً أرادوا أن يجعلوا من دولتهم المرابطية نسقاً سياسياً فرعياً تابعاً لدولة الخلافة[٤]. ولقد حصل أمراء المرابطين على التفويض من طرف الخلفاء العباسيين[٥]. وكدليل على هذه التبعية نقش الأمراء المرابطون اسم الخليفة العباسي على سكتهم واكتفوا بلقب أمير المسلمين[٦].

هكذا يغدو العلماء دعاة لوحدة الأمة في إطار دولة الخلافة من خلال اعتبارها نسقاً سياسياً مركزياً تدور في فلكه مجموعة الأنساق الفرعية أياً كان

---

(١) محمد بن الحسن المرادي الحضرمي (ت٤٨٩هـ): فقيه، أصولي، متكلم (ابن بشكوال: الصلة ج١ ص٥٤٧).

(٢) محمد بن الحسين أبو يعلى الفراء (ت٤٥٨هـ): عالم أصولي له تصانيف كثيرة منها الأحكام السلطانية (ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة ج٢ ص١٩٣).

(٣) أبو يعلى الفراء: الأحكام السلطانية، تحقيق محمد فقي؛ الطبعة الثانية ص٣٩ طبع شركة الحلبي ١٩٦٦.

(٤) ضريف محمد: تاريخ الفكر السياسي بالمغرب ص٩٨.

(٥) إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ ص١٨٦.

(٦) مجهول الحلل الموشية: ص٥٠؛ ابن خلدون: العبر ج٦ ص١٨٨.

شكلها[1].

إن هذه الدولة المجاهدة يراد لها أن تسعى إلى إقامة العدل الشامل في علاقة الحاكم والمحكومين امتثالاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِۚ﴾[2].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِۚ﴾[3].

وقيمة العدل هي أساس القيّم وقطب رحى التعامل والعلاقات بين البشر. لذا فقد سعى العلماء في دولة المرابطين إلى تحقيق العدل عن طريق نظم ثلاثة هي:

### أ ـ نظام البيعة:

كانت تقام بيعة خاصة يبايع فيها أفراد الأسرة الحاكمة الأمير المرشح ثم يبايعه سادة لمتونة ثم سادة القبائل الأخرى، حتى إذا اكتملت أسباب هذه البيعة تلي عقد البيعة في المساجد وقرىء على الناس[4]. ونظام البيعة من صميم أنظمة الحكم في الإسلام وأحد ركائزه، فهو نوع من البيع يبذل فيه الرعية السمع والطاعة لولي الأمر مقابل الرعاية وتطبيق العدل بمقتضى الشرع من طرف الحاكم.

### ب ـ أما النظام الثاني فهو نظام الشورى:

الشورى مبدأ عظيم من مبادىء النظام الإسلامي في الحكم. يقول تعالى مخاطباً نبيه محمد ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِۖ﴾[5] والشورى من

---

(١) ضريف محمد: نفس المرجع السابق ص٩٨.
(٢) سورة النحل: الآية ٩٠.
(٣) سورة النساء: الآية ٥٨.
(٤) حسن محمود: قيام دولة المرابطين ص٣٤٢؛ يوسف اسباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين ص١١٢.
(٥) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

خصائص المجتمع المؤمن الصالح يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾[١] وقد جعل الإمام الطرطوشي الشورى أساساً من أهم أسس الحكم فقال: «سياسة الملك ثلاثة: اللين وترك الفظاظة والمشاورة...»[٢].

ولقد سنّ العلماء القائمون على الدولة المرابطية العمل بالشورى فكانوا لا يقطعون أمراً ذا بال إلا بعد أن يستشيروا جماعة الحل والعقد من المرابطين. فالإمام عبدالله بن ياسين كان كثير المشورة لأصحابه، رغم أنهم سامعون طائعون له، ومن الأمثلة على ذلك أنه لما وردت على عبدالله بن ياسين رسل فقهاء سجلماسة ودرعة سنة ٤٤٧هـ يستنجدون به ويرغبون إليه الوصول إليهم لإزالة ما حل بهم من ظلم وجور، قام عبدالله بن ياسين بجمع رؤساء المرابطين وقرأ عليهم كتب الاستغاثة وشاورهم في الأمر[٣].

وقد سلك أمراء المرابطين منهج الشورى متأثرين في ذلك بالمنهج الذي رسمه لهم علماؤهم. وقد تكوَّن في العهد المرابطي شبه مجلس للشورى يتكوَّن أساساً من العلماء يستعين أمير المسلمين برأيهم في المهم من أمره، لهذا كان يوسف بن تاشفين «يفضل الفقهاء ويعظم العلماء ويصرف الأمور إليهم ويأخذ فيها برأيهم...»[٤].

## ج ـ أما النظام الثالث فهو نظام القضاء:

لقد أولى العلماء في العهد المرابطي القضاء من الرعاية ما يستحق. فحرصوا على استقلاله وهيبته وسعوا لإقامة الحق مهما كلفهم ذلك. فارتفع قدر القضاء لما تولاه علماء أعلام من أمثال الإمام أبي الوليد محمد بن رشد (ت٥٢٠هـ)، الذي تقلد القضاء بقرطبة فسار فيه بأحسن سيرة وأقوم

---

(١) سورة الشورى: الآية ٣٨.
(٢) سراج الملوك: ص٥٠.
(٣) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص١٢٧.
(٤) الحلل الموشية: ص٨٢.

طريقة[١]، وأبي علي الصدفي (ت٥١٤هـ) الذي تولى قضاء مرسية «فسار فيه سيرة فضحت من كان قبله وأتعبت من جاء بعده»[٢] والقاضي أبي بكر بن العربي (ت٥٤٣هـ) الذي كان من أهل الشدة في الحق والقوة على الظالمين والرفق بالمساكين، ولم يكن طريق الحق والاستقامة سهلاً. فقد لقي القاضي ابن العربي من الأذى الكثير فذكر أنه لما «اشتد الخطب على أهل الغصب وعظم على الفسقة الكرب تألبوا وألبوا وثاروا»[٣]. فأحرقت مكتبته ونجا هو بصعوبة[٤].

لقد منح المرابطون القضاة في دولتهم سلطات واسعة لا حدود لها. فالجميع أمام القاضي سواء، وتشدد المرابطون في ذلك، فكان يتكرر هذا الأمر في رسائلهم، والتي تؤكد على الجميع بأن يخضع لحكم القاضي. ونرى هذا واضحاً في الرسالة التي وجهها الأمير علي بن يوسف إلى قاضي الجماعة بقرطبة أبي عبدالله بن حمدين إذ يقول له فيها: « . . .وقد عهدنا إلى جماعة المرابطين أن يسلموا لك في كل حق تمضيه، ونحن أول وكلهم آخر، سامعون منك غير معترضين في حق عليك. والعمال كافة سواء في الحق. . . »[٥].

لقد تضافرت النظم السالفة فتحققت بها العدالة والأمن العام الذي اطمأنت به النفوس وتهيأت الظروف «للرخاء فانفسح الأمل»[٦].

---

(١) ابن بشكوال: الصلة ج٢ ص٥٤٦؛ الضبي: بغية الملتمس ص٤٠؛ النباهي: المرقبة العليا ص٩٨.

(٢) عياض: المدارك ج٨ ص١٩٣؛ ابن عطية: الفهرس ص٧٤؛ ابن بشكوال: الصلة ج١ ص١٤٣.

(٣) العواصم: تحقيق د. عمار طالبي ج٢ ص٤٠٠.

(٤) نفس المصدر والصفحة.

(٥) ابن بسام: الذخيرة القسم ٢ ص١٠٦.

(٦) يرى الماوردي أن أهداف السلطة هي: تحقيق العدل الشامل بين بني البشر، فالعدل موحد ومؤلف ثم الأمن العام الذي تطمئن إليه النفوس ثم الخصب الدار الذي على السلطة أن تهيىء أسبابه ليستمر الأمن ولينفتح باب الأمل. (أدب الدنيا والدين ص١٣٦).

لم يكن المذهب المرابطي في الحكم مذهباً ظرفياً، بل كان قاعدة ثابتة. لهذا نجد علماء المرابطين يحسون بعد وفاة الإمام عبدالله بن ياسين، أن ما رسخه في الأذهان من مبادىء قد يندثر وينسى بعد وفاة الجيل الأول من أهل الدولة. ونتيجة لذلك فقد ألفوا في سياسة الحكم ليسير عليها الكبير وينشأ عليها الصغير[1].

فألف الإمام الحضرمي المرادي كتاباً سماه «الإشارة في تدبير الإمارة»[2] عرض فيه نظرية علماء المرابطين في الحكم وحسن التدبير. وهو يبسط هذه النظرية في ثلاثين باباً ليسهل حفظها على الناشئة من الأمراء.

وقد حاول المرادي في كتابه أن يضع تصوراً للسلوك السياسي السليم في مختلف المواقف والظروف وتجاه مختلف الفئات[3]. ومن أهم ما يركز عليه في كتابه ويحث عليه ضرورة إصلاح الحاكم لنفسه والعدل في حكمه. فالعدل في نظره «أنصر من الرجال، وصاحبه له فضائل أربع: الأجر، والثناء، والنصر، والبقاء». ثم يقول: إنه إذا نطق لسان العدل في دار الإمارة فليبشر ساكنها بالعز والعمارة»[4].

هنا نتساءل: هل عمل الأمراء المرابطون بهذا الكتاب وانتهجوا نهجه؟

ليس لدينا ما يؤكد أنهم التزموا هذا الكتاب أو اعتمدوه منهجاً. إلا أن المؤكد هو أنهم كانوا يسلكون سياسات قريبة من تلك التي ينادي بها الإمام الحضرمي ويحث عليها. فمثلاً نرى المرادي يعقد باباً عن مخالطة الأصحاب وينهى فيه الأمراء عن مخالطة الأسافل ممن أفسدتهم الحضارة

---

(١) سامي النشار: مقدمة كتاب السياسة للمرادي ص٣٢.

(٢) نشره د. سامي النشار سنة ١٩٨١ باسم: كتاب السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة (دار الثقافة ـ الدار البيضاء) في حين نشره د. رضوان السيد سنة ١٩٨١ باسم: الإشارة على أدب الإمارة (بيروت).

(٣) رضوان السيد: مقدمة كتاب الإشارة ص٢٢.

(٤) كتاب السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة: ص١٠٧.

الزائفة[1]، وهذا التوجيه ينطبق على حال أمراء المرابطين، يقول صاحب الحلل الموشية: «وكانوا قوماً ربتهم الصحراء، نيتهم صالحة لم تفسدها الحضارة ولا مخالطة الأسافل»[2]. على أننا وإن لم نجد ذلك الأثر البالغ لكتاب الإمام الحضرمي في المسلك السياسي للأمراء المرابطين، فإن مزيته الفكرية لا يمكن أن تنكر باعتباره أول كتاب يؤلف في السياسة بالمغرب الأقصى[3]. وقد تأثر بأفكاره وأطروحاته عدد من الكتاب في علم السياسية من أمثال ابن رضوان[4] وابن الأزرق[5] وربما ابن خلدون[6] أيضاً.

لقد حاول العلماء في عهد المرابطين أن يترسموا بالدولة خطى الجيل الأول من السلف الصالح في تعاطيهم مع الحكم، وطريقتهم في إدارة شؤون المسلمين. لقد ندب هؤلاء العلماء المرابطين إلى الزهد والصبر على الحق وبذل المستطاع من أجل إحقاق الحق، وفوق ذلك الاستشعار بالمسؤولية والحرص على أدائها كما ينبغي.

إن وصية الأمير أبي بكر بن عمر ليوسف بن تاشفين، عندما ولاه على المغرب وفوض إليه شؤونه، لدليل على تعمق الإحساس بالمسؤولية لدى هؤلاء الأمراء وذلك لا شك نتيجة التربية العلمية التي تلقوها على أيدي العلماء من أمثال عبدالله بن ياسين والإمام الحضرمي وغيرهما. يقول الأمير أبو بكر بن عمر في هذه الوصية مخاطباً يوسف: « . . .إني وليتك هذا

---

(١) كتاب الإشارة: ص٧٨.

(٢) الحلل الموشية: ص٦٧.

(٣) ضريف محمد: مرجع سابق ص٩٢.

(٤) ابن رضوان: عبدالله بن يوسف (ت٧٨٣هـ) أحد كتاب الدولة المرينية له كتاب «الشهب اللامعة في السياسة النافعة» تحقيق علي سامي النشار ١٩٨٤ (ابن القاضي: جذوة الاقتباس ج٢ ص٤٣٥).

(٥) ابن الأزرق: محمد بن علي (ت٨٩٥هـ) قاضي الجماعة بغرناطة له مؤلفات منها كتاب «بدائع السلك في طبائع الملك» طبع بتحقيق علي سامي النشار ببغداد ١٩٧٨ (المقري: نفح الطيب ج٣ ص٤٥١).

(٦) سامي النشار: مقدمة كتاب السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة ص٣٠.

الأمر وإني مسؤول عنه، فاتق الله في المسلمين، واعتقني واعتق نفسك ولا تضيع من أمور رعيتك شيئاً فإنك مسؤول عنهم. والله تعالى يصلحك ويهديك ويوفقك للعمل الصالح والعدل في رعيتك...»[1]. لقد سعى العلماء في الدولة المرابطية إلى تكريس هذا المفهوم للحكم وتطبيقه على أرض الواقع، ابتداءاً بعبدالله بن ياسين والإمام الحضرمي المرادي وانتهاء بالقاضي عياض والقاضي أبي بكر بن العربي والإمام الطرطوشي الذي كتب إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين رسالة يبين له فيها سبيل النجاح والنجاة وضرب له فيها الأمثال لتستبين سبيل المصلحين الهادين المهتدين ويذكر الطرطوشي في رسالته ما وصف به سلمان الفارسي رضي الله عنه الحاكم المسلم إذ يقول «هو الذي يقضي بكتاب الله ويشفق على الرعية شفقة الرجل على أهله، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[2] فمن مكّنه الله في الأرض وآتاه سلطاناً ولم يفعل ما أمر الله به في هذه الآية خفنا ألا يكون من أهلها...»[3] إنه عرض للنموذج والمثال المنشود للحاكم المسلم وحث على السعي من أجل الوصول إليه أو أقرب مثال له. ومما يدل على نجاح العلماء في ما ذهبوا إليه هو تمسك أمراء الدولة المرابطية وحتى في آخر أيامهم بالمبادىء الإسلامية فلم يُعرف عن علي بن يوسف جور ولا ظلم وكان متوسعاً في الشورى[4] وكان خليفته تاشفين[5] مثالاً

---

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٣٥.

(٢) سورة الحج الآية ٤١.

(٣) ابن العربي: رحلة ابن العربي نشر د. عصمت دندش في مجلة المناهل ع٩ ص١٧٨؛ ويذكر سعيد أعراب أن هذا النصّ ليس نصّ الرحلة، وإنما هو تجريد لكتاب الرحلة وأن عنوان هذا النص هو «شواهد الجلة والأعيان في مشاهد الإسلام والبلدان» (مع القاضي أبو بكر بن العربي نشر دار الغرب سنة ١٩٨٧ ص١٧٠).

(٤) عبدالواحد المراكشي: المعجب ص٢٥٢.

(٥) الأمير تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين (ت٥٣٩هـ): تولى إمارة المسلمين بعد وفاة أبيه سنة ٥٣٧هـ، وتوفي في وهران وهو يدافع الموحدين بقيادة عبدالمؤمن بن علي. وكان تاشفين موصوفاً بحسن السياسة والعدل «سالكاً ناموس الشريعة، مائلاً إلى طريقة المستقيمين، لم يشرب قط مسكراً ولا استمع إلى قينة، ولا اشتغل بلذة مما =

للأمير المجاهد الخيّر[1]، رغم أنه جاء إلى الحكم في الوقت السيىء إذ كانت كل عوامل السقوط قد تضافرت لسقوط الدولة المرابطية.

## ٣ ـ مذهب العلماء المرابطين العقائدي وموقفهم من التصوف:

### أ ـ مذهبهم العقائدي:

لقد اتسم القرن الخامس الهجري باشتداد الصراع الفكري بين أهل الحق والباطل، وكان من ميادين الصراع الفكري في هذا القرن علم الكلام الذي هو علم أصول العقائد مثل القضايا المتعلقة بذات الله وصفاته. وأفعال العباد هل هي اختيارية أم لا؟ وصاحب الكبيرة هل هو من أهل النار أم لا؟ وغيرها[2].

ظهر في المشرق في هذا القرن أعلام كبار من أعلام علم الكلام من أمثال القاضي أبي بكر الباقلاني[3] والقاضي عبدالجبار[4] المعتزلي صاحب

---

= يلهو به الملوك» هذا وصفه ابن الخطيب: الإحاطة ج١ ص٤٤٨؛ ويكاد من ترجموا له يجمعون على أوصافه الخيرة وسلوكه القويم (ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٦٤؛ ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص٩٧؛ مجهول: الحلل الموشية ص١٢١).

(١) كان الأمير تاشفين قبل ولايته للعهد سنة ٥٣٣هـ، أميراً على الأندلس من سنة ٥٢٣ـ٥٣١هـ فكانت له على النصارى وقائع عظيمة، ففتح الحصون وهزم الجيوش وهابه العدو. (ابن الخطيب: الإحاطة ج١ ص٤٤٨؛ ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص٨٠).

(٢) ابن خلدون: المقدمة ج٢ ص١٤٧.

(٣) القاضي أبو بكر محمد بن الطيب المعروف بالباقلاني (ت٤٠٣هـ) متكلم مشهور على مذهب أبي الحسن الأشعري، كان يُلقّب «بشيخ السنة ولسان الأمة». مالكي المذهب. قال عنه ابن خلكان: «كان في علم الاعتقاد أوحد زمانه. . .، وكان موصوفاً بجودة الاستنباط وسرعة الجواب» وكانت له بجامع المنصور ببغداد حلقة عظيمة. (ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٤ ص٢٦٩؛ ابن فرحون: الديباج المذهب ج٢ ص٢٢٨).

(٤) القاضي أبو الحسن عبدالجبار بن أحمد (ت٤١٥هـ): قاضي قضاة الدولة البويهية وأحد أعلام المعتزلة وإمامهم في عصره ومن أغزر المعتزلة إنتاجاً، وهو الذي وضع قواعد =

كتاب: «المغني في التوحيد والعدل»[1] وكتاب: «فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة» وأبي إسحاق الإسفراييني[2] والإمام الغزالي[3].

إن أهم ما ميَّز علم الكلام في القرن الخامس الهجري، هو نفوذ الفلسفة إلى جميع مدارسه، فاستعملتها جميع أطراف المعارك الفكرية لتدعيم مواقفها مع تفاوت في درجة الأخذ[4].

وإلى جانب مدرسة علم الكلام المطعّم بالفلسفة، ظهرت مدرسة فلسفية بحتة لها مسارها الخاص وتناولها الخاص للقضايا الفكرية. وهذه المدرسة تعبر عن ثقافة اليونان وفلسفته أكثر مما تعبر عن ثقافة الإسلام وفكره[5].

ومن رجال هذه المدرسة ابن سينا (ت٤٢٨هـ)[6] والبيروني

---

= فكر المعتزلة وأصله، (الزركلي: الأعلام ج٤ ص٤٧؛ عبدالكريم عثمان: قاضي القضاة عبدالجبار الهمداني، دار العربية للطباعة والنشر بيروت ١٩٦٧).

(١) طبعت أجزاء عدة من كتاب المغني في القاهرة حقق بعضاً منها إبراهيم مدكور بيومي وذلك سنة ١٩٧٢.

(٢) أبو اسحاق إبراهيم بن محمد الإسفراييني (ت٤١٨هـ): فقيه وأصولي شافعي. قيل أنه بلغ رتبة الاجتهاد وكان شيخ أهل خراسان في زمانه. أقام بالعراق مدة ثم عاد إلى اسفرايين فبنى له بها مدرسة ولزمها ودرّس فيها. وعنه أخذ الكلام والأصول عامة شيوخ نيسابور من تصانيفه «الجامع في أصول الدين» (ابن خلكان: وفيات الأعيان ج١ ص٢٨).

(٣) محمد بن محمد الغزالي (٥٠٥هـ): فقيه أصولي، فيلسوف، متصوف مشهور له نحو مائتي مصنف من أشهرها كتاب: «إحياء علوم الدين» و«تهافت الفلاسفة» و«المنقذ من الضلال» (ترجمته في معظم كتب التراجم) منها (ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٤ ص٢١٦ ـ ٢١٩).

(٤) عبدالمجيد بدوي: التاريخ السياسي والفكري للمذهب السُني في المشرق الإسلامي خلال ق٥ ص٤٥.

(٥) سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ج١ ص١٩٢.

(٦) الحسين بن عبدالله بن سينا (ت٤٢٨هـ ): الفيلسوف الرئيس صاحب التصانيف في الطب، والمنطق والطبيعيات والإلهيات. أشهر كتبه كتاب: «القانون» في الطب وكتاب: «الشفاء» في الفلسفة و«أسرار الحكمة المشرقية» (الزركلي: الأعلام ج٢ ص٢٤١ ـ ٢٤٢).

(ت٤٤٠هـ)[١] وغيرهما ممن بذر الشك والإلحاد في العقل المسلم[٢].

إن هذه الميادين الفكرية والطروحات العقلية امتد نفوذها واتسع صداها إلى أرجاء العالم الإسلامي، فوصلت المغرب الإسلامي مجردة من حدتها وجدتها فتعامل معها العلماء بروية وهدوء.

لذا كانت الدولة المرابطية دولة سنية في منهجها وأحكامها ولكن من منظور مالكي بحت، لهذا فقد تعامل علماؤها مع علم الكلام من هذه الزاوية والخلفية.

لقد كان الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه سلفياً في تفكيره وفي تعاطيه مع مستجدات الأمور.

لذا كان الإمام مالك كثيراً ما يروي قول عمر بن عبدالعزيز: «سن رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده سنناً الأخذ بها اتباع لكتاب الله واستكمال لطاعة الله وقوة على دين الله وليس لأحد بعد تبديلها ولا النظر في شيء خالفها...»[٣] ليبين من خلال هذا الأثر أن العمل الذي يجب اقتفاؤه هو عمل السلف الأول. لهذا بغض مالك أقوال الفرق الإسلامية في العقائد لأنها أثارت أموراً لم يثرها السلف الصالح وليس في مصلحة المسلمين إثارتها. وثم أن هذه الأقوال مبنية على النظر العقلي المجرد وسلكت سبيل الجدل والمراء، وهذان المسلكان لم يسكلهما السلف الصالح[٤].

ومالك عندما يضطر إلى الإجابة عن بعض المسائل المثارة من طرف الفرق الكلامية فإنه يجيب بالمأثور ولا يزيد عليه لذا نراه عندما سئل عن ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ قال: الاستواء معلوم والكيف غير معقول

---

(١) محمد بن أحمد أبو الريحان البيروني الخوارزمي (ت٤٤٠هـ) فيلسوف رياضي مؤرخ من أهل خوارزم اطلع على فلسفة اليونان والهند وصنف كتباً كثيرة منها «الآثار الباقية عن القرون الخالية» (الزركلي: الأعلام ج٥ ص٣١٤).

(٢) ابن الأثير: الكامل مج٨ ص١٥ ط.الثانية ١٩٦٧ دار الكتاب العربي.

(٣) عياض: المدارك ج١ ص٢٠٠.

(٤) أبو زهرة: مالك ص١٥٣.

والسؤال عن هذا بدعة والإيمان به واجب وإنني لأظنك (أي السائل) ضالاً[1].

كان مالك إذن يقف عند الظاهر الواضح من النصوص القرآنية ونصوص السنة الخاصة بالعقائد، فلا يثير حول هذه النصوص منازعات عقلية لا يهتدي الفكر فيها إلى رأي. لقد كان مذهبه في أصول العقائد اتباع السلف في طريقتهم وتعاطيهم مع النصوص وهو إمرارها كما جاءت[2]، والحرص على عدم الخوض في أقوال واستشكالات لم يثرها السلف. واعتبر الخوض في هذه الأقوال يوقع المسلمين في حيرة دينية واضطراب في فهم حقائق الإسلام[3].

إن هذه الخلفية الفكرية جعلت العلماء المرابطين ينبذون الفلسفة باعتبارها علماً لا ينفع وفكراً مشوباً بالكفر[4]. وفي أصول العقائد تشبثوا بمنهج الإمام مالك القائم على التسليم بما جاء من عند الله من غير خوض في متشابهه لما في ذلك الخوض من إفساد للعقائد[5].

على هذا الأساس قرر العلماء المرابطون تقبيح علم الكلام وكراهة السلف له، وهجرهم من ظهر عليه تعاطيه، وأنه بدعة في الدين، ربما أدى أكثره إلى اختلال في العقائد[6]. ونتيجة لهذا وجدنا أمير المسلمين علي بن يوسف يكتب المرة تلو المرة إلى عماله في البلاد بالتشدد في نبذ الخوض في شيء من علم الكلام[7].

---

(١) عياض: المصدر السابق ص١٩٨.

(٢) أبو زهرة: مرجع سابق ص١٥٤.

(٣) أبو زهرة: مرجع سابق ص١٥٧.

(٤) حسن السايح: موقف القاضي عياض من الإمام الغزالي (دورة القاضي عياض ج٢ ص٢٤٣).

(٥) المراكشي: المعجب ص٢٥٥.

(٦) المراكشي: نفس المصدر والصفحة.

(٧) المراكشي: نفس المصدر والصفحة.

إن هذا التشدد والمنع من الخوض في علم الكلام كان المقصود به في الأساس حفظ عقائد العامة من جمهور المسلمين.

أما من كان له رسوخ في العلم وتميز في الفهم فله أن يطلع على علم الكلام ومباحثه ليذب عن حرمات الشريعة إذا احتيج إليه، كما يقول ابن العربي(١).

وقد علّل الفقيه أبو محمد عبدالحق(٢) عدم ضرورة تعلُّم علم الكلام والتعمق فيه في بلاد المغرب في القرن الخامس الهجري، لسلامة هذه البلاد من البدع في ذلك الوقت(٣).

ومما يدل على أن محاربة العلماء في العهد المرابطي لعلم الكلام إنما كانت لحجز العامة عن الوقوع في الشبهات فتفسد عقائدها، ما نلمسه من تقدير لبعض أئمة الكلام لدى هؤلاء العلماء. ويتجلى هذا التقدير بوضوح في الجواب الذي كتبه شيخ المالكية أبو الوليد ابن رشد في رده على استفسار أمير المسلمين علي بن يوسف عن أبي الحسن الأشعري(٤) وأبي إسحاق الإسفراييني وأبي بكر الباقلاني ونظرائهم ممن ينتحل علم الكلام ويتكلم في أصول الديانة. أهم أئمة رشاد وهداية أم هم قادة حيرة وعماية؟ فأجابه: بأن هؤلاء أئمة خير وهداية وممن يجب بهم الاقتداء لأنهم قاموا بنصر الشريعة وأبطلوا شبه أهل الزيغ(٥).

وقد اشتهر بعض علماء المرابطين بمعرفة علم الكلام مثل الإمام

---

(١) العواصم من القواصم: ج٢ ص١٠٩.

(٢) عبدالحق بن عبدالرحمن الأشيلي (ت٥٨١هـ): المعروف بابن الخراط، فقيه حافظ محدث. هاجر من الأندلس إلى بجاية عند انقراض الدولة المرابطية (ابن فرحون: الديباج المذهب ج٢ ص٥٩).

(٣) الونشريسي: المعيار ج١١ ص٢٣٠.

(٤) علي بن إسماعيل أبو الحسن الأشعري (ت٣٢٤هـ): مؤسس مذهب الأشاعرة، كان من أئمة المتكلمين المجتهدين له كثير من المؤلفات منها: «مقالات الإسلاميين» جزءان، مطبوع، و«الإبانة عن أصول الديانة» مطبوع أيضاً. (الزركلي: الأعلام ج٥ ص٦٩).

(٥) ابن رشد: الفتاوى تحقيق المختار التليلي ج٢ ص٨٠٢.

الحضرمي المرادي فقد وصفه القاضي عياض بأنه أول من أدخل علوم الاعتقاد إلى المغرب الأقصى وله فيها عدة مؤلفات منها كتاب «التجريد»[1]. ومن علماء الكلام في هذا العصر أبو الحجاج بن موسى الكلبي وهو تلميذ المرادي[2]. قال عنه ابن بشكوال: «من أهل التبحر والتقدم في علم التوحيد والاعتقادات وهو آخر أئمة المغرب فيه»[3]. والعبارة الأخيرة تدل على أن علم الكلام لم ينتشر في المغرب كثيراً كما انتشر في المشرق.

أما الفلسفة فكانت منبوذة من طرف العلماء في العهد المرابطي لهذا هجرت فلم يتعاطاها الناس. وحتى من تعاطاها من الخاصة إنما كان يفعل ذلك سراً. وأصدق مثال على ذلك أن الفيلسوف مالك بن وهيب[4]، رغم قربه من أمير المسلمين وعلو مكانته عنده، لم يستطع أن يقيد معارفه الفلسفية ولا بثها، «بل أضرب عن النظر ظاهراً فيها وعن التكلم فيها لما لحقه من المطالبات في دمه بسببها» كما يقول ابن أبي أصيبعة[5].

ولعل أحسن تلخيص لموقف العلماء من الفلسفة في هذا العهد ما نجده في «وصية القاضي أبي الوليد الباجي لولديه» محذراً من «قراءة شيء من المنطق وكلام الفلسفة فإن ذلك مبني على الكفر والإلحاد والبعد عن الشريعة»[6].

لقد أدت حال النفور هذه أن أصبح علم الفلسفة من الممنوعات وخرج عن دائرة العلوم الموصى بتعلمها، يقول المقري عن الفترة المرابطية

---

(١) عياض: الغنية تحقيق محمد بن عبدالكريم ص٢٨٢.

(٢) ابن الزيات: التشوف ص١٠٦.

(٣) الصلة: ج٢ ص٦٤٤.

(٤) مالك بن وهيب: فقيه، فيلسوف، زاهد ورع كان مستشار أمير المسلمين علي بن يوسف ووزيره (المقري: نفح الطيب ج٥ ص٢٨).

(٥) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، منشورات دار مكتبة الحياة ١٩٦٥ بيروت ص٥١٥.

(٦) وصية الباجي لولديه نشر جودة عبدالرحمن بمجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد ع٣ مج١ سنة ١٩٥٥ ص٣٥.

وما يشتغل به طلبة العلم «وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء إلا الفلسفة والتنجيم»[1].

## د ـ موقف العلماء من التصوف في عهد المرابطين:

تميز العهد المرابطي بنوعين من التصوف أحدهما هو التصوف السني القائم على اقتفاء أثر السلف الصالح في امتثال أوامر الشرع واجتناب نواهيه والابتعاد عن الشبهات، وترك ما لا بأس به خشية الوقوع في ما به بأس. وقد مثل هذا الاتجاه ثلة من العلماء من أمثال الفقيه وجاج بن زولو الذي بنى مدرسة بنفيس يعلم الناس فيها العلم ويحضهم على الخير ويضرب لهم المثل الحسن بسلوكه[2]، وهو شيخ الإمام عبدالله بن ياسين الذي كان زاهداً في زخرف الدنيا متقللاً من حلالها، صابراً على الحق[3].

ولعل أشهر أهل هذا المنهج هو الفقيه المحدث الزاهد الإمام أبو علي حسين بن محمد الصدفي (ت٥١٤هـ). لقد قضى الصدفي حياته بالعلم والتعليم والجهاد غير متشوف لعرض صابراً على ذلك إلى أن استشهد بموقعة قتندة[4][5].

لقد أثر هذا المنهج والسلوك في الكثير من طلبة العلم وشيوخه وغيرهم، فأمير المسلمين يوسف بن تاشفين كان متقشفاً في مأكله ومشربه زاهداً في متاع الدنيا، لباسه الصوف لم يلبس قط غيره على حد عبارة ابن أبي زرع[6]. وكذلك ابنه أمير المسلمين علي فقد كان كما وصفه عبدالواحد المراكشي «يعد من الزهاد والمتبتلين أقرب منه إلى أن يعد من الملوك

---

(١) المقري: نفح الطيب ج١ ص٢٢١.
(٢) ابن الزيات: التشوف ص٨٩.
(٣) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٢٤.
(٤) عياض: المدارك ج٨ ص١٩٤.
(٥) قتندة: بلدة من إقليم سرقسطة في الثغر الأعلى (ياقوت الحموي: ج٤ دار صادر بيروت ص٣١٠).
(٦) روض القرطاس: ص١٣٦.

والمتغلبين»[1].

إلى جانب هذا التيار الصوفي السُّني بدأت تتشكل ملامح تيار صوفي فلسفي. نشأ هذا التيار نتيجة التأثر بالتراث اليوناني كفلسفة أفلاطون وأرسطو التي ترجمت في المشرق ثم نقلت إلى الأندلس، بالإضافة إلى مؤلفات الفارابي وابن سينا وإخوان الصفا[2] ومصنفات كبار المتكلمين لا سيما المعتزلة[3]. ويمثل هذا الاتجاه كل من ابن العريف[4] صاحب كتاب «محاسن المجالس»[5] الذي تحدث فيه عن المقامات الصوفية التي يمر بها السالك في طريقة الصوفية، ومنهم ابن برجان[6] وأبو القاسم بن قسي[7] الذي ضمن كتابه: «خلع النعلين» آراءه في الفيض الوجودي ومراتب الموجودات[8].

لقد أثار هذا التيار الأخير من الصوفية حفيظة العلماء الذين اعتبروا هذه الطائفة خارجة عن الشرع. فابن العربي ينكر على هؤلاء قولهم بالحلول

---

(١) المعجب: ص٢٥٢.

(٢) إخوان الصفا: جماعة ذوو نزعة فلسفية ظهروا في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، وقد أذاعوا أفكارهم عن طريق رسائل أذاعوها بين الناس (عمر فروخ: تاريخ الفكر العربي ص٣٧٧).

(٣) عصمت دندش: الأندلس في نهاية المرابطين ص٣٦٠؛ بوتشيش: المغرب والأندلس في عصر المرابطين ص١٣٢.

(٤) أحمد بن محمد المعروف بابن العريف (ت٥٣٦هـ): متصوف من أهل المرية (ابن بشكوال: الصلة ج١ ص٨٣).

(٥) نشر هذا الكتاب المستشرق آسين بلاتيوس ASIN Palacios سنة ١٩٣٣ في باريس.

(٦) أبو الحكم بن برجان (ت٥٣٦هـ): متصوف من أهل أشبيلية ومن أهل علم الكلام له تفسير في القرآن (ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٤).

(٧) أحمد بن قسي (ت٥٤٦هـ): أحد المتسترين بالتصوف والثائرين على المرابطين في آخر دولتهم (ابن الخطيب: أعمال الأعلام تحقيق إ.ليفي بروفنسال. ط٢٠ ١٩٥٦ بيروت ص٢٤٨).

(٨) د. أبو العلاء عفيفي: أبو القاسم بن قسي وكتابه: خلع النعلين، مجلة كلية آداب الإسكندرية المجلد ١١ السنة ١٩٥٧ ص٥٤.

والاتحاد وما إليها من ألفاظ كالحرقة والفناء والعشق الذي يقول عنه «وللصوفية في إطلاق العشق على الله تجاوز عظيم واعتداء كبير، ولولا إطلاقه تعالى المحبة ما أطلقناها فكيف نتعداها إلى سواها من ألفاظ المجان وليس لهذا أصل في الشريعة»[١].

كما أنكر عليهم ما يدعونه بالتجلي ويعارض فكرة الفيض[٢]. وسلك نفس المسلك في انتقادهم والرد عليهم القاضي عياض[٣].

وقد وصل نكير الفقهاء على أهل هذه النحلة أن أغروا بهم الأمراء فاستدعى أمير المسلمين ابن العريف إلى مراكش لاختبار أحواله[٤]. وقد سجن جماعة من هؤلاء المتصوفة منهم ابن برجان والميورقي[٥]. وفي جو هذا الصراع بين العلماء والمتصوفة، أقدم بعض العلماء المرابطين على التنديد بكتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي وقاموا بالرد عليه[٦]. ثم أفتوا بمنعه من التداول ثم سعوا في مصادرة نسخه وإتلافها بالإحراق. وبالفعل فقد استطاع نفر من العلماء وخصوصاً علماء قرطبة استصدار أمر من أمير المسلمين علي بن يوسف بإحراق كتاب إحياء علوم الدين وذلك سنة ٥٠٣هـ[٧]. وأمر بتفتيش

---

(١) العواصم: ص١٦.

(٢) نفس المصدر ص١٨.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج١ ص١٦٧.

(٤) لما وصل مراكش أمر أمير المسلمين علي بن يوسف بإطلاق سراحه وأحسن إليه لكن القاضي ابن أسود قاضي شرق الأندلس الذي كان أحد أبرز الناقمين على ابن العريف أمر بسم هذا الأخير فمات في صفر ٥٣٦هـ بعد شهور من عودته من مراكش (ابن الزيات: التشوف ص١٢١).

(٥) محمد بن الحسين أبو بكر الميورقي: صوفي من أهل غرناطة توفي ببجاية عام ٥٣٧هـ (ابن الأبار: المعجم ص١٤٦).

(٦) ألف القاضي محمد بن حمدين رسائل في الرد على الغزالي وكتابه، وقد أخذها عن ابن حمدين أكثر من عالم من أمثال عبدالحق بن عطية (الفهرس ص٨٥) والقاضي عياض (الغنية ص١١٦).

(٧) ابن القطان: نظم الجمان ص٧٠ تحقيق د. محمود مكي (دار الغرب ١٩٩٠)؛ وقد اعتمد روايته كل من ابن عذارى (البيان المغرب ج٤ ص٥٩) وصاحب الحلل =

المكتبات وأن يحلف أصحابها أنهم لا يملكون نسخاً من الإحياء.

لقد نال هذا القرار حيزاً من اهتمام الكتّاب والمؤرخين الذين كتبوا عن الدولة المرابطية بين مدافع عن هذا القرار وبين مندد به.

لكننا قبل أن نصدر حكماً على هذا الفعل نرى أن نستجلي الدوافع التي كانت وراء هذا العداء لكتاب الإحياء ولصاحبه.

بالعودة إلى المصادر نجد أن بعضها يورد هذه الحادثة دون أن يعللها كابن القطان[١] وابن عذارى[٢]. كما نجد البعض الآخر كصاحب «الحلل الموشية» يقول: إن الفقهاء تكلموا في كتاب الإحياء وأنكروا فيه أشياء[٣]، لكنه لا يحدد طبيعة هذه الأشياء التي أنكروها وكذلك فعل ابن الزيات[٤]، وأخيراً نجد البعض يقدم تعليلاً للحادث لكن دون اتفاق على سبب بعينه. فصاحب كتاب «بيوتات فاس الكبرى» يقول: «إن العلماء تكلموا فيه ـ أي الإحياء ـ لما فيه من الأحاديث الموضوعة»[٥] بينما نجد المراكشي يربط بين محاربة العلماء لعلم الكلام وقضية الإحراق[٦].

وكما اختلفت المصادر في تبيين أسباب عداء العلماء لكتاب الإحياء، اختلفت أيضاً آراء المحدثين حول هذه الحادثة وأسبابها. فمنهم من يرى أن الإحراق تم لأن الفقهاء اعتبروا الغزالي من أهل الرأي[٧]. ويرى البعض

---

= الموشية (ص١٠٤) أما صاحب المعجب فيذكر: أن الأمر صدر بإحراق جميع كتب الإمام الغزالي (عبدالواحد المراكشي: المعجب تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العلمي، دار الكتب بالدار البيضاء ١٩٧٨ ص٢٥٥). غير أن الثابت أن الذي أحرق هو كتاب الإحياء خاصة.

(١) نظم الجمان: ص٧٠.

(٢) البيان المغرب ج٤ ص٥٩.

(٣) الحلل الموشية: ص١٠٤.

(٤) التشوف: ص٣٦.

(٥) ص٣٣.

(٦) المعجب: ص٢٥٥.

(٧) د. أحمد حسن محمود: قيام دولة المرابطين ص٤٤٦.

الآخر أن الإحراق يدخل ضمن الحرب بين المالكية والشافعية[1]، في ما يرجع البعض الآخر سبب الإحراق إلى موقف الغزالي الرافض لفرض الضرائب على المسلمين، ثم إلى منحى الكتاب الصوفي الباطني[2].

والذي يبدو هو أن قرار إحراق كتاب الإحياء كان نتيجة عدة أسباب أولها: ما اشتمل عليه من أحاديث ضعيفة وأخرى موضوعة وهو ما أنكره عليه علماء كبار من أمثال الإمام الطرطوشي الذي وصف كتاب الإحياء «بأنه شحن بالكذب على رسول الله ﷺ فلا أعلم كتاباً على وجه بسيط الأرض أكثر كذباً على الرسول ﷺ منه»[3] وهو نفس ما عابه عليه ابن الجوزي الذي ألّف رسالة سماها «إعلام الأحياء بأغلاط الإحياء»[4].

ثاني الأسباب: ما شاب الكتاب من آراء فلسفية لم تكن معروفة لدى أهل التصوف والزهد[5].

ثالث هذه الأسباب: هو تعريضه بالفقهاء وتشنيعه عليهم معتبراً أنهم لم يتصفوا بمقتضى مسماهم، لأنهم قصّروا الفقه على العلم بالحلال والحرام في حين يرى هو أن للفقه معنى أسمى من ذلك فهو العلم الدال على طريق الآخرة بتصفيته للنفوس وأن هذا المعنى هو الذي كان معروفاً لدى السلف الأول من الصحابة والتابعين[6].

وقد كان لهذا النقد وقعه على الفقهاء لأنه سيعزز حجج خصومهم من المتصوفة.

---

(١) عبدالله العروي: تاريخ المغرب ص١٢٩.

(٢) مصطفى بنسباع: إحراق كتاب الإحياء (ملتقى الدراسات المغربية الأندلسية) الندوة ٥ تطوان ١٩٩٣ ص٣٥٧.

(٣) الونشريسي: المعيار ج١٢ ص١٨٥.

(٤) عبدالكريم العثمان: سيرة الغزالي ص٦٠.

(٥) الونشريسي: مصدر سابق ص١٨٦.

(٦) الغزالي: الإحياء ج١ ص٣٢.

لهذا كانت نقمة العلماء عليه جزءاً من حربهم مع الصوفية الفلسفية، ومحاولة لرد الاعتبار ومحافظة على المكانة التي كانت لهم في ظل الدولة المرابطية.

كل هذه الأسباب سوغت في نظر بعض العلماء، الإفتاء بإحراق كتاب الإحياء. لم يكن هذا القرار محل إجماع من العلماء بل أن بعضاً منهم جاهر بمعارضة هذا القرار والتنديد به. ومن هؤلاء أبو الحسن البرجي (ت٥٠٩هـ) الذي أفتى بتأديب من يحرق كتاب الإحياء وتضمينه قيمته لأنه مال مسلم[١]. كما انتصر أبو الفضل النحوي (ت٥١٣هـ) لكتاب الإحياء وكتب لأمير المسلمين علي بن يوسف بذلك، وقد أفتى بأن الأيمان التي فرضت في عملية التفتيش عن كتاب الإحياء، أيمان لا تلزم[٢].

إلا أن هؤلاء المعارضين كانوا أقلية، كما أنهم لم يسلموا من المضايقة من طرف المفتين بالإحراق وخصوصاً القاضي محمد بن حمدين قاضي الجماعة الذي أمر بعزل البرجي من القضاء لمّا علم بمعارضته لقرار الإحراق[٣]. وهذا المسلك ينم عن ضيق صدر بالرأي المخالف وعجز عن الإقناع بالحجة دون اللجوء إلى التسلط.

لم يكن أسلوب الإحراق أسلوباً سليماً، ولعل الحل الذي كان يراه القاضي عياض في التعامل مع كتاب الإحياء كان الأسلوب الأمثل، فقد كان يقول: «لو اختصر هذا الكتاب واقتصر على ما فيه من خالص العلم لكان كتاباً مفيداً»[٤][٥].

إن كتاب الإحياء، رغم المآخذ التي لا يخلو منها مؤلَّف، لقي القبول

---

(١) ابن الأبار: معجم أصحاب أبي علي الصدفي ص٢٧٨.

(٢) ابن الزيات: التشوف ص٩٦.

(٣) ابن الأبار: المصدر السابق ص٢٧٩.

(٤) محمد بن عياض: التعريف بالقاضي عياض تحقيق د. محمد بن شريفة ص١٠٦.

(٥) ومع هذا فقد روى ابن العماد في الشذرات (ج٤ ص١٣٩) أن عياضاً كان يرى وجوب إحراق كتاب الإحياء للغزالي.

لدى الأمة وأثنى عليه علماؤها ونكتفي هنا برأي شيخ الإسلام ابن تيمية فيه:

«وفيه (أي الإحياء) أحاديث وآثار ضعيفة بل موضوعة كثيرة، وفيه أشياء من أغاليط الصوفية وترهاتهم، وفيه مع ذلك من كلام المشايخ الصوفية العارفين المستقيمين، في أعمال القلوب الموافقة للكتاب والسنة، ومن غير ذلك من العبادات والأدب ما هو موافق للكتاب والسنة، ما هو أكثر مما يرد منه»[1].

ولنا أن نتساءل في نهاية هذا الفصل: هل كان العلماء في العهد المرابطي محقين في سعيهم لفرض رؤية واحدة للأشياء على مستوى الأحكام والعقائد والحكم؟

إن مما لا شك فيه أن تصرف العلماء في تلك الفترة على أساس أن الحق واحد وأنه في جهتهم فقط وبالتالي محاربة من سواهم، قد يكون قلل من فرص إيجاد نوع من التنوع الفكري مثل ما كان سائداً في المشرق. فالاختلاف في الرأي والمذهب أحدث في المشرق أشكالاً من النضال الفكري الذي غذى الأدب والعلم بعناصر متنوعة ومتجددة، وأمدها بدواعي الحياة والازدهار والابتكار.

ولكن أليس صحيحاً أيضاً أن ثمار الفكر ليست كلها خيرة مفيدة؟ وأن منها ما هو ضلال بحت؟ أفلا يكون من مهمة العلماء عندئذ أن ينصبوا ميزان «الصلاح» وأن يمارسوا إلى حد ما «الحجر الصحي على العقول»؟

إننا نميل إلى ذلك، ونرى أن العقول مثل الأجسام تحتاج إلى أن تحمى من الأفكار الموبوءة الفتاكة التي تبث الشك وتظلم القلب فتنسد دروب الهداية والفلاح.

ونحن نرى أن حماية العقول وخصوصاً عقول العامة من أن تفسد

---

(١) ابن تيمية: الفتاوى مج١٠، نشر دار عالم الكتب، الرياض ١٩٩١، ص٥٥٢.

مهمة كبرى من مهمات العلماء. وهي مهمة قاموا بها في كل أنحاء العالم الإسلامي وعلى مر العصور. إلا أنهم في هذا العهد المرابطي وجدوا دولة وجهازاً حاكماً يساند توجهاتهم ويطبق تعليماتهم.

إن النظرة المتأنية المقارنة بين الحالة الفكرية التي كان يعيشها المشرق الإسلامي والمغرب الإسلامي لا شك تجحف بهذا الأخير فالبون المعرفي كبير. غير أن الإنتاج الفكري المشرقي لم يكن مفيداً كله ولا صالحاً مصلحاً دنيا وأخرى. لذلك انتشرت الأفكار بكل أنواعها فازدهرت النحل والطوائف وما استتبع ذلك من كوارث على الأمة الإسلامية. وهي حالة لا نجدها في المغرب الأقصى على هذا العهد.

لقد كانت مقتضيات الأمور وواقع الظروف التي تمر بها المنطقة، من صراع البقاء أمام زحف الخطر المسيحي الذي يهدد باجتثاث كيان الأمة في كل حين، تستدعي من العلماء أن يوحدوا القلوب والمشارب لتكوين جبهة واحدة تصمد أمام الخطر الماحق. وقد صدقت الأحداث التالية في المغرب الأقصى نظرة العلماء هذه فقد ضعفت الجبهة الإسلامية عن مجابهة النصارى ومدافعتهم نتيجة ثورات داخل البيت الإسلامي أنبتتها وأشعلت جذوتها بعض الأفكار الهدامة التي جاءت إلى المغرب من المشرق(١).

ومع كل ذلك فقد حقق العلماء بسعيهم إلى التوحيد المذهبي نوعاً من اللحمة بين العناصر البشرية المشكلة للدولة المرابطية وخصوصاً في العدوة الجنوبية.

فعملية المزج والتوحيد وإن كانت في الأساس تهدف إلى تحقيق الوحدة الدينية فقد أدت إلى توحيد سياسي وثقافي وهو مكسب تاريخي لا جدال فيه.

---

(١) مثل ثورة ابن تومرت التي سنتحدث عنها بالتفصيل.

## الفصل الثالث

# العلماء وسياسة المرابطين الوحدوية

لقد كانت فكرة الوحدة إحدى أهم ركائز المنهج المرابطي. وكان اعتراف القائمين على الدولة المرابطية بالتبعية للخلافة العباسية، تعبيراً صادقاً عن هذا الالتزام والاتجاه. والوحدة بالنسبة للمرابطين هدف عام ولكنها في الظرف الزمني الذي كانوا يعيشون فيه وسيلة لجهاد العدو ومدافعته والتقوي على خطره الداهم.

لقد قام المرابطون، بتوجيه مباشر من العلماء بتوحيد المغرب الأقصى وموريتانيا وكوّنوا في هذه الرقعة دولة تحمي مصالح المسلمين وتنشر بينهم العدل، وتقوم على الجهاد لإعلاء كلمة الله. هذا الصرح الجديد الشامخ ولّد الأمل من جديد في نفوس كثير من المسلمين ببزوغ عهد جديد ينتشر معه بعض من الأمن والقوة في دار الإسلام بعدما عمتها الفوضى والذلة. وكان من الطبيعي أن يكون أول المشرئبين إلى هذه الدولة الجديدة هم أهل الأندلس، العدوة الثانية لقرب الجوار وعمق الوشائج.

### ١ ـ الحال في الأندلس عند قيام دولة المرابطين:

كانت شبه الجزيرة الأيبرية عند قيام دولة المرابطين منقسمة إلى قسمين: قسم شمالي تقوم فيه المماليك المسيحية وهي إمارة برشلونة

ومملكة أرغون ومملكة قشتالة وليون[1]. وقسم جنوبي وهو الأندلس الإسلامية.

كانت هذه الأندلس قد انقسمت منذ سقوط دولة بني أمية بالأندلس سنة ٤٢٢هـ[2] إلى دويلات تتجاوز العشرين عرفت باسم دول أو ممالك الطوائف[3]. ومن أهم هذه الدويلات: إمارة بني عباد في أشبيلية[4] وإمارة بني جهور في قرطبة[5]، وبني الأفطس في بطليوس[6]، وبني ذي النون في طليطلة[7] وبني زيري في غرناطة[8] وبني صمادح في المرية[9]

---

(١) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ص٦٨.

(٢) الحميدي: الجذوة ص٢٧ ـ ٢٨؛ المراكشي: المعجب ص٨٧ ـ ٨٨؛ ابن عذارى: البيان المغرب ج٣ ص١٤٥ ـ ١٤٦.

(٣) عن أمراء الطوائف والأسر التي حكمت مختلف المدن انظر: زامباور: معجم الأنساب والأسراب الحاكمة في التاريخ الإسلامي ص٨٦ ـ ٩٢؛ عنان: دور الطوائف.

(٤) تأسست في أشبيلية عام ٤١٤هـ واستمرت حتى عام ٤٨٤هـ (يوسف حوالة: بنو عباد في أشبيلية الطبعة الأولى ١٤١٠هـ ؛ طبع شركة دار العلم بجدة.

(٥) تأسست في قرطبة عام ٤٢٤هـ واستمرت حتى عام ٤٦٢هـ عندما سقطت في يد المعتمد بن عباد (بن بسام: الذخيرة ق١ المجلد الثاني ص١١٤ ـ ١١٦)؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٢٧ ـ ١٥١؛ خالد الصوفي: جمهورية بني جهور ١٩٥٩ المطبعة التعاونية، دمشق.

(٦) تأسست عند انتثار عقد الخلافة واستمرت إلى أن سقطت في يد المرابطين سنة ٤٨٨هـ (ابن عذارى: البيان المغرب ج٣ ص٢٣٦ ـ ٢٣٧؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٧٠ ـ ١٧٦).

(٧) تأسست سنة ٤٢٧ إلى أن سقطت سنة ٤٧٨هـ في يد ألفونس السادس (ابن عذارى: البيان المغرب ج٣ ص٢٧٦ ـ ٢٨٢؛ ابن سعيد المغربي: المغرب ج٢ ص٧؛ محمد عبدالله عنان: دور الطوائف ص٩٤ ـ ١١٨).

(٨) تأسست سنة ٤٠٣هـ واستمرت حتى سنة ٤٨٣هـ حين سقطت في يد المرابطين (الأمير عبدالله بن بلقين: كتاب التبيان تحقيق أمين توفيق الطيبي، ط١ مطابع منشورات عكاظ، الرباط ١٩٩٥).

(٩) تأسست سنة ٤٢٩هـ واستمرت حتى سقطت بيد المرابطين سنة ٤٨٤هـ (ابن عذارى: ج٣ ص١٦٧ ـ ١٦٨؛ ابن الأبار: الحلة البيراء ج٢ ص٧٨ ـ ٨١ وص٨٢ ـ ٨٤؛ السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ مدينة المرية الإسلامية، الطبعة الأولى ١٩٦٩ دار النهضة العربية، بيروت).

وبني هود في سرقسطة[1].

وهكذا ساد التفكك السياسي بلاد الأندلس وتحولت إلى أشلاء ممزقة «وذهب أهل الأندلس في الانشقاق والانشعاب والافتراق إلى حيث لم يذهب كثير من أهل الأقطار»[2].

أما أمراء الدول «فجعل الله بينهم من التحاسد والتنافس والغيرة ما لم يجعله بين الضرائر المترفات والعشائر المتغايرات، فلم تتصل لهم في الله يد ولا نشأ على التعاضد عزم»[3].

وقد تلقب هؤلاء المتغلبون في الأندلس بألقاب الخلافة فمنهم من تسمى بالمعتضد وبعضهم تسمى بالمأمون وآخر بالمعتمد إلى غير ذلك من الألقاب. وفي ذلك يقول أبو الحسن بن راشيق:

مما يزهدني في أرض أندلس ... سماع مقتدر فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها ... كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد[4]

كان استقلال هذه الإمارات استقلالاً واهياً فقد كانت تفتقد لأبسط مقومات الدولة. إذ اتسمت بأسسها الهشة وافتقرت إلى قاعدة تضمن لها كياناً صلباً[5].

وقد كان حكام هذه الإمارات مستبدين مستهينين بالدماء، مكثرين من أسباب الترف، لذا اقتصر كل همهم على الانغماس في اللذات ومحاربة بعضهم بعضاً وفي الاستعانة في سبيل ذلك بالنصارى الإسبان ودفع الإتاوات المالية لهم اتقاءاً لشرهم[6].

---

(١) تأسست سنة ٤٣١هـ حتى سقطت سنة ٥١٢هـ في يد النصارى (ابن عذارى: ج٣ ص٢٢١ ـ ٢٢٤؛ ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة ج٣ ص٢٨١ ـ ٢٨٤).
(٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٤٤.
(٣) نفس المصدر ص٢٤٤.
(٤) المراكشي: المعجب ص١٠٥.
(٥) إبراهيم بوتشيش: المغرب والأندلس في عصر المرابطين ص١٣.
(٦) محمد عبدالله عنان: دول الطوائف ص٣٨٢.

وفي مقابل ذلك كان النصارى الإسبان قد أعلنوا حرب «الاسترداد»، وقد بلغت حركة الاسترداد[١] هذه قوتها مع فرناندو الأول[٢] وابنه ألفونس السادس[٣]، فقد بدأت الأراضي والحصون الإسلامية تسقط تباعاً ورقعة الأندلس الإسلامية تنكمش وبات الوضع يؤذن بزوال الإسلام.

أمام هذا الوضع اليائس كان الأمل معلقاً على العلماء لكونهم أئمة الناس وملاذهم في المحن. لكن حال أغلبهم كانت مثل حال أمرائهم في الإخلاد إلى الأرض والنأي عن تحمل المسؤوليات الملقاة على عاتقهم. ويصف ابن بسام تلك الحال بقوله: «والفقهاء أئمتهم صموت عنهم (أي عن الأمراء) صدوف عما أكد الله عليهم في التبيين لهم، قد أصبحوا بين آكل من حلوائهم، خائض في أهوائهم وبين مستشعر مخافتهم آخذ بالتقية في

---

(١) سُمِّيت حرب الاسترداد لأنها كانت تهدف إلى استرداد الأندلس من المسلمين، وكان واضع خططها الطويلة الأمد هو الملك سانشو أو شانجه الكبير الذي حكم ما بين ١٠٠٠م ـ ١٠٣٥م فوحد الدويلات النصرانية عن طريق المصاهرة وقد قويت هذه الحركة على ابنه فرناندو الأول إلى أن توفي سنة ١٠٦٥م فقد خاض وقائع حربية ناجحة ضد المسلمين. كما قام بتوحيد حليقية وليون مع قشتالة وكانت سياسته قائمة على أن الحرب إما أن تسفر عن أخذ الأراضي أو عن الحصول على الجزية من المسلمين فتتقوى الدولة الإسبانية بتلك الموارد. أما بالنسبة إلى الأراضي التي لم يكن الحصول عليها ممكناً فقد كان الإرهاب الحربي والتدمير هو الأسلوب المتبع لإنهاكها. وقد تعثرت هذه الحركة بعد موت فرديناند بسبب انقسام دولته بين أبنائه والحرب بينهم ولكنها قويت من جديد على يد ابنه ألفونس السادس الذي سيقطع بها أشواطاً كبيرة جعلت الوجود الإسلامي في الأندلس لأول مرة في تاريخه مهدداً بالزوال، (أندري جوليان: تاريخ أفريقيا الشمالية تعريب محمد مزالي ج٢ ص١١١؛ محمد عبدالله عنان: دول الطوائف ص٣٨٢ ـ ٣٨٣).

(٢) فرناندو الأول (حكم بين عام ١٠٣٥ ـ ١٠٦٥): ملك قشتالة وليون. استطاع هذا الملك أن يقود إسبانيا النصرانية إلى انتصارات كبرى أعطتها التفوق السياسي والعسكري في شبه الجزيرة وكان من أبرز مظاهر هذا التفوق احتلال الأراضي الإسلامية وإخضاع ملوك الطوائف لصولته وإرغامهم على دفع الجزية (عنان: دولة الطوائف ص٣٨٤).

(٣) ألفونس السادس (حكم بين سنتي ١٠٦٥ ـ ١١٠٩م): عاصر هذا الملك عهد الطوائف وبداية عصر المرابطين واستطاع أن يدفع حركة الاسترداد إلى الأمام باحتلاله مدينة طليطلة سنة ١٠٨٥م (٤٧٨هـ.)

صدقهم وأولئك هم الأقلون فيهم»[1].

ومع ذلك فإن بقية من العلماء من ذوي القلوب الحية بالعلم والضمائر المستنيرة بالإيمان استنكرت هذا الوضع ورفعت عقيرتها داعية إلى إصلاح الأوضاع بالوحدة ومدافعة العدو.

وسنعرض هنا لبعض من هؤلاء العلماء الذين صدعوا بالحق وتحملوا تبعات ذلك مقتنعين أن ذلك واجبهم. فمن هؤلاء أبو محمد بن حزم (ت٤٥٦هـ)[2] الذي آلمه ما آلت إليه أوضاع الأندلس من سوء جره عليها أمراء لا هم لهم إلا مطالبهم الذاتية من غير اعتبار لدين ولا مصلحة بل إن ابن حزم يقسم بالله أن هؤلاء الملوك «لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية لأمورهم لبادروا إليها» ويستدل ابن حزم على هذا بما رآه في السابق من تصرفات هؤلاء الأمراء في سعيهم للبقاء على كراسيهم، إذ بذلوا الدين والوطن ورضوا الدنية فقد مكنوا النصارى من بلاد الإسلام «فربما أعطوهم المدن والقلاع طوعاً فأخلوها من الإسلام وعمرها النواقيس، لعن الله جميعهم وسلط عليهم سيفاً من سيوفه»[3].

وقد اعتبر ابن حزم نظام دول الطوائف نظاماً غير شرعي على أساس أن الأمويين وحدهم أصحاب الحق الشرعي في حكم الأندلس[4].

ومن هؤلاء العلماء الذين أحزنهم ضعف المسلمين في الأندلس الفقيه أبو حفص بن الحسن الهوزني[5]. فقد تأثر هذا الفقيه تأثراً عميقاً بالهجوم المسيحي على ببشتر سنة ٤٥٦هـ وتألم للمذابح والمآسي التي عاناها

---

(١) الذخيرة: ج٥ ص١٨٠.

(٢) أبو محمد بن حزم: عالم كبير من علماء الأمة ظاهري المذهب. من أهم كتبه كتاب «المحلى» في الفقه (الحميدي: جذوة المقتبس ج٢ ص٤٨٩؛ ابن بشكوال: الصلة ج٢ ص٣٩٥ ـ ٣٩٦؛ الضبي: بغية الملتمس ج٢ ص٥٤٣ ـ ٥٤٥.

(٣) رسائل ابن حزم الأندلسي ج٣ تحقيق حسن عباس مكتبة الخانجي بمصر ص١٧٧.

(٤) ابن بسام: الذخيرة ج١ ص١٦٩.

(٥) أبو حفص الهوزني: فقيه أشبيلي جريء لا يخشى في الحق لومة لائم، ونتيجة لذلك قتله المعتضد بن عباد بيده سنة ٤٦٠هـ. (ابن بسام: الذخيرة ق٢ ج١ ص١٨٢ ـ ١٨٤).

السكان. فبعث إلى المعتضد بن عباد[1] أمير أشبيلية وأقوى زعماء الطوائف، برسائل ملتهبة حماساً يحرضه فيها على تزعم الجهاد ضد النصارى الإسبان. وشرح له في هذه الرسائل حال المسلمين السيئة حكاماً ومحكومين، ومما قاله في هذه الرسائل:

أيا أسفاً للدين إذ ظل نهبة ... بأعيننا والمسلمون شهود
أعيذكم أن تذهبوا فيمسكم ... عقاب كما ذاق العذاب ثمود
وأقبح بذكر يستطير بأرضكم ... يؤم به أقصى البلاد وفود[2]

وقد صوَّرَ الفقيه ابن العسال حال المسلمين بالأندلس فهي بائسة يملؤها القلق والرعب إذ هم ضحية لتكالب أعدائهم النصارى وجبن حكامهم، يقول ابن عسال:

ولقد رمانا المشركون بأسهم ... لم تخط لكن شأنها الإصماء
باتت قلوب المسلمين برعبهم ... فحماتنا في حربهم جبناء[3]

لكن هذا النصح وهذا الاستنكار والاستنهاض لم يجد نفعاً ولا غيّر وضعاً. فلقد كان أمراء الطوائف في شغل عن الشعور بعمق الأزمة وفداحة الخطب. وقد صور الشاعر حالهم تلك بأحسن تصوير إذ يقول:

وكيف يشعر من في كفه قدح ... تحدو به مذهلات الناي والوتر
صمّت مسامعه عن غير نغمته ... فما تمر به الآيات والسور
تلقاه كالعجل معبوداً بمجلسه ... له خوار ولكن حشوه خور[4]

---

(١) المعتضد بن عباد: ثاني أمراء بني عباد في أشبيلية، حكم من سنة ٤٣٣ إلى ٤٦١هـ يقول عنه ابن حيان فيما ينقله عنه ابن بسام: «شهاب الفتنة صاحب الحوادث الفظيعة الشنيعة والوقائع المبيرة» ويصف سياسته فيقول: «وجاء منها عبولات تذعر من سمع بها فضلاً عمن عاينها» (ابن بسام: الذخيرة ق٢ ج١ ص١٦).

(٢) ابن بسام: الذخيرة ق٢ ج١ ص٧٥.

(٣) أبو محمد عبدالله بن العسال (ت٤٨٧هـ): فقيه غلب عليه الزهد فاشتهر به (ابن سيد: المغرب ج٢ ص٢١).

(٤) ابن بسام: الذخيرة ج٣ ص٢٥٦.

وفي هذا الوضع المتداعي كان كل يوم من العهد الطائفي يحمل كارثة جديدة على الإسلام وأهله في الأندلس. وكان سقوط طليطلة بيد ألفونس السادس في محرم ٤٧٨هـ (١٠٨٥م) قمة هذا الانهيار.

## سقوط طليطلة واستنجاد العلماء الأندلسيين بالمرابطين:

لما كان سقوط مدينة طليطلة في يد ألفونس السادس هو السبب المباشر لاستصراخ أهل الأندلس بالمرابطين، فإنه من المناسب أن نوضح كيف سقطت هذه القاعدة الكبرى من قواعد الإسلام وملابسات ذلك السقوط.

كانت طليطلة تحت حكم أسرة بني ذي النون من أمراء الطوائف. ومن أشهر أمراء هذه الأسرة المأمون بن ذي النون (ت٤٦٧هـ)[1] فقد بلغت في عصره إمارة بني ذي النون ذروة مجدها، وأصبح يضاهي ملك بني عباد في أشبيلية. فلما توفي خلفه في حكم طليطلة حفيده يحيى الملقّب بالقادر، وكان فتى حدثاً قليل الخبرة. وكانت أولى سقطاته أن تخلص من وزير جده الفقيه أبو بكر بن الحديدي الذي اختصّه المأمون بالنظر في الشؤون المالية وشؤون الرعية وإبداء الرأي والمشورة[2]، فقتله القادر.

وبمقتل الفقيه ابن الحديدي انقسمت طليطلة إلى فريقين متصارعين كل منهما يتربص بالآخر[3].

في نفس الفترة تعرضت أملاك القادر لشن الغارات من ابن هود

---

(١) المأمون بن ذي النون (ت٤٦٧هـ): تولى الحكم في طليطلة من سنة ٤٣٥ ـ ٤٦٧هـ. وكان أبرز حدث وقع في فترة حكمه هو التجاء ألفونس السادس إليه سنة ١٠٧٢ هرباً من أخيه سانشو ملك قشتالة وقد أمضى ألفونس تسعة أشهر في طليطلة، مغموراً بكرم المأمون ورعايته، إلى أن قتل أخوه سانشو فعاد إلى مملكته. ويبدو أن ألفونس استثمر هذه المدة التي قضاها في طليطلة للتفكير في كيفية احتلالها فدرس المدينة ووقف على مواقع الضعف في تحصيناتها. (محمد عبدالله عنان: دول الطوائف ص٣٩١).

(٢) ابن بشكوال: الصلة ج١ ص٣٤٨.

(٣) ابن بسام: الذخيرة ق٤ ج١ ص١٥١؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٧٩.

صاحب سرقسطة[1].

وإزاء هذه المشاكل الخانقة رأى القادر أن الحل الوحيد هو أن يلجأ إلى ألفونس السادس وأن يلتمس عونه وحمايته.

وكان المأمون جد القادر هذا قد اعترف بطاعة ألفونس من قبل وقبل تأدية الجزية إليه. وبالطبع حذا القادر حذوه واشتط ألفونس في مطالبه المالية التي رضخ لها القادر فضلاً عن تنازله عن بعض الحصون[2].

وفي سنة ٤٧٢هـ ثار أهل طليطلة على القادر فاضطر إلى الفرار والاستنجاد بألفونس الذي استجاب لدعوته وأعاده إلى ملكه سنة ٤٧٤هـ على رغم من أهلها[3].

لم تكن استجابة ألفونس تلك حباً في القادر ولا وفاءً بسالف الود بل كانت بداية لمخطط بيَّته لاحتلال طليطلة. وكان هذا المخطط قائماً على إنهاك قوة طليطلة وإضعاف مواردها قبل احتلالها[4]. فبدأ منذ ذلك التاريخ يشن الغارات على نواحي طليطلة بحجة وبغير حجة فينتسف زروعها وأقواتها واستولى على كثير من حصونها[5]. دامت هذه الهجمات أربع سنوات لم تجد طليطلة خلالها ناصراً ولا مدافعاً.

كان أمراء الطوائف إزاء ما تتعرض له طليطلة ما بين عاجز كما هو حال المتوكل ابن الأفطس أمير بطليوس الذي بذل كل ما في وسعه من أجل توحيد الصف لمواجهة ألفونس. كما حاول بجيشه أن يصد هجمات ألفونس إلا أنه كان يهزم[6]، وفي مقابل عجز المتوكل رغم حسن نيته

---

(١) عنان: مرجع سابق ص١٠٨.

(٢) ابن الكردبوس: الاكتفاء في أخبار الخلفاء تحقيق أحمد مختار العبادي، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد، المجلد الثالث عشر ١٩٦٥ ـ ١٩٦٦، ص٨٢.

(٣) ابن بسام: الذخيرة ق٤ ج١ ص١٢٤.

(٤) ابن بلقين: كتاب التبيان ص١٠١.

(٥) أشباخ: تاريخ الأندلس في عصر المرابطين ص٥٧.

(٦) المصدر السابق ص٥٩.

وطويته، كان هناك المتمالئون الخائنون كما هو حال المعتمد بن عباد صاحب أشبيليه، الذي عقد معاهدة مع ألفونس يتعهد بموجبها المعتمد أن يدفع جزية كبيرة إلى ألفونس ويتعهد بالأخص بما هو أهم وهو أن يترك ألفونس طليقاً في أعماله ضد طليطلة وأن لا يتعرض لمشروعه للاستيلاء عليها. وتعهد ألفونس من جانبه بتقديم العون العسكري للمعتمد ضد أعدائه من أمراء الطوائف[(١)].

وفي سنة ٤٧٧هـ زحف ألفونس السادس على طليطلة بجيش كبير وضرب الحصار حول المدينة التي استسلمت له في محرم ٤٧٨هـ[(٢)]. وقد اتخذ ألفونس طليطلة عاصمة لمملكته وحول جامعها إلى كنيسة[(٣)].

كان لسقوط طليطلة في يد النصارى دوي عظيم ووقع أليم في نفوس أهل الأندلس وذلك للأهمية الدينية والمعنوية لهذه المدينة[(٤)]. فلقد شعر أهل الأندلس بمرارة الموقف وتخوفوا من تداعي بقية الممالك. وطغى في البلاد الأندلسية تيار تشاؤمي يعبر أصدق تعبير عن مخاوف المسلمين. وقد عبر عن هذا التيار الفقيه عبدالله بن العسال بقوله:

يا أهل أندلس حثوا مطيكم     فما المقام بها إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى     ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط
ونحن بين عدو لا يفارقنا     كيف الحياة مع الحيات في سفط[(٥)]

---

(١) مجهول: الحلل الموشية ص٤١؛ الحميري: الروض المعطار ص٢٨٨.

(٢) الحميري: المصدر السابق ص١٣٥؛ المقري: نفح الطيب ج٥ ص٨٤؛ ليفي بروفنسال: الإسلام في المغرب والأندلس ص١٤٦؛ أشباخ: ص٥٩.

(٣) ابن بسام: الذخيرة ق٤ ج١ ص١٦٧.

(٤) لقد كانت طليطلة عاصمة القوط قبل دخول الإسلام إلى شبه الجزيرة الأيبرية.

(٥) لقد استوقفت هذه الأبيات أكثر من باحث لما تحمله من معاني ولمكانة صاحبها. وقد انقسم الباحثون إزاء هذه الأبيات إلى مفهومين وحملوها على محملين:
فالدكتور إحسان عباس (تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف ص١٨٣) يرى أن ابن العسال استعمل هذا اللون السلبي من التعبير عن الحقيقة ليبالغ في التنبيه والتذكير، أما د. عبدالرحمن الحجي (التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي إلى سقوط =

وقد ندب الشعراء هذه المدينة بشعر يفيض أسى وحزناً[1]. لكن الأمر كان يتطلب ما هو أكثر من الندب والبكاء.

بدأ عقلاء أهل الجزيرة الأندلسية يفكرون في مخرج جدي لهذا الوضع المنذر بالزوال.

كانت الحلول المتاحة قليلة تكاد تقتصر على سبيلين لا أكثر هما:

- توحيد كلمة أمراء الطوائف لمجابهة الخطر المسيحي ونبذ الفرقة فيما بينهم.

- أما السبيل الثاني فهو الاستنجاد بالمسلمين من أهل المغرب وأفريقية.

كان على العلماء وهم أئمة أهل الأندلس وزعمائهم، أن يضطلعوا بالدور الأكبر في استكناه الحلول. لهذا سعى جماعة منهم إلى توحيد كلمة أمراء الطوائف ودعوتهم إلى إدراك خطورة المرحلة التي يعيشون فيها وفداحة نتائج تصرفاتهم على مستقبل الإسلام في الأندلس.

ومن أبرز من سعى في هذا الطريق العالم الكبير أبو الوليد الباجي الذي «رفع صوته بالاحتساب ومشى بين ملوك أهل الجزيرة بصلة ما انبت من تلك الأسباب. فقام مقام مؤمن آل فرعون، لو صادف آذاناً واعية، بل

---

= غرناطة ص٣٥١) فيرى أن الفقيه يدعو دعوة جادة إلى الرحيل عن الأندلس وأن أبياته صورة للجبن الشديد والأنانية.

والذي يظهر أن أبيات العسال إنما هي نفثة مصدور وأنة مكلوم بلغ به الأسى مداه فقال ما قال مبالغة في التنبيه كما قال إحسان عباس. فابن العسال عالم زاهد فلا يعقل أن يدعو إلى الفرار وترك الأندلس والتولي يوم الزحف لما في ذلك من إثم وعقوبة أخروية.

(١) لعل أبرز ما قيل في سقوط طليطلة تلك القصيدة الرائية المجهولة القائل والتي منها:

لثكلك كيف تبتسم الثغور سروراً بعد ما يئست ثغور

طليطلة أباح الكفر منها حماها إن ذا نبأ كبير

(نفح الطيب للمقري ج٤ ص٤٨٣ ـ ٤٨٦).

نفخ في عظام نخرة وعكف على أطلال داثرة، بيد أنه كلما وفد على ملك منهم في ظاهر أمره لقيه بالترحيب وأجزل حظه بالتأنيس والتقريب وهو في الباطن يستجهل نزعته ويستثقل طلعته، وما كان أفطن الفقيه ـ رحمه الله ـ بأمورهم وأعلمه بتدبيرهم. لكنه كان يرجو حالاً تثوب ومذنباً يتوب»[1].

وقد توفي الباجي ـ رحمه الله ـ أثناء تأديته هذا الواجب، سفيراً بين رؤساء الأندلس يؤلفهم على نصرة الإسلام[2].

ومع تردي الوضع، واليأس من أمراء الطوائف أن تثوب حالهم أو يتوب مذنبهم، بدأ العلماء بالتفكير جدياً في الاستعانة بالمرابطين.

لقد كانت وفود أهل الأندلس، يتقدمهم فقهاؤهم، قد بدأت تفد على يوسف بن تاشفين قبل سقوط طليطلة، مستعطفين مجهشين بالبكاء[3]. وقد كانت هذه الوفود تستعين في سعيها لدى يوسف بفقهاء بلاطه[4]. وكان يوسف إزاء هذه المناشدات يعد خيراً.

فلما سقطت طليطلة عقد اجتماع في قرطبة حضره جماعة من فقهائها على رأسهم قاضيها عبدالله بن محمد بن أدهم (ت٤٨٦هـ)، فتشاور الجمع في حال بلاد الأندلس، وما وصلت إليه من الذلة والصغار. اقترح بعض المشاركين الاستنجاد بعرب أفريقية الهلاليين[5] ولكن القاضي تخوف من

---

(١) ابن بسام: الذخيرة ق٢ ج١ ص٩٥.

(٢) عياض: المدارك ج٨ ص١٢٧.

(٣) الحميري: الروض المعطار ص٢٨٨؛ الحلل الموشية: ص٣٣.

(٤) الحميري: نفس المصدر السابق والصفحة.

(٥) المقصود بعرب أفريقية الهلاليين: قبائل أهمها الأثبج ورياح وزغبة وعدي كانوا في مطلع القرن الخامس الهجري يسكنون في صعيد مصر على الضفة الشرقية من نهر النيل. وفي تلك الفترة كان يلي أفريقية (تونس الحالية) من قبل الدولة الفاطمية في مصر البربر الصنهاجيون المعروفين ببني زيري. وفي سنة ٤٤١هـ انقلب هؤلاء على الفاطميين وعادوا للمذهب السني وتركوا المذهب الشيعي ودعوا لبني العباس في بغداد. رأى الوزير الفاطمي البطائحي أن يرسل قبائل بني هلال إلى أفريقية للانتقام من بني زيري وقد خرب هؤلاء كل المدن التي مروا عليها مثل برقة وأفريقية (أبو عبدالله =

وصولهم وتخريبهم للبلاد كما فعلوا بأفريقية. وفي مقابل ذلك اقترح ابن أدهم أن يستنجدوا بالمرابطين فهم «أقرب إلينا وأصلح حالاً». فطلب منه المجتمعون أن يكاتب يوسف بن تاشفين وأن يستدعيه وفوضوه بالأمر[1].

كان مؤتمر قرطبة أول إجماع للخروج بالأندلس من محنتها بزعامة الفقهاء، وتجاوز أمراء الطوائف العاجزين. لقد أظهر هذا المؤتمر استعداد العلماء لتحمل مسؤولياتهم التاريخية في المحافظة على بقاء الأندلس الإسلامية، وألا يظلوا مكتوفي الأيدي في هذا الظرف الحاسم.

يبدو أن خبر هذا المؤتمر قد وصل إلى المعتمد بن عباد، وكانت قرطبة إحدى توابع ملكه، فقدم إلى قرطبة من أشبيلية. ويمكن أن نتصور بسهولة الحرج الذي أصبح فيه المعتمد غداة هذا المؤتمر. فهو الآن بين عدو يسومه الخسف ويشتط عليه في المطالب المهينة والمذلة[2]، ورعية فقدت ثقتها فيه وفي قدرته على الدفاع عنها.

لهذه المعطيات تقرر عند المعتمد ضرورة الاستنجاد بالمرابطين، مسايرة لهذه الرعية ونكاية في ألفونس. أما كون المعتمد قد أحس بالندم على ما قام به من دور مشين في سقوط طليطلة فأراد تكفير ذلك باستدعاء المرابطين[3]، فلا يبدو جلياً، إذ أن تدخل المرابطين وعبورهم إلى الأندلس كان قد أصبح لا مفر منه سواء أذن المعتمد بذلك أم لم يأذن. لذا فقد انصب تفكير المعتمد على كيفية الاستفادة من هذا الاستدعاء في توطيد ملكه وإدامة صفو ترفه.

---

= محمد بن أبي القاسم الرعيني المعروف بابن أبي دينار: المؤنس في أخبار أفريقيا وتونس. تحقيق محمد شمام. ط٣ ١٩٦٧، المكتبة العتيقة تونس ص٨٤).

(١) ابن الأثير: الكامل ج٨ ص١٤١.

(٢) من هذه المطالب المهينة طلب ألفونس من المعتمد السماح له بإدخال امرأته القمطيجة Condesa إلى جامع قرطبة لتلد فيه بناء على نصيحة الأساقفة الذين ادعوا أن كنيسة معظمة عندهم كانت قائمة في مكان جامع قرطبة. (الحميري: الروض المعطار ص٢٨٨؛ ابن الخطيب أعمال الأعلام ج٢ ص١٥٩.

(٣) يوسف حوالة: بنو عباد في أشبيلية ص٢٨٤ ـ ٢٨٥.

فلما وصل المعتمد إلى قرطبة أعلمه القاضي ابن أدهم بأمر الاجتماع وما دار فيه، فاستصوبه المعتمد[1]، ويبدو أن النتيجة التي وصل إليها المعتمد بضرورة الاستنجاد بالمرابطين، قد وصل إليها معظم أمراء الطوائف إلا أن المعتمد كان أول من بادر منهم إلى هذه الخطوة[2]. وندب باقي أمراء الطوائف لتشكيل وفد لإرساله إلى يوسف. وبالفعل تشكل وفد من العلماء يضم كلاً من قاضي قرطبة أبي بكر بن أدهم وقاضي غرناطة ابن القليعي وقاضي بطليوس ابن مفاذا، وحمل هذا الوفد رسالة إلى يوسف تبين حال الأندلس ويدعوه إلى الجواز إليها لإنقاذها من النصارى[3].

أفلح هذا الوفد في إقناع يوسف بن تاشفين بضرورة الجواز إلى الأندلس لجهاد النصارى. وقد لبى الوفد بعض الشروط التي اشترطها يوسف[4].

ويبدو أن فكرة الجواز إلى الأندلس بغرض الجهاد كانت تراود يوسف بن تاشفين قبل هذا الاستدعاء الأخير. فقد ذكر الحميري[5] أن يوسف بن تاشفين طلب من صاحب سبتة الإذن لجيوشه في العبور قصد الغزو ونصرة أهل الأندلس. فرفض صاحب سبتة يحيى البرغواطي[6] «فشكاه

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج٨ ص١٤١.

(٢) محمد عبدالله عنان: دول الطوائف ص٣١٧.

(٣) مجهول: الحلل الموشية ص٤٥ ـ ٤٦.

(٤) من هذه الشروط تسليم الجزيرة الخضراء، وكانت تابعة للمعتمد، لتكون قاعدة للمرابطين يعبرون عن طريقها بأمان ولحماية خطوط تموينهم، ويبدو أن المعتمد تلكأ في الاستجابة لهذا الشرط ثم قبله في النهاية (مجهول: الحلل الموشية ص٤٩؛ ابن زيري: التبيان ص١٢٢).

(٥) الحميري: الروض المعطار ص٨٦؛ ابن الأبار: الحلة البيراء ج٢ ص٩٨.

(٦) يحيى البرغواطي: ابن سقوط. كان والده سقوط (ت٤٧٠) مولى من موالي الحموديين وقد تمكن سقوط من التفرد بحكم سبتة وطنجة منذ سنة ٤٥٣هـ وولى ابنه يحيى هذا المتلقب بالحاجب حكم سبتة في حين استقر هو بطنجة، وقد انتهى حكم هؤلاء البرغواطيين بسقوط طنجة في يد المرابطين سنة ٤٧٠هـ ومقتل سقوط الذي كان يدافع عنها ببسالة وقد تجاوز عمره التسعين سنة ثم سقوط سبتة في أيديهم سنة ٤٧٧هـ (محمد بن تاويت: تاريخ سبتة ص٣٩ ـ ٥١).

يوسف إلى الفقهاء فأفتوا أجمعين بما لا يسر صاحب سبتة» أي قتاله. وقد فتحت سبتة سنة ٤٧٧هـ[١]. أي قبل سقوط طليطلة.

## دور العلماء في موقعة الزلاقة:

لقد أسفرت المراسلات بين أهل الأندلس والمرابطين، والتي تزعمها الفقهاء في كلتا العدوتين: الأندلسية بأن رفعوا ضرورة الاستنجاد بالمرابطين ثم أقنعوا الأمراء بهذا الرأي. وفي العدوة المغربية أقنع الفقهاء أمير المسلمين بضرورة نصرة أهل الأندلس وأن ذلك واجب عليه[٢]. أسفرت هذه المراسلات والوفود عن جواز أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى الأندلس سنة ٤٧٩هـ. وقد اغتبط العلماء لهذا الجواز إذ اعتبروه نصراً في حد ذاته[٣].

إننا هنا لن نستعرض التفاصيل[٤] بل نكتفي بالقول إن يوسف لما جاز إلى الأندلس كان أول من تلقاه من أمرائها المعتمد بن عباد الذي أكرم أمير المسلمين ودعاه إلى النزول إلى أشبيلية للراحة من الرحلة. لكن ابن تاشفين اعتذر له قائلاً: «إنما جئت ناوياً جهاد العدو فحيثما كان العدو توجهت وجهه»[٥].

في تلك الأثناء كان ألفونس السادس يحاصر سرقسطة فلما بلغه جواز يوسف بن تاشفين رفع الحصار عنها وبدأ يحشد القوى النصرانية ويستنجد

---

(١) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص١٤٤.
(٢) ابن الأبار: المصدر السابق ص٩٩.
(٣) لقد عبر عن هذا الشعور الفقيه ابن القليعي إذ اعتبر أن هذا الجواز وقع على «رغم أنوف الفسقة سلاطين الأندلس» (ابن بلقين: التبيان ص١٣٤).
(٤) كثيرة هي الكتب التي تحدثت عن موقعة الزلاقة ومنها: ابن بسام: الذخيرة ق٢ ج١ ص٢٤١ ـ ٢٥٦؛ عبدالله بن بلقين: التبيان ص١٢١ ـ ١٢٥، مجهول: الحلل الموشية ص٣٩ ـ ٦٦؛ المراكشي: المعجب ص١٩٥ ـ ٢٠٠؛ الحميري: الروض: مادة الزلاقة؛ ابن أبي زرع: زرع القرطاس ص١٤٥ ـ ١٥٢؛ ابن خلدون: العبر ج٦ ص٣٨٣.
(٥) المراكشي: المعجب ص١٣٢.

بأمم مسيحية أخرى، فوفدت إليه سريات من الفرسان من ولايات فرنسا الجنوبية، وتحالف مع سانشورا ميرث ملك أرغون والكونت برنجار ريموند فانضما إليه بقواتهما. وتكون من الجميع جيش جرار[١].

والتقى الجيشان المرابطي، وقد انضمت إليه قوات المعتمد وبعض السرايا التي بعثها بعض من أمراء الطوائف مثل ابن صمادح صاحب المرية وابني بلقين صاحبي غرناطة ومالقة الذين حضرا بأنفسهما، والجيش المسيحي، التقيا شمال بطليوس في فحص الزلاقة (Sacralias)[٢] حيث دارت معركة كبرى من معارك الوجود الإسلامي في الأندلس.

فمع فجر يوم ١٢ رجب سنة ٤٧٩هـ باغتت قوات ألفونس معسكرات أهل الأندلس، فانهزم هؤلاء عند أول لقاء ودارت عليهم الدائرة، وأرسل ابن عباد عند ذاك كاتبه ابن قصيرة إلى يوسف بن تاشفين، فركب يوسف من فوره على رأس قواته وقصد محلة ألفونس «فاقتحمها وأضرمها ناراً وضرب طبوله فاهتزت لها الأرض وتجاوبت الآفاق، فارتاعت لها قلوبهم وتخلخلت أفئدتهم، ورأوا النار تشتعل في محلتهم. وأتاهم الصريخ بهلاك أموالهم وأخبيتهم، فسقط في أيديهم فألووا أعنتهم ورجعوا قاصدين محلتهم فالتحمت الفئتان واشتدت الكرة وعظمت الهجمات»[٣].

وقد أشرك الأمير يوسف بن تاشفين في المعركة حرسه الخاص وهم فرقة العبيد، وكانوا مسلحين بمزاريق الزان وسيوف الهند ودرق اللمط فانقضوا كالصاعقة على قوات النصارى، وتمكن أحدهم من طعن ألفونس في فخذه طعنة بالغة لازمه أثرها بقية عمره[٤].

---

(١) لقد اختلف المؤرخون في عدة جيش النصارى المشاركين في موقع الزلاقة فيحدده ابن أبي زرع (روض القرطاس ص١٤٩) بمئة وثمانين ألف فارس ومائتي ألف راجل ويقدره صاحب الحلل الموشية (ص٥٦) بثمانين ألف فارس دون غيرهم، أما ابن الأثير (الكامل ج٨ ص١٤٣) فيحدد العدد بخمسين ألف.

(٢) مجهول: الحلل الموشية ص٥٦؛ ابن خلدون: العبر ج٦ ص١٨٦.

(٣) مجهول: الحلل الموشية ص٦٠؛ ابن أبي زرغ: روض القرطاس ص١٤٨.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٧ ص١١٧؛ الحلل الموشية: ص٦١.

دامت المعركة بين الطرفين يوماً واحداً أسفر عن هزيمة ساحقة للقوات النصرانية. فقد كان موضع المعترك على اتساعه، ما كان فيه موضع قدم إلا على ميت أو جريح[١].

وتمكن ألفونس بعد إصابته من الفرار في جماعة قليلة من جنده[٢].

لقد انتصر المرابطون في هذا اليوم انتصاراً عظيماً عم به الفرح والسرور في بلاد الأندلس والمغرب واعتبرت من معارك المسلمين الكبرى والمفاخر العظمى للمرابطين، يقول القاضي ابن العربي: «ولو لم يكن للمرابطين فضيلة ولا تقدم ولا وسيلة إلا وقعة الزلاقة... لكان ذلك من أعظم فخرهم»[٣].

كانت عظمة هذه المعركة في كونها أحيت الأمل في قلوب المسلمين بالأندلس بعدما كاد يقضي عليهم اليأس. وقد كان للعلماء في هذه المعركة دور كبير وحاسم ابتداءاً بالتهيئة كما رأينا سابقاً ثم بالمشاركة الفعلية حيث بذل العلماء جهدهم في وعظ المسلمين وحضهم على الصبر والثبات وترغيبهم في ما عند الله من أجر عريض وتحذيرهم من الفشل والتولي يوم الزحف[٤].

وقد استشهد في هذه المعركة جماعة من العلماء منهم: قاضي مراكش أبو مروان عبدالملك المصمودي ورفيقه الفقيه أبو محمد يعلى المصمودي الذي كان قاضياً بالعدوة[٥]. وممن استشهد كذلك الفقيه أبو العباس أحمد بن رميلة القرطبي[٦] وكان من أهل العلم والورع والفضل، قال عنه

---

(١) الحميري: الروض المعطار ص٢٩١.
(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٤٨؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص٢٤٤؛ أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ص٨٦.
(٣) مجهول: الحلل الموشية ص١٤٠.
(٤) المقري: نفح الطيب ج٦ ص١٤٥.
(٥) ابن عبدالملك المراكشي: الذيل والتكملة السفر ٨ ق٢ ص٤٢٥.
(٦) ذكر الحميري فيما نقله عنه المقري في نفح الطيب ص١٤٥ أن الفقيه ابن رميلة رأى ليلة معركة الزلاقة وكانت ليلة جمعة رؤيا بشره فيها رسول الله ﷺ بنصر المسلمين صبيحة تلك الليلة والشهادة له هو، فتأهب ابن رميلة ودهن رأسه وتطيب.

ابن بشكوال: «واستشهد بالزلاقة مقبلاً غير مدبر»[1].

وممن استشهد أيضاً الفضل ولد الحافظ أبي محمد بن حزم وكان من أهل العلم[2]، أما الذين حضروا المعركة من العلماء المرابطين فكثير كان في طليعتهم قاضي الجماعة بمراكش يوسف ابن الملجوم والفقيه أبو مروان العذري والفقيه أبو بكر بن القصيرة الذي خلف لنا إحدى الروايات الميدانية عن معركة الزلاقة[3].

## العلماء وجهودهم في توحيد العدوتين:

شكلت معركة الزلاقة منعطفاً مهماً في تاريخ الأندلس والمغرب الإسلامي. وقد خلقت لدى الأندلسيين أملاً في مستقبل ينحسر فيه الخطر المسيحي الداهم ويحل فيه العدل والرخاء الاجتماعي والاقتصادي. لقد برهنت الزلاقة أن التفوق المسيحي نسبي، وأن إمكانية قهره ممكنة إذا توفرت النية الحسنة والقوة ووحدة الكلمة.

لكن هذه المعركة أثارت في أعماق النفوس سؤالاً شائكاً وهو هل باستطاعة الكيانات السياسية القائمة أي دول الطوائف الإيفاء بمتطلبات هذا الأمل المنشود؟.

وباستقراء سريع كان الأندلسيون يقفون أمام الحقيقة المرة وهي افتقار هذه الكيانات إلى القوة وتخاذلها عن الوحدة ومجانبتها للنية الحسنة.

لم يكن من المعقول بالنسبة للأندلسيين وعلى رأسهم علماؤهم الرجوع إلى الحال السابقة لمعركة الزلاقة، وكأن شيئاً لم يحدث.

كان الأندلسيون وبالخصوص العلماء والفقهاء يريدون لمعركة الزلاقة

---

(١) الصلة: ج١ ص١١٨.

(٢) ابن بشكوال: الصلة ج٢ ص٦٧٨.

(٣) ابن بسام: الذخيرة ق٢ ج١ ص٢٤١؛ وقد اعتمد ابن بسام على رواية ابن القصيرة لمعركة الزلاقة. وقد اعتمدنا على كثير من ذلك في ما أوردناه عن الزلاقة. (الذخيرة: ق٢ ص٢٤١ ـ ٢٥٦).

أن تكون بداية التغيير إلى غد أحسن. وفي مقابل ذلك كان ملوك الطوائف العاجزين عن تحقيق الأحسن يريدون أن يكون غدهم مواصلة لأمسهم اللاهي المتخاذل وأن تكون معركة الزلاقة حدثاً عقيماً بلا نتائج.

في ظل هذا التجاذب بين رغبة أمراء الطوائف في تجميد الأوضاع على ما هي عليه من سوء وبين طموح الرعية في تغيير الحال إلى الأصلح، انضم العلماء إلى تيار الأمل الواعد هذا. لقد التزم العلماء في الأندلس في معظمهم الحياد السلبي من مجريات الأمور في دول الطوائف قبل معركة الزلاقة. ولعل مرد ذلك إلى أن هؤلاء العلماء لم يكونوا يتوفرون على البديل[1]. أما الآن بعد معركة الزلاقة، وقد وجدوا البديل متمثلاً في دولة المرابطين وما تحمله من مبادىء إسلامية وأميرها يوسف بن تاشفين، فقد ترك العلماء مواقفهم السلبية.

لهذا فما كاد أمير المسلمين يوسف يعود إلى المغرب، تلك العودة المفاجئة[2] التي منعت المرابطين من أن يجنوا ثمار النصر كاملاً وأن يجعلوا من معركة الزلاقة أكثر من صدمة قوية للإسبان، إذ ما كاد يعود حتى بدأ الطرفان المؤثران في الأحداث الأندلسية: الأمراء والعلماء كل يسعى لتحقيق أهدافه السابقة الذكر.

فقد عاد أمراء الطوائف إلى سيرتهم الأولى من الاختلاف فيما بينهم

---

(١) ابن عبود: جوانب من الواقع الأندلسي ص٨٦.

(٢) لقد اختلف المؤرخون في السبب أو الأسباب التي أدت بيوسف إلى الرجوع بسرعة إلى المغرب فقد ذهب كثير منهم إلى أن سبب عودته هو موت ابنه الأمير أبو بكر الذي استخلفه على سبتة وكان مريضاً (ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٥٢؛ مجهول: الحلل الموشية ص٦٦؛ أشباخ: تاريخ الأندلس ص٨٩) فيما يرى البعض أن اضطرابات حصلت على الحدود الشرقية للدولة المرابطية هي التي أدت إلى سرعة رجوع يوسف (عصمت دندش: أضواء جديدة على المرابطين ص٥٧) على أن حسن محمود (قيام دولة المرابطين ص٢٨٦) يرى أن سبب رجوع الأمير يوسف هو موت ابن عمه الأمير أبو بكر بن عمر. وهذا الاحتمال الأخير مستبعد لأن الأمير توفي سنة ٤٨٠هـ والذي يبدو صحيحاً هو التعليل الأول.

والاتصال بالعدو وأداء الجزية رغم ما تعهد به هؤلاء الأمراء في الاجتماع الذي دعاهم إليه يوسف قبل انصرافه إلى المغرب وطلب منهم فيه الاتفاق والاتحاد ضد عدوهم المشترك الإسبان الذي استغل تشتتهم، وقد قرر الأمراء في الاجتماع قبولهم لهذه الوصية وأنهم سيسعون لتحقيق رغبة أمير المسلمين[١]. وفي سبيل محاربة هذا العدو ترك لهم أمير المسلمين ثلاثة آلاف جندي بقيادة سير بن أبي بكر[٢].

ونتيجة لتصرفات هؤلاء الأمراء اضطربت الأحوال من جديد في الأندلس وبدأ النصارى يستعيدون بعض قوتهم وركزوا عدوانهم على شرقي الأندلس: بلنسية[٣] ومرسية ولورقة[٤] فبثوا الرعب. وقد اتخذ النصارى من حصن لييط (أليدو) المنيع قاعدة لتلك الهجمات وذلك العبث. وقد شحنه ألفونس بالرجال والسلاح[٥].

أما العلماء فقد ازدادوا قناعة مع هذه الأزمات الجديدة بأن لا سبيل لنجاة الأندلس وخلاصها مما هي فيه من كرب سوى الالتجاء إلى عاهل المرابطين. فبدأت الكتب والوفود تترى على يوسف طالبين الإنجاد والغوث[٦]. فأصغى إليهم أمير المسلمين ووعدهم خيراً. وكان ذلك سنة ٤٨١هـ[٧] وكما حدث قبل الزلاقة استنجد المعتمد بن عباد أيضاً بيوسف فعبر إلى المغرب وشرح لأمير المسلمين الحالة الحرجة التي يعاني منها أهل

---

(١) ابن بلقين: التبيان ص١٢٥.

(٢) المقري: نفح الطيب ج٦ ص١٠٤؛ ابن الأبار: الحلة السيراء ص٣٥٦.

(٣) كانت بلنسية تابعة بحكم الواقع للقشتاليين عن طريق صنيعتهم القادر بن ذي النون حاكم طليطلة السابق، وكان القادر يستعين في حكمها بخدمات المغامر القشتالي السيد Cid واسمه الحقيقي هو رودريغودياث لقاء مبلغ من المال (عن هذا المغامر المشهور يمكن الرجوع إلى: ليفي بروفنسال: الإسلام في المغرب والأندلس ص١٦٥ ـ ٢٣٧).

(٤) كانت هاتان المدينتان تتبعان للمعتمد بن عباد.

(٥) مجهول: الحلل الموشية ص٦٧؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص١٥٢.

(٦) مجهول: الحلل الموشية ص٦٧.

(٧) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص١٥٢.

الأندلس و«عظم له شأن لييط وأنه في قلب البلد وأن لا راحة للمسلمين إلا بفقده»[1]. إلا أن هذا المقصد الحسن لم يكن كل الهم الذي أشخص المعتمد إلى المغرب بل كانت هناك مآرب ومكاسب ذاتية يسعى لتحقيقها ومن أهمها استعداء المرابطين على ابن رشيق[2] الذي يرى المعتمد أنه غصبه حقه المكتسب في السيادة على مدينة مرسية[3].

رأى أمير المسلمين يوسف أن واجبه الديني يحتم عليه تلبية النداء من جديد وأن يفزع لنصرة المسلمين في الأندلس، فجاز إلى الأندلس في منتصف عام ٤٨١هـ وبعث إلى رؤساء الأندلس يدعوهم إلى الجهاد ويحدد لهم اللقاء عند حصن لييط[4].

لبى أمراء الطوائف نداء أمير المسلمين يوسف واتجهوا بقواتهم نحو لييط[5]. فشرع الجميع في مهاجمة الحصن حيث أطبقوا عليه من كل جهة ونصبوا حوله المجانيق وشنوا عليه الغارات ولم يتركوا فناً من فنون الحصار إلا استعانوا به، ولكن الحصن كان منيعاً[6].

---

(١) ابن بلقين: التبيان ص١٢٦.

(٢) عبدالرحمن بن رشيق القشيري: مغامر طموح، كان عاملاً على حصن بلج بمقاطعة لورقة ولما أخفق ابن عمار وزير المعتمد بن عباد في محاولته الأولى للاستيلاء على مرسية استعان بابن رشيق الذي نجح في الاستيلاء على المدينة ٤٧١هـ ثم انتهز ابن رشيق الفرصة حين دب النزاع بين ابن عمار والمعتمد فوطد مركزه بتولية أقربائه على الحصون المجاورة للمدينة. ثم استبد ابن رشيق بالمدينة إلى أن أزاحه المرابطون وسلموه للمعتمد سنة ٤٨١هـ (ابن الأبار: الحلة ج٢ ص١٣٥، ١٤٠، ١٤٢).

(٣) ابن بلقين: التبيان ص١٢٧.

(٤) حصن لييط أو لبيط ويدعوه الإسبان ب ـ ALEDO: يقع بين مرسية ولورقة. وهو حصن حصين على رأس جبل شاهق بينه وبين لورقة نصف يوم وكان ضمن أملاك المعتمد بن عباد (مجهول: الحلل الموشية ص٦٧).

(٥) الحلل الموشية ص٦٨؛ ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٥٢؛ عبدالله بن بلقين: التبيان ص١٢٧.

(٦) الحلل الموشية ص٦٩.

وقد دام حصار حصن لييط مدة أربعة أشهر[1] ثم رفع يوسف الحصار عن لييط وقفل راجعاً إلى بلاده بعد ما أيس من سقوطه، وبعدما خانه أهل مرسية فقطعوا عنه الإمدادات الغذائية[2].

شكلت غزوة لييط مرحلة هامة من تاريخ الأندلس. ففي أشهر الحصار تلك تبين أمير المسلمين يوسف حقيقة أمر أمراء الطوائف وصدم لما رآه من خلاف ووقيعة وتنابذ بينهم.

وقد برز من هذه الخلافات على الأخص خلاف المعتمد وابن رشيق، فقد شكا ابن عباد ابن رشيق لأمير المسلمين واتهمه باغتصاب الولاية منه على مرسية واتهمه بما هو شر من ذلك وهو أنه متفاهم مع ملك قشتالة سراً وأنه دفع إليه جباية مرسية[3] وأنه يعاون النصارى المدافعين عن حصن لييط في السر[4].

وكعادته أحال أمير المسلمين الأمر إلى العلماء ليروا فيه رأيهم فجاءت فتاويهم بإزاحة ابن رشيق وإسلامه للمعتمد، فأمر يوسف بتسليم ابن رشيق إلى المعتمد واشترط على المعتمد أن يبقي على حياته[5]. إلا أن أخطر ما دار أثناء تلك الغزوة هو ما قام به العلماء من دور تحريضي على أمراء الطوائف. فقد قام عدد من الفقهاء بتنبيه أمير المسلمين ولفت نظره إلى ما عليه أمراء الطوائف من فساد وجور. وقد أثار العلماء لدى يوسف مسألة الضرائب المفروضة على الأندلسيين من طرف أمرائهم وبينوا له فداحتها ومنافاتها للشرع[6]. وقد وصف لنا ابن حزم بعضاً من هذه الضرائب المفروضة من طرف أمراء الطوائف بقوله: «فإنما هي جزية على رؤوس

---

(١) ابن أبي زرع: المصدر السابق ص١٥٢.

(٢) الحلل الموشية: ص٧٠؛ ابن أبي زرع: المصدر السابق ص١٥٢.

(٣) الحلل الموشية: ص٦٩؛ محمد عبدالله عنان: دول الطوائف ص٣٣٦.

(٤) عبدالله بن بلقين: المصدر السابق ص١٢٩.

(٥) الحلل الموشية: ص٧٠.

(٦) ابن عبود: جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري ص١٨٩.

المسلمين يسمونها قطيعاً، كجزية اليهود والنصارى يؤدونها مشاهرة[1] وضريبة على أموالهم من الغنم والبقر والدواب والنحل، يرسم على كل رأس وعلى كل خلية شيء ما، وقبالات ما، تؤدى على كل ما يباع في الأسواق، وعلى إباحة بيع الخمر من المسلمين في بعض البلاد. هذا كل ما يقبضه المتغلبون اليوم وهو هتك الأستار ونقض شرائع الإسلام وحل عراه عروة عروة، وإحداث دين جديد والتخلي من الله عز وجل»[2].

وقد قصمت هذه الضرائب ظهر الرعية فطلب العلماء بالأندلس من يوسف رفع هذه المكوس والظلامات عن الرعية، فتقدم بذلك إلى أمراء الطوائف فتظاهروا بالامتثال[3].

وبطبيعة الحال لم يكن في وارد ملوك الطوائف قبول التخلي عن هذه الضرائب الثقيلة لأنها كانت تشكل الوسيلة الوحيدة لتغطية مصاريف ترفهم وأداء الجزية التي فرضها عليهم الحكام المسيحيون.

وقد قام الفقهاء في فترة حصار لييط بدور الوسيط بين الرعية من الأندلسيين وأمير المسلمين يوسف. فقد أتت هذه الرعية «أفواجاً شاكين وجعلوا في شكاويهم فقهاءهم وسائط»[4] ومن أبرز من سعى وجاهر بمعائب أمراء الطوائف الفقيه أحمد بن القليعي.

وابن القليعي هذا يحتاج منا إلى وقفة لما كان له من دور في إمارة غرناطة. لقد اشتهر ابن القليعي بالعلم والاستقامة والورع وقد وصفه ابن بشكوال بأنه: «كان ثقة صدوقاً أخذ الناس عنه»[5]. وقد أورثه هذا العلم والورع كره الظلم، ولا شك أنها سجية وخلق لدى كل من كان مثله في

(١) مشاهرة: أي كل شهر.

(٢) رسائل بن حزم: ج٣ ص١٧٤.

(٣) ابن خلدون: العبر ج٦ ص١٨٧.

(٤) الأمير عبدالله بن بلقين: التبيان ص١٢٧.

(٥) الصلة: ج١ ص٧٥ الترجمة ١٥٧.

العلم والورع، لكن هذا الخلق والصفة كانت في ابن القليعي أكثر وضوحاً وبروزاً بحيث نعته بها مترجموه. فقد وصفه الإمام ابن عطية بقوله: «وكان رحمه الله شيخ فضل وصدق موقوفاً على حوائج المظلومين والمضطهدين»[1].

وعندما يوقف العالم نفسه على إزالة الظلم والاضطهاد فلا بد أن يصطدم بمصادر هذا الظلم والطغيان. ويبدو أن هذا ما حدث بالفعل لابن القليعي مع أمراء غرناطة ابتداءً من باديس (حكم من **٤٢٨** إلى **٤٦٥هـ**) الذي كان يخاف من هذا الفقيه ومبادئه. ولذلك جعله في شبه إقامة جبرية طيلة حكمه فقد «كان لا يدعه في المدينة ويأمره بسكنى ضيعته»[2]. وفي نفس الوقت كان يبحث عن وسيلة للتخلص منه، «ويتملط سيفه لقتله فحماه الله منه بالعلم»[3].

أما حفيد باديس عبدالله بن بلقين فحاول الاستفادة من مكانة ابن القليعي وعلمه عندما ظهر المرابطون فجعله وزيره وسفيره إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين[4].

ولا شك أن ابن القليعي سر بهذه السفارة إذ أتاحت له فرصة الاتصال بالمرابطين وأميرهم يوسف. وقد توطدت العلاقة بين ابن القليعي وأمير المسلمين منذ ذهاب أول بعثة إلى المغرب لطلب النجدة إذ كان ابن القليعي أحد أعضائها[5].

وقد أدرك هذا الفقيه منذ معركة الزلاقة أن يوسف بن تاشقين هو الأمل الوحيد للأندلسيين وأنه يجب بذل كل جهد لإقناعه بوضع حد لمهازل أمراء الطوائف. فلما كان حصار لييط وضع هذا الفقيه خباءه قرب أمير

---

(١) الفهرس: ص٦٩.
(٢) ابن بلقين: التبيان ص١٣٤.
(٣) ابن الخطيب: الإحاطة ج١ ص١٤٧.
(٤) ابن بلقين: التبيان ص١٣٤.
(٥) ابن الأبار: الحلة السيراء ج٢ ص٩٨؛ الحميري: الروض المعطار ص٢٨٨.

المسلمين وجعل من هذا الخباء مركزاً للتشهير بأمراء الطوائف والتحريض عليهم. وقد وصف الأمير عبدالله بن بلقين أمير غرناطة خباء ابن القليعي في حصار لييط بأنه «صار بتلك المحلة مغنطيساً لكل صادر ووارد يجد بهم السبيل إلى الطلب، للقدر الذي قدره الله»[1].

وكان ابن القليعي يحث الرعية على الامتناع عن دفع المغارم التي يطالبهم بدفعها الأمراء مما أوقع بعضاً من هؤلاء في حرج وعسر مادي[2]. ولم يخف ابن القليعي نواياه بل جاهر بعداء الأمراء وأظهر نواياه اتجاههم[3].

وقد عظم على الأمراء موقف العلماء الذي اتخذوه فراموا تلافي الأمر باستمالة هؤلاء. فقد قام تميم بن زيري أمير ملقة بإرسال مبلغ كبير من المال إلى القاضي أبو الأصبغ عيسى بن سهل[4]، يستعطفه به. وقد رده ابن سهل ورفض قبوله[5].

ولم يكن الترغيب وحده وسيلة أمراء الطوائف لتغيير مواقف العلماء بل لجأوا كذلك إلى الترهيب. فبعد حصار لييط اعتقل الأمير عبدالله بن بلقين الفقيه ابن القليعي لفترة من الزمن[6].

لم تكن مسألة الضرائب والمكوس هي التهمة الوحيدة التي قدمها العلماء ضد أمراء الطوائف بل قدموا تهمة أخطر هي اتهام أمراء الطوائف

---

(١) التبيان: ص١٢٧.

(٢) عبدالله بن بلقين: التبيان ص١٢٨.

(٣) نفس المصدر السابق: نفس الصفحة.

(٤) أبو الأصبغ عيسى بن سهل الأسدي (ت٤٨٦هـ): من أبرز فقهاء المالكية بالأندلس في القرن الخامس الهجري. تولى القضاء بطنجة ومكناسة ثم غرناطة وقد اشتهر ابن سهل بمصنفه (ديوان الأحكام الكبرى) وهو كتاب جمع فيه الفتاوى التي صدرت إبان خلافة قرطبة (عياض: المدارك ج٨ ص١٨٣؛ ابن بشكوال: الصلة ج٢ ص٤١٥ الترجمة رقم ٩٤٢).

(٥) عبدالله بن بلقين: التبيان ص١٣٢.

(٦) ابن بلقين: المصدر السابق ١٣٤ ـ ١٣٥.

بالخيانة لتعاملهم مع ألفونس السادس ومداخلتهم له وتقديمهم الجزية له حتى بعد هزيمته في معركة الزلاقة. واعتبر العلماء هذا المسلك منافياً للشرع الإسلامي[١].

لقد أثرت هذه الحملة التي شنها العلماء على أمراء الطوائف، في نفس أمير المسلمين يوسف وبدأ يفكر جدياً في المسلك الذي ينبغي أن يسلكه مع هؤلاء الأمراء وهذه الأرض المسلمة: هل يتركها لمصيرها فريسة عدو كلب حاقد وأمراء قاصري الهمة عاجزي الحول؟ أم يتدخل استجابة لاستغاثة ونداء العلماء ومن ورائهم الشعب الأندلسي ليزيح هؤلاء الأمراء وينقذ الأندلس.

## دور العلماء في إسقاط أمراء الطوائف وتوحيد العدوتين:

كانت حصيلة غزوة لييط غصة في نفس أمير المسلمين يوسف بن تاشفين فقد تكشفت له حقيقة أمراء الطوائف وما هم عليه من تناحر وتخاذل عن الدفاع عن حرمة بلادهم، وما هم عليه من ترف وانغماس في اللذات. كما تكشفت له وضعية الرعية المضطهدة المثقلة بالضرائب غير الشرعية. وقد شخص له علماء الأندلس الداء اللاحق بهم وأن لا سبيل إلى شفاء الأندلس إلا باجتثاث هؤلاء الأمراء. ويبدو أن يوسف قد اقتنع برأي العلماء الأندلسيين واستقر رأيه على ضرورة التخلص من هؤلاء الأمراء.

إلا أن يوسف لم يكن ليقدم على أمر بهذه الخطورة حتى يستفتي أكبر عدد ممكن من العلماء ليطمئن إلى سلامة موقفه بمطابقته لشرع الله.

وبالفعل استفتى يوسف العلماء في العدوتين المغرب والأندلس في شأن هؤلاء الأمراء وانتزاع الأمر من أيديهم وشرعية إزاحتهم عن كاهل الأمة. وقد أفتاه العلماء بجواز خلعهم وإزاحتهم[٢]. وبأنه في حل مما تعهد لهم به من

(١) أحمد بن عبود: جوانب من الواقع الأندلسي ص١٨٩.

(٢) ابن خلدون: العبر ج٦ ص١٨٦.

الإبقاء عليهم في جوازه الأول[1]، لأنهم خانوا الله بمعاهدتهم ألفونس على محاربة المسلمين وبالتالي فإن عليه أن يبادر إلى خلعهم جميعاً «فإنك إن تركتهم وأنت قادر عليهم، أعادوا بقية بلاد المسلمين إلى الروم وكنت أنت المحاسب بين يدي الله»[2]. ثم إن الإبقاء على هؤلاء الأمراء لا يتوصل معه إلى واجب الجهاد[3]. وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب[4]. وكان ممن استفتي في هذا الموضوع الفقيه يوسف بن عيسى المعروف بأن الملجوم وقد اتسمت فتواه بالموضوعية والبعد عن النفاق. وقد ذكر له يوسف بن تاشفين في حيثيات سؤاله بأن هؤلاء الأمراء يتظاهر بعضهم على بعض بالنصارى وأنهم يضربون على المسلمين ما لا يطيقون من المكوس والمغارم وأنهم تركوا الجهاد وصالحوا النصارى وباعوا لهم آلة الحرب من خيل وسلاح وأقوات فأجابه: «بأن من كان من الملوك مصراً على هذه الأوصاف وموجوداً في الوقت إمام أعدل منه عار من تلك الأوصاف مؤتمن من ارتكاب ذلك وهو قادر على قتال المتغلب على المسلمين الموصوف بما ذكر فله قتاله وعزله عن ولايته عن المسلمين. . .»[5].

وقد أيد فتوى علماء المغرب والأندلس علماء أجلاء آخرون منهم الإمام الغزالي والإمام الطرطوشي. يقول الغزالي في شأن أمراء الطوائف: «. . .فيجب على الأمير وأشياعه قتال هؤلاء المتمردة، ولا سيما وقد استنجدوا بالنصارى. . .»[6].

لقد أدت هذه الفتاوى إلى ترجيح كفة التدخل المرابطي في الأندلس،

---

(١) ابن بلقين: التبيان ص١٢٣.
(٢) ابن الكردبوس: الاكتفاء ص١٠٦.
(٣) ابن خلدون: العبر ج٦ ص١٨٧.
(٤) نجم الدين سليمان بن سعيد الطوفي: شرح مختصر الروضة تحقيق د.عبدالله التركي ج١ ص٣٣٥.
(٥) مجهول: بيوتات فاس الكبرى ص١٥.
(٦) رسائل أبي بكر بن العربي: تحقيق د. عصمت دندش ص١٩٨ (نشرتها ملحقة بكتابها دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب أفريقيا).

فأمير المسلمين يوسف بسبب تقواه وورعه لم يكن ليتراجع عن هذا القرار بعد أن أوجبه عليه الشرع.

لم يكن التدخل المرابطي في الأندلس قصد ربح مادي ولا مكسب اقتصادي بل كان جهاداً في سبيل الله أملاه حق نصرة المسلم[١].

إن مفهوم الأمة الواحدة الذي تشبث به المرابطون منذ قيام دولتهم وجعلهم يعلنون تبعيتهم للخلافة العباسية، رغم ما كانت عليه من ضعف، جعل مسألة السيادة والاستقلال بالنسبة للكيانات الإسلامية الصغيرة مسألة نسبية مرتبطة بالقدرة على حماية الوجود الإسلامي في الرقعة التي توجد فيها تلك الكيانات ثم إقامة العدل في الرعية بتحكيم شرع الله، فمتى انخرمت هذه العلة بطل السبب وهو السيادة والاستقلال.

لم تكن حال يوسف بن تاشفين مع أمراء الطوائف ببعيدة عن معنى المثل الذي ضربه رسول الله ﷺ في شأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذ قال: **«مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً»**[٢].

فلو أن الأمير يوسف بن تاشفين ومعه العلماء تركوا هؤلاء الأمراء

---

(١) ويكفي هنا أن نورد نص كلام يوسف بن تاشفين الذي يبين فيه دوافعه إلى احتلال الأندلس إذ يقول « . . .إنما كان غرضنا في ملك هذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدي الروم؛ لما رأينا استيلاءهم على أكثرها؛ وغفلة ملوكهم وتواكلهم وتخاذلهم وإيثارهم للراحة، وإنما همة أحدهم كأس يشربها وقينة تسمعه، ولهو يقطع به أيامه ولئن عشت لأعيدن جميع البلاد التي ملكها الروم في طول هذه الفتنة إلى المسلمين. . .) عبدالواحد المراكشي: المعجب ص٢٤١.

(٢) ابن حجر: فتح الباري في شرح صحيح البخاري المجلد ٥ تحقيق الشيخ عبدالعزيز بن باز نشر رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء بالمملكة العربية السعودية ص١٣٢.

الخائنين وشأنهم، بحجة احترام السيادة والاستقلال، لخرقوا وأفسدوا نصيبهم من سفينة الأمة.

والأدهى من ذلك أن الضرر الناشىء عن ذلك ليس قاصراً على هؤلاء الأمراء بل هو منجر على غيرهم. وهذا بالفعل ما حدث بعد ذلك فالنصارى في إسبانيا ما كادوا يحتلون إسبانيا ويعيدونها دار كفر، نتيجة تصرفات أمراء السوء، حتى بدأ شر هؤلاء النصارى يطول مناطق أخرى في العدوة المغربية. وليست سبتة التي يحتلها الإسبان إلى اليوم إلا مثالاً على ذلك.

فبسط السيطرة المرابطية على الأندلس إذاً كان عملاً دينياً ذا هدفين: دفاعي آني لحماية ما تبقى من الأندلس الإسلامية، وهدف استراتيجي بعيد المدى وهو حماية المغرب الأقصى من هذه الهجمة الصليبية الحاقدة[١].

اطمأن يوسف إذن إلى سلامة قرار إزاحة أمراء الطوائف، فجاز إلى الأندلس جوازه الثالث سنة ٤٨٣هـ وذلك برسم الجهاد[٢]. وسار تواً إلى طليطلة فأغار على أحوازها وضرب الحصار حولها وفيها ألفونس. كل ذلك ولم يتقدم أحد من الأمراء الأندلسيين لمساعدته[٣]. كان هذا الموقف من طرف أمراء الطوائف مبرراً إضافياً لخلعهم.

بدأ يوسف بصاحب غرناطة عبدالله بن بلقين، وكان قد فاق أقرانه من أمراء الأندلس في الخيانة[٤]. حاصر المرابطون غرناطة طيلة شهرين حاول ابن بلقين خلالهما إنقاذ نفسه بتوسيط العلماء لدى أمير المسلمين[٥]. لكن هؤلاء العلماء، وبالأخص القاضي ابن سهل، اعتبروا أن حصار يوسف

---

(١) عبدالله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الثاني ص٣٣٩.
(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص٩٩؛ مجهول: الحلل الموشية ص٥٠؛ السلاوي: الاستقصا ج١ ص١٢٠.
(٣) ابن أبي زرع: نفس المصدر والصفحة.
(٤) عقد الأمير عبدالله اتفاقاً مع البرهانس ثم عقد معاهدة مع ألفونس ودفع له مالاً كثيراً كجزية.
(٥) عبدالله بن بلقين: كتاب التبيان ص١٥٦.

لغرناطة فرصة لا تعوض، وخير ساقه الله من أجل إنهاء حكم ابن بلقين[1]. فقام القاضي ابن سهل بحث يوسف على التخلص من ابن بلقين. وأخبره أن الجيش في غرناطة منقسم على نفسه[2].

وفي أثناء هذا الحصار اضطربت الأحوال داخل غرناطة فقد تشوفت الرعية إلى الخلاص من حاكمها وظلمه واستبشروا خيراً بالمرابطين. فالكل كان يطمع أن يتبدل حاله نحو الأحسن «طمعاً منهم بالحرية وأنهم لا يلزمهم غير الزكاة والعشر»[3].

وأمام هذا الوضع الميؤوس منه استسلم الأمير عبدالله بن بلقين وقبل الشروط التي قدمها له الفقيه ابن سعدون مبعوث أمير المسلمين يوسف[4]. وكان ذلك في ١٣ رجب ٤٨٣هـ.

كان استسلام عبدالله بن بلقين ونفيه إلى المغرب المرحلة الأولى من مراحل خلع أمراء الطوائف. واتضح لبقيتهم المصير الذي ينتظرهم، ففزع هؤلاء الأمراء إلى كل الوسائل التي يمكن في نظرهم أن تحميهم من الخطر المرابطي.

كانت الخطوة التالية للمشروع المرابطي لتوحيد الأندلس هي مملكة أشبيلية وأميرها المعتمد بن عباد. لقد تعامل أمير المسلمين مع المعتمد معاملة خاصة، ربما تقديراً لدوره في استدعاء المرابطين للجهاد، وتمثلت هذه المعاملة الخاصة في أنه منح المعتمد فرصة جديدة لتصحيح وضعه فطلب إليه أن يطبق أحكام الشرع وأن يلغي المظالم والمكوس ويلتزم المرابطة ومدافعة النصارى «فامتنع ابن عباد جهده وبنى على الشر»[5]. كان

---

(١) ابن عبود: جوانب من الواقع الأندلسي ص١٩١.

(٢) يصور الأمير عبدالله في كتابه التبيان (ص١٥٤) شأن ابن سهل وابن واروي اللذين أرسلهم إلى يوسف فيقول: «وصح عندي وقت انصرافهما أن ابن واروي قال: أرسلنا للخدمة له في زعمه، ولم نصنع غير أني كتفته والقاضي ضرب عنقه».

(٣) ابن بلقين: التبيان ص١٥٧ ـ ١٥٨.

(٤) المصدر السابق: ص١٥٦؛ ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٥٤.

(٥) ابن بلقين: التبيان ص١٧٠.

هذا الإباء بمثابة إعلان الحرب على يوسف. تريث أمير المسلمين في شأن المعتمد وعاد إلى المغرب[1] ويبدو أنه استفتى العلماء من جديد في شأن المعتمد فأفتى أكثرهم بارتداده لاستغاثته بالنصارى لمحاربة المرابطين. وأباحوا دمه. في حين أفتاه قاضي مراكش مع آخرين بعدم ارتداده ولم يبح دمه[2]. وقد مال يوسف إلى هذه الفتوى الأخيرة.

كان المعتمد بن عباد من جانبه قد عزم أمره على مناوأة المرابطين ومدافعتهم ولم يترك للصلح مجالاً، فباشر في ترميم الأسوار والقنطرة[3]. ووجه دعوة إلى أمراء الطوائف لعقد حلف لمقاومة المرابطين[4]. كما تحالف مع ألفونس لنفس الغرض[5]. كل هذه التحركات وفتوى العلماء بارتداده جعلت يوسف يقرر نهائياً التخلص من المعتمد وأن يسقيه «من الكأس التي أسقى به عبدالله بن بلقين»[6].

وبالفعل أرسل يوسف جيشاً بقيادة سير بن أبي بكر لاحتلال أشبيلية وقد تمكن الجيش المرابطي من اقتحام أشبيلية واعتقال المعتمد بن عباد في ٢٢ رجب ٤٨٤هـ[7]، بعد حصار دام أربعة أشهر[8]. وقد تخلل هذا الحصار حدثان مهمان: هما ثورة الرعية في أشبيلية على المعتمد[9] وقد فشلت هذه الثورة لكنها كانت تعبر عن حال السخط التي كانت تعم الرعية من حكم هؤلاء الأمراء. فالحال التي كانت تعانيها تلك الرعية من ضرائب

---

(١) الحلل الموشية: ص٧٢؛ ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٥٤.
(٢) العباس ابن إبراهيم: الأعلام ج٤ ص٢٦ عن الإمام البرزلي؛ ابن بلقين: التبيان ص١٧١.
(٣) الحلل الموشية: ص٧٢.
(٤) Dozy: Histoire de Musulmans d'Espagne T3 P.145.
(٥) ابن بلقين: التبيان ص١٧٠.
(٦) ابن بلقين: التبيان ص١٧٠؛ الحلل الموشية: ص٧٢.
(٧) ابن بلقين: التبيان ص١٧١ - ١٧٢؛ المراكشي: المعجب ص١٥٠؛ ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٥٥؛ عنان: دول الطوائف ص٣٥٢.
(٨) عبدالله بن بلقين: التبيان ص١٧١؛ محمد عبدالله عنان: دول الطوائف ص٣٥١.
(٩) المراكشي: المعجب ص٢٠٥.

ومغارم وظلم جعلتها تطمح بأبصارها إلى المرابطين لإنقاذها من هذه الوضعية المزرية. أما الحدث الثاني فهو استصراخ المعتمد بألفونس ضد المرابطين فأرسل إليه هذا الأخير قائده ألبرهانس في جيش كبير. وما كادت هذه القوة من النصارى تصل إلى حصن المدور حتى زحف المرابطون للقائهم بقيادة إبراهيم ابن إسحاق اللمتوني ونشبت بين الفريقين معركة ضارية أسفرت عن هزيمة ساحقة للجيش القشتالي[١].

ويبدو أن المعتمد بخطوته هذه أي الاستنجاد بألفونس ضد المرابطين، قرر أن مصلحته الذاتية تتماشى أكثر مع «رعي الخنازير القشتالية» منها على «رعي الجمال عند أمير المسلمين» كما قرر المعتمد بتلك الخطوة أن يتيح الفرصة لألفونس ليعيد الأندلس دار كفر.

فليس المهم بالنسبة إلى المعتمد أن ينهزم الإسلام والمسلمون بل المهم أن يبقى هو في قصره عاكفاً على لذاته، ولو إلى حين، تابعاً ذليلاً لملك قشتالة[٢].

واصل المرابطون بعد احتلال أشبيلية خطتهم التوحيدية فاحتلوا المرية[٣] ثم اتجهوا صوب بطليوس إمارة بني الأفطس. وقد أعاد أمير بطليوس المتوكل عمر بن الأفطس نفس السياسة التي اتبعها المعتمد إذ تحالف مع ألفونس بل وتنازل له عن مدن مهمة هي اشبونة وشنترين وشنتمرية[٤]. مقابل حماية ألفونس له من المرابطين.

---

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٥٥.

(٢) محيي الدين اللاذقاني: فانتازيا التاريخ ص١٥.

(٣) سقطت في أيدي المرابطين في ٢٢ ربيع الأول ٤٨٤هـ وقد توفي أميرها المعتصم بن صمادح، وكان مريضاً، يوم دخول المرابطين المرية وعندما سمع قرقعة السلاح وصهيل الخيل قال: «لا إله إلا الله نغص علينا كل شيء حتى الموت» (ابن بلقين: التبيان ص١٦٩؛ ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٥٥).

(٤) ابن بلقين: التبيان ص١٧٢ ـ ١٧٣ Dozy: Histoire des Musulmans d'Espagne T3 P.152.

شكلت هذه الخيانة مبرراً جديداً لدى المرابطين لإنهاء حكم المتوكل. كما أثار هذا الإجراء حفيظة سكان بطليوس فانضموا إلى جهود المرابطين لإنقاذهم من هذا الأمير الخائن[1]. وقد أسفرت جهود الطرفين عن دخول المرابطين بطليوس واعتقال المتوكل في صفر ٤٨٧هـ (١٠٩٤م)[2].

لقد كان المتوكل بن الأفطس أميراً شهماً تتسم مواقفه في بعض الأحيان بتناقض غريب. فقد كان هذا الأمير أول من حاول توحيد الجبهة الإسلامية ضد الهجمة المسيحية وفي سبيل ذلك آزر الجهود التي قام بها الفقيه أبو الوليد الباجي في هذا الشأن[3].

ثم كان المتوكل الأمير الطائفي الوحيد الذي هب لإنجاد طليطلة[4]. ثم كان من أوائل من خاطب الأمير يوسف بن تاشفين داعياً إياه للجواز إلى الأندلس لمدافعة العدو. ومما كتب له في هذه الرسالة قوله: «لما كان نور الهدى ـ أيدك الله ـ دليلك وسبيل الخير سبيلك... ووقفت على الجهاد عزائمك، وصح العلم بأنك لدعوة الإسلام أعز ناصر وعلى غزو الشرك أقدر قادر وجب أن تستدعىٰ لما أعضل الداء، وتستغاث لما أحاط بالجزيرة من البلاء. وطوائف العدو المطيف بأنحائها أهلكهم الله... أيقنوا الآن بضعف المنن وقويت أطماعهم في افتتاح المدن واضطرمت في كل جهة نارهم ورويت من دماء المسلمين أسنتهم وشفارهم...»[5].

وفي مقابل هذه المزايا الحميدة والمواقف المشرفة نجد المتوكل يداخل ألفونس ويرتمي في أحضانه وكأنه الولي الحميم وينسى أمام أنانية طاغية، كل ماضيه المشرف الذي شيده بمدافعه هذا الألفونس. لقد كرر

---

(١) تمثلت جهود هؤلاء المواطنين في اتفاقهم مع المرابطين بأن يفتحوا لهم الأبواب ليلاً وهو ما فعلوه (ابن بلقين: التبيان ص١٧٤).

(٢) ابن بلقين: التبيان ص١٧٢ ـ ١٧٣؛ ابن الأبار: الحلة السيراء ج٢ ص١٠٢.

(٣) ابن الأبار: الحلة السيراء ج٢ ص٩٨؛ محمد عبدالله عنان: دول الطوائف ص٩١.

(٤) محمد عبدالله عنان: المرجع السابق ص١١١.

(٥) الحلل الموشية: ص٣٤ ـ ٣٥.

المتوكل نفس العمل الذي قام به المعتمد بن عباد قبله. وضربوا بذلك المثل الواضح والبرهان الساطع أن مصير الإسلام وأهله لا يساوي عندهم شيئاً مقابل التشبث والبقاء في الحكم «ولو يوماً واحداً»[١].

لقد ارتبطت الفترة الأخيرة من تاريخ بني الأفطس في بطليوس بشخصية الفقيه ابن الأحسن السجلماسي وهو من سجلماس انخرط في خدمة الدولة المرابطية ودعوتها. وكان أول اتصال له بالشأن الأندلسي عندما أرسله أمير المسلمين هو وقاضي الجماعة أبو مروان عبدالملك المصمودي للتفاوض مع المعتمد بن عباد في أمر تسليم الجزيرة الخضراء للمرابطين قبيل الجواز الأول ليوسف بن تاشفين[٢]. وبعد معركة الزلاقة استقر الفقيه ابن الأحسن في بطليوس ضمن جماعة من صلحاء المرابطين كان هدفهم الأول الجهاد في الثغور ومدافعة العدو. إلا أنه في ما يبدو كان لهم هدف ثانٍ وهو تمهيد النفوس لتدخل المرابطين وإبراز ضرورة ذلك لتوحيد الصفوف والكلمة لدرء الخطر النصراني[٣].

تمتع الفقيه ابن الأحسن في بطليوس بمكانة رفيعة واحترام كبير لعلمه ولمكانته عند أمير المسلمين، فقربه المتوكل وصرف إليه الكثير من شؤونه[٤].

غير أن سلوك المتوكل المهادن للنصارى والمتودد إليهم جعل العلاقة بين الاثنين يشوبها الحذر ثم النفور[٥]. وبدأ الفقيه ابن الأحسن يسعى في الخفاء لخلع المتوكل.

وتطورت علاقة المتوكل مع النصارى بتنازله لألفونس عن عدد من

---

(١) ابن بلقين: التبيان ص١٧١؛ عبدالرحمن الفاسي: ذيل وتعليق حول قضية المعتمد بن عباد ص٣٥٦.

(٢) ابن بلقين: التبيان ص١٢٢.

(٣) المراكشي: المعجب ص٢٠٤.

(٤) ابن بلقين: التبيان ص١٧٣.

(٥) ابن بلقين: التبيان ص١٧٢.

المدن، فأعلن ابن الأحسن مناوأته للمتوكل وسعى جاداً في تأليب الناس عليه. وقد لقيت دعوته استجابة كبيرة في نفوس أهل بطليوس. فلما حاصر المرابطون المدينة ساعدهم أهلها على اقتحامها بأن فتحوا لهم أبوابها(١).

كانت هذه هي أهم دول الطوائف في ذلك الوقت ولم يبق منها سوى دولة بني هود في سرقسطة التي كان يحكمها أحمد بن هود وقد أقره المرابطون على ما بيده من ملك وأبقوه خط دفاع أمامي ضد هجمات النصارى(٢).

وبخلع المتوكل طويت في الأندلس صفحة أمراء الطوائف وتوحدت العدوتان بفضل مساعي العلماء وجهدهم الدؤوب وحرصهم على لمِّ شمل الأمة.

لقد كان العلماء في مؤازرتهم لمساعي المرابطين وإرشادهم لهم ينطلقون في أغلبهم من قناعات دينية راسخة تتمثل في وجوب مساندة من يقدر أن يدافع عن حرمة الإسلام ويحمي حوزته في الأندلس ويزيل الظلم ويحكم بالعدل. ومع ذلك فلا شك أن البعض ساند المرابطين لما آنسه فيهم من تعظيم للعلم وأهله. ورأوا أن حظوظهم مع هذه الدولة وأهلها أوفر من حظهم مع غيرها(٣).

ومن هذه الزاوية النفعية البحتة وجد بين العلماء من عارض الدولة المرابطيَّة ومساعيها لخلع أمراء الطوائف فهذا أبو عبدالله محمد بن فرج مولى ابن الطلاع (ت٤٩٧هـ) وكان شيخ الفقهاء في قرطبة، أسقط من الفتوى بعد دخول المرابطين لهذه المدينة، لفرط تعصبه عليهم مع بني عباد(٤).

---

(١) ابن بلقين: التبيان ص١٧٤.

(٢) مجهول: الحلل الموشية ص٧٤ ـ ٧٥.

(٣) حسن محمود: قيام دولة المرابطين ص١٦٥.

(٤) عياض: ترتيب المدارك ج٨ ص١٨١.



# الباب الثاني
# العلماء والسلطة

الفصل الأول: العلماء في مواقع النفوذ.

الفصل الثاني: العلماء في مواجهة السلطة.

الفصل الثالث: العلماء حكاماً.

الفصل الرابع: أثر العلماء في الدعوة والجهاد.

# الفصل الأول

## العلماء في مواقع النفوذ

لقد قامت الدولة المرابطية، كما رأينا في الفصول السابقة، على أيدي العلماء وجهودهم ومثابرتهم وتضحياتهم. فلما استوى عود هذه الدولة واشتد كان من الطبيعي أن يحظى العلماء فيها بموقع مؤثر ونفوذ متسع. فلم يكن إذاً مستغرباً أن يعظم أمير المسلمين يوسف بن تاشفين شأنهم ويصرف الأمور إليهم ويأخذ برأيهم فيها[1]. فكان كثير المشورة لهم[2]. وازداد هذا النفوذ وتلك المكانة على عهد ابنه علي بن يوسف « ...فبلغ الفقهاء في أيامه مبلغاً عظيماً لم يبلغوا مثله في الصدر الأول من فتح الأندلس. ولم يزل الفقهاء على ذلك وأمور المسلمين راجعة إليهم، وأحكامهم صغيرها وكبيرها موقوفة عليهم، طول مدته»[3]. وتجلى هذا النفوذ والمكانة من خلال تأثيرهم على القرارات المهمة في الدولة. فقد أضحى العلماء أهم مستشاري أمراء المرابطين، إذ كان هؤلاء حريصين على الاستشارة في كل أمورهم وجعلوا ذلك المبدأ أحد مرتكزاتهم في الحكم، كما أشرنا إلى ذلك في فصل سابق. وكان مستشارو أمير المسلمين عادة مجموعة من شيوخ

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص٤٦؛ ابن الخطيب: الإحاطة ج٤ ص٣٤٩.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٦ ص١١٣؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص١٣٧.

(٣) عبدالواحد المراكشي: المعجب ص٢٥٣.

المرابطين ونخبة من الفقهاء. وكان هؤلاء الأخيرون يمثلون القوة الأكثر تأثيراً على قرارات أمير المسلمين. فكان لمشورتهم في أغلب الأحيان الغلبة.

وقد كان العلماء يستشارون في كل الأمور جليلها وصغيرها ابتداءً بأمور مثل ولاية العهد وانتهاءً بأمور مثل بناء الأسوار والحصون وتوسعة المساجد. فعندما أراد أمير المسلمين يوسف تعيين ولده علي ولياً للعهد استشار العلماء في ذلك فرضوا هذا الاختيار[١]. وقد ازداد الاعتماد على مشورتهم على عهد أمير المسلمين علي بن يوسف «فكان لا يقطع أمراً في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء»[٢]. فكان لهم دور فعال في اختيار الأمير تاشفين لولاية عهد أمير المسلمين علي بن يوسف، إذ كانت زوجته قمر تضغط عليه لتعيين ابن آخر من أبنائه لولاية العهد هو الأمير إسحاق. ولكن أهل الشورى، والفقهاء في مقدمتهم أجمعوا على اختيار الأمير تاشفين. وبرروا ذلك بأسباب موضوعية منها ديانته وتقواه وشجاعته وشهامته ورجاحة عقله ولما ظهر منه في الأندلس من النكاية في العدو[٣].

وكان هؤلاء المستشارون يلازمون أمير المسلمين في قصره وفي تنقلاته ليبدوا آراءهم في المشاكل المطروحة. ولهذا لا يبعد القول أن سلطة أمراء المرابطين كانت في المقام الأول تنفيذية. في حين كان الفقهاء المستشارون هم الذين يبتون في وجاهة القرارات وصلاحيتها[٤]. ولم تكن استشارة أهل الرأي من كبار الفقهاء مقصورة على أمير المسلمين بل كان نائباه في المغرب

---

(١) مجهول: الحلل الموشية ص٧٩.

(٢) عبدالواحد المراكشي: مصدر سابق ص٢٥٢.

(٣) مجهول: الحلل الموشية ص١٢٠؛ ابن الخطيب: مصدر سابق ج١ ص٤٤٦ ـ ٤٤٩ وقد ذكر ابن الخطيب في ترجمته لتاشفين بن علي أنه «لم يشرب قط مسكراً ولا استمع إلى قينة ولا اشتغل بلذة مما يلهو به الملوك» (الإحاطة ج١ ص٤٤٨).

(٤) إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ ج١ ص٢٠٢.

والأندلس[1] ملزمين بالاستشارة في كل ما يأتيان[2]. وكذلك الحال بالنسبة لولاة الجهات فقد كانوا مطالبين من أمير المسلمين باستشارة أهل الرأي في جهاتهم «ليطلعوهم على ما يخفى عليهم من أحوال رعاياهم»[3].

وبالإضافة إلى هذا الدور الاستشاري مارس العلماء نفوذهم وتأثيرهم في المجتمع من خلال الوظائف التي كانوا يمارسونها ولعل أهمها هي وظيفة **القضاء**.

كان القضاء أحد أبرز الوظائف في العهد المرابطي. وقد ارتفع شأن هذه الوظيفة وازدادت الصلاحيات الموكلة إلى القاضي فمنح سلطات واسعة، إلى حد أنه كان في وسعه أن يتدخل في اختيار العمال وعزلهم، كما فعل القاضي أبو الوليد بن رشد عندما طالب أمير المسلمين علي بن يوسف بعزل أخيه تميم[4] من النيابة في الأندلس لعدم كفايته[5]. وقد استجاب أمير المسلمين لهذا الطلب فعزل تميماً في رمضان ٥٢٠هـ[6].

---

(١) كان لأمير المسلمين نائبان أحدهما للمغرب مقيم في فاس والآخر للأندلس مقيم في قرطبة وفي بعض الأحيان في غرناطة. وكان نائب أمير المسلمين هو الحاكم المدني والعسكري في منطقته ويتبع لحكمه ولاة الأقاليم في منطقته (ابن أبي زرع: مصدر سابق ص١٥٩، ١٦٤؛ إبراهيم حركات: مرجع سابق ص٢١٠).

(٢) د. محمود مكي: وثائق تاريخية عن عصر المرابطين، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، المجلد ٧ (١٩٥٩)، ص١٧٧.

(٣) نفس المصدر: ص١٧٦.

(٤) أبو الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين: أخو أمير المسلمين علي بن يوسف وقد ولي حكم غرناطة بين سنتي ٥٠٠ و٥٠٣هـ ثم نقل إلى حكم تلمسان بالمغرب، وعاد إلى الأندلس نائباً لأمير المسلمين بين سنتي ٥١٥ و٥١٦هـ مقيماً في غرناطة ثم نقل إلى أشبيلية ثم عاد للنيابة سنة ٥١٩هـ مقيماً في قرطبة إلا أنه عزل في السنة التالية لعدم كفايته وشكوى أهل الأندلس منه التي ذكرنا في المتن. وفي تاريخ وفاته خلاف والأرجح أنه توفي سنة ٥٢٠هـ (ابن أبي زرع: مصدر سابق ص١٦٤؛ هويسي ميراندة: علي بن يوسف وأعماله في الأندلس، مجلة تطوان العدد الثالث والرابع (١٩٥٨ ـ ١٩٥٩) ص١٧٣).

(٥) مجهول: الحلل الموشية ص٩٨.

(٦) ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص٧٣.

وكانت سلطة القاضي فوق سلطة الحاكم الإداري والعسكري. فهو الرقيب عليه وعلى الولاة والعمال التابعين له. وكان القاضي مسؤولاً عن تصرفات العمال والولاة.

وقد أوضح أمير المسلمين علي بن يوسف هذه المسؤوليات المناطة بالقاضي في رسالة وجهها إلى قاضي مالقة أبي محمد عبدالله بن أحمد بن عمر القيسي المالقي[1] (ت٥٤٢هـ) والمؤرخة في ذي الحجة من سنة **٥٢٣هـ** ومما جاء فيها: «وقد قلدناك تقليداً تاماً أن تنظر بجهتك من شكاوى العامة في اللطيف والجليل وسلمناك القيام بالخفيف منها والثقيل، فتفقد ما قبلك حق تفقده... وأي عامل من عمال الرعية قامت الشهادة عندك بتعديه وعلمت بصحة استهدافه وتصديه فانه أمره إلى صاحب البلد مستعمله وموليه، وأشعره بما ثبت عندك فيه فإن غل يد أذيته وأنفذ عزلة عن رعيته، وإلا فأخف ذلك إلينا في سائر ما يتوقف لديك من الأمور التي تقصر عنها يدك... وأي عذر لك وقد شددنا من أزرك وعضدنا من أمرك...»[2].

وكانت سلطته وأحكامه نافذة على الجميع، وقد شدد أمراء المرابطين في الالتزام بهذا المبدأ فكان يتكرر في رسائلهم إلى ولاتهم وعمالهم، وفي ذلك يقول علي بن يوسف مخاطباً القاضي ابن حمدين: «وقد عهدنا إلى جماعة المرابطين أن يسلموا لك في كل حق تمضيه ولا يتعرضوا عليك في قضاء تقضيه... والعمال والرعية كافة سواءً في الحق. فإن شكت إليك الرعية بعامل وصح عندك ظلمه لها، ولا يتجه في ذلك عمل غير عزله فاعزله، وإن شكا العامل من رعيته خلافاً في الواجب، فاشكه منها وقومها له، ومن استحق من كلا الفريقين الضرب والسجن فاضربه واسجنه، وإن

---

(١) أبو محمد عبدالله بن أحمد بن عمر القيسي (ت٥٤٢هـ): قال عنه ابن بشكوال «من أهل العلم والمعرفة والفهم» استقضى ببلده ثمانية عشر عاماً حمد فيها ثم استعفى من القضاء لما كبر في السن وانقطع للعبادة (ابن بشكوال: الصلة ج١ ص٢٨٥؛ النباهي: تاريخ قضاة الأندلس ص١٠٤ ـ ١٠٥).

(٢) محمود مكي: مصدر سابق ص١٧١ ـ ١٧٣.

استوجب الغرم في ما استهلك فأغرمه واسترجع الحق شاء أو أبى من لدنه. والأمر في استكفاء من يكفيك ويغني في بعض الأمور عنك إليك ولا نشير عليك بشيء، وتصرفك أحياناً في إصلاح صنعك وترفيع معاشك غير مضيق عليك فيه فاعلمه»[١].

فمن خلال هذه الرسالة يظهر أن القاضي لا يرد له حكماً، وأن حكمه نافذ بين السلطة التنفيذية، المتمثلة في المرابطين وعمالهم، وبين رعيتهم.

ومن أمثلة وصاية القضاة على الولاة أن أمير أشبيلية الأمير واجداي بن عمر بن سير اللمتوني لما تسبب في إحدى غزواته في أسر بعض المسلمين لتهاونه في أخذ الحيطة رفع القضاة الأمر إلى أمير المسلمين علي بن يوسف فألزم واجداي فدية من أسر وأنفذ الأمر بعزله[٢].

وأما تعيين القضاة فكان يتم إما بأمر من أمير المسلمين أو يرشح أهل البلد أحد الفقهاء لتولي قضاء بلدهم ويبعثون بترشيحهم هذا للأمير الذي يقر هذا الترشيح، ويرسل بخطاب التعيين كما حدث في قرطبة سنة **٥٣٦**هـ عندما ترك القاضي أحمد بن رشد منصبه فاختار أهل قرطبة القاضي أبا جعفر بن حمدين، وأرسلوا باسمه للأمير علي بن يوسف فأقرهم على اختيارهم[٣].

وفي بعض الأحيان يختار أهل البلد اسمين لمرشحين، ويرسلون بهما إلى أمير المسلمين فيختار أحدهما أو يجعل الاختيار لهم، فإذا عجزوا عن الاتفاق عين لهم قاضياً[٤].

ويترأس هيئة القضاء قاضي الجماعة وهو بمنزلة وزير العدل اليوم. وكان هناك قاضيان للجماعة أحدهما يشرف على القضاء في الأندلس ومقره في قرطبة ومن أشهر من تولى هذا المنصب: أبو القاسم أحمد بن حمدين

---

(١) ابن بسام: الذخيرة ق. الأول، مج الأول ص٢٦١ ـ ٢٦٢.
(٢) ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص٨٠.
(٣) النباهي: المرقبة العليا ص١٠٣؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص٢٥٣.
(٤) محمود مكي: مصدر سابق ص١٨٦.

التغلبي[١] وأبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد[٢] وأبو عبدالله محمد بن أحمد بن خلف التجيبي المعروف بابن الحاج[٣]. أما قاضي الجماعة الثاني فمقره بمراكش ويشرف على عمل القضاة في المغرب ويدعى أحياناً بقاضي الحضرة[٤]. وكان بحكم منصبه من أهم أعضاء مجلس الشورى وأنفذهم لدى أمير المسلمين[٥]. ومن أشهر من تولى هذا المنصب: أبو محمد عبدالله بن محمد بن إبراهيم اللخمي[٦]، وأبو سعيد خلوف بن خلف الله الصنهاجي[٧].

وقد يسند إلى أحد العلماء مهمة الإشراف على شؤون القضاء في العدوتين كما حصل مع الفقيه أبي عبدالملك مروان بن عبدالملك بن سمجون اللواتي[٨] الذي صرف إليه أمير المسلمين يوسف جميع أمور

---

(١) أبو القاسم أحمد بن محمد بن حمدين (ت٥٢١هـ): فقيه قرطبي من بيت علم ودين وفضل وجلالة تولى قضاء الجماعة بقرطبة مرتين أولاهما: بعد أبيه القاضي محمد بن حمدين وذلك من سنة ٥٠٨ ـ ٥١١هـ وثانيهما: من سنة ٥١٥هـ خلفاً لأبي الوليد بن رشد الذي استعفى من القضاء وقد ظل في هذا المنصب إلى أن توفي. وكان نافذاً في أحكامه، جزلاً في أفعاله (ابن بشكوال: الصلة ج١ ص٨١؛ النباهي: المرقبة العليا ص١٠٣؛ ابن القطان: نظم الجمان ص٧٤).

(٢) أحد أعلام فقهاء المالكية، وسنتعرض لذكره بالتفصيل في الصفحات التالية ترجمته في أغلب المصادر (ابن بشكوال: الصلة ج٢ ص٥٤٦؛ النباهي: المرقبة العليا ص٩٨).

(٣) محمد بن أحمد بن خلف التجيبي المعروف بابن الحاج (ت٥٢٩هـ): أحد كبار علماء قرطبة ومفتيها، كان معدوداً في المحدثين والأدباء، بصيراً بالفتيا رأساً في الشورى. «وكانت الفتوى في وقته تدور عليه لمعرفته وثقته وديانته، قيد العلم عمره وعني به عناية كاملة. تولى قضاء الجماعة بقرطبة سنة ٥٢٨هـ، وقتل مظلوماً سنة ٥٢٩هـ وهو يتولاه (ابن بشكوال: الصلة ج٢ ص٥٥٠؛ النباهي: المرقبة العليا ص١٠٢؛ ابن القطان: نظم الجمان ص٢٣٤).

(٤) إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ ص٢١٦.

(٥) د. حسن محمود: قيام دولة المرابطين ص٣٦٧.

(٦) ابن الأبار: المعجم ص٢١٤.

(٧) ابن الأبار: التكملة ج١ ص٣١٤.

(٨) وصفه القاضي عياض بأنه: زعيم المغرب وشيخه وذو الجاه العريض والقول المسموع فيه. توفي سنة ٤٩١هـ (عياض: الغنية ص٢٥٨).

الأندلس والمغرب، وفوض إليه كبارها[1].

وكانت سلطة قاضي الجماعة قوية بحيث كان يتعين على أمير المسلمين أو نائبه أن يستشيره في تعيين غيره من القضاة.

وكان القاضي في العهد المرابطي يشرف على عدة خطط أو عدة وظائف ومنها الإشراف على بيت المال فيختار له رجلاً عرف عنه الغنى والعدل والأمانة[2] كما يشرف على الأحباس ويعين عليها من يثق بدينه وأمانته. كما يشرف على خطة الأحكام ويدعى صاحبها بصاحب الأحكام واختصاصه الفصل في القضايا البسيطة، وصاحب الأحكام يختاره القاضي من أهل الثقة المعروفين بالعلم والنزاهة[3].

كما كان القضاة يشرفون على أمور المساجد من إمامة وخطبة فيتولاها هو بنفسه أحياناً وفي بعض الأحيان يعين غيره فيها. ويقوم ببناء المساجد وتوسعتها حين تضيق بالمصلين. فقد أشرف القاضي أبو عبدالله محمد بن داوود قاضي فاس على زيادة مساحة جامع القرويين بفاس سنة ٥٣٠هـ[4] ومثله ما قام به القاضي أبو محمد عبدالحق بن عطية من زيادة في المسجد الجامع بالمرية سنة ٥٣١هـ[5] والقاضي عياض الذي زاد في جامع سبتة من جهته الغربية[6].

وكان للقاضي في عهد علي أربعة فقهاء مستشارين يختارهم من أهل الصلاح والتقوى ومهمتهم في الأساس هي إعانة القاضي على تبين الحقيقة

---

(١) عياض: الغنية ص٢٥٨.

(٢) ابن عبدون: رسالة الحسبة ص١٠.

(٣) المصدر السابق: ص٩.

(٤) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص٥٩؛ ابن القاضي: جذوة الاقتباس ص٢٢.

- Margais (Georges): Manuel d'Art Musulman, L'Architecture 2 vol. Paris 1926 vol 1 P.312.

(٥) السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ مدينة المرية ص١٤٩.

(٦) محمد بن عياض: التعريف بالقاضي عياض ص١١.

في ما يرفع إليه لهذا كان «لا يقطع أمراً ولا يبت في حكومة في صغير من الأمور ولا كبير إلا بمحضر أربعة من الفقهاء»(١).

كل هذا جعل للقضاة مكانة عظيمة في عهد المرابطين بحيث أصبح مقدم أحدهم مناسبة للاحتفال به، فهذا القاضي عياض عندما قدم غرناطة سنة ٥٣١هـ متولياً للقضاء بها استقبله أهلها استقبالاً رائعاً «فخرج الناس للقائه وبرزوا تبريزاً ما رأيت لأمير مؤمر مثله»(٢).

وكان أولو الأمر يأمرون بالاحتفاء بالقضاة فعندما قام القاضي عياض برحلة إلى الأندلس سنة ٥٠٧هـ كتب أمير المسلمين علي بن يوسف إلى قاضي الجماعة ابن حمدين يأمره الاعتناء بأمره «لأن له إلينا ماتة(٣) مرعية أوجبت الإشادة بذكره والاعتناء بأمره»(٤).

وصار التعظيم والاحتفاء عادة لهؤلاء القضاة حتى أن أحدهم وهو القاضي أبو بكر بن أسود(٥) غضب من كون أمير غرناطة لم يحتف به عندما مر به متجهاً إلى قرطبة، ثم شكاه إلى نائب أمير المسلمين في الأندلس الأمير تاشفين بن علي الذي بادر بالكتابة إلى أمير غرناطة يلومه على عدم احتفائه بالقاضي وتقصيره في العناية بأمره، واعتبر الأمير هذا الأمر إثماً كبيراً يستحق عليه أمير غرناطة التأنيب «فلتعلموا مكان هذه الفعلة الفادحة والفرطة الفاضحة»(٦).

---

(١) المراكشي: المعجب ص٢٥٣.

(٢) المقري: أزهار الرياض ج٣ ص١١.

(٣) الماتة: الحرمة والوسيلة (محمد مرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، منشورات دار مكتبة الحياة. بيروت، د.ت مج١ ص٥٨٤).

(٤) ابن خاقان: قلائد العقبان مج١ ص٣٢٨.

(٥) أبو بكر محمد بن إبراهيم بن أحمد بن أسود الغساني (ت٥٣٦هـ): فقيه من أهل المرية شؤور ببلده واستقضى بمرسية مدة طويلة، لم تذكر المصادر فترتها، غير أنه لم تحمد سيرته فصرف عن القضاء وسكن بمراكش حيث توفي (ابن بشكوال: الصلة ج٢ ص٥٥٣).

(٦) حسين مؤنس: سبع وثائق جديدة، مجلة المعهد المصري بمدريد مجلد ٢ سنة ١٩٥٤ وثيقة ٣ ص٧٠.

لقد أدت هذه المكانة العلية وهذا الاحترام العظيم الذي حظي به القضاة أن أصبح هؤلاء ذوي جاه عريض ومال جزيل في معظمهم. «فانصرفت وجوه الناس إليهم فكثرت لذلك أموالهم واتسعت مكاسبهم»[١].

ولقد اختلف مسلك القضاة في استغلالهم للنفوذ الذي أعطتهم إياه وظيفة القضاء: فقد سعى البعض للاستعانة بهذا النفوذ لإقامة الحق وكبت الإجرام وأهله كالقاضي ابن العربي الذي كانت له في الظالمين سورة مرهوبة[٢] والقاضي عياض الذي أزال المظالم والمكوس في البلاد التي حل بها[٣]. والقاضي محمد بن أبي جمرة (ت٥٠٣هـ) الذي استقضى بغرناطة «فنفع الله به أهلها لصرامته ونفوذ أحكامه وجمود يده وقويم طريقته»[٤].

واستعمله آخرون من أمثال أبي عبدالله محمد بن حمدين[٥] والقاضي محمد بن رشد والقاضي محمد بن أصبغ[٦]، زيادة على إقامة الحق

---

(١) المراكشي: المعجب ص٢٥٣.

(٢) ابن بشكوال: الصلة ج٣ ص٨٥٦؛ ابن العربي: العواصم من القواصم ص١٣٨.

(٣) محمد بن عياض: التعريف بالقاضي عياض ص١١٥.

(٤) ابن بشكوال: الصلة ج٣ ص٨٤٥.

(٥) محمد بن علي بن حمدين التغلبي (ت٥٠٨هـ): قاضي الجماعة بقرطبة وصفه ابن القطان بقوله: وكان محبباً لدى الملثمين وحاز من المكانة لديهم ما لم يحزه غيره ممن سلف، وكان جميل الطريقة ساعياً في كل خير: قطع الضرائب والمعاون عن أهل قرطبة وسن كل طريقة جميلة وسيرة حسنة لأن ابن تاشفين كان لا يخالفه في شيء (نظم الجمان: ص٧٤)، (ابن عطية: الفهرس ص٨٤).

(٦) أبو عبدالله محمد بن أصبغ بن محمد بن أصبغ الأزدي المعروف بابن المناصف (ت٥٣٦هـ): قاضي الجماعة بقرطبة وصاحب الصلاة الفريضة بالمسجد الجامع بها و«خاتمة الأعيان بحضرتها كان من أهل الفضل الكامل والدين والتصاون والعفاف. تولى خطة أحكام المظالم بقرطبة مع شيخه قاضي الجماعة ابن رشد وكان يستحضره عنده مع مشيخة الشورى في وقته لمكانه وفضله. ثم تقلد قضاء الجماعة بقرطبة من سنة ٥٢٢هـ إلى سنة ٥٢٨هـ . ثم تفرغ للتدريس إلى أن توفي (ابن بشكوال: الصلة ج٢ ص٥٥٤ ـ ٥٥٥؛ ابن الأبار: المعجم ص١٣٨ ـ ١٣٩؛ ابن القطان: نظم الجمان ص١٥٠، ٢٣٤).

والعدل، في البر بالناس ومشاركتهم بالجاه والمال في جميع ما ينزل بهم حتى غدا الواحد منهم أباً لأهل مدينته يحوطهم كما يحوط أهل بيته فلا يدخر عنهم الوسع لذا نرى الناس يهرعون إليهم عند الملمات. ففي سنة ٥١٩هـ لما قام رذمير[١] بغزو غرناطة باستدعاء من النصارى المعاهدين وإمدادهم له بالرجال والأقوات، فزع الناس إلى ابن رشد يطلبون منه السفر إلى أمير المسلمين ليبين له ما أصابهم من ضرر جراء التصرفات الغادرة لهؤلاء المعاهدين «فاحتسب القاضي أبو الوليد بن رشد الأجر وتجشم المجاز، ولحق بأمير المسلمين علي بن يوسف بحضرة مراكش، فتلقاه بالمكرمة والمبرة، فبين له الأمر بالأندلس، وما منيت به من النصارى المعاهدين وجنوه عليها من استدعاء الروم، وما في ذلك من نقض العهد، والخروج عن الذمة. وأفتى بتغريبهم وإجلائهم إلى العدوة عن أوطانهم، وهو أخف ما يؤخذ به من عقابهم، فأخذ بقوله، وأنفذ بذلك عهده»[٢].

وفي هذه الرحلة اقترح القاضي أبو الوليد بن رشد على أمير المسلمين تسوير مراكش وضرورة ترميم الأسوار والقلاع في الأندلس «فورد كتاب الأمير علي بن يوسف بالنظر في الأسوار بجميع البلاد»[٣].

لم تكن هذه الفئة من القضاة تسعى إلى الثراء عن طريق المنصب فلم تستخدمه في أغراض شخصية ولا مكاسب مادية بل جر إلى البعض منهم الكثير من العنت فابتلوا في سبيل إقامة الحق والعدل بشتى الابتلاءات، فقد قتل أحد المجرمين قاضي الجماعة بقرطبة محمد بن أحمد بن الحاج التجيبي سنة ٥٢٩هـ رغم أنه كان «ليناً، صابراً، طاهراً، حليماً، متواضعاً،

---

(١) ألفونس الأول ملك أرغن Aragon المعروف بالمحارب حكم أرغن ونبرة ما بين سنتي ٤٩٩ و٥٢٩هـ وهو الذي استولى على سرقسطة سنة ٥١٢هـ من أيدي المسلمين واتخذها عاصمة لمملكته وقد قام في سنة ٥١٩ بحملة على بلاد المسلمين من سرقسطة حتى وصل إلى السواحل الجنوبية الشرقية.

(٢) مجهول: الحلل الموشية ص٩٧؛ ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص٧٢؛ الونشريسي: المعيار ج٢ ص١٥١.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص٧٣.

لم يحفظ له جور في قضية»[١]. وكاد القاضي أبو بكر بن العربي أن يلقى نفس المصير فقد تألب عليه الفسقة في أشبيلية سنة ٥٢٩هـ فثاروا عليه، ويصف لنا ابن العربي هذه الواقعة بقوله: «ولقد حكمت بين الناس فألزمتهم الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى لم يكن ير في الأرض منكر، واشتد الخطب على أهل الغصب وعظم على الفسقة الكرب فتألبوا وألبوا وثاروا إلي فاستسلمت لأمر الله وأمرت كل من حولي ألا يدافعوا عن داري وخرجت على السطح بنفسي فعاثوا علي وأمسيت سليب الدار، ولولا ما سبق من حسن المقدار لكنت قتيل الدار»[٢]. وقد نهبت في هذه الثورة أموال ابن العربي وكتبه[٣]. وشبيه بهذه الحادثة ما قامت به العامة في قرطبة من الثورة على القاضي أبي القاسم بن رشد سنة ٥٣٤هـ مما اضطره للفرار والاستعفاء من القضاء[٤].

لقد اعتبرت هذه الفئة من القضاة ما تقوم به واجباً شرعياً ترجو منه المثوبة عند الله فارتفعت عن الجور والظلم والارتشاء و«جمدت أيديهم عن أموال الناس»[٥]. فلم يفيدوا مالاً ولا ثراءً بل أن معظمهم على مثل حال القاضي أبو عبدالله محمد بن عيسى التميمي (ت٥٠٥هـ) الذي كان من أحسن القضاة سيرة «فمضى فقيراً حميداً»[٦]. وحتى القضاة الذين ورثوا أموالاً عن آبائهم حرصوا على أن يشركوا الناس فيها ولا يبقوا لأنفسهم إلا الأقل. وقد كان قاضي الجماعة محمد بن أصبغ ينفق في كل يوم على ثلاثمائة بيت «يعيل ديارهم ويقيل عثراتهم»[٧] وقد كانت تلك الحال من الإيثار والزهد تؤدي بالبعض إلى أن يموت وهو مدين كما ذكر ذلك

(١) ابن بشكوال: الصلة ج٢ ص٥٥٠.
(٢) ابن العربي: العواصم من القواصم ص١٣٨.
(٣) المقري: نفح الطيب ج٢ ص٢٣٦.
(٤) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص٢٥٣.
(٥) ابن بشكوال: الصلة ج٣ ص٨٣٨؛ ج٣ ص٨٤٥.
(٦) عياض: الغنية ص١٠١.
(٧) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب ج١ ص١٦٣.

مترجمو القاضي عياض[1] وبالطبع لو شاء عياض أن يكون من الأثرياء لكانه. ولقد عبر الفقيه أبو إسحاق الألبيري عن بعض من الشعور الذي يشكل منهج هذه الفئة بقوله:

لا شيء أخسر صفقة من عالم لعبت به الدنيا مع الجهال
فغدا يفرق دينه أيدي سبا ويزيله حرصاً لجمع المال[2]

وإلى جانب هذه الفئة من القضاة الأعلام الذين أضحوا قدوة ومثلاً يحتذى كانت هناك فئة من ضعاف النفوس الذين كان كل همهم أن يتخذوا القضاء مطية لمآرب دنيوية محضة فجمعوا الأموال من حلها وحرامها فعظمت ثرواتهم واتسعت أملاكهم، فكان مصير البعض منهم العزل كما حدث لابن ملجوم[3] قاضي فاس. ومما جاء في كتاب عزله الذي أرسله أمير المسلمين علي بن يوسف إلى أهل فاس: «...وقد أنهي إلينا وتحقق لدينا أن ابن ملجوم أجهل بأحكام القضاء من العلجوم وأنه أظهر فيكم أحكاماً يترحم من مثلها على سدوم، فقد وليناه خطة الملوم...»[4]. وكان القاضي محمد بن أسود الغساني قاضي مرسية من هؤلاء الذين لم «تحمد سيرتهم» فصرف منكوباً واحتمل إلى مراكش مغرباً[5]. وفيه يقول الشاعر

---

(١) عياض: الغنية ص٢٤.

(٢) المقري: نفح الطيب ج٦ ص٥٢.

(٣) لم أهتد في ما عندي من مصادر إلى اسم ابن الملجوم هذا، فمن المعلوم أن بيت بني الملجوم بفاس بيت علم وقضاء وقد ظهر منهم في العهد المرابطي كل من يوسف بن عيسى ابن الملجوم (ت٤٩٢هـ) وكان من أهل الفتوى والشورى وقد تولى قضاء الجماعة بمراكش ليوسف بن تاشفين إلى أن توفي. وقد اشترك مع يوسف بن تاشفين في غزواته بالأندلس. كما برز في هذا العصر المرابطي ابنه عيسى بن يوسف ابن ملجوم (ت٥٤٣هـ) وكان عارفاً بالفقه ذاكراً للمسائل متقدماً في علم الفرائض محدثاً حافظاً تولى القضاء بفاس وبمكناسة (أحمد بن القاضي: جذوة الاقتباس ج٢ ص٥٠٠ ـ ٥٠١، ٥٤٩؛ مجهول: بيوتات فاس الكبرى ص١٠ ـ ١٥).

(٤) ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص٩٢.

(٥) ابن بشكوال: الصلة ج٢ ص٥٥٣؛ ابن الأبار: المعجم ص١٣٥.

اليكي[1] يخاطب أمير المسلمين علي بن يوسف:

تسمع أمير المسلمين لنبأة     تصم لها الآذان في كل مشهد
بمرسية قاض تجاوز حده     وأخطأ وجه الرشد في كل مقصد
يطالبه الأيتام في جلّ مالهم     ويطلبه في حقه كل مسجد
فما بيضت كفاك بالعدل لم تزل     تسوده بالجور كف ابن أسود[2]

وقد أدى النفوذ الكبير سواءً المعنوي أو المادي الذي تمتع به القضاة أن انصرفت وجوه الناس إليهم وتعلقت الآمال بهم فعظمتهم العامة والخاصة ومدحهم الشعراء إما اعترافاً بعلمهم وفضلهم كالمدائح التي قيلت في القاضي عياض مثل قول أبي محمد محارب الوادي أنشأ فيه:

إمام زانه علم وحلم     له بالخطة العليا انتهاض
يقارض من أساء بحسن صبر     وأمر الدين والدنيا قراض[3]

أو طمعاً في نوالهم كما كان الحال بالنسبة لأحمد بن حمدين قاضي الجماعة بقرطبة وأبي أمية إبراهيم بن عصام قاضي قضاة شرق الأندلس[4].

وقد اشتهرت أسر عدة في العهد المرابطي بتوارثها خطة القضاء فنبلت تلك الأسر وارتفع شأوها وتأثيرها في المجتمع، ومن هذه الأسر أسرة بني حمدين في قرطبة وقد اشتهر منهم في العهد المرابطي القاضي أبو عبدالله محمد بن علي بن حمدين قاضي الجماعة بقرطبة[5] والقاضي أبو القاسم

---

(١) أبو بكر يحيى بن سهل اليكي (ت٥٦٠هـ): شاعر مشهور بالهجاء يقول عنه ابن سعيد «لا تجيد قريحته إلا في الهجاء ولا تشط به في غير ذلك من الأنحاء» (المغرب في حلى المغرب ج٢ ص٢٦٦ - ٢٧٠).

(٢) ابن سعيد: المصدر السابق، ج٢ ص٢٧٠.

(٣) المقري: أزهار الرياض ج٥ ص٨٣.

(٤) ابن خاقان: قلائد العقيان مج٢ ص٦٢٩.

(٥) عياض: الغنية ص١١٦.

أحمد بن حمدين (ت٥٢١هـ)[١] وأخوه القاضي أبو جعفر بن حمدين (ت٥٤٨هـ).

واشتهرت أسرة بني عشرة قضاة سلا الذين توافدت عليهم الشعراء من مختلف جهات الأندلس فأكثروا مدحهم. ومن أشهر أفراد هذه الأسرة القاضي أبو الحسن علي بن عشرة (ت٥٠٢هـ) وابنه أبو العباس[٢].

على أن هذه المكانة العظيمة التي تسنمها القضاة جعلتهم موضع حسد من بعض فئات المجتمع الأخرى التي اعتبرت أن المكانة التي حظي بها القضاة إنما كانت على حسابهم. وقد كان الشعراء أشد هؤلاء الحاسدين الناقمين. وقد عبر عن حال السخط تلك والشعور بالخيبة أحسن تعبير الأعمى التطيلي[٣] بقوله:

أيا رحمتا للشعر أقوت ربوعه      على أنها للمكرمات مناسك

إلى أن يقول:

فيا دولة الضيم اجملي أو تجاملي      فقد أصحبت تلك العرى والعرائك
ويا قام زيد اعرضي أو تعارضي      فقد حال من دون المنى قال مالك[٤]

فالأعمى التطيلي يرى أن هذه الدولة المرابطية التي تقرب الفقهاء أصحاب «قال مالك» ما هي إلا دولة ضيم انقطعت فيها آمال أمثاله من أصحاب «قام زيد».

ولم يكتف بعض الشعراء بالتشكي من حالهم بل تعدوا ذلك إلى هجاء

---

(١) المرقبة العليا: النباهي ص١٠٣.

(٢) ومن أشهر من مدحهم أبو بكر محمد بن سوار الأشبوني، والأعمى التطيلي (محمد بن شريفة: أسرة بني عشرة، مجلة تطوان، العدد١، ١٩٦٥ ص١٧٧ ـ ٢١٢).

(٣) الأعمى التطيلي: أحمد بن عبدالله بن أبي هريرة المعروف بالأعمى التطيلي (ت٥٢٥هـ) شاعر أندلسي مشهور له ديوان شعر مطبوع بتحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت ـ لبنان.

(٤) ديوان الأعمى التطيلي: ص٩٠.

القضاة ونشر مثالبهم ومن هؤلاء: ابن البني[1] الذي يقول:

أهل الرياء لبستمو ناموسكم كالذئب أدلج في الظلام العاتم
فملكتمو الدنيا بمذهب مالك وقسمتمو الأموال بابن القاسم
وركبتمو شهب الدواب بأشهب وبأصبغ صبغت لكم في العالم[2]

وابن خفاجة[3] الذي يقول:

درسوا العلوم ليملكوا بجدالهم فيها صدر المجالس
وتزهدوا حتى أصابوا فرصة في أخذ مال مساجد وكنائس[4]

ولم يقتصر انتقاد القضاة على الشعراء بل تعداه إلى بعض أفراد الصوفية مثل ابن العريف الذي وصفهم بقوله: «كان الكبر والفخر والسرور بجمع الدنيا في وجوههم بادياً، وناموا واتكوا بجنوبهم على اللين من أنواع الملبوس إيثاراً لراحة النفوس، عملاً متمادياً. واعتمدوا بظهورهم على صدور المجالس زهواً على الخواطر، ظاهراً بادياً، وأي ظهور لم تثقل بأعباء الدين ولا نشطت للقيام بأمور المساكين بل خفت واستراحت بطرحها لأثقال الأمانة»[5].

ولا شك أن نقد ابن العريف هذا وإن كان حقيقة في بعض الأفراد إلا أن تعميمه مجانب للصواب ويدخل في إطار الصراع الذي كان قائماً بين

(١) أحمد بن محمد المعروف بابن البني شاعر معاصر لابن خاقان (ت٥٢٩هـ) وترجم له في كتابيه قلائد العقيان (ج٢ ص٨٦٨) والمطمح (ص٣٢٩) ووصفه برافع راية القريض وصاحب آية التصريح فيه والتعريض.

(٢) المراكشي: المعجب ص٢٥٣.

(٣) ابن خفاجة: أبو إسحاق إبراهيم بن خفاجة الأندلسي (ت٥٣٣هـ) شاعر مشهور بوصف الطبيعة له ديوان مطبوع بتحقيق كرم البستاني، نشر دار صادر للطباعة والنشر بيروت ١٩٦١.

(٤) ديوان ابن خفاجة: ص١٥٥.

(٥) عصمت دندش: الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين ص٦٨.

الفقهاء ومتصوفة تلك الفترة، إذ كان هؤلاء المتصوفة يتوقون إلى إيجاد مكانة لهم في المجتمع تضاهي مكانة القضاة فيها. فاعتمدوا أسلوب النيل من هؤلاء للحط من قيمتهم[1].

ورغم الأهمية العظمى والمنزلة الكبيرة لوظيفة القضاء فقد زهد عدد كبير من العلماء في العهد المرابطي في هذه الوظيفة ورفضوا قبولها. فهذا الفقيه هشام بن أحمد بن سعيد المعروف بابن العواد (ت٥٢٩هـ) عزم عليه في القضاء فامتنع[2]. بل إن الفقيه عبدالله بن أحمد بن واشون الهذلي (ت٥٢٩هـ) فضل السجن على تولي القضاء، إذ أنه أمر بتولي قضاء فاس فامتنع كل الامتناع، ولم يقدر عليه فيما طلب منه فأمر بسجنه[3].

ولم يكن هذا الامتناع والرفض لضعف هؤلاء العلماء عن إقامة العدل وإحقاق الحق ولا جهلاً بما في إقامة هذا العدل من أجر عريض، بل لأنهم كانوا يرون أن ما هم فيه من تدريس العلم لم يكن أقل أجراً. وحتى الذين تولوا القضاء لسبب أو لآخر فإن البعض منهم سرعان ما يستعفي منها وكان القاضي أبو علي الصدفي أشهر ذلك البعض. إذ تولى القضاء بمرسية نزولاً عند رغبة أهلها «فسار فيه سيرة فضحت من كان قبله وأتعبت من جاء بعده»[4] لكنه ما لبث أن استعفى فلما لم يعف هرب إلى المرية وتوارى فيها شهوراً إلى أن جاءه كتاب الإعفاء فظهر لطلبته[5]. وكان القاضي أبو الوليد بن رشد أكثر حظاً من الصدفي فإنه بعد أن تولى قضاء الجماعة ما بين سنتي ٥١١ـ٥١٥هـ استعفى من عمله ليتفرغ لإكمال وإملاء موسوعته الفقهية «البيان والتحصيل» فأسعف بالعزل.

وقد بقي بعض العلماء في وظائفهم مكرهين على ذلك فقاضي

(١) بوتشيش: المغرب والأندلس في عصر المرابطين ص١٢٧.
(٢) ابن بشكوال: الصلة ج٢ ص٦١٩.
(٣) ابن القاضي: جذوة الاقتباس ج٢ ص٤١٩.
(٤) ابن عطية: الفهرس ص٧٥؛ ابن بشكوال: الصلة ج١ ص١٤٤.
(٥) عياض: الغنية ص١٩٤.

الجماعة بقرطبة محمد بن أحمد ابن الحاج التجيبي (ت٥٢٩هـ) رغم ما كان عليه من حظوة عند أمير المسلمين بحيث «صرف إليه أمور الأندلس الكبار أيام قضائه» فإنه استعفى من القضاء فأعفي غير أنه ما كاد ينعم بإعفائه حتى أجبر على القضاء مرة أخرى[1]. بل إن القاضي أبو عبدالله محمد بن عيسى التميمي (٥٠٥هـ) الذي كان «من أحسن القضاة سيرة وأنزههم وأجرأهم على الطريقة القويمة» لما استعفي من قضاء سبتة فأعفي، ألزم قضاء فاس بعد أن سجن على إبايته من ذلك[2]. وليس بعيداً صواب هذه الإجراءات التي اتخذها المرابطون لإرغام العلماء على تولي القضاء والبقاء فيه، إذ كيف يقوم الحق وينتشر العدل إذا كان الحكام لا يجدون من يعينهم عليه من أهل العلم والفضل؟ إن البديل هو علماء السوء من الجهال والضلال.

إن مهام الاستشارة والقضاء التي تولاها العلماء والتي أفادوا منها مجتمعهم استفادوا منها جاهاً ومنزلة، إن هذه المهام لم تشغل العلماء عن وظيفتهم الأساسية ومهمتهم الأولى وهي نشر العلم.

إن نشر العلم هو المهمة الأولى للعلماء ولازم صفتهم، فهم ورثة الأنبياء، الذين لم يورثوا درهماً ولا ديناراً بل علماً يهدي به الله من شاء إلى صراطه المستقيم.

فبالعلم ونشره يقود العلماء الناس إلى سبل النجاة والفوز في الدارين الدنيا والآخرة.

وفي العصر المرابطي قام العلماء بدورهم هذا كاملاً. فقد انتشرت حلقات العلم في كل نواحي المغرب والأندلس وأمَّها الطلبة من كل حدب وصوب. فحرص كثير من العلماء على أن تكون وظيفة التعليم هي شغلهم الشاغل والوحيد «مواظبين على نشره ودرسه»[3]، لذا نرى كثيراً منهم يأبى أن يقرن مع التعليم غيره خشية أن يشغله هذا الغير عن إيفاء التعليم حقه.

---

(١) عياض: الغنية ص١١٨.

(٢) عياض: الغنية ص١٠٠.

(٣) ابن بشكوال: الصلة ج٢ ص٦١٩.

ولعل جواب الفقيه أحمد بن عبدالرحمن بن الصقر الأنصاري لعامل دكالة لما دعاه هذا إلى ترك التعليم ومصاحبته وعرض عليه مقابل ذلك ألف دينار ذهب مرابطية فرفض ذلك وقال له: «والله لو أعطيتني ملء الأرض على أن أخرج عن طريقتي وأفارق ديدني من خدمة أهل العلم ومداخلة الفقهاء والانخراط في سلكهم ما رضيت»[(١)]، لعل هذا الجواب يمثل أحسن تمثيل نفسية هؤلاء المنقطعين إلى العلم. وكان هؤلاء يقسمون يومهم بين العبادة والتعليم والتأليف وقضاء حوائج الناس[(٢)].

ومع حرص الكثير من العلماء على التفرغ للعلم فإن من تولى الوظائف مثل القضاء والشورى ظل على سيرة العلماء الأولى من نشر العلم. فقد كان للقاضي محمد ابن الحاج قاضي الجماعة مجلس في الجامع يسمع الناس فيه. وكذلك كان أبو عبدالله بن حمدين قاضي الجماعة بقرطبة والقاضي أبو بكر ابن العربي بأشبيليه والقاضي شريح بن محمد بن شريح الرعيني (ت٥٣٩هـ) الذي أقرأ العلم عمره كله وتفاخر الناس بالأخذ عنه وتولى خطبة أشبيلية خمسين سنة والقضاء فيها سنين عدة «فلم يقطع الإقراء والأخذ عنه في تلك المدة»[(٣)].

لقد كان العلماء في هذا العهد المرابطي يقدرون مهمتهم التعليمية حق التقدير فكان الواحد منهم «صابراً على القعود للناس مواظباً على الإسماع، يجلس لهم يومه كله، وبين العشاءين»[(٤)]. وكان مجلس العلم موقراً مهيباً لا يتحدث فيه بأمر من أمور الدنيا مما لا تدعو إليه حاجة علمية فتلك المجالس كانت مجالس ذكر ورحمة[(٥)].

وقد نشر العلماء في العهد المرابطي جميع العلوم من قرآن وفقه

---

(١) ابن فرحون: الديباج المذهب ج١ ص٢١٢ ـ ٢١٣.

(٢) الضبي: بغية الملتمس ص١١٠٤.

(٣) عياض: الغنية ص٢٧٤.

(٤) ابن بشكوال: الصلة ج١ ص٣٣٣.

(٥) نفس المصدر: ص٣٤٦.

وحديث وتفسير وعربية ونحو وعلم كلام. ويكفي الباحث عن العلوم في ذلك العصر والكتب التي كانت تدرّس أن يقف على فهرس بعض من علماء تلك الفترة مثل فهرس ابن عطية والغنية للقاضي عياض وفهرس ابن خير الأشبيلي[1]. فهي تدل على كثرة العلوم وتشعبها مما يدل على أن العلماء في ذلك العصر لم يكونوا مجرد فقهاء فروعيين بل علماء في أقصى مدلولات الكلمة.

وقد اشتهر في هذا العهد علماء أجلاء أخذت عنهم أعداد كثيرة من الطلبة، وانتفع الناس بهم. ولاستحالة إيراد أسماء هؤلاء فسنكتفي بإيراد نماذج منهم:

فمن هؤلاء الأعلام:

١ ـ أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي (٤٠٣ ـ ٤٧٤هـ) سمع من عدد من علماء الأندلس ثم رحل إلى المشرق سنة ٤٢٦هـ فأخذ عن عدد من علماء الحجاز والعراق والشام. وقد دامت رحلته العلمية ثلاثة عشر عاماً ثم عاد إلى الأندلس حيث اشتهر علمه وعلت مكانته فتفقه عليه خلق كثير[2]. وقد أثنى على الباجي كل من ترجم له واعتبروه إمام المالكية في الأندلس في عصره حتى أن خصمه ابن حزم الظاهري كان يقول عنه: لم يكن للمالكية بعد عبدالوهاب[3] مثل أبي الوليد[4]. وقد ألّف الباجي الكثير من الكتب مثل كتاب: «المنتقى في شرح الموطأ»[5] وكتاب: «فصول

---

(١) تحقيق زهير فتح الله القاهرة ١٩٦٣.

(٢) عياض: المدارك ج٨ ص١١٨؛ الضبي: بغية الملتمس ج٢ ص٣٨٦.

(٣) عبدالوهاب بن علي بن نصر البغدادي (٣٦٢هـ ـ ٤٢٢هـ.) فقيه مالكي مشهور ولد ببغداد وولي القضاء في بعض نواحي العراق ثم رحل إلى مصر حيث علت شهرته وتوفي فيها. له كتاب «التلقين» وكتاب «النصرة لمذهب مالك» و«شرح المدونة» (ابن فرحون: الديباج ج٢ ص٢٦).

(٤) ابن بسام: الذخيرة ق٢ ج١ ص٩٦.

(٥) طبع هذا الكتاب في سبع مجلدات بتحقيق ابن شقرون ـ مطبعة السعادة بمصر سنة ١٩١٣ ثم أعادت طباعته دار الكتاب العربي ببيروت.

الأحكام وبيان ما مضى عليه العمل عند الفقهاء والحكام»[1] وكتاب «التعديل والتجريح لمن خرج له البخاري في الجامع الصحيح»[2] و«إحكام الفصول في أحكام الأصول»[3] وكتاب «الحدود في أصول الفقه»[4] وغيرها. وقد كان العلم تحصيلاً ونشراً الشغل الشاغل والهدف الأسمى لأبي الوليد.

وقد شرح لنا في الوصية التي كتبها لولديه مزايا اختيار طريق العلم فقال: « . . . والعلم سبيل لا يفضي بصاحبه إلا إلى السعادة، ولا يقصر به عن درجة الرفعة والكرامة، قليله ينفع، وكثيره يعلي ويرفع، كنز يزكو على كل حال، ويكثر مع الإنفاق ولا يغصبه غاصب، ولا يخاف عليه سارق ولا محارب، فاجتهدا في طلبه واستعذبا التعب في حفظه، والسهر في درسه، والنصب الطويل في جمعه. . . والعلم ولاية لا يعزل صاحبها ولا يعرى من جمالها لابسها. . . »[5].

وقد أثر الباجي في جيل العلماء الذين جاؤوا من بعده. وإلى جانب التأثير العلمي حاول الباجي أن يؤثر في مسار الأحداث السياسية وأن يصلح ما استطاع من حال أهل الأندلس. وقد تركز مسعاه في محاولة لم الشمل بين أمراء الطوائف بدعوتهم إلى الوحدة لمواجهة الخطر المسيحي. كما سعى إلى إقناع أمراء الطوائف بالتعاون مع المرابطين والاستنجاد بهم لإنقاذ الأندلس من تهديد النصارى الداهم. وقد توفي وهو يسعى في هذا السبيل[6].

٢ ـ أما الشخصية الثانية فهو أبو علي الحسين بن محمد وهو يعرف بالجياني الغساني (ت٤٩٨هـ)[7] الذي كان من جهابذة المحدثين وكبار

---

(١) طبع بتحقيق الأستاذ أبو الأجفان، الدار العربية للكتاب ١٩٨٥.

(٢) مطبوع بتحقيق أبو لبانة حسين بدار اللواء للنشر والتوزيع الرياض ١٩٨٦.

(٣) طبع بتحقيق د. عبدالمجيد تركي بدار الغرب الإسلامي ـ بيروت ١٩٨٦.

(٤) طبع بتحقيق د. نزيه حماد نشر مؤسسة الزعبي للطباعة والنشر ـ بيروت ١٩٧٣.

(٥) مجلة المعهد المصري بمدريد، العدد ٣، السنة ١٩٥٥ ص .

(٦) عياض: ترتيب المدارك ج٨ ص١٢٧.

(٧) ترجمته في: ابن بشكوال: الصلة ج١ ص١٤١؛ عياض: الغنية ص٢٠١.

المسندين وشيخ الأندلس في وقته. رحل الناس إليه وعولوا في الرواية عليه، وجلس لذلك بالمسجد الجامع بقرطبة فسمع منه علماؤها وفقهاؤها وطلبتها. وكان حفياً بطلبة العلم. فكان يتمثل فيهم قول القائل:

أهلاً وسهلاً بالذين أحبهم ... وأودهم في الله ذي الآلاء
أهلاً بقوم صالحين ذوي تقى ... غرِّ الوجوه وزين كل ملاء
يا طالبي علم النبي محمد ... ما أنتم وسواكم بسواء[1]

٣ ـ ومنهم القاضي الشهيد أبو علي حسين بن محمد بن فيرة بن سكرة الصدفي (٥١٤هـ) أخذ عن أبي الوليد الباجي ثم رحل إلى المشرق رحلة حج وسماع استغرقت تسع سنين أخذ فيها عن كثير من العلماء، بلغ ما جمع منهم القاضي عياض مائتي شيخ وذلك في مصنفه «المعجم»[2] الذي كرسه لأخبار أبي علي الصدفي وشيوخه[3]. بعد هذه الرحلة عاد أبو علي الصدفي إلى الأندلس بعلم غزير وخصوصاً في الحديث حيث كان إماماً من أئمته[4].

استقر الصدفي في مرسية منصرفاً إلى العلم وتدريسه، فقعد يحدث الناس بجامعها، فرحل الطلبة إليه من كل أنحاء الأندلس والمغرب وكثر سماعهم عليه. وأعانهم على هذا السماع ما كان يتمتع به هذا الشيخ من حسن خلق وأنه كان براً بطلبته صابراً عليهم. فكثر الانتفاع به[5]. وقد ألف ابن الأبار (ت٥٩٤هـ) كتاباً جمع فيه أخبار تلاميذ أبي علي الصدفي وسماه «المعجم في أصحاب القاضي الصدفي»[6] فكان عدد من ترجم لهم ثلاثمائة وخمسة عشر.

---

= الضبي: بغية الملتمس ص٢٩٤؛ المقري: أزهار الرياض ج٣ ص١٤٩.

(١) عياض: الغنية ص٢٠١.

(٢) يعتبر هذا المصنف مفقوداً إلى الآن.

(٣) عياض: الغنية ص١٩٤.

(٤) ابن بشكوال: الصلة ج١ ص١٤٤؛ ابن عطية: الفهرس ص٧٤.

(٥) ابن بشكوال: الصلة ج١ ص١٤٤.

(٦) طبع هذا الكتاب عدة مرات منها طبعة مدريد ١٨٨٥ تحقيق المستشرق فرانسيسكو =

وقد عظمت مكانة أبو علي الصدفي عند العامة والخاصة، وقد استخدم أبو علي الصدفي تلك المكانة في خدمة الناس والسعي في ما ينفعهم[1]. ولم يؤد انقطاع أبي علي الصدفي للعلم إلى انعزاله عن هموم وطنه والصعاب التي تواجهه، فعندما سقطت مدينة سرقسطة في يد ألفونس المحارب ملك أرغون سنة **٥١٢هـ** وانكشفت الجبهة الإسلامية من هذه الناحية وانفتح الطريق أمام قوات أرغون للاستيلاء على بلاد أخرى، رأى أبو علي الصدفي أن الجهاد أصبح فرض عين بالنسبة إليه، فقرر الخروج إلى الجهاد رغم أنه كان قد تجاوز الستين من العمر. جمع أبو علي من أراد الخروج من تلاميذه وأهل مرسية واستنهض همم الحامية المرابطية وأميرها، فخرج جيش إسلامي كبير متجهاً إلى الشمال يتقدمه أبو علي الصدفي في عدد جاوز العشرين ألف من المتطوعة. ولا شك أن وجود هذا العدد الكبير من المتطوعة راجع إلى تأثير أبي علي الصدفي فيمن حوله. وكان هدف هذا الجيش هو استرجاع سرقسطة.

ولم يكد ألفونس المحارب يسمع بخروج الجيش المرابطي حتى سار إلى لقائه في عدد كبير من قواده ورجاله. ووقع اللقاء عند مدينة كتندة في ربيع الأول **٥١٤هـ** وانجلى عن هزيمة كبيرة للمرابطين قتل فيها «حوالي عشرون ألف من المتطوعة وعدد من الجيش المرابطي»[2].

وكان على رأس هؤلاء المستشهدين أبو علي الصدفي في نفر من الشيوخ[3].

كان استشهاده تتويجاً لحياة ملؤها الجهاد في سبيل الله عن طريق نشر العلم والصبر عليه لهداية الناس.

---

= كوديرا ثم طبعة مصر سنة ١٩٦٧، ثم أخرى سنة **١٩٨٩** بتحقيق إبراهيم الأنباري، نشر دار الكتاب المصري.

(١) وممن شفع لهم أبو علي الصدفي القاضي أبي بكر بن العربي إذ شفع له عند الأمير إبراهيم بن يوسف حاكم أشبيلية ليرد عليه أملاك والده التي صادرها المرابطون عند استيلائهم على أشبيلية، وقد استجاب الأمير إبراهيم لهذه الشفاعة (ابن الأبار: المعجم ص٦٣).

(٢) ابن الأبار: المعجم ص٧.

(٣) ابن عطية: الفهرس ص٧٤.

٤ ـ ومن هؤلاء العلماء الأعلام: أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد (ت٥٢٠هـ)[١] كان فقيهاً عالماً حافظاً للفقه، مقدماً فيه على جميع أهل عصره، نافذاً في علم الفرائض والأصول، من أهل الرياسة في العلم والبراعة[٢]. وقد تولى ابن رشد قضاء قرطبة، كما ذكرنا من قبل، تحت إلحاح أمير المسلمين علي بن يوسف[٣]. وكان ابن رشد كارهاً لهذه التولية لذلك لم تطل مدته في القضاء بل استعفى منه بعد أربع سنوات من ممارسته له تلك الممارسة التي سار فيها بأحسن سيرة وأقوم طريقة، فلما أعفي رجع إلى سيرته الأولى في نشر العلم. فرحل الطلبة إليه من أقطار الأندلس للتفقه.

وقد أجمع من ترجموا له بأنه كان ناسكاً عفيفاً سهل الحجاب، وأستاذاً بطبعه يحب التدريس، ويحسن طرق التبليغ، تسعفه مادة علمية غزيرة وتفكير منظم وحرص على نفع الطلبة[٤].

وقد أعطاه ذلك كل ذلك مكانة مرموقة عند الخاصة والعامة فكان مقدماً عند أمير المسلمين علي بن يوسف عظيم المنزلة عنده معتمداً على فتواه[٥].

استخدم ابن رشد هذه المنزلة الرفيعة لرعاية أهل بلده وخدمتهم «فكان الناس يلجأون إليه ويعولون في مهماتهم عليه، وكان كثير النفع لأصحابه جميل العشرة لهم، كثير البر بهم»[٦]. أي أنه كان ملاذ الناس وموئلهم في تلك السنين العصيبة التي شهدت اشتداد الضغط النصراني على الأندلس وما صحب ذلك من اضطراب وقلق متزايدين[٧].

---

(١) ترجمته في أكثر من مصدر منها: عياض: الغنية ص١١٨ ابن بشكوال: الصلة ج٢ ص٥٤١؛ النباهي: المرقبة العليا ص٩٨.
(٢) ابن بشكوال: الصلة ج٢ ص٥٤٦.
(٣) محمد بن مخلوف: شجرة النور الزكية ج١ ص١٢٩.
(٤) عصمت دندش: الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين ص٣٩٠.
(٥) عياض: الغنية ص١١٨.
(٦) ابن بشكوال: الصلة ج٢ ص٥٤٧.
(٧) حسين مؤنس: شيوخ العصر ص٩٦.

وكانت مواقف ابن رشد في هذا السبيل كثيرة ذكرنا جملة منها في الصفحات السابقة فنكتفي هنا بإضافة مثال آخر وهو موقفه وبلاؤه في إخماد ثورة أهل قرطبة أواخر سنة ٥١٤هـ، وهي ثورة قامت بسبب بغي والي قرطبة أبي بكر يحيى بن داود وظلمه. وقد ساند فقهاء قرطبة الثورة عليه. فأخرج من المدينة بعد أن نهب قصره وأحرقت جميع دور المرابطين.

ولما اتصل الخبر بأمير المسلمين علي جاز إلى الأندلس، في بداية سنة ٥١٥هـ، وحاصر قرطبة التي كان أهلها مصممين على الدفاع عنها. وقد أفتاهم فقهاؤهم بذلك.

ولم يشأ علي بن يوسف اقتحام المدينة بل فضل حصارها والتفاوض مع فقهائها وبالأخص القاضي ابن رشد. وانتهت المفاوضات بأن يكتفي أمير المسلمين بقبول تعويض من أهل قرطبة عن ما نهبوه من ديار المرابطين وحاميتهم[(١)].

وقد خرج ابن رشد من هذه المحنة زعيماً مطلقاً لأهل قرطبة «معتمداً في العظائم»[(٢)].

وقد أثرى ابن رشد الميدان الفقهي بمؤلفاته فهو كما وصفه تلميذه القاضي عياض «جيد التأليف مطبوعه»[(٣)]. ومن أهم مؤلفاته كتاب «البيان والتحصيل»[(٤)] وهو كتاب جليل يعتبر بحق أحد أمهات كتب المذهب المالكي، ومن أهميته أن ابن رشد لما أراد الإعفاء من القضاء برر طلبه لدى أمير المسلمين بأنه يريد التفرغ لإملاء كتابه هذا على الطلبة. ومن مؤلفاته الأخرى كتاب «المقدمات»[(٥)].

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج٨ ص٢٩٠؛ الحلل الموشية: ص٦٣.

(٢) عياض: الغنية ص١٢٣.

(٣) نفس المصدر والصفحة.

(٤) طبع في ١٨ مجلداً آخرها بتاريخ ١٩٨٧ وقد حققته مجموعة من الباحثين بإشراف إدارة إحياء التراث الإسلامي بقطر.

(٥) طبع بمصر عن دار السعادة.

٥ ـ أما الشخصية الخامسة التي نقدم فهي شخصية أبو بكر بن العربي (٥٤٢هـ)، الذي وصفه تلميذه ابن بشكوال بـ «الإمام العالم الحافظ المستبحر، ختام علماء الأندلس، آخر أئمتها وحفاظها»[١]. رحل إلى المشرق شاباً سنة ٤٨٥هـ فلقي كثيراً من علماء الشام والعراق ومصر وصحب عدداً منهم[٢]. ثم عاد إلى الأندلس سنة ٤٩٣هـ واستقر في أشبيلية حيث جلس للدرس والتأليف طيلة بقية أيامه لم يقطع بعمل آخر سوى ما كان من توليه القضاء لمدة عامين (٥٢٨هـ ـ ٥٢٩هـ) ثم انصرف منه لينقطع للعمل من جديد[٣].

وقد أخذ عن ابن العربي جمع غفير من الطلبة في كل نواحي الأندلس والمغرب.

وكان أبو بكر بن العربي حريصاً على بث العلم ونشره كثير الاحتمال للطلبة، حسن المعاشرة لين الكنف[٤]. وهذه الصفات كثيراً ما تساعد طلبة العلم في الأخذ عن الشيخ والاستفادة منه. وقد بلغ من حرص ابن العربي على إفادة الطلبة في كل أوقاته، أنهم كانوا في بعض الأحيان يبيتون معه في بيته[٥].

لقد كان للتأليف نصيب كبير من حياة ابن العربي وجهده فخلف ثروة علمية ضخمة ولكن الكثير منها ضاع[٦]. أما ما وصل إلينا فمنه: كتاب «أحكام القرآن»[٧] و«عارضة الأحوذي بشرح جامع الترمذي»[٨] وكتاب

---

(١) ابن بشكوال: الصلة ج٢ ص٥٥٨.
(٢) نفس المصدر والصفحة.
(٣) عياض: الغنية ص١٣٣.
(٤) ابن بشكوال: الصلة ج٢ ص٥٥٨.
(٥) الضبي: بغية الملتمس ص٨٣.
(٦) سعيد أعراب: مع القاضي أبي بكر بن العربي ص١٢١.
(٧) طبع بتحقيق علي محمد بجاوي نشر دار المعرفة بيروت.
(٨) مطبوع بعناية عبدالواحد محمد التازي بالقاهرة ١٩٣١.

«القبس في شرح موطأ مالك بن أنس»[١].

وقد ألف في الفقه وأصوله إذ كان إماماً من أئمته المجددين. وهو من الرواد الذين أدخلوا علم الخلافيات إلى المغرب كما يقول ابن خلدون[٢]. وله في علم الكلام كتابه المشهور «العواصم من القواصم»[٣].

٦ ـ أما مثالنا الأخير فهو أشهر شخصيات هذا العصر وأكثرها تمثيلاً له وهو القاضي عياض بن موسى اليحصبي (ت٥٤٤هـ). فقد كان «فقيه الفقهاء في قطره»[٤] وأحد سلاطين العلم في عصره و«ممن سارت مآثره مسيرة الشمس والقمر»[٥]. أخذ العلم عن شيوخ سبتة ثم رحل إلى الأندلس للاستزادة ولقاء أكابر العلماء، ثم عاد إلى بلده سنة **٥٠٨هـ**. وإثر عودته أجلسه أهل سبتة للتدريس اعترافاً منهم بعلمه وتنويهاً بفضله. وفي سنة **٥١٥هـ** ولي قضاء سبتة فكان فيه «حسن السيرة، محمود الطريقة، مشكور الخلة، أقام الحدود على ضروبها واختلاف أنواعها»[٦]. ثم نقل عنها إلى قضاء غرناطة سنة **٥٣٠هـ** إلا أنه لم يلبث فيها إلا قليلاً حيث خرج منها مغاضباً لحاكمها لتدخله في شؤون القضاء[٧]. وقد أعيد تعيين عياض لقضاء سبتة سنة **٥٣٩هـ** «فابتهج أهلها بذلك، فسار فيهم السيرة التي عرفوا»[٨].

ورغم أن القاضي عياض مارس القضاء لمدة طويلة فإن ذلك لم يشغله عن التدريس ونشر العلم فكانت له حلقة في جامع سبتة للدرس والإقراء.

---

(١) طبع بتحقيق د. عبدالله الكريم نشر دار الغرب ـ بيروت ـ ١٩٩٤.

(٢) المقدمة: مج٢ ص١٣١.

(٣) طبع أكثر من مرة منها واحدة بتحقيق د. عمار طالبي نشرة بعنوان «آراء أبي بكر بن العربي الكلامية» الجزائر، ١٩٧٤، وهي التي اعتمدت عليها.

(٤) المقري: أزهار الرياض ج٣ ص٢٠.

(٥) ابن مخلوف: شجرة النور الزكية ص١٤٠.

(٦) المقري: أزهار الرياض ج٣ ص١٠.

(٧) المقري: أزهار الرياض ج٣ ص١٠.

(٨) نفس المصدر الصفحة ١١.

وقد كان «محباً في طلبة العلم محرضاً لهم على طلبه، مسهلاً لهم الطرائق مبادراً لقضاء حوائجهم»[1]. فعياض لا يكتفي ببذل ما عنده من علم بل يحرض الناس على طلب العلم، وأكثر من ذلك يساعدهم عملياً وبجميع الوسائل المادية والمعنوية المتوفرة لديه للتغلب على الصعوبات التي تواجههم في ذلك السبيل. وكما لم يمنعه القضاء من التدريس فهو لم يمنعه من التأليف. وقد جاءت شهرة عياض أساساً عن طريق مؤلفاته العديدة والتي بلغت أكثر من ثلاثين مؤلفاً[2] والتي لقيت رواجاً كبيراً وقبولاً حسناً لدى أهل العلم. لقد شكلت مؤلفاته بداية مساهمة أهل المغرب الأقصى في الميدان الفكري وأصبحوا رافداً من روافد نهر الثقافة الإسلامية.

ومن أشهر مؤلفات عياض كتاب «الشفا بتعريف حقوق المصطفى»[3]. وكتاب «ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك» وكتاب «مشارق الأنوار على صحاح الآثار»[4].

وقد بوأه هذا العلم الجم وهذا الإخلاص والثبوت على الحق، مكانة كبرى في بلده وعظم قدره وجاهه فحاز من الرياسة في «سبتة ما لم يصل إليه أحد قط من أهل بلده» وما زاده ذلك إلا تواضعاً وخشية لله[5].

لم يكن هؤلاء الأعلام إلا نموذجاً لفئة من العلماء أعلت مكانة العلم بتسخير أنفسها له وتفانت في خدمته لإصلاح المجتمع عن طريقه فرفعها الله بذلك.

وكان لتأثير هؤلاء العلماء أن ازدهرت العلوم وكثر النبهاء[6] من كل

---

(١) نفس المصدر والصفحة.

(٢) الوراكلي: أبو الفضل القاضي عياض السبتي (ثبت ببليوجرافي) ط الأولى ١٩٩٤، دار الغرب الإسلامي بيروت ص١٩.

(٣) طبع عدة مرات منها واحدة بتحقيق علي البجاوي صدرت بالقاهرة عن مطبعة عيسى الحلبي.

(٤) طبع مرتين آخرهما بتحقيق أحمد يكن في أجزاء ثلاثة ضمن منشورات وزارة الأوقاف بالرباط ما بين سنة ١٩٨٢ ـ ١٩٨٨.

(٥) د. حسن الوراكلي: أبو الفضل عياض ص١٣.

(٦) ابن الأبار: المعجم ص٦٣.

فئات المجتمع بمن فيهم الأسرة الحاكمة فهذا أبو الحسين سراج بن عبدالملك (ت٥٠٧هـ)[١] كان يجلس إليه للسماع منه أربعون إلى خمسين من رؤساء الملثمين. وقد أخذ عدد من أمراء المرابطين عن العلماء واستجازوا منهم[٢] بل إن بعضهم اشتهر بالعلم مثل الأمير عمر بن ذمام بن المعتز أمير المرية الذي كان يدعى بالفقيه القائد[٣]. ومنهم زاوي بن مناد بن عطية الله بن المنصور الصنهاجي المعروف بابن تقسوط (ت٥٣٩هـ)[٤] الذي كان من أعلام مدرسة دانية وشيوخها[٥]. وخلوف بن خلف الله الصنهاجي[٦] الذي سمع بقرطبة ثم ولي قضاء غرناطة[٧]. ومنهم الفقيه الأمير أبو يعقوب ينتان بن تويت اللمتوني[٨] وقد أخذ عن ابن عتاب وأبي الوليد بن رشد

---

(١) أبو الحسين سراج بن عبدالملك (ت٥٠٧هـ) لغوي أديب راوية قال عنه عياض: «الوزير، اللغوي، الحافظ، زعيم وقته وإمام أهل طريقته والمقدم في مصره بذاته وسليقته». (الغنية ص٢٦١) وقال عنه ابن الأبار: «وإليه كانت الرحلة في وقته بعد أبيه في تقييد كتب الأدب والغريب والشروح، ودرس كتاب سيبويه، وقل مشهور بالأندلس إلا وقد أخذ عنه» (المعجم ص٣١٥).

(٢) ابن الأبار: المعجم ص٦٢.

(٣) ابن الأبار: التكملة ج١ ص١٦٣؛ محمد بن عبدالملك المراكشي: الذيل والتكملة السفر ٨ ق١ تحقيق محمد بن شريفة ص٢٢٠.

(٤) زاوي بن مناد بن عطية الله الصنهاجي المعروف بابن تقسوط (ت٥٣٩هـ): أحد أمراء المرابطين، كان ديناً فاضلاً معنياً بالعلم وسماعه. سمع من أبي علي الصدفي كثيراً فمما أخذ عنه السنن لأبي داود وجامع الترمذي وتاريخ البخاري والمؤتلف والمختلف للدارقطني. كما أخذ بقرطبة عن أبي محمد بن عتاب وأجاز له أبو علي الغساني (ابن الأبار: المعجم ص٩٧ ـ ٩٨).

(٥) ابن الأبار: المعجم ص٩٧.

(٦) خلوف بن خلف الله الصنهاجي (ت٥١٥هـ): كان من أهل العلم والعمل والفضل صادعاً بالحق ساعياً في أعمال البر، لا تأخذه في الله لومة لائم. تولى قضاء غرناطة ثم قضاء فاس كما تولى قضاء الجماعة بمراكش (أحمد بن القاضي: جذوة الاقتباس ج١ ص١٩٣؛ العباس بن إبراهيم: الأعلام ج٣ ص٢٢٠).

(٧) ابن القاضي: جذوة الاقتباس ص١٩٣.

(٨) أبو يعقوب ينتان بن تويت (محمد) بن الوران اللمتوني: أمير مرابطي، فقيه أخذ العلم عن ابن عتاب وابن رشد وآخرين بقرطبة وعلي ابن أبي جعفر بمرسية. وتوفي بزبيد =

بقرطبة وغيرهما[1]. بل إن أمير المسلمين علي بن يوسف أكب على أخذ العلم حتى غدا عالماً، مشهوراً بصدق الرواية[2] وكان من مشائخه العالم الفقيه المحدث أبو مروان عبدالملك بن ملحان[3].

لقد شكل العلماء في هذا العصر تياراً فكرياً أثر أفراده في المجتمع المغربي والأندلسي تأثيراً بليغاً من خلال النفوذ الذي كان لهم. فقد أثروا في هذا المجتمع بالرأي السديد والمشورة الخالصة، وبإقامة العدل والقسط ومساعدة الفقير والمحتاج والمظلوم حتى أن بعضاً منهم كان «موقوفاً على حوائج المظلومين والمضطهدين»[4]. ثم ببث العلم ونشره فقد كان لسان حالهم ينشد قول أبي محمد بن حزم (ت٤٥٦هـ):

مناي من الدنيا علوم أبثها وأنشرها في كل باد وحاضر
دعاء إلى القرآن والسنن التي تناسى رجال ذكرها في المحاضر

وقد كان منحهم في التأثير قائم في المقام الأول على القدوة الصالحة والمثل الحي فكان أغلبهم «من أفراد الرجال جلالة وعلماً ومعرفة وصلابة في الحق ونفوذاً في منافع المسلمين»[5].

ومع ذلك فالعلماء بشر خطاؤون تستهويهم المناصب ويغريهم المال فوجدت فئة منهم، وإن كانوا قلة، استخدمت نفوذها في أغراض شخصية ومنافع آنية فأخلدوا إلى الأرض وقد تنبه إلى هؤلاء ومسلكهم السيء في استخدام العلم، بعض من العلماء مما حدا بالفقيه عبدالعزيز التونسي (ت٤٨٦هـ) إلى ترك تدريس الفقه، وكان يدرسه بأغمات، لما رأى الطلبة

---

= باليمن. ولم يذكر السلفي تاريخ وفاته (السلفي: المعجم ص٥٩ ـ ٦٠).

(١) السلفي: أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم للسلفي أعدها إحسان عباس ص٦٠.

(٢) ابن العماد: شذرات الذهب ج٤ ص١١٥.

(٣) ابن سعيد: المغرب ج٢ ص٧٨.

(٤) ابن عطية: الفهرس ص٩٦.

(٥) نفس المصدر ص٨٤.

نالوا بذلك الخطط والعمالات وقال: «صرنا بتعليمنا لهم كبائع السلاح من اللصوص»[1]. لا شك أن هذا الموقف موقف متطرف نابع من زهد عميق لكنه يكشف عن نظرة سائدة في تلك الفترة تجل العلم وتجعله خالصاً لله مبرءاً من الأغراض الدنيوية.

لقد أدى النفوذ الكبير الذي تمتع به العلماء في الدولة المرابطية وتأثيرهم الواضح على الأحداث فيها أن تعرضت هذه الدولة وعلماؤها إلى حملة شعواء وافتراءات شتى وتحمل كبر ذلك عدد من المستشرقين الحاقدين. ويدعي هؤلاء المستشرقون أن المرابطين لم يكونوا إلا «بدو أجلاف لا يعرفون لرغد الحضارة معنى، فحاربوا أهل الفكر، . . . وتلاشت كل الأصوات التي تتغنى بالشعر والأدب وفنون العلم الأخرى أمام صليل السيوف وأصوات الفقهاء»[2] هذا ما يقوله دوزي، والذي يقول في تقويمه لحكم علي بن يوسف: «ففي ظل هذا الرجل التافه حلت النساء والفقهاء محل كبار السن وأشرافهم. وكان الشعر صورة صادقة للعصر فانتقل من القوة وخلو البال والخفة واللهو إلى الجفاف والحزن والتدين. وكانت هذه الأزمان من السوء بحيث أخذت العيون ترتفع عن الأرض إلى السماء. . .»[3].

أما المستشرق أشباخ فبأقسى من هذه اللهجة يتحدث ويذهب في تاريخه للأندلس إلى أن المرابطين «اضطهدوا كل ما عنيت الدولة بتشجيعه من قبل وطاردوا العلوم الفلسفية والكلامية التي تنكرها التعاليم المرابطية. . .»[4].

وقد حذا عدد من الدارسين العرب حذو هؤلاء المستشرقين وحملوا عنهم عبء التهجم على المرابطين، ومن هؤلاء محمد عبدالله عنان الذي يقول عن المرابطين: «وكان أولئك البربر الصحراويون قوماً غلاظاً يؤثرون

---

(١) ابن بشكوال: الصلة ج١ ص٣٥٨.

(٢) نقلاً عن انخل بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي ص٢٠.

(٣) نفس المرجع والصفحة.

(٤) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس ص٤٨٣.

مهاد الجندية والخشونة وتغلب عليهم الأفكار الرجعية»[1]. ويرى جودت الركابي أن النهضة الفكرية والأدبية توقفت عقب سقوط دول الطوائف في الأندلس لشدة تعصب المرابطين وتزمتهم، فهم قوم لا يعرفون إلا الحرب وخشونتها ولذلك لم تجد دولة الفكر والأدب في ظلمهم مرتعاً خصباً[2].

لقد بنى هؤلاء المؤرخون أحكامهم تلك على بعض النصوص التي أوردها عبدالواحد المراكشي مثل قوله: «فلم يكن يقرب من أمير المسلمين ويحظى عنده إلا من علم علم الفروع أعني فروع مذهب مالك، فنفقت في ذلك الزمان كتب المذهب وعمل بمقتضاها ونبذ ما سواها، وكثر حتى نسي النظر في كتاب الله وحديث رسول الله ﷺ، فلم يكن أحد من مشاهير أهل ذلك الزمان يعتني بهما كل الاعتناء، ودان أهل ذلك الزمان بتكفير كل من ظهر منه الخوض في شيء من علوم الكلام، وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام وكراهة السلف له وهجرهم من ظهر عليه شيء منه، وأنه بدعة في الدين، وربما أدى أكثره إلى اختلال في العقائد»[3].

لقد تعمدنا نقل هذا النص بطوله لأنه هو القاعدة التي بنى عليها المؤرخون أحكامهم التي أصدروها ضد المرابطين والعلماء في دولتهم. لقد تعرضنا لهذا النص في فصل سابق وبينا هناك ما فيه من مجانبة للحقيقة وبينا الدوافع وراءه. والدعوى التي نريد التعرض لها هنا ومحاولة استكناه حقيقتها هي هل كانت الدولة المرابطية خلية من الآداب؟ وما مدى تأثير نفوذ العلماء على الأدب في تلك الفترة؟

لقد كانت الدولة المرابطية منذ قامت دولة جهاد تسعى إلى نشر الإسلام في أفريقيا الغربية ثم تنقية الدين من الشوائب في المغرب وخلق مجتمع يهتدي بالإسلام ثم أخيراً لإنقاذ دار الإسلام في الأندلس من أن يكتسحها طوفان الاسترداد المسيحي.

---

(١) عبدالله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الرابع ص٤٣٦.
(٢) جودت الركابي: في الأدب الأندلسي ص٥٥.
(٣) المعجب: ص٢٥٤.

هذا الجهاد المتواصل وما كان يحتمه من جهد دائم وتعبئة متواصلة لم يعط الدولة المرابطية وقتاً للاسترخاء والترف وهي البيئة التي يزدهر فيها الأدب وتورف فيها ظلاله.

لقد كان عهد يوسف بن تاشفين عهد جهاد خالص باعتباره الغاية الأولى للدولة، فكان من الطبيعي والحال تلك أن لا يلقي هذا الأمير، المجاهد المتقشف، للشعر وأهله بالاً باعتبار أكثره ضرب من ضروب النفاق، التي لا تقدم أو تؤخر في المجال الذي نذر نفسه له.

لقد كانت نظرة يوسف بن تاشفين إلى الشعراء نظرة تقييمية خلقية تعتمد مبدأ الخيرية السرية ومن هنا كان حكمه على شعراء الأندلس الذين مدحوه فقد قال فيهم كلمته المشهورة: «إنهم يريدون خبزاً»[1]. ويدل هذا التعبير على أن أمير المسلمين ما كان يرى في هؤلاء الشعراء أكثر من «مرتزقة» يؤجرون ألسنتهم وقوافيهم لكل باذل «خبز» مهما كانت تصرفات هذا الباذل وسلوكه. ولم تكن الشواهد على ذلك بعيدة، فقد مدح الشعراء بالأمس القريب المعتمد بن عباد وأثنوا على عمله «المشرف» و«مفخرته الخالدة» بإعطائه الجزية للملوك المسيحيين. فهو في نظر الشاعر حسان المصيصي ذلك الجواد الكريم الذي لا يشح بمال فهو يعطيه للنصارى[2]. وطبعاً لا يهم الشاعر إن كان ذلك الكرم، بلغة أخرى غير لغته المنافقة، هو ذل الجزية التي يعطيها صاحبها وهو صاغر.

ويبلغ النفاق منتهاه، وقلب الحقائق غايته مع الشاعر ابن اللبانة الداني الذي يجعل هذا العمل المشين نصرة للإسلام!! فيقول:

في نصرة الدين لا أعدمت نصرته ... تأتي النصارى بما تأتي فتنخدع
تنيلهم نعماً في طيِّها نقم ... سيستضر بها من كان ينتفع[3]

(١) المقري: نفح الطيب ج٤ ص١٨٤.
(٢) ابن بسام: الذخيرة ق٢ ص٨٧؛ ابن سعيد: المغرب ج١ ص٣٨٥.
(٣) ابن بسام: الذخيرة ق٢ ج١ ص٢٤٩.

ومع ذلك فقد اجتمع ليوسف «من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار»[1] إن هذا الحكم ليس صادراً عن مناصر من مناصري المرابطين، بل صادر عن عبدالواحد المراكشي صاحب المعجب الذي اعتمد أعداء المرابطين على مقولته التي ذكرنا قبل. ومن مشاهير من التحق بديوان الأمير يوسف من الأدباء عبدالرحمن بن أسباط[2] وأبو محمد بن عبدالغفور[3] وعبدالمجيد بن عبدون[4].

ولئن كان ذلك هو موقف أمير المسلمين يوسف فإن خلفاءه وإن ظل الجهاد هو ديدنهم فإنه كان للشعر والأدب في أيامهم حضور ملموس. يقول عبدالواحد المراكشي عن علي بن يوسف أنه لم يزل «من أول إمارته يستدعي أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس، وصرف عنايته إلى ذلك حتى

---

(١) المراكشي: المعجب ص٢٨٣.

(٢) عبدالرحمن بن أسباط (ت٤٨٧هـ): كاتب أندلسي من أهل المرية، كان من أوائل من التحق من الكتاب الأندلسيين بالبلاط المرابطي، فكتب لزينب النفزاوية زوجة أمير المسلمين يوسف ثم بعد موتها صار كاتباً ليوسف ومستشاراً وقد ظهرت حكمته عندما استشاره أمير المسلمين يوسف في مسألة إعانة أهل الأندلس ومكاتبته له فأشار عليه بقبول ذلك ولكن بشرط أن يسلمه المعتمد بن عباد الجزيرة الخضراء «فتجعل فيها ثقاتك وأجنادك ويكون الجواز بيدك متى شئت» (مجهول: الحلل الموشية ص٤٩ ـ ٥٠؛ ابن الخطيب: الإحاطة ج٣ ص٥٢٣).

(٣) أبو محمد عبدالغفور بن محمد بن عبدالغفور: شاعر، أديب وكاتب. كان أحد كتاب أمير المسلمين علي بن يوسف وممن اتصل ببلاطه وهو من أسرة مشهورة بالأدب والعلم. ولم نقف على ذكر تاريخ وفاته. إلا أنه كان في ديوان أمير المسلمين سنة ٥٣١هـ (ابن بسام: الذخيرة ق٢ مج١ ص٤٢٥ ـ ٣٦٨، ابن سعيد: المغرب ج١ ص٢٤١؛ عبدالواحد المراكشي: المعجب ص٢٨٤).

(٤) أبو محمد عبدالمجيد بن عبدون (ت٥٢٥هـ): أحد أعيان الكتاب كان فقيهاً شاعراً. وكان قبل أن يتصل بالبلاط المرابطي منقطعاً إلى المتوكل صاحب بطليوس فلما زالت دولتهم على يد المرابطين سنة ٤٨٥هـ رثاهم بقصيدته المشهورة التي مطلعها:

الدهر يفجع بعد العين بالأثر    فما البكاء على الأشباح والصور

(ابن خاقان: قلائد العقيان مج١ ص٤١٧؛ المراكشي: المعجب ص١١٣؛ ابن سعيد: المغرب ج١ ص٣٧٤).

اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك»[١] وقد كان كتاب أمير المسلمين علي من أعيان أهل الأدب ومشاهيرهم مثل محمد بن أبي الخصال[٢] وأبو القاسم بن الجد[٣] وأبو بكر بن محمد المعروف بابن القبطرنة[٤].

وكان علي بن يوسف ممدحاً من الشعراء وكان جوازه إلى الأندلس موسماً من مواسم الشعر «فيجزل للشعراء العطاء، ويقضي لمن كان ذا أرب أربه ويسني لكل ذي مطلب مطلبه»[٥].

وكان لبقية أمراء الدولة وولاتها كبير اهتمام بالكتاب والشعراء يقربونهم في عناية وتشجيع.

فقد كان الأمير إبراهيم بن يوسف[٦] والأمير أبو بكر بن تيفلويت[٧]

---

(١) عبدالواحد المراكشي: المعجب ص٢٥٥.

(٢) أبو عبدالله محمد بن أبي الخصال (ت٥٣٩هـ): الوزير الكاتب قال عنه ابن خاقان «حامل لواء النباهة الباهر بالرواية والبداهة له تفنن في العلوم والآداب وزر لعلي بن يوسف وكتب عنه رسائل كثيرة (ابن خاقان: قلائد العقيان مج١ ص٥١٨؛ المراكشي: المعجب ٢٥٦ ابن سعيد: المغرب ج٢ ص٦٦).

(٣) أبو القاسم محمد بن الجد الفهري المعروف بالأحدب (ت٥١٥هـ): قال عنه ابن بشكوال: «كان من أهل التفنن في المعارف والتقدم في الأدب والبلاغة وله حظ جيد من الفقه والتكلم في الحديث» (الصلة ج٢ ص٥٤٤؛ ابن خاقان: قلائد العقيان مج١ ص٣١٣؛ المراكشي: المعجب ص٢٥٥).

(٤) أبو بكر عبدالعزيز المعروف بابن القبطرنة (ت٥٢٠هـ): أحد رؤساء العصر في صنعة النثر والنظم (ابن خاقان: قلائد العقيان مج١ ص٤٣٥؛ ابن سعيد: المغرب ج١ ص٣٦٨).

(٥) ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص٤٧.

(٦) إبراهيم بن يوسف بن تاشفين (ت٥٢٨هـ): أخو الأمير علي بن يوسف ويعرف بابن تعيشت وهو اسم أمه ولي إمارة سبتة ثم مرسية ثم بلنسية ثم أشبيلية قبل أن يعزل سنة ٥١٥. وكان إبراهيم هذا من أعاظم قواد المرابطين وله على نصارى الأندلس وقائع كثيرة (ابن خاقان: قلائد العقيان ج١ ص٣، ابن الأبار: المعجم ص٦٢).

(٧) الأمير أبو يحيى أبو بكر بن إبراهيم المسوفي المعروف بابن تيفلويت (ت٥١٠هـ): أحد أمراء المرابطين، صهر أمير المسلمين علي بن يوسف على أخته. ولاه علي بن يوسف حاكماً لغرناطة ثم مرسية ثم عينه سنة ٥٠٨هـ حاكماً على شرق الأندلس =

والأمير عبدالله بن مزدلي[1] من رعاة الأدب ومشجعيه.

فقد قرب الأمير إبراهيم الفتح بن خاقان[2] الذي ألف باسمه كتابه «قلائد العقيان» وذكر في مقدمته فضله على الأدب حيث قال: «ولم يزل شخص الأدب وهو متوار وزنده غير وار وجده عاثر ومنهجه داثر إلى أن أراد الله اعتلاء اسمه وإحياء رسمه وإنارة أفقه وإعادة رونقه، فبعث من الأمير الأجل أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين ملكاً عالياً للبة المجد حالياً. . .»[3].

وقد اشتهر في هذا العهد شعراء وأدباء كثيرون كانت لهم مكانة بارزة في الأدب الأندلسي، فمن هؤلاء: ابن خفاجة الذي قال عنه ابن خاقان

---

= وقاعدته يومذاك سرقسطة. غير أنه لم يكن في حزم وبسالة سلفه القائد محمد بن الحاج الذي استشهد في قتال النصارى سنة ٥٠٨هـ وقد اشتهر ابن تيفلويت بجانب آخر غير ميدان الحرب هو أنه كان من رعاة الأدب فقرب الشاعر ابن خفاجة والفيلسوف ابن باجة السرقسطي (ابن الخطيب: الإحاطة ج١ ص٤٠٤ ـ ٤٠٩؛ ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٦١).

(١) الأمير عبدالله بن مزدلي (ت٥١٢هـ): ابن القائد المرابطي الكبير أبي محمد مزدلي بن تيولتكان؛ شارك مع أبيه مزدلي في استرداد بلنسية سنة ٤٩٥هـ ثم ولي إمارة غرناطة إثر وفاة والده سنة ٥٠٨هـ . وعقب وفاة أمير سرقسطة ابن تيفلويت سنة ٥١٠ واشتداد الضغط على هذا الثغر ولي عبدالله على سرقسطة سنة ٥١١هـ إلا أنه لم يلبث إلا عاماً واحداً أمضاه في مدافعة النصارى عنها فتوفي سنة ٥١٢هـ (ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص٦١؛ ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٦٢).

(٢) أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيدالله القيسي الأشبيلي الشهير بابن خاقان (ت٥٢٩هـ): أحد الأدباء الكتاب المصنفين المشهورين قال عنه المقري: «كان آية من آيات البلاغة، لا يشق غباره ولا يدرك شأوه، عذب الألفاظ ناصعها، أصيل المعاني وثيقها. . . لا يمل من المعاقرة والقصف حتى هان قدره. . . ولم يدع بلداً من بلاد الأندلس إلا ودخله مسترفداً أميره» (نفح الطيب ج٩ ص٢٦٣) من أهم مؤلفاته كتاب «قلائد العقيان ومحاسن الأعيان» وكتاب «مطمح الأنفس». توفي مقتولاً بفندق بمراكش سنة ٥٢٩هـ (ابن الأبار: المعجم ص٣٠٨؛ ابن سعيد: المغرب ج١ ص٢٥٩؛ ابن الخطيب: الإحاطة ج٤ ص٢٤٨ ـ ٢٥٣).

(٣) ابن خاقان: قلائد العقيان ص٤٥.

«ملك أعنة المحاسن وناهج طريقها العارف بترصيعها وتنميقها الناظم لعقودها الراقم لبرودها»[1]. وكان شاعر الطبيعة في الأندلس، فطار صيته في وصف الجنان والحدائق حتى لقب بالجنان، وظل أثر ابن خفاجة أو الطريقة الخفاجية كما يسميها جارسيا جومس قدوة ومثلاً يحتذي به في وصف الطبيعة[2].

وممن اشتهر في هذا العصر الشاعر الأعمى التطيلي الذي تفوق في فن التوشيح فكان «سابق فرسان حلبته»[3] وصار توشيحه مثلاً سائراً بين الناس، ومن موشحه المشهور موشحته التي مطلعها:

ضاحك عن جمان　　　سافر عن بدر
ضاق عنه الزمان　　　وحواه صدري[4]

وغير هذين كثير من أمثال ابن صارة وأبو بكر بن رحيم ممن نجد شعرهم في الذخيرة لابن بسام وقلائد العقيان لابن خاقان وغيرهما.

لقد تميز العهد المرابطي بنبوغ عدد من أهل الأدب الموسوعيين الذين أغنوا المكتبة الأدبية بمؤلفاتهم عن الأدب الأندلسي وفي مقدمة هؤلاء أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني (ت٥٤١هـ) الذي ألف كتاب «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة»[5] والذي يعتبر من أشهر وأحسن كتب الأدب والتاريخ الأندلسي ويوضح ابن بسام في مقدمته الدافع النفسي الذي دفعه إلى تصنيف كتاب الذخيرة فلقد رأى انصراف أهل بلده إلى المشرق للتزود من حضارته والارتواء من علومه والإعجاب به وإهمال آداب بلدهم فأراد بوضعه لهذا الكتاب أن يجمع به من رائق الشعر ما يبصر أهل الأندلس بتفوق آدابهم

(١) نفس المصدر: مج٢ ص٧٣٩.
(٢) انخل جنثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي ص١٢٤.
(٣) ابن خلدون: المقدمة مج٢ ص٢٩١.
(٤) ديوان الأعمى التطيلي: ص٢٥٣.
(٥) مطبوع بتحقيق د. إحسان عباس بيروت ١٩٧٨.

وروعة إنتاجهم[1]. ومن هؤلاء الموسوعيين الفتح بن خاقان صاحب كتابي «قلائد العقيان»[2] و«المطمح»[3].

وليس هذا العرض مقام استيفاء للموضوع فنكتفي بإيراد آراء بعض دارسي أدب هذا العصر. يقول د.إحسان عباس: «ولما قامت دولة المرابطين، لم يبلغ لديهم تشجيع الأدب، والشعر خاصة ما بلغه الحال في بلاط بني عباد، غير أن الوضع في عهدهم لم يكن أسوأ حالاً مما كان لدى بقية دول الطوائف»[4]. ويقول د.عباس الجراري: «وعلى العكس من كل ما يقال عن جمود المرابطين فقد عرف المغرب على عهدهم بداية نهوض وتفتح بعد أن تعثر فترة من الزمن طويلة»[5].

أما عن مدى تأثير الأدب وأهله بتنفذ العلماء في الدولة المرابطية فنرى أن هذا التأثر حصل على مستويات عدة منها:

أ ـ مضمون الأدب: فقد نتج عن انصباغ الدولة المرابطية بالصبغة الدينية لتحكم العلماء فيها، أن أصبح الأدب والشعر بالخصوص أكثر تأثراً بالمفاهيم الدينية، فكثر شعر الجهاد والزهد[6] وحتى المدح أصبح ذا نفس ديني مثل قول أبي الحسن بن الجد يمدح أمير المسلمين يوسف بن تاشفين:

انظر إلى الصبح سيفاً في يدي ملك ... في اللّه من جنده التأييد والظفر

---

(١) الذخيرة: ق١ مج١ ص١٢.

(٢) طبع أكثر من مرة ومنها طبعة بتحقيق د. حسين خربوش مكتبة المنار الأردن سنة ١٩٨٩.

(٣) المطمح: طبع أكثر من مرة منها طبعة بتحقيق محمد شوابكة نشر دار الرسالة بيروت ١٩٨٣.

(٤) إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلس ص٧٧ ـ ٧٨.

(٥) عباس الجراري: الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه ج١ ص١٠٤.

(٦) منجد مصطفى بهجت: الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهد الطوائف والمرابطين ص٢٦٤.

يرعى الرعايا بطرف ساهر يقظ        كما رعاها بطرف ساهر عمر[1]

وقول ابن رحيم فيه:

ليوسف مفخر يروى ويتلى        كما يتلى الحديث عن النبي
ركبت مناهج التقوى ففاقت        أمورك كل أمر معتلي
وسرت بسيرة العمرين عدلاً        ولم تقعد مضاء عن علي[2]

ب ـ أثر العلماء في المظاهر الرسمية التي كانت تقام للأدب والشعر في أحضان اللهو والمجون على عهد الطوائف فألغوا هذه المظاهر.

لقد أسهم عدد من العلماء في تشجيع الأدب وأهله. فانتجعهم الشعراء ووجدوا في ظلهم بعضاً مما كانوا يألفون من عطايا في زمن بني عباد. ومن هؤلاء العلماء قاضي قضاة الشرق أبو أمية إبراهيم بن عصام (ت٥١٦هـ) الذي كان فصيحاً أديباً كريماً محباً للأدب وأهله فقصده عدد كبير منهم فمدحوه، ومن هؤلاء ابن خفاجة وابن صارة[3].

ومنهم قاضي الجماعة بقرطبة أبو عبدالله بن حمدين فقد كان «للشعر والنثر من عنايته أوفر نصيب ولأهله من استقلاله وكفايته حمى غير مقروب، وقد رفعت له على علمه نار، فضربت عليه في حرمه أرواق وأستار»[4]. وقد قصده عدد كبير من الشعراء ومدحوه فأجزل صلتهم. ومن أمثلة مدحهم له قول ابن صارة:

اللّه أكبر قد وافيت قرطبة        دار العلوم وكرسي السلاطين
وقد تهلل لي وجه النجاح بها        طلق الأسرة من وجه ابن حمدين
تزهى العلا بمساعيه إذا ذكرت        زهو الأنوف بأنفاس الرياحين

---

(١) ابن الخطيب «أعمال الأعلام» ص٢٤٢.
(٢) ابن خاقان: قلائد العقيان مج١ ص٣٦٠.
(٣) المصدر السابق مج٢ ص٦٢٩.
(٤) ابن بسام: الذخيرة ق٢ مج٢ ص٦٢٩.

لـم يـرضـه عـرض الـدنـيـا فـجـاد بـه وضنَّ بالأكـرمين العرض والدين[1]

إن النظرة المتأنية للعهد المرابطي تكشف للباحث وجود الأدب وانتشار أهله بدليل الأسماء الكثيرة من شعراء وكتاب التي حفلت بها تلك الحقبة. كما يكشف الباحث أن أصحاب «قال مالك» لم يحولوا دون منى أصحاب «قام زيد» بل بالعكس أفادوهم مما أفادوا وأولوهم مما نالوا.

إن المكانة العلية والنفوذ الواسع الذي تمتع به العلماء في العهد المرابطي جعلت منهم فئة مؤثرة في المجتمع ذات نصيب كبير في توجيهه، مشاركة في القرارات والتوجهات. بل في بعض الأحيان طامحة إلى ما هو أكثر من ذلك وهو أن تكون صاحبة القرار. وهو ما سنراه في الفصول التالية.

---

(١) حسن الوراكلي: ابن صارة الشنتريني ص٣٤.

## الفصل الثاني

# العلماء في مواجهة السلطة

استعرضنا في الفصل السابق المكانة الكبيرة والنفوذ العظيم الذي أصبح للعلماء في الدولة المرابطية، والإجلال والاحترام الذي كان لهم في نفوس الخاصة والعامة. ورأينا كيف استخدم العلماء هذه المكانة ومارسوا هذا النفوذ.

ويبدو أن هذا النفوذ المادي والمعنوي وهذا القبول قد أغرى بعض العلماء بعدم الاكتفاء بأن يكونوا شركاء في الحكم، حتى ولو كانوا شركاء نافذين، بل صبت أنفسهم لأن يكونوا هم أصحاب الحكم الوحيدين.

لقد كانت إغراءات السلطة وحب النفوذ طاغية لدى مجموعة من العلماء، وكان السبيل إلى تحقيق هذا الحلم المنشود وهذا الأمل البراق يصطدم بواقع تملؤه دولة وسلطة قائمة. فكان طبيعياً والحال هذه أن يصطدم هؤلاء العلماء الطموحون بأهل السلطة القائمة. لقد كان أول هؤلاء الطامحين إلى المجد المؤثل والساعين إلى الإطاحة بالدولة المرابطية هو الفقيه محمد بن عبدالله المعروف بابن تومرت[1]. ولما سيكون لحركة هذا الفقيه

(١) ترجمته في أكثر من مصدر منها: أبو بكر بن علي الصنهاجي المعروف بالبيدق: أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، تحقيق عبدالوهاب بن منصور، الرباط ١٩٧١، ومؤلف الكتاب هو أحد أتباع ابن تومرت ومرافقيه منذ رجوعه من رحلته =

وثورته من نتائج كبيرة على منطقة المغرب الأقصى كله فإننا سندرس ثورته بتفصيل مبينين دوافعها ووسائلها.

## ١ ـ التكوين العلمي لابن تومرت:

بدأ دراسته في المغرب[(١)] ثم رحل إلى الأندلس ومنها إلى المشرق. وقد اختلف المؤرخون في تحديد زمن قيامه بهذه الرحلة فيذكر المراكشي: أن ابن تومرت ارتحل في سبيل العلم في سنة ٥٠١هـ[(٢)]. في حين يقول أشباخ: أنه ذهب إلى المشرق لطلب العلم بعد بضعة أعوام من تولي علي بن يوسف الحكم[(٣)]. وفي هذه الرحلة أخذ ابن تومرت عن عدد من العلماء من بينهم أبي بكر الطرطوشي وأبي بكر الشاشي[(٤)] الذي درس عليه الفقه والأصول ودرس الحديث على المبارك بن عبدالجبار[(٥)] وغيرهم[(٦)].

---

= العلمية. عبدالواحد المراكشي: المعجب ص٢٦٢ ـ ٢٨٧؛ ابن خلدون: العبر ج٦ ص٢٢٥ ـ ٢٢٩؛ ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٧٢؛ مجهول: الحلل الموشية ص١٠٣؛ عبدالمجيد النجار: المهدي بن تومرت.

(١) لا يذكر المؤرخون شيئاً ذا بال عن دراسة ابن تومرت في المغرب بل تكاد تكون حياته الأولى قبل سنة ٥٠٠هـ مجهولة؛ وقد اكتفى ابن خلدون بأنه ولد في بيت صلاح وأنه شب قارئاً محباً للعلم (العبر ج٦ ص٢٢٥).

(٢) المراكشي: المعجب ص٢٦٢.

(٣) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ص١٨٦.

(٤) أبو بكر محمد بن أحمد فخر الإسلام الشاشي (ت٥٠٨): فقيه شافعي، انتهت إليه رئاسة الشافعية في عصره. تولى التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد واستمر إلى أن مات. من تصانيفه «حلية العلماء في مذاهب الفقهاء» (ابن خلكان: وفيات الأعيان ج١ ص٥٨٨).

(٥) أبو الحسين المبارك بن عبدالجبار الطيوري البغدادي (ت٥٠٠): محدث، صدوق صحيح الأصول، كثير الكتب (الحنبلي: شذرات الذهب ج٣ ص٤١٢) وتاريخ وفاة المبارك يجعلنا نشك في رواية لقاء ابن تومرت له وهو لم يغادر المغرب إلا سنة ٥٠١هـ . والذي يبدو هو أن أتباع ابن تومرت جمعوا لائحة من الأسماء البارزة وجعلوا منها أشياخاً له لإصباغ صبغة علمية كبرى عليه.

(٦) المراكشي: مصدر سابق ص٢٦٢ ـ ٢٦٣.

وتذكر بعض الروايات أن ابن تومرت لقي الإمام أبا حامد الغزالي ودرس عليه في بغداد، وقيل بل لقيه بالشام أيام تزهده[١]. ويجعل ابن أبي زرع هذا اللقاء ملازمة طوال ثلاث سنين وأن هذا كان يبشره بأنه سيكون له شأن[٢].

وسنقف قليلاً عند هذا اللقاء الذي جعله عدد من المؤرخين مسلمة من مسلمات التاريخ فبنوا عليها أحكاماً ورتبوا عليها استنتاجات. فنتساءل متى كان هذا اللقاء. وأين؟.

لقد خرج ابن تومرت كما ذكرنا قبل، من وطنه في طلب العلم سنة ٥٠١هـ أو بعدها وقضى فترة في الأندلس ثم في المهدية والاسكندرية ثم سافر لقضاء فريضة الحج، وقصد على أثر ذلك بغداد، وإذن فيكون من المرجح أنه لم يصل إليها قبل سنة ٥٠٤ أو ٥٠٥هـ. وقد كان الإمام الغزالي ببغداد يضطلع بالتدريس في المدرسة النظامية بين سنتي ٤٨٤ و٤٨٨هـ[٣] وفي هذه السنة الأخيرة غادر بغداد في رحلة تأملية وسياحة نفسية امتدت إلى سنة ٤٩٩[٤] وقد زار في هذه الرحلة دمشق وبيت المقدس والاسكندرية ومكة المكرمة والمدينة المنورة. إذن فيكون من المستحيل زمنياً أن يكون ابن تومرت الذي غادر وطنه في التاريخ الذي ذكرنا، قد استطاع أن يلتقي بالغزالي خلال هذه الرحلة. وبعد هذه الرحلة انتدب الإمام الغزالي من طرف الوزير فخرالدين بن نظام الملك[٥] بالتدريس بالمدرسة النظامية بنيسابور وذلك في أواخر سنة ٤٩٩[٦]. وقد ظل الغزالي بنيسابور إلى أن

---

(١) المصدر السابق: نفس الصفحة.

(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٧٢.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٤ ص٢١٧.

(٤) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ج٤ ص١٢.

(٥) علي بن الحسن، أبو المظفر فخر الملك بن نظام الملك (٤٣٤ ـ ٥٠٠هـ): وزير، أصل أبيه من طوس، تولى الوزارة للسلطان بركيارق سنة ٤٨٨هـ، ثم فارقه قاصداً نيسابور، فاستوزره صاحبها الملك سنجر، فاغتاله فيها أحد الباطنية. (الزركلي: الأعلام ج٥ ص٨٢).

(٦) الموسوعة الإسلامية الميسرة أشرف على تحريرها هـ .أ. جب وج.هـ . كالمرز ترجمة =

غادرها إلى مسقط رأسه «طوس» حيث انقطع للعبادة والتأليف إلى أن توفي سنة ٥٠٥هـ فيتضح من هذا جلياً بطلان قصة اللقاء بين ابن تومرت والإمام الغزالي من الناحية التاريخية.

والظاهر أن هذه القصة من اختراع بعض أنصار الدعوة الموحدية الذين عرفوا منزلة الإمام الغزالي في العالم الإسلامي وقرأوا الكثير عن جلاله ومكانته فاخترعوا هذه القصة ليضفوا بذلك قوة على الدعوة الموحدية وصاحبها ولا سيما أن ابن تومرت قد ابتدأ دراسته بالمشرق والغزالي ما زال على قيد الحياة، لكن واضعي القصة لم يحكموا أطرافها[١]. ويبدو أن المؤرخ الكبير ابن خلدون كان متأكداً من زيف هذا اللقاء غير أنه لأسباب موضوعية[٢] لم يصرح برأيه فاكتفى بإبداء ريبة فيها بحمل الأمر محمل الزعم[٣].

وقد تمكن ابن تومرت خلال إقامته بالمشرق من تحصيل علوم كثيرة حتى أصبح كما يقول ابن خلدون: «بحراً متفجراً من العلم»[٤] وصار على درجة عالية في علم الكلام والعلوم الشرعية وحتى في خط الرمل[٥].

---

= راشد البراوي ط الأولى ١٩٨٥ مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ج٢ ص٧٢٢.

(١) إمعاناً في التزوير حاول الموحدون جعل ابن تومرت رفيقاً للقاضي ابن العربي في حضرة الإمام الغزالي (مجهول: الحلل الموية ص١٤٨) والمعروف تاريخياً أن ابن العربي أنهى رحلته العلمية، التي قادته إلى بغداد، سنة ٤٩٣هـ وعاد إلى الأندلس أي أنه عاد قبل خروج ابن تومرت من المغرب بسبع سنوات.

(٢) لقد ألف ابن خلدون تاريخه في ظل الدولة الحفصية في أفريقية فلم يكن معقولاً أن ينفي جملة وتفصيلاً كل المسلمات التي كان يعتقدها هؤلاء في إمامهم.

(٣) ابن خلدون: العبر ج٦ ص٢٢٦ يقول ابن خلدون: «ولقي فيما زعموا أبا حامد الغزالي».

(٤) نفس المصدر والصفحة.

(٥) يقول المراكشي في وصفه له «وكان أوحد أهل عصره في علم خط الرمل» (المعجب ص٢٦٥) وخط الرمل صناعة يزعم أصحابها أنهم يستنبطون منها أخبار الغيب ومستقبل الأحداث (ابن خلدون: المقدمة ص١٢٠).

وقد كوَّنت هذه العلوم التي درسها ابن تومرت والبيئة التي عايشها طوال فترته المشرقية[1] منه شخصية متفردة بما تحمله من متناقضات فكرية وسلوكية، مما سنتعرض له لاحقاً.

## ٢ ـ مرحلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

بدأ ابن تومرت رحلة العودة إلى وطنه بعد قضاء وطره من المشرق. وبدأت هذه الرحلة من سنة ٥١١هـ. وقد مر ابن تومرت في طريق العودة بمصر حيث بالغ في الإنكار على الناس لمخالفتهم للشرع[2]. فكان طبيعياً أن يثير حنق الفاطميين عليه، مما «أفضى إلى أن نفاه متولي الاسكندرية عن البلاد»[3].

ازداد ابن تومرت في الأخذ بمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عقب خروجه من الديار المصرية، فكان كل ما نزل مصراً من الأمصار سعى بيده ولسانه إلى تغيير ما يراه مخالفاً للشرع. ومن بين المدن التي نزل بها مدينة المهدية[4] وبجاية[5]. وعلى القرب من هذه المدينة وفي قرية تدعى ملالة التقى[6]

---

(١) ترى الدكتورة عصمت دندش أن ابن تومرت تأثر خلال رحلته المشرقية بجماعات الشيعة وبالخصوص بالشيعة النزارية في الإسكندرية وأنه أعد أثناء هذه الرحلة ليكون داعياً لهذه الفرقة بالمغرب وأنه حول الدعوة لنفسه. وتستدل على قولها هذا بما كانت تعيشه المدن المشرقية الكبرى التي زارها ابن تومرت من انتشار النحل. وتأثر ابن تومرت بأقوالهم وأفعالهم (د. عصمت دندش: أضواء جديدة على المرابطين ص١١).

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٥ ص٤٦.

(٣) ابن خلدون: العبر ج٦ ص٢٢٦؛ المراكشي: المعجب ص٢٦٢.

(٤) ابن خلكان: مصدر سابق نفس الصفحة.

(٥) ابن الأثير: الكامل مج١٠ ص٥٦٩؛ المراكشي: المعجب ص٢٦٢.

(٦) يبالغ المؤرخون الأقدمون ولاسيما الموحدون منهم ـ مبالغة شديدة ـ في وصف لقاء المهدي بن تومرت لتلميذه عبدالمؤمن بن علي الكومي وتصوير ما ثبت لهذا الشاب من علامات وصفات مميزة أخبره بها المهدي قبل وقوعها وعرف بعبدالمؤمن قبل أن يلتقي به، بعلامات كان قد عرفها بطريق التنجيم والجفور (ابن القطان: نظم الجمان ص٧٧؛ ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٧٢؛ ابن خلدون: العبر ج٦ ص٢٢٧).

ابن تومرت بعبدالمؤمن بن علي[١] الذي صار من أقرب أعوانه وأخص أتباعه.

وقد تابع[٢] ابن تومرت طريقه إلى المغرب الأقصى مطروداً من كل البلاد التي نزلها.

ووصلت به الرحلة إلى مراكش عاصمة المرابطين، وهي تعيش في ظل الجيل الثاني من حكامها. كانت مراكش لذلك العهد أي سنة ٥١٤هـ[٣] قد بدأت تتأثر بالقيم الأندلسية من دعة ولهو وهو ما نتجت عنه جملة من المناكر مثل انتشار الخمر وسفور النساء وغير ذلك[٤].

كان طبيعياً أن تكون تلك الممارسات هدفاً لكل آمر بالمعروف وناه عن المنكر. لم يكن ابن تومرت يحتاج إلى أكثر من هذا ليشن حملته على الفساد ويجاهر بالنكير على المرابطين في عاصمتهم.

صعّد ابن تومرت من درجة أمره بالمعروف عندما بدأ يتعرض لأفراد البيت الحاكم، ففي أحد الأيام تعرض لموكب أخت أمير المسلمين ووبخها على سفورها وسفور جواريها وأمرهن بستر وجوههن، مع أن عادة نساء المرابطين هي السفور وعدم تغطية الوجه وهي عادة ربما تصدم شعور من عاش في المشرق الإسلامي، وضرب هو وأصحابه دوابهن فسقطت الأميرة عن دابتها[٥].

---

(١) عبدالمؤمن بن علي الكتامي (٥٥٨هـ): صاحب المهدي بن تومرت ورفيقه وخليفته على الموحدين وأول ملوك الدولة الموحدية (٥٤١ ـ ٥٥٨هـ) وقد توارث ملكها أبناؤه. ترجمته في معظم المصادر والمراجع ومنها: ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص٦٥ ـ ١٦٠؛ ابن القطان: نظم الجمان ص١٧٠ ـ ٢٦٨؛ مجهول: الحلل الموشية ص١٤٢ ـ ١٥٧؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس ص١٨٣ ـ ٢٠٥.

(٢) ترى د. عصمت دندش أنه كان يتحرك في تنقلاته حسب أوامر محددة سابقاً وتنسيق مع دعاة من النزارية في المنطقة يشيرون عليه بتحركاته (أضواء جديدة على المرابطين ص٢٤).

(٣) الزركشي: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ص٥.

(٤) المراكشي: المعجب ص٢٧٣.

(٥) ابن الأثير: الكامل مج١٠ ص٥٧٠.

ولم يكتف ابن تومرت بذلك بل صار يؤلب الناس، ويقول لهم أن السُّنة قد ذهبت، وأصبح يندد بعهد أمير المسلمين علي بن يوسف الذي فسدت فيه الأخلاق(١).

ومع الأيام طور ابن تومرت نقده وعدل من طرحه فبدأ يركز هجومه على المرابطين وبدأ يتحدث عن وجوب تغيير حكم البلاد(٢).

وصلت أخبار كل هذه التصرفات إلى علم أمير المسلمين علي بن يوسف فتشاور في أمره مع كبير مستشاريه الفقيه مالك بن وهيب(٣) فأشار عليه بضرورة إحضاره إلى مجلس أمير المسلمين ليسمع كلامه بمحضر من العلماء(٤).

حضر ابن تومرت إلى مجلس أمير المسلمين الذي سأله عن تصرفاته فكان جوابه: «أنا رجل فقير طالب آخرة ولست بطالب دنيا، ولا حاجة لي بها، غير أني آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأنت أولى الناس بفعل ذلك، فإنك المسؤول عنه وقد وجب عليك إحياء السنة وإماتة البدعة، وقد ظهرت بملكك المنكرات وفشت البدعة، وقد أمرك الله بتغييرها وإحياء السنة بها، إذ لك القدرة على ذلك، وأنت المأخوذ به والمسؤول عنه...» وقد أثر كلام ابن تومرت في نفس أمير المسلمين إلى الدرجة التي جعلت عيناه تذرفان(٥).

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٥ ص٤٩.

(٢) نفس المصدر والصفحة.

(٣) مالك بن يحيى بن وهيب الأزدي (ت٥٢٥هـ): من أهل أشبيلية، فقيه، حافظ مشهور، كان أحد رجال الكمال بمعرفة العلوم على تفاريعها وأنواعها وكانت الدراية أغلب عليه من الرواية كان من أهل الفلسفة بل وصف بأنه فيلسوف المغرب. وكان ظاهر الزهد والورع، استدعاه أمير المسلمين علي بن يوسف إلى حضرة مراكش وصيره جليسه وأنيسه ومستشاره المقرب (الضبي: بغية الملتمس ج٢ ص٦١٨، العباس بن إبراهيم: الأعلام ج٣ ص٢٧٦ - ٢٧٧).

(٤) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٧٤.

(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٥ ص٥٠.

طلب أمير المسلمين عندئذ من العلماء أن يناظروه، وقد تمكن ابن تومرت من التفوق على الحضور بفضل فصاحته وتفوقه وبروزه في علم الجدال[١] هذا بالإضافة إلى أنه تمكن من جعل المناظرة تدور حول مواضيع كلامية مثل طرق العلم وأصول الحق والباطل. ومعلوم أن بضاعة أكثرية علماء المرابطين في هذا العلم مزجاة، بل هم أعداء علم الكلام ولا يعتبرونه بالتالي من العلوم النافعة. وقد تجنب ابن تومرت مناظرة العلماء في صميم علوم السلف مثل القرآن والحديث والفقه[٢]. وإلى جانب المسائل الكلامية التي أثارها ركز ابن تومرت كلامه على مهاجمة العلماء ومحاولة تعريتهم أمام أمير المسلمين «ليعلم أنه مغرور بما تقولون وتضرونه به»[٣].

لقد حاول ابن تومرت خلال هذا اللقاء أن يترك انطباعاً لدى أمير المسلمين بأنه ليس إلا مسلم غيور على دينه وداعية إلى المعروف، مبعداً عن نفسه كل تهمة سياسية تجعله عدواً للأمير أو خطراً على دولته.

ومع ذلك فقد تبين الفقيه مالك بن وهيب مرامي كلام ابن تومرت ومآلات خطابه وما يمكن أن يترتب عليه، وقد تحقق لديه أنه رجل طامح إلى السلطة «طامع في المملكة لنفسه»[٤]، فقال لأمير المسلمين: «أيها الملك إن عندي لنصيحة إن قبلتها حمدت عاقبتها، وإن تركتها لم تأمن غائلتها. إن هذا والله لا يريد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إنما يريد إثارة الفتنة، والغلبة على بعض النواحي فاقتله وقلدني دمه»[٥].

ويذكر المراكشي في روايته لهذا الاجتماع ما يدل على أن مالك بن وهيب قد أدرك مكمن الخطر في شخصية ابن تومرت وهو قدرته على

---

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٧٤.
(٢) عصمت دندش: أضواء جديدة على المرابطين ص٢٥.
(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٥ ص٤٩.
(٤) نفس المصدر والصفحة.
(٥) ابن الأثير: الكامل مج١٠ ص٥٧١.

الإقناع، وبالتالي فإنه إن دخل بلاد الأعداء «المحتملين» مثل مصمودة[1] «ثار علينا منه شر كثير»[2].

لم تفلح نصائح ابن وهيب في إقناع علي بن يوسف بضرورة قتل ابن تومرت «وأبى ذلك عليه دينه» على حد عبارة المراكشي[3].

ويبدو أن أمر ابن تومرت وأهدافه وأطماعه كانت واضحة لدى مالك بن وهيب لذا نراه يعيد الكرة فيلح على أمير المسلمين بأن يسجن ابن تومرت وأصحابه، فذلك أقل ما يمكن أن يعاملوا به «سداً للذريعة وخوفاً من الغائلة»[4]. لكن علي بن يوسف أبى النصيحة من جديد[5]. واكتفى بأن أمر ابن تومرت بالخروج من مراكش والكف عن ما هو عليه من الشغب[6].

ينم هذا التصرف الذي سلكه أمير المسلمين علي بن يوسف تجاه ابن تومرت عن طيبة زائدة عن الحد وتسامح مخل بالدولة، وعدم انتفاع بالمستشارين الأفذاذ من أمثال مالك بن وهيب.

مكث ابن تومرت بعد هذا اللقاء، أياماً في مراكش منزوياً مع أصحابه في ناحية من نواحيها[7]، يبث دعوته المعارضة والمعادية للمرابطين بين الناس الذين جذبتهم فيه قوة عارضته وقدرته على الإقناع. ويبدو أنه بدأ في

---

(١) كان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ببصيرته وحنكته السياسية يخشى على ورثته من المصامدة لوفرة هذه القبائل ووجود العاصمة مراكش في ديارهم، وللعداء القديم بين صنهاجة ومصمودة لذلك كان من بين وصاياه لابنه علي ألا يهيج المصامدة. (الحلل الموشية ص٨٢ ـ ٨٣).

(٢) المراكشي: المعجب ص٢٦٢.

(٣) نفس المصدر والصفحة.

(٤) ابن عماد الحنبلي: شذرات الذهب ج٤ ص٧١.

(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٥ ص٤٩، المراكشي: المعجب ص٢٦٢.

(٦) المراكشي: نفس المصدر والصفحة.

(٧) لجأ ابن تومرت مع أتباعه إلى جهة المقابر ليتواروا عن الأنظار وبنوا هناك خيمة. (ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٧٥).

هذه المرحلة يكشف لبعض خواصه عن حقيقة أهدافه[1].

كثر أتباع ابن تومرت وبدأت شهرته ومكانته تتسع، فرفع أمره من جديد إلى أمير المسلمين الذي أرسل إليه يعاتبه ويقول له «أيها الرجل اتق الله في نفسك، ألم أنهك عن عقد الجموع وأمرتك بالخروج عن المدينة»[2]، وهو رد فعل، كما نرى، يتسم بتلك المسالمة المعهودة من علي بن يوسف والتي أدت في بعض الأحيان إلى إضاعة الحزم في مواضعه.

ورغم أن هذا العتاب لا يحمل التهديد المتوقع، فقد خشي ابن تومرت على نفسه في حال بقائه بمراكش خصوصاً مع وجود مالك بن وهيب[3]، فانتقل إلى إغمات حيث استمر على طريقته من إظهار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفي نفس الوقت التحريض على المرابطين. وكانت نتيجة ذلك الحتمية أن طرده والي إغمات[4].

بعد إغمات لجأ ابن تومرت إلى جبل إيجليز[5] من بلاد هرغة[6] موطن أهله وعشيرته.

وفي بلاد هرغة ستبدأ مرحلة أخرى من مراحل تطور ثورة ابن تومرت.

ولكننا قبل أن ننتقل إلى تلك المرحلة لنا أن نتساءل: هل كانت رحلة عودة ابن تومرت هذه رحلة أمر بالمعروف ونهي عن المنكر؟.

---

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٧٥.

(٢) نفس المصدر والصفحة.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٥ ص٥٠.

(٤) مجهول: الحلل الموشية ص١٠١.

(٥) ويسمى أحياناً إيجليز هرغة.

(٦) هرغة: قبيلة مصمودية بربرية واسمها أصلاً: أرغن ينتمي إليها المهدي بن تومرت وتحتل المنطقة الممتدة جنوب مدينة مراكش (عبدالوهاب بن منصور: قبائل المغرب ج١، المطبعة الملكية بالرباط ١٩٦٨، ص٣٢٦).

إن تتبع مختلف روايات هذه الرحلة وأحداثها تجعل الباحث يقتنع أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لم يكن إلا شعاراً تستر وراءه ابن تومرت للفت النظر إليه والظهور بمظهر مصلح ديني وثائر على ما يقع في المجتمع من مخالفات شرعية، ملقياً المسؤولية في ذلك كله على الدولة المرابطية وهي بالفعل مسؤولة عن ذلك الخلل الذي بدأ يظهر. ثم هو يسعى عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى خلق تيار جديد في المجتمع ينشد التغيير ويتشجع على النقد والاعتراض.

فيمكننا أن نعتبر هذه المرحلة مرحلة الدعاية الشخصية لابن تومرت وإبراز صفاته المميزة من علم وتقشف وجراءة، لهذا كان يتعرض لإثارة غضب رجال الدولة ليتعرضوا له بالحبس والأذى والإخراج من المدن فيزداد صيته ويكثر جمعه، فبعض الناس في تلك العصور ـ وحتى في العصر الحالي ـ يستهويهم مثل هذا الشخص، ويسرهم أن يجدوا إنساناً يتحدى الحكام ورجالهم سوءاً أكان على حق أم على باطل.

والحقيقة أن ابن تومرت كان رجلاً ذكياً إلى أقصى الحدود يعرف استغلال الفرص للفت الأنظار إليه واستمالة الأنفس، جريئاً لا يخاف، مغامراً يطلب الكثير ويهون عليه الكثير في سبيل ذلك.

### ٣ ـ مرحلة إعلان المبادىء:

نزل ابن تومرت، كما ذكرنا سابقاً، في ديار قومه بإيجليز، بالسوس الأدنى، وكان اختيار هذا الموقع موفقاً لأكثر من سبب فهو بين قبيلته حيث الحماية التامة وهو كذلك قريب من مراكش يتسقط أخبارها وتحركات إدارتها في شأنه، والمكان نفسه موضع حصين فهو في منطَقة جبلية وعرة.

وفي إيجليز انهال على ابن تومرت الأتباع من قبيلة المصامدة. وبدأ يلقنهم مذهبه الجديد في التوحيد المبني على مزيج من أقوال الأشاعرة وآراء المعتزلة التي اطلع عليها في رحلته المشرقية وذلك في مقابل ما كان عليه أهل المغرب من التمسك بمذهب السلف الصالح في التوحيد القائم على

إثبات ما أثبت الله لنفسه جل وعلا وأثبته له رسول الله ﷺ من غير تأويل مع التنزيه عن الشبه[1]. يقول المراكشي: «وكان (أي ابن تومرت) على مذهب أبي الحسن الأشعري في أكثر المسائل إلا في إثبات الصفات فإنه وافق المعتزلة في نفيها وفي مسائل قليلة غيرها»[2]. ثم يضيف «وكان أهل المغرب ينافرون هذه العلوم ويعادون من ظهرت عليه، شديد أمرهم في ذلك»[3]. ويغفل ابن خلدون الإشارة إلى موافقة ابن تومرت للمعتزلة بل يجعله أشعرياً صرفاً فيقول: «وكان قد لقي بالمشرق أئمة الأشعرية من أهل السنة وأخذ عنهم واستحسن طريقتهم في الانتصار للعقائد السلفية والذب عنها بالحجج العقلية... وذهب إلى رأيهم في تأويل المتشابه من الآي والحديث، بعد أن كان أهل المغرب بمعزل عن اتباعهم في التأويل والأخذ برأيهم فيه، اقتداء بالسلف في ترك التأويل»[4].

وبناء على نظرته التوحيدية هذه وصم المرابطين بأنهم مجسمين يشبهون الله تعالى بالصفات البشرية ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ وبالتالي فهم كفار يجب قتالهم على المسلمين جميعاً بل إن قتالهم في نظره أكبر وأوجب من قتال النصارى[5].

إلا أن أهم ما عني ابن تومرت بتلقينه لأتباعه ضمن المذهب الجديد الذي جاء به هو نظرية المهدي المنتظر والإمام المعصوم. وهذه النظرية هي لب مذهب ابن تومرت كله.

فهو يرى أن الإمامة أمر يجب الإيمان به لدى الكافة وأنها ركن من أركان الدين وعمدة من عمد الشريعة. وأن هذا الإمام لا يمكن إلا أن يكون معصوماً من الباطل ومعصوماً من الضلال والجور والبدع والجهل. ويلخص

---

(١) ابن تيمية: الفتاوى مج١١ ص٤٧٨.

(٢) المعجب: ص٢٧٥.

(٣) المعجب: ص٢٧٠.

(٤) العبر: ج٦ ص٢٢٦.

(٥) ابن القطان: نظم الجمان ٩٧ ـ ٩٩؛ ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٧٥.

لنا ابن تومرت أهمية الإيمان بالإمامة بقوله: «والإمامة هي عمدة الدين وعموده على الإطلاق في سائر الأزمان، وهي دين السلف الصالح والأمم السالفة إلى إبراهيم عليه السلام ومن قبله. فاعتقادها دين والعمل بها دين والتزامها دين ومعناها الاتباع والاقتداء، والسمع والطاعة والتسليم وامتثال الأمر واجتناب النهي والأخذ به في القليل والكثير»[1]. ثم إن هذه الإمامة المطلقة الواجبة الطاعة في كل زمان ومكان لا بد أن تتوج بصفة خاصة تؤكد شرعيتها، وتزيد في قدسيتها، وتجعلها أقرب إلى مراتب النبوة وتلك هي صفة المهدي المنتظر.

وقد شدد ابن تومرت على وجوب طاعة المهدي واعتبر الخروج عن تلك الطاعة خروجاً عن الإسلام وكفراً به. بل إن «الهجرة إليه واجبة لا يحول بينها وبين أحد من المسلمين أهل ولا ولد ولا مال... ويكفر من لم يصل إليه ولم يطعه»[2].

جمع ابن تومرت لأتباعه الأحاديث المتعلقة بالمهدي وجعل يشوقهم إليه ويصفه لهم ويرسخ في أذهانهم أن زمانه قد أظل، وأن هذا الظلم والفساد والجور المنتشر لا يزول إلا بظهور المهدي الذي سيفتح مشرق الأرض ومغربها ويملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً[3]. وقد تمكن ابن تومرت من إيصال مذهبه الجديد إلى عقول المصامدة إما مباشرة، أو عن طريق دعاته الذين بثهم في القبائل. واستعمل ابن تومرت لضمان انتشار أفكاره اللغة البربرية فألف بها كتبه وذلك إلى جانب اللغة العربية[4].

ولما أحس ابن تومرت أن أفكاره قد تمكنت في العقول وأن جماهير غفيرة من المصموديين أشربت حبه وتعظيمه إلى حد أنه «لو أمر أحدهم

---

(١) ابن تومرت: أعز ما يطلب ص٢٤٦.

(٢) نفس المصدر السابق ونفس الصفحة.

(٣) المراكشي: المعجب ص٢٧٥.

(٤) ابن القطان: نظم الجمان ص٨١؛ مجهول: الحلل الموشية: ص١١.

بقتل أخيه أو ابنه لما تردد»[1]، خطا الخطوة الحاسمة إلى الهدف المنشود.

ففي الخامس عشر من رمضان ٥١٥هـ قام ابن تومرت خطيباً في أصحابه قائلاً:

«الحمد لله الفعال لما يريد، القاضي بما يشاؤه، لا راد لأمره، ولا معقب لحكمه وصلى الله على سيدنا محمد رسول الله المبشر بالإمام المهدي الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت جوراً وظلماً، يبعثه الله إذا نسخ الحق بالباطل وأزيل العدل بالجور، مكانه المغرب الأقصى منبته، وزمانه آخر الزمان واسمه اسم النبي عليه الصلاة والسلام، ونسبه نسب النبي صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم. وقد ظهر جور الأمراء وامتلأت الأرض بالفساد وهذا آخر الزمان والاسم الاسم والنسب النسب[2] والفعل الفعل»[3].

فما إن أتم ابن تومرت خطبته حتى قام عشرة[4] من أخص أتباعه فبايعوه على أنه المهدي المنتظر والإمام المعصوم، وقد سمى هؤلاء العشرة بالمهاجرين الأولين وبالجماعة[5]. ثم بايعه بقية مريديه وأتباعه.

---

(١) المراكشي: مصدر سابق ص٢٧٥.

(٢) اختلف المؤرخون اختلافاً كبيراً في نسب ابن تومرت فيذهب عدد منهم وعلى رأسهم مؤرخو الدولة الموحدية إلى أنه ذو نسب علوي فهو كما عند ابن القطان: محمد بن عبدالله بن عبدالرحمن بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن سفيان بن صفوان بن جاب بن عطاء بن رباح بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم. وممن حقق هذه النسبة صاحب الحلل الموشية ص١٠٣ والزركشي في تاريخ الدولتين ص٣ وابن خلكان في وفيات الأعيان ج٥ ص٤٥ ـ ٤٦ بل أن ابن خلدون لا يكتفي بنسبته إلى أهل البيت وإنما يشنع على منكري هذه النسبة ويعتبر أن هذا الإنكار «لا تعضده حجة» (المقدمة ج١ ص٢٩٩)، ويشك ابن أبي زرع في هذه النسبة فيذكرها مع التنبيه على أنها من ذكر مؤرخي الموحدين ثم يتبع ذلك بقوله «وقيل هو دعي في هذا النسب الشريف وإنما هو رجل من هرغة من قبائل المصامدة» (روض القرطاس ص١٧٢)، وممن شك في نسبة العلوي، الذهبي في سير أعلام النبلاء ج١٩ ص٥٣٩.

(٣) ابن القطان: مصدر سابق ص١٢٥.

(٤) ابن القطان: مصدر سابق ص١٢٥؛ مجهول: الحلل الموشية: ص١٠٨.

(٥) ابن القطان: المصدر السابق ص١٢٨.

ولما كملت البيعة سمى المهدي أصحابه وأهل دعوته بالموحدين «تعريضاً بلمتونة في أخذهم بالعدول عن التأويل وميلهم إلى التجسيم» على حد قول ابن خلدون[١].

وضع ابن تومرت أو المهدي لأتباعه جملة من الكتب منها في التوحيد كتاب «المرشدة» كتبه باللغة البربرية، يحتوي على معرفة الله، والعلم بحقيقة القضاء والقدر، والإيمان بما يجب لله تعالى، وما يجب على المسلم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقسمه لهم إلى سبعة أحزاب، عدد أيام الأسبوع، وقال لهم إن من لا يحفظ هذا التوحيد فليس بموحد، وإنما هو كافر لا تجوز إمامته، ولا تؤكل ذبيحته وأخذهم بقراءة حزب واحد منه كل يوم إثر صلاة الصبح[٢]. «فصار هذا التوحيد عند قبائل المصامدة كالقرآن العزيز، لأنه وجدهم قوماً جهلة لا يعرفون شيئاً من أمر الدين ولا من أمر الدنيا»[٣].

ووضع لهم بالبربرية أيضاً كتباً في العقيدة[٤]. وفي هذا المجتمع صار المهدي يقيم الشعائر بل والحدود بنفسه «فيضرب الناس على الخمر بالأكمام والنعال وعسب النخيل متشبهاً في ذلك بالصحابة»[٥].

لبث المهدي بن تومرت يبث دعوته ويعمل على توطيدها في نفوس أنصاره بفصاحته ورقيق وعظه ولطيف معشره[٦]، يعينه في ذلك أعوانه المخلصين الذين يجوبون جبال المصامدة يدعون إلى المهدي ويبشرون بعهده. وقد أثمرت تلك الجهود فجاءه الناس من كل حدب وصوب من جبال المصامدة يبايعونه بالإمامة وأنه المهدي المنتظر ويتبركون برؤيته[٧]،

---

(١) العبر: ج٦ ص٢٢٦.
(٢) ابن القطان: مصدر سابق ص٨١؛ مجهول: الحلل الموشية ١٠٩.
(٣) ابن أبي زرع: مصدر سابق ص١٧٧.
(٤) مجهول: الحلل الموشية ص١١٠.
(٥) المراكشي: مصدر سابق ص٢٨٣.
(٦) الذهبي: سير أعلام النبلاء ج١٩ ص٥٣٩.
(٧) ابن خلكان: مصدر سابق ج٥ ص٥١.

فاستفحل أمره بينهم وعلا صيته عندهم.

أضحى ابن تومرت في إيجليز يمثل خطراً حقيقياً على المرابطين، لما تنطوي عليه حركته من القوة المعنوية والمادية الضخمة. وقد تحقق أمير المسلمين علي بن يوسف من حقيقة الوضع الجديد، وكونه ثورة تعتمل في جبال المصامدة تؤذن بالانفجار. وتبين، متأخراً، صحة تحليل مستشاره الفقيه مالك بن وهيب، وقوة حدسه السياسي في أن ابن تومرت «إن وقع في بلاد مصمودة ثار علينا منه شر كبير»[١].

بدأ أمير المسلمين يتلمس الطرق المجدية للقضاء على هذا الخطر فبادر إلى تكليف عامل السوس بالقضاء على ابن تومرت. لكن جهود هذا العامل لم تنجح بل مني المرابطون بالهزيمة[٢] مما رفع من معنويات الموحدين، وزادهم تصديقاً بوعود المهدي بأن النصر حليفهم والعاقبة لهم[٣].

تتابعت محاولات المرابطين لاستئصال دعوة ابن تومرت. ومع تصاعد المحاولات شعر ابن تومرت أن قرب إيجليز من مراكش جعل منها هدفاً دائماً وبالتالي فإن عليه البحث عن مكان آخر أكثر أمناً وأبعد منالاً. ووقع اختياره على تينملل[٤] فرحل إليها سنة ٥١٨هـ.

### ٤ ـ مرحلة تينملل:

لقد كان اختيار تينملل اختياراً موفقاً فهي في عمق جبال مصمودة ذات

---

(١) المراكشي: مصدر سابق ص٢٦٢.
(٢) ابن القطان: م.س.ص. ١٣٠.
(٣) ابن القطان: مصدر سابق ص١٣١.
(٤) تينملل أو تينمال: موضع غائر في قلب جبال الأطلس قريب من منابع وادي نفيس (الإدريسي: نزهة المشتاق ص٦٤؛ تيراس وباسي: المشاهد والقلاع الموحدية منشور بالفرنسية في H.Terrasse: Sanctuaire & Forteresse Almohade Année 1924 t.iv (Hisperis.

مسالك وعرة «لا يدخلها الفارس إلا من شرقها أو من غربها، أما غربها وهو الطريق إليها من مراكش، فطريق أوسع ما فيه أن يمشي عليه الفرس وحده وأضيقه أن ينزل عن فرسه خوفاً من سقوطه وكذلك شرقها لأن الطريق مصنوعة من نفس الجبل، تحت سالكها حافات وفوقه حافات. وفيها مواضع مصنوعة بالخشب إذا أزيلت منها خشبة لم يمر عليها أحد»[1]. فهي حصن طبيعي يصعب اقتحامه من طرف الأعداء.

ويبدو من مختلف روايات انتقال المهدي إلى تينملل أن هذا الانتقال كان بمبادرة منه وليس استدعاءاً من أهلها كما يذكر ابن القطان[2]. وأكبر دليل على هذا هو حال الريبة والتوجس التي كانت بين المهدي وأهل تينملل منذ نزوله بديارهم، والتي أفضت إلى أن يغدر المهدي بأهل تينملل ويبيد منهم خلقاً كثيراً في يوم واحد[3] وقسم أموالهم وأراضيهم على أصحابه وسبى حريمهم وقد وقع هذا في نفس السنة التي نزل فيها تينملل أي سنة ٥١٨هـ. وبعد هذه المذبحة اعتبر المهدي أنه أصبح في مدينته فأدار عليها سوراً وبنى على رأس الجبل حصناً سكنه هو وبعض خاصته[4].

أثارت مذبحة أهل تينملل نفوس الموحدين بل وبعض خاصة المهدي مثل الفقيه الأفريقي[5] الذي قال للمهدي: «كيف تقتل أقواماً بايعوك ودخلوا

---

(١) الإدريسي: نزهة المشتاق ص٦٤؛ الحلل الموشية ص١١٣.

(٢) ابن القطان: مصدر سابق ص١٣٩.

(٣) يقول ابن القطان أن عدد القتلى كان ١٥ ألف (نظم الجمان ص١٣٩).

(٤) تذكر د. عصمت دندش للاستدلال على أن ابن تومرت كان أحد رجال النزارية الباطنية، مسألة اختياره لتينملل فهي ترى أن الأمر لم يكن عفوياً بل تم لحصانتها ولأن موقعها يشبه تمام الشبه المنطقة التي بها قلعة ألموت بقزوين وحتى الطريق المؤدي إليها، بل وحتى الطريقة التي اتبعها ابن تومرت في الاستيلاء عليها وبناء الحصن فوق قمتها هو نفس الأسلوب الذي اتبعه الحسن بن الصباح في الاستيلاء على قلعة ألموت من صاحبها (أضواء جديدة على المرابطين ص٢٦ ـ ٢٧).

(٥) كان هذا الفقيه الذي لم تذكر المصادر اسمه أحد العشرة أي أنه كان من خاصة الخاصة (ابن القطان: نظم الجمان ص١٤٢).

في طاعتك وتقسم أموالهم؟» فأمر المهدي بقتله وصلبه «لأنه شك في عصمته»[١].

لما أحكم المهدي قبضته على تينملل بدأ بتنظيم أتباعه فقسمهم إلى طبقات حسب ولائهم وإخلاصهم للمهدي ودعوته وجعل لكل طبقة وظيفة خاصة بها ورتبة لا تتعداها سواء في السفر أو الحضر[٢]. وأهم هذه الطبقات هي طبقة العشرة وهي مجموعة الخلصاء أو خاصة الخاصة وأهمهم: تلميذه وألصق الناس به عبدالمؤمن بن علي وأبو محمد عبدالله الونشريسي[٣] وأبو حفص عمر بن يحيى الهنتاني[٤].

كان هذا النظام هو أساس الدولة الموحدية المستقبلية.

ويبدو أن السحر البلاغي للمهدي وقسوته البالغة في الاستيلاء على تينملل لم تستطع أن تضم كل أهالي جبال المصامدة إلى جانب المهدي. فلئن كان قد «استمال الأحداث وذوي الغرة» فإن ذوي العقل والعلم والحلم «لم يتحمسوا لهذه الدعوة الجديدة بل إنهم صاروا ينهون الداخلين فيها ويحذرونهم من اتباع المهدي»[٥]. ورأى المهدي أن استمرار الحال مع وجود هؤلاء «المنافقين» من المستحيل. وكان الحل الوحيد هو أن يتخلص منهم. لكن كيف؟

هنا تفتق ذهنه عن حيلة، ما نظن أنها خطرت ببال رجل غيره في

---

(١) ابن القطان: مصدر سابق ص١٤٢.

(٢) مجهول: الحلل الموشية ص١٠٩.

(٣) أبو محمد عبدالله بن محسن الونشريسي المشهور بالبشير: من أوائل أتباع المهدي فقد التحق به عند مروره بونشريس في طريق عودته إلى المغرب الأقصى وقد لعب أدواراً حاسمة في تاريخ الموحدين في فترة المهدي (ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٧٦؛ الحلل الموشية ص١٠٦ ـ ١٠٧).

(٤) أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاني، واسمه الأصلي فصكة فعرّبه بعمر: وكان من أقرب أعوان ابن تومرت، ثم كان ممن عقدوا الأمر من بعده لعبدالمؤمن وقد توفي سنة ٥٧١هـ، وهو جد الحفصيين الذين توطدت دولتهم بعد ذلك في أفريقية.

(٥) ابن خلكان: مصدر سابق ج٥ ص٥١.

تاريخ الإسلام، فقد أراد الفتك بمن يشك فيهم عن طريق ما سماه بـ«التمييز» أي تمييز المؤمنين الصادقين في إيمانهم عن غيرهم.

وكان المهدي قد اختار الونشريسي وجعله ضمن طبقة العشرة فكان أقرب الأقربين إليه، وكان الونشريسي قبل انضمامه إلى جماعة ابن تومرت قد حفظ القرآن الكريم وقرأ بعضاً من العلم. ولكنه منذ أن انضم إلى المهدي ابتعد عن ذلك المسلك وأظهر الجهل التام[1]. فلما خطرت فكرة التمييز على بال المهدي جعله وسيلته في مراده. فأمره بأن يظهر علمه على الملأ وأن يدعي أن ذلك وهب له دفعة واحدة على سبيل المعجزة. فلما فعل ذلك بهت الموحدون وآمنوا أن هذه كرامة من كرامات ابن تومرت، فقال لهم المهدي «قد جعله الله مبشراً لكم مطلعاً على أسراركم وهو آية من آيات الله تعالى في هذا الأمر» وأنه سيقوم بتمييز المؤمن من غير المؤمن وتلا عليهم قول الله تعالى ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٣٧﴾[2] ثم عرض الناس عليه فجعل يخرج من يعتقد فيه الإخلاص للمهدي على يمينه ويقول هؤلاء أهل الجنة وأخرج أقواماً ممن يشك في ولائهم للمهدي عن يساره وقال إنهم أصحاب النار. وهنا طلب المهدي من أهل اليمين من كل قبيلة أن يقتلوا أهل اليسار وهو ما فعلوه فأباد ألوفاً في أيام قليلة وذلك في سنة ٥١٩هـ[3].

أخذ ابن تومرت بعد هذه العمليات التطهيرية في توجيه أتباعه للإغارة على القبائل المجاورة التي لم تدخل في طاعته وسلب أموالهم. وهو ما سلىٰ الموحدين ورفع معنوياتهم لما جنوه من غنائم وعتاد.

---

(١) يذكر ابن خلكان: أن المهدي أمر الونشريسي من قبل بكتم علمه ليظهره عند الحاجة على سبيل الكرامة (وفيات الأعيان ج٥ ص٥٢).

(٢) سورة الأنفال: الآية ٣٧.

(٣) ذكر حادثة التمييز هذه ابن القطان: نظم الجمان ص١٤٦؛ ابن خلدون: العبر ج٦ ص٢٢٨؛ ابن الأثير: الكامل ج١٠ ص٥٧٤ وقد ذكر أن القتلى كانوا ٧٠ ألف شخص وهو لا شك عدد مبالغ فيه لكنه يدل على أن الضحايا كانوا بالآلاف.

ويبدو أن المرابطين في الفترة من ٥١٨-٥٢٢هـ اكتفوا بإقامة حصون حول مراكش وأغمات[1] لتلافي أي هجوم مباغت. وهو إجراء يشير إلى بداية الانهزام النفسي وانحطاط الروح المعنوية لدى المرابطين وأنهم أصبحوا في دور الدفاع بدلاً من الهجوم.

ويبدو أن وعورة جبال المصامدة وخطورة مسالكها جعلت المرابطين يتهيبون من إرسال جيوش لمحاربة المهدي. هذا بالإضافة إلى الكل الدائم والثغر المستنزف لكل الطاقات والمتمثل في الأندلس. إذ ابتلي المرابطون فيها بعدو نصراني لا يهدأ ولا يستسلم يريد اجتياح كل الأندلس، ثم فوق ذلك شعب أندلسي مشاكس ملول يثور على القضاة والحكام لأدنى سبب[2] بل وأكثر من ذلك يتحالف مع النصارى ضد المرابطين[3].

لكننا نعتقد أن السبب الرئيسي لهذا الضعف المبكر يكمن في شخص أمير المسلمين علي بن يوسف إذ هو كما يصف المراكشي «إلى أن يعد في الزهاد والمتبتلين أقرب منه إلى أن يعد في الملوك والمتغلبين»[4] فهو رغم التقوى وحب العلم وأهله والزهد والعدل لم يكن يتصف بالصرامة والحزم الضروريين لاستقامة واستمرار كل دولة.

وفي مقابل هذا العجز الظاهر عن اتخاذ القرارات الصعبة كان المهدي بن تومرت يضطرم طموحاً يركب كل صعب وذلول لتحقيق أهدافه بإسقاط دولة المرابطين.

وبالفعل بدأ المهدي يحس أن تنظيمه أصبح من القوة والكثرة بحيث أصبح قادراً على اتخاذ موقف الهجوم إزاء المرابطين.

---

(١) مجهول: الحلل الموشية ص٩٨.

(٢) من هذه الثورات ثورة أهل قرطبة على واليهم سنة ٥١٥هـ وثورة أهل أشبيلية على القاضي أبي بكر بن العربي سنة ٥٢٤هـ وقد ذكرناهما في الفصل السابق.

(٣) كما حدث عندما اختار سيف الدولة بن هود تسليم قلاعه للقشتاليين ورضي بأن يكون أحد أتباعهم يغزو في جيشهم ديار المسلمين (ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٧٥).

(٤) المعجب: ص٢٥٢.

وبدأ المهدي في أواخر سنة ٥٢٣هـ في تكوين جيش كبير فندب أتباعه من كل قبائل مصمودة إلى الحضور إليه، فوفدت إليه القبائل بكثرة. وتمكن في صفر ٥٢٤هـ من حشد أربعين ألف مقاتل[١] ووجههم إلى مراكش قائلاً: «اقصدوا هؤلاء المارقين المبدلين الذين تسموا بالمرابطين، فادعوهم إلى إماتة المنكر وإحياء المعروف وإزالة البدع والإقرار بالإمام المهدي المعصوم فإن أجابوكم فهم إخوانكم لهم ما لكم وعليهم ما عليكم، وإن لم يجيبوكم فقاتلوهم، فقد أباحت لكم السنة قتالهم»[٢]. ثم أمر على هذا الجيش أبا محمد الونشريسي[٣].

خرج جيش الموحدين إلى مراكش، وفي طريقه إليها اشتبك مع بعض قوات المرابطين وتمكن من هزيمتها[٤]، وواصل زحفه إلى أن وصل إلى مشارف مراكش، التي كان أهلها قد انهزموا نفسياً قبل أن يهزموا عسكرياً. فبعد اشتباكات خفيفة ولوا الأدبار واكتفوا بإغلاق أبواب مدينتهم عليهم في حين حاصرها الموحدون. ودام الحصار حوالي أربعين يوماً وصلت خلالها الإمدادات المرابطية التي أرسل أمير المسلمين في طلبها، خصوصاً قوات سجلماسة بقيادة وانودين بن سير[٥]. وفي الرابع والعشرين من جمادي الأولى سنة ٥٢٤هـ دارت معركة حاسمة قاتل فيها الطرفان بشجاعة فائقة أسفرت عن هزيمة مروعة للموحدين إذ قتلت منهم جموع غفيرة يقدرها صاحب الحلل الموشية بأربعين ألف، ويقول إنه لم يسلم من الموحدين إلا أربعمائة فارس وراجل. وسقط في الميدان عدد من أصحاب المهدي المقربين، من أهل العشرة، على رأسهم قائد الجيش الموحدي أبو محمد

---

(١) ابن القطان: مصدر سابق ص١٥٦.

(٢) المراكشي: مصدر سابق ص٢٨٢.

(٣) مجهول: الحلل الموشية ص١١٤.

(٤) ابن القطان: مصدر سابق ص١٥٦ ـ ١٥٧.

(٥) وانودين بن سير: والي سجلماسة وأحد قادة المرابطين، كان قبل ولاية سجلماسة والياً على جزيرة ميورقة بعد استنقاذها من أيدي القراصنة البيزيين والجنوبيين سنة ٥٠٩. (محمود مكي: وثائق تاريخية عن عصر المرابطين ص١٦١).

الونشريسي الملقب بالبشير وهو أحد أركان الدعوة الموحدية، ومعه أربعة آخرون من أصحاب المهدي العشرة.

وقد تمكن عبدالمؤمن بن علي من الفرار في نفر من أصحابه، وقد أصيب بجرح عميق في فخذه الأيمن، ولم ينقذه من الموت سوى الظلام وهطول الأمطار[1].

ووصل عبدالمؤمن ومن بقي معه إلى تينملل بعد مطاردة شاقة من طرف المرابطين. وكان خبر الهزيمة قد سبقهم إلى المهدي الذي كان مريضاً.

وتسمى هذه الواقعة موقعة البحيرة نسبة إلى الموضع الذي وقعت فيه[2].

كان المهدي بن تومرت، كما أسلفنا، مريضاً ويبدو أن هذه الهزيمة هاضت جناحه وزادت مرضه، ومع ذلك فقد أظهر التجلد لهذا الحدث وطمأن أصحابه أن عاقبة الأمر لهم.

ولكن المهدي كان يحس أن هذه الهزيمة انتكاسة لمخططه ونسف لبنائه، بل وأكثر من ذلك تزرع الشك في صدق دعواه بأنه المهدي المعصوم المؤيد من الله. فكان من الضروري بالنسبة له أن يجد وسيلة يعيد بها ثقة أتباعه فيه وفي دعوته ومهديته.

وكما هي عادته لم يتردد المهدي، عند عجز منطق دعوته، في اللجوء إلى حيل الشعوذة والتدجيل على حد تعبير أحد الباحثين[3].

اتفق المهدي مع مجموعة من أتباعه على أن يدفنهم أحياء ويترك لكل

---

(١) ابن القطان: مصدر سابق ص١٦٠؛ ابن عذارى: مصدر سابق ج٤ ص٨٣؛ مهول: الحلل الموشية ص١١٦.

(٢) ابن القطان: المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٣) عباس الجراري: الموحدون: ثورة سياسية ومذهبية، المناهل، العدد الأول، السنة الأولى ١٩٧٤ ص٩١.

واحد منهم متنفساً وقال لهم: «إذا سئلتم فقولوا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً من مضاعفات الثواب على جهاد لمتونة، وعلو الدرجات التي نلنا بالشهادة، فجدوا في جهاد عدوكم، فإن ما دعاكم إليه الإمام المهدي صاحبكم حق»[1].

ووعدهم أنهم إذا فعلوا ذلك أخرجهم وأنالهم حظوة ورفعة. وفي إحدى الليالي دفن هؤلاء النفر في ساحة إحدى المعارك السابقة مع المرابطين ثم دعى شيوخ الموحدين إلى تلك الساحة فوعظهم وحثهم على جهاد المرابطين وبشرهم بالنصر، وتأكيداً لقوله طلب منهم أن يسألوا شهداءهم عن ما لقوا من الله عز وجل، فلما فعلوا ذلك أجابهم المدفونون بما لقنهم المهدي. فلما سمع الموحدون ذلك افتتنوا به[2].

ولما كان الهدف يبرر الوسيلة في نظر المهدي فإنه قام فور انصراف شيوخ الموحدين بإغلاق المنافذ التي كان يتنفس من خلالها أصحابه المدفونون فماتوا من ساعتهم، وذلك حتى لا يزل لسان أحدهم فيفشي سر تلك الكرامة المعجزة[3].

لم يمهل المرض المهدي كثيراً فتوفي في رمضان من نفس السنة أي سنة **٥٢٤هـ**[4].

ولئن مات المهدي بن تومرت دون أن يحقق حلمه بإسقاط الدولة المرابطية، بل مهزوماً، فإنه استطاع وبشكل رائع أن يكون أتباعاً يؤمنون به إيماناً مطلقاً ويؤمنون بدعوته، ملأ عقولهم أملاً بمستقبل هذه الدعوة، وقد استغل ببراعة العداء أو «التضاد» الطبيعي القائم بين المصامدة وصنهاجة.

---

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٨٢.

(٢) ابن أبي زرع: مصدر سابق ص١٨٢؛ ابن خلدون: مصدر سابق ج٦ ص٣٨٨.

(٣) ابن أبي زرع: المصدر السابق نفس الصفحة؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء ج١٩ ص٥٥١.

(٤) ابن القطان: صدر سابق ص١٦٧؛ المراكشي: مصدر سابق ص٢٨٤.

فأعطى قومه المصامدة إطاراً منظماً ومذهباً يحققون من خلالهما أملهم في إزالة الدولة المرابطية وأهلها «الكافرين»، «المارقين» بدولة المصامدة المؤمنة الموحدة. وقد تمكن هؤلاء الأتباع الذين خلف أن يحققوا ذلك الأمل المنشود والاستخلاف الموعود فأسقطوا دولة المرابطين سنة ٥٤١هـ[١] وأقاموا دولة كبرى هي دولة الموحدين.

لقد كان ابن تومرت شخصية فذة يتمتع بصفات فريدة قلما اجتمعت في شخص واحد، فهو ذكي شديد الذكاء، قوي الشخصية، طموح، ذو عقل مرتب، ذو ثقافة عالية اختلط فيها تأثير أهل السنة بتأثير الشيعة[٢]. يقول عنه الحافظ الذهبي: «حصل فنوناً من العلم والأصول والكلام، وكان رجلاً ورعاً ساكناً ناسكاً في الجملة، زاهداً متقشفاً شجاعاً جلداً عاقلاً عميق الفكر بعيد الغور فصيحاً مهيباً»[٣]. بل أنه حلاه بـ«الشيخ الإمام الفقيه الأصولي الزاهد»[٤].

ومع ذلك فقد دفعه حب الرئاسة والظهور إلى الكذب والخداع وادعاء العصمة والمهدية وكان سفاكاً للدماء غير متورع فيها ولا متوقف عنها يهون عليه سفك دم عالم من الناس في هوى نفسه وبلوغ غرضه[٥].

ويمكن توجيه هذا التناقض البين بأن ابن تومرت رجل سياسي قبل كل شيء حدد لنفسه أهدافاً طموحة جداً تتمثل في الاستيلاء على السلطة في المغرب. وقد طغى هذا الهدف على كيانه، فسخر له علمه وعمله وجعله ينسى كل المبادىء والتعاليم الإسلامية التي لا تخدم غرضه ولا تقرب

---

(١) ابن عذارى: مصدر سابق ج٤ ص١٠٨؛ الحلل الموشية: ص١٣٧.

(٢) يقول عنه المؤرخ الموحدي عبدالواحد المراكشي: «وكان ـ أي ابن تومرت ـ يبطن شيئاً من التشيع» (المعجب ص٢٧٥).

(٣) الذهبي: العبر في خبر من غبر ج٢ تحقيق أبو هاجر محمد سعيد بن بسيوني زغلول ط. دار الكتب العلمية ص٤٢١.

(٤) الذهبي: سير أعلام النبلاء ج١٩ تحقيق شعيب الأرناؤوط؛ مؤسسة الرسالة ١٩٩٠ ط٧ ص٥٣٩.

(٥) ابن أبي زرع: مصدر سابق ص١٨١.

طلبته. ولعل أجلَّ ما نسي من ذلك خشية الله والصدق في القول والعمل.

يقول الإمام ابن تيمية عنه: «وقد استحل دماء ألوف مؤلفة من أهل المغرب المالكية، الذين كانوا من أهل الكتاب والسنة على مذهب مالك وأهل المدينة، يقرأون القرآن والحديث: كالصحيحين والموطأ وغير ذلك والفقه على مذهب أهل المدينة فزعم أنهم مشبهة مجسمة ولم يكونوا من أهل هذه المقالة ولا يعرف عن أحد من أصحاب مالك إظهار القول بالتشبيه والتجسيم. واستحل أيضاً أموالهم وغير ذلك من المحرمات»[(١)].

ويقول أيضاً عن كتاب «المرشدة» في التوحيد الذي ألفه ابن تومرت لأتباعه:

«...لم يذكر في «مرشدته» الاعتقاد الذي يذكره أئمة العلم والدين من أهل السنة والجماعة أهل الحديث والفقه والتصوف والكلام وغيرهم من أتباع الأئمة الأربعة... بل اقتصر فيها على ما يوافق أصله وهو القول بأن الله وجود مطلق وهو قول المتفلسفة والجهمية، والشيعة، ونحوهم ممن اتفقت طوائف أهل السنة والجماعة أهل المذاهب الأربعة وغيرهم على إبطال قوله، وتضليله»[(٢)].

لقد كانت ثورة ابن تومرت سابقة تحتذي لكل شاق لعصى الطاعة للمرابطين. فقد احتذى حذوه وانتحل نحلته أحد الأندلسيين يدعى أحمد بن قسي[(٣)] دعى لنفسه باعتباره المهدي والإمام، كما فعل ابن تومرت، وقد

---

(١) ابن تيمية: الفتاوى مج١١ ص٤٧٨.

(٢) نفس المصدر ص٤٨٦ ـ ٤٨٧.

(٣) أبو القاسم أحمد بن الحسين بن قسي (ت٥٤٦هـ): مولد يرجع إلى أصل نصراني. وقد نشأ في أحواز شلب واشتغل في بداية حياته مشرفاً مالياً ثم انخرط في سلك الصوفية فباع جميع ممتلكاته وتصدق بأثمانها، وتجول في الأندلس فلقي بالمرية قطب الصوفية يومئذ أبا العباس أحمد بن محمد الصنهاجي الأندلسي المعروف بابن العريف فدرس عليه ثم عاد إلى وطنه وابتنى رابطة بقرية جلة من قرى شلب وانكب على قراءة كتب الغزالي فالتف حوله كثير من الصحب والأنصار، فتسمى المهدي وادعى الولاية وألف مجموعة من الكتب في طريق الصوفية منها كتاب «خلع النعلين» وكان =

تستر ابن قسي بثوب التصوف لكي يجذب الناس إليه. وقد قاد ابن قسي ثورة أشعلت نار الفتنة في معظم مدن غرب الأندلس في سنة **٥٣٩هـ** وعرفت هذه الثورة بثورة المريدين[١].

لن نتوقف عند هذه الثورة لأن صاحبها لم يكن من أهل العلم، وإنما كان من طالبي الجاه بانتحال الزهد والتصوف واختلاق الكرامات[٢]. وقد جاءت هذه الثورة لتزيد من حرج موقف المرابطين في الأندلس، في الوقت الذي كانت فيه دولتهم في المغرب قد آذنت بالزوال تحت ضربات الموحدين.

في هذا الجو بدأت الأطماع والطموحات تختمر في أذهان عدد من أهل الأندلس لاهتبال الفرصة والثورة على المرابطين والاستقلال عن نفوذهم المنحسر.

وبالفعل استسلم عدد من رجالات الأندلس لإغراءات الرئاسة وبريق الزعامة. وكان في مقدمة هؤلاء مجموعة من العلماء القضاة.

## ٥ ـ ثورات القضاة في الأندلس:

تكاتب قضاة الأندلس، سنة **٥٣٩هـ** في شأن الوضع الحالي لبلادهم. ويبدو أن بعضاً منهم تواصوا بانتهاز الفرصة وتقلد الحكم في مدنهم.

كان أول الخارجين على الحكم المرابطي هو القاضي أبو جعفر حمدين بن حمدين وكانت أسباب خروجه ذاتية أكثر منها موضوعية فقد كان طموحاً إلى السلطة والنفوذ، فبايعه أهل قرطبة في الخامس من رمضان

---

= ابن قسي في حقيقة أمره يتخذ من الصوفية قناعاً لمشاريع وطموحات سياسية فلما كثر أتباعه وأحس بضعف المرابطين دعا إلى الثورة باعتباره الإمام المنتظر (ابن الأبار: الحلة السيراء ج٢ ص١٩٧؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص٢٤٨ ـ ٢٥٢؛ محمد عنان: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الثالث ص٣٠٧ ـ ٣١١).

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص٢٤٨؛ ابن الأبار: الحلة السيراء ج٢ ص١٩٧.

(٢) ابن الخطيب: المصدر السابق ص٢٤٩.

٥٣٩هـ بعدما طردوا عامل المرابطين الرئيس أبا عمر المسوفي[١]، وتلقب ابن حمدين بأمير المسلمين وناصر الدين[٢] المنصور بالله وسكن قصر الإمارة.

ولن نستفيض في ذكر أخبار ابن حمدين وتطورات أمره لأننا سنذكرها بتفصيل في الفصل التالي. ونكتفي بالقول بأن ثورته دامت أحد عشر شهراً انتهت باستعادة المرابطين لقرطبة[٣] بقيادة الأمير أبو زكريا يحيى بن غانية[٤].

كان من أصداء ثورة ابن حمدين في قرطبة أن قامت في نفس الوقت في غرناطة ثورة مماثلة تزعمها القاضي أبو الحسن علي بن عمر بن أضحى (٤٩٢ ـ ٥٤٠هـ) الذي كان يتولى قضاءها «وكان أبيّ النفس علَيِّ الهمة»[٥]. وقد ساند أهل غرناطة ابن أضحى في ثورته فأخرج المرابطين من المدينة، وقد تحصن المرابطون بالقصبة ونشب القتال بين الفريقين، وكان أمير غرناطة المرابطي يومئذ هو علي بن أبي بكر المعروف بابن فنو[٦]. واتصل القتال مدة فشعر ابن أضحى بأنه لا يمكن أن ينتصر على المرابطين بما عنده من القوات فأعلن بيعته لابن حمدين صاحب قرطبة واتِّباعه له. واستصرخ به

---

(١) ابن الخطيب: المصدر السابق ص٢٥٣.

(٢) ابن الخطيب: نفس المصدر والصفحة؛ النباهي: تاريخ قضاة الأندلس ص١٠٣.

(٣) الضبي: بغية الملتمس ص٣٤ ـ ٣٥؛ ابن الخطيب: المصدر السابق ص٢٥٤.

(٤) أبو زكريا يحيى بن علي بن غانية الصحراوي (ت٥٤٣هـ): غانية اسم أمه، أحد كبار قواد المرابطين في الأندلس، كان له دور كبير في الجهاد، ومن أشهر مواقعه يوم أفراغة سنة ٥٢٨هـ والتي هزم فيها ابن رذمير (ألفونس المحارب) كما كان له بلاء كبير في مدافعة النصارى عن مدينة الأشبونة في غرب الأندلس، ولاه تاشفين بن علي على قرطبة سنة ٥٣٨هـ (ابن الخطيب: الإحاطة ج٤ ص٣٤٤ ـ ٣٤٧).

(٥) ابن الأبار: الحلة السيراء ج٢ ص٢١٤.

(٦) علي بن أبي بكر بن إبراهيم المسوفي: ابن أحد كبار أمراء المرابطين وهو أبو بكر بن إبراهيم المسوفي المعروف بابن تيفلويت (ت٥١٠) أما أمه فهي أخت أمير المسلمين علي بن يوسف وهي التي ينتسب إليها فقد كانت تدعى فنو (ابن الأبار: الحلة السيراء ج٢ ص٢١٢).

وبابن جزي قاضي جيان[1]. وجه إليه ابن حمدين بعض قواته بقيادة ابن أخيه علي بن أحمد المعروف بابن أم العماد. ويبدو أن تبعية ابن أضحى لابن حمدين واستنجاده به لم تكن عن إجماع من أهل غرناطة بل كان يمثل بالخصوص رأي الفقهاء في المدينة وجماعة من أهلها. أما الفريق الثاني فكان يرى أنه من الأفضل إعلان التبعية لسيف الدولة بن هود[2] لقدم بيته وتغلبه في تلك الفترة على جيان وبعض القواعد الأخرى.

وبالفعل استدعى هذا الفريق ابن هود ليأتي لرئاسة مدينتهم. وقد لبّى ابن هود على الفور وأسرع في دخول غرناطة في عسكر من أوباش النصارى وسقاط الجند[3].

ولما رأى ابن أم العماد هذا التطور رجع بقواته إلى قرطبة. ووجد القاضي ابن أضحى أنه لم يعد أمامه إلا التعامل مع ابن هود، فتعاون معه على قتال المرابطين الذين شدّدوا من هجماتهم على القوات المتحالفة. وفي تلك الأثناء توفي القاضي أبو الحسن ابن أضحى[4].

توفي القاضي ابن أضحى ولم يدرك مما أمل شيئاً، وخلف غرناطة وأهلها في صعاب متكاتفة ومآزق مشتدة، وانتهى أمر الفتنة التي أثارها بأن رجعت غرناطة إلى حكم المرابطين من جديد[5].

---

(١) ابن الأبار: الحلة السيراء ج٢ ص٢١٢.

(٢) سيف الدولة أحمد بن عبدالملك بن هود ويلقب بالمستعين بالله: من سلالة بني هود ملوك الثغر الأعلى. وكان صاحب قلعة روطة من عمل تطيلة بالثغر الأعلى وحينما ضيق عليه المرابطون أثناء احتلالهم للأندلس، تنازل عن قلاعه لصالح ألفونس ملك قشتالة نظير أن يقطعه إقطاعاً بجوار طليطلة. وأصبح ابن هود تابعاً لألفونس يخرج معه في غزواته ضد المسلمين، واشترك ابن هود في الفتن التي أثيرت في آخر عهد المرابطين وقتل فيها سنة ٥٤٠هـ (ابن سعيد: المغرب ج٢ ص٤٣٨؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٧٥).

(٣) ابن عبدالملك: الذيل والتكملة السفر الخامس قسم١ ص٢٢٣.

(٤) ابن الأبار: الحلة السيراء ج٢ ص٢١٢.

(٥) ابن الأبار: الحلة السيراء ج٢ ص٢١٥.

أصابت عدوى الثورة مالقة فانقلب قاضيها على المرابطين. فقد أعلن القاضي أبو الحكم بن حسون[1] الثورة في ١٣ رمضان ٥٣٩هـ ودعا لنفسه واستبد بالأمر وحاصر المرابطين بالقصبة وشدد عليهم الحصار لمدة ستة أشهر حتى اضطرهم للخروج وتسليم القصبة له، فدخلها واتخذ منها مقراً لإقامته، وتلقب بالأمير وجمع في يده منصب الإمارة والقضاء. وقلد أخاه أبا الحسن قيادة الجيش وعهد إليه بولاية قرطمة[2] وما إليها[3].

تمكن القاضي ابن حسون من تحقيق ما عجز عنه أقرانه من القضاة الثائرين وهو البقاء في الحكم لسنوات عدة رغم الظروف المضطربة التي كانت تعيشها المنطقة. فقد ظل حاكماً لمالقة إلى سنة ٥٤٧هـ[4].

يجد الباحث شحاً كبيراً في المعلومات حول فترة حكم ابن حسرن وأعماله في الفترة التي حكمها. ومع ذلك فيبدو أنه خلف آثاراً وأعمالاً كبيرة إذ يذكر ابن الخطيب أن «له بخارج مالقة من الآثار ما يشهد بجلالة قدره»[5].

لم يترك المرابطون ابن حسون يهنأ بإمارته فبدأوا يهاجمونه من حصن أنتقيرة[6] والحصون المجاورة وضايقوه حتى اضطر إلى الاستعانة بالمرتزقة النصارى وأن يستدعي جيوش قشتالة. واضطر القاضي ابن حسون من أجل دفع أجور المرتزقة أن يرهق كاهل أهل مالقة بالضرائب والمغارم المختلفة.

---

(١) الحسين بن الحسين بن عبدالله بن حسون قال عنه ابن الخطيب: «نشأ على مهيع سلفه من الوجاهة والنباهة وعلو المكانة وشرف الذات وبعد الصيت وطلب العلم» (أعمال الأعلام ص٢٥٥) وقد وصف ابن بشكوال جده القاضي حسون (ت٤٥٣هـ) بأنه «فقيه مالقة وكبيرها» (الصلة ج١ ص١٤١).

(٢) قرطمة: من أعمال رية وهي مدينة حصينة تقع غربي مالقة (ياقوت: معجم البلدان ص٣٢٤).

(٣) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص٢٥٥.

(٤) نفس المصدر والصفحة.

(٥) نفس المصدر والصفحة.

(٦) أنتقيرة: حصن بين مالقة وغرناطة شمال غربي مالقة (ياقوت: معجم البلدان ص٨٠).

وأدى ذلك إلى أن كرهته الرعية، فتآمرت عليه. وتمكن المتآمرون بممالأة من رئيس حرس ابن حسون أن يستولوا على القصبة ويقبضوا على أخيه أبي الحسن ويقتلوه. وامتنع ابن حسون داخل القصر ودافع عن نفسه بأشد ما يمكن فلما أيقن بالهلاك دخل داره وأحرق مكتبته ثم حاول قتل نسائه وبناته، صوناً لهن، إلا أنهن اعتصمن منه بالغرف والبيوتات الداخلية ثم أقدم على الانتحار بأن طعن نفسه برمح نفذ إلى ظهره وذلك في الحادي عشر من ربيع الأول عام ٥٤٧هـ. وقد صلب الثائرون جثته واحتزوا رأسه وأرسلوه إلى مراكش[١].

كانت هذه نهاية مخزية لرجل حرم ثمرة العلم التي هي التقوى فأخلد إلى الأرض وتشبث بها إلى آخر رمق وبكل وسيلة. فلما أيأسته الحيلة وأعجزه التدبير قرر الانسحاب من هذه الدنيا، التي لا تطاوعه في هواه، غير عابىء بعاقبة ذلك في الدنيا والآخرة.

هزت هذه الثورات العقول وأطارت الحلوم فخاض البعض غمار هذه الفتن مرغماً عليها، في البداية على الأقل، مظهراً حسن النية. ومن هؤلاء المدفوعين إلى الفتنة الصالين جحيمها بغير رغبة كبيرة قاضي بلنسية أبو عبدالملك مروان بن عبدالعزيز[٢]. إذ ما كادت أنباء ثورات القضاة تصل أهل بلنسية حتى اضطرب أهلها، فبادر القاضي ابن عبدالعزيز بالاجتماع بوالي المرابطين ببلنسية عبدالله بن غانية واتفقا على الائتلاف ونبذ الخلاف في هذه الفترة العصيبة. وتأكيداً لذلك جمعا الناس في المسجد الجامع وخطب كل منهما مذكراً بجهاد المرابطين واستنقاذهم بلنسية[٣]. وزاد

(١) ابن الخطيب: مصدر سابق نفس الصفحة.

(٢) ابن الأبار: الحلة السيراء ج٢ ص٢١٨؛ المعجم: ص١٩٦؛ ابن الخطيب: أعمار الأعلام ص٢٥٦.

(٣) استنقذ المرابطون بلنسية من يد القشتاليين سنة ٤٩٥هـ بعد أن احتلها القائد المغامر المعروف «السيد» سنة ٤٨٧هـ وظلت إلى ذلك التاريخ تحت حكم القشتاليين (ابن بسام: الذخيرة القسم الثالث، مجلد١ ص٩٢ ـ ١٠٢؛ محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الثاني ٢٣٢ ـ ٢٤٨).

القاضي ابن عبدالعزيز في حض الناس على الوفاء للمرابطين والتمسك بدعوتهم[1].

ويبدو أن نفوس المرابطين كانت مليئة بالتوجس والريبة من كل تصرفات الأندلسيين، فلم تفلح هذه التطمينات في إزالة الخوف والحذر. لذلك فر الوالي عبدالله بن غانية إثر خلاف بينه وبين بعض الجند[2]. وقد فر معه عدد كبير من المرابطين. واستقروا بشاطبة. وبدأ عبدالله بن غانية يغير على نواحي بلنسية ويجتاحها. وفي بلنسية رغب الجند ووجوه أهل البلد إلى ابن عبدالعزيز في التآمر عليهم فرفض طلبهم. فاتفقوا على تقديم أحد المرابطين الباقين في بلنسية.

وأحس الوالي الجديد أن الأمور لا يمكن أن تصفو له مع وجود شخصية ذات نفوذ كبير مثل القاضي ابن عبدالعزيز، لذلك حاول اعتقاله إلا أنه لم يفلح. فلما لم ينجح في محاولته تلك زاد خوفه من أهل بلنسية ففر إلى شاطبة ومعه بقية المرابطين[3].

بعد فرار المرابطين وقع الإجماع في بلنسية على القاضي ابن عبدالعزيز فبايعه أهلها في **٣** شوال **٥٣٩**هـ. وكانت أولى مهماته هي رد هجمات المرابطين الذين تجمعوا في شاطبة وصاروا يهاجمون منها بلنسية وأحوازها، فاستنفر لذلك كل قواته واستنجد بصديقه أمير مرسية القاضي أبو جعفر بن أبي جعفر. فتعاون القاضيان على محاصرة شاطبة وكلاهما يضمر في نفسه الفوز بها، ويرى أنه أحق بها[4]. وهو ما يعكس أخلاق الطمع وانتهاز الفرص التي أصبحت توجه أعمال هؤلاء القضاة المتأمرين.

أدرك عبدالله بن غانية عدم جدوى مقاومة المحاصرين، فخرج

---

(١) ابن الأبار: الحلة السيراء ج٢ ص٢١٨.

(٢) نفس المصدر والصفحة.

(٣) نفس المصدر: ص٢١٩.

(٤) نفس المصدر: ص٢٢٠.

منها[1]. وبخروجه تملك ابن عبدالعزيز شاطبة وانضمت إليه مدينة لقنت[2] وما إليها، «فضخمت جملته واتسعت طاعته»[3].

ويبدو أن متطلبات التأمر كانت تفوق قدرات ابن عبدالعزيز فتكاثرت عليه المشاكل: فقد كانت الرعية ساخطة، شأنها شأن الرعية في كل مدن الأندلس آنذاك، من كثرة مطالبه، كما تمرد الجند لعجزه عن دفع مرتباتهم، فحاصروه في قصره. وكان قصارى ما استطاع فعله أن تنكر وهرب لسبيله في ٢٦ جمادى الأول ٥٤٠هـ[4]. فوصل إلى المرية حيث اتصل بقائد الأسطول المرابطي محمد بن ميمون لتسهيل خروجه من الأندلس، غير أن ابن ميمون قبض عليه وسلمه إلى عبدالله بن غانية عدو ابن عبدالعزيز وطريده من بلنسية وشاطبة فاكتفى هذا الأخير بسجنه في ميورقة نحواً من عشر سنوات إلى أن خلّصه الوزير أبو جعفر بن عطية[5] من السجن. فـ«تلاعبت به الأيام إلى أن توفي بمراكش ٥٧٨هـ»[6].

لم تتخلف مرسية عن ركب الثورة على المرابطين فرأس أهلها القاضي أبا محمد بن الحاج اللورقي[7] الذي دعا لابن حمدين. غير أنه ما لبث أن

---

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص٢٥٦؛ ابن الأبار: المعجم ص١٩٦.

(٢) لقنت: مدينة من أعمال لاردة جنوبي بلنسية وشرقي مرسية وهي من أكبر موانىء البحر المتوسط آنذاك (ياقوت: م عجم البلدان ص٣٥٥).

(٣) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص٢٥٦.

(٤) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص٢٥٦.

(٥) أبو جعفر أحمد بن عطية (ت٥٥٣هـ): كاتب بليغ، كتب لعلي بن يوسف في آخر أيامه ثم لابنه تاشفين فلما انقضت دولة المرابطين دخل في لفيف الناس وأخفى نفسه إلى أن استكتبه الخليفة عبدالمؤمن بن علي ثم استوزره. وبعد أن أدرك مكانة مرموقة عند عبدالمؤمن جرت له محنة فقتل هو وأخوه أبو عقيل (المراكشي: المعجب ص٢٩٠ ـ ٢٩٣؛ ابن الخطيب: الإحاطة ج١ ص٢٦٣ ـ ٢٧١).

(٦) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص٢٥٦.

(٧) عبدالرحمن بن جعفر المعافري المعروف بأبي محمد بن الحاج (ت٥٥٠هـ): من أهل لورقة وسكن مرسية برع في الأدب فاستدعاه أمير المسلمين علي بن يوسف للكتابة بحضرته سنة ٥٢٨هـ، فنهض بما حمل ثم استعفى من ذلك وانصرف إلى مرسية هاجراً =

«أظهر التبرم بما حمل، والانخلاع مما قلد»[1] فاختار أهل مرسية القاضي أبا جعفر بن أبي جعفر الخشني، فسار على ما سار عليه سلفه من الدعوة لابن حمدين و«خاطبه مشايعاً له ومتبعاً»[2]، فوجه إليه بالقائد عبدالله الثغري والياً وقائداً على مرسية وأوصاه بالتعاون مع أبي جعفر وبالانقياد إلى أوامره.

كان ابن أبي جعفر، رغم إشراكه في إدارة مدينته، وجعل رأيه ملزماً، يحس أنه ليس دون بقية القضاة الذي استقلوا بمدنهم، وأن من حقه التفرد بمرسية يدعو فيها لنفسه.

وفكر ابن أبي جعفر في أنه يحتاج إلى عمل ما يزيد من نفوذه ويبسط هيبته. وكان أقرب تلك الأعمال هو مطاردة المرابطين. لذلك بادر فحشد أهل مرسية لقتال المرابطين بأوريولية[3] فتحصن هؤلاء بقصبتها، وحاولوا الدفاع عنها ثم أيقنوا استحالة ذلك فطلبوا الأمان مقابل التسليم لهم فتعهد لهم القاضي ابن أبي جعفر بذلك.

لكن هؤلاء القضاة المتآمرين، فيما يبدو، نسوا كل مقتضيات علمهم بل وكل القيم الإسلامية. فلم يعودوا يفون بعهد ولا يرقبون في مؤمن إلًّا ولا ذمة، أشربت قلوبهم الفتن فلم يعودوا يستبينون رشداً فاستوت عندهم الظلمات والنور فكلهم يصبح ويمسي في ظلام هواه.

فغدر ابن أبي جعفر بهؤلاء المرابطين و«استؤصلوا قتلاً وتحريقاً بالنار ومثّل بهم، وانتهبت أموالهم وعيل الصبر لما لقي عيالهم» كما يقول ابن الأبار[4].

---

= خدمة الأمراء مواصلاً صحبة الفقراء، زهد في الدنيا ورغبة في الآخرة. ولما قلد أمر مرسية سنة ٥٣٩ استعفى منه. وعاد لما كان عليه من عبادة وزهد (ابن الآبار: المعجم ص٢٣٨).

(١) ابن الأبار: المعجم ص٢٣٩.

(٢) نفس المصدر والصفحة.

(٣) أوريولية: مدينة ساحلية تقع إلى الشمال الشرقي من مرسية وإلى جنوب لقنت وهي حصن منيع (ابن سعيد: المغرب ج٢ ص٢٨٦).

(٤) المعجم: ص٢٣٩.

رأى ابن أبي جعفر أنه بعد هذا «النصر» قد أصبح في مركز قوة يمكنه من إظهار دفين أطماعه، فخلع دعوة ابن حمدين ودعا لنفسه وتسمى بالأمير الناصر لدين الله وهو لقب يذكرنا بألقاب أمراء عهد الطوائف[1].

أمر ابن أبي جعفر بالقبض على عبدالله الثغري وأودعه السجن. ومن أغرب ما اتخذه أن اتخذ الطلبة الذين كانوا يأخذون عليه العلم حشماً وخدماً[2].

وفي إطار السباق المحتدم بين القضاة الثائرين لتوسيع مناطق نفوذهم شارك ابن أبي جعفر في حصار شاطبة طمعاً في الاستيلاء عليها، ولكنها كانت من نصيب القاضي ابن عبدالعزيز كما ذكرنا سابقاً. وقد انتهز أهل مرسية هذه الغزوة ليخلعوا ابن أبي جعفر ويطلقوا سراح الثغري. لكن ابن أبي جعفر تمكن من سحق المتمردين عليه وأن يسترجع حكمه[3].

خرج ابن أبي جعفر من جديد تلبية لاستدعاء ابن أضحى من غرناطة مستنصراً به، لما أعياه أمر المرابطين بقصبة غرناطة، ووعده بما أطمعه. لكن المرابطين تمكنوا من هزيمة هذا التحالف وقتل ابن أبي جعفر وأفنوا معظم جنده في ٣ ربيع الأول ٥٤٠هـ[4]، والعجب أنه كان في هذا الجيش الفازع طمعاً «أعلام فقهاء الشرق وكتابهم وشعراؤهم»[5]. مما يدل على أن الفتنة قد استفزت الجميع.

لم تقتصر الثورة وإثارة الفتنة على هؤلاء النفر من القضاة بل اشترك فيها قضاة آخرون وإن كانوا أقل تأثيراً وشأناً، فمن هؤلاء: القاضي أبو أمية

---

(١) لقد تلقب بهذا اللقب من أمراء الطوائف علي بن حمود (ت٤٠٨هـ): أول أمراء بني حمود العلويين بقرطبة (ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٢٨ ـ ١٢٩).

(٢) ابن عبدالملك: الذيل والتكملة سفر الخامس قسم١ ص٩٩.

(٣) ابن الأبار: المعجم ص٢٤٠.

(٤) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص٢٥٨.

(٥) نفس المصدر والصفحة.

أحمد بن عاصم[1] المتغلب بأريولية. والقاضي يوسف بن عبدالرحمن بن جزي المتأمر بجيان[2].

كان الأندلس منذ سنة **٥٣٩هـ** إلى دخول الموحدين له ابتداء من سنة **٥٤١هـ**، يعيش فتنة حقيقية تركت الحليم حيراناً. ومع ذلك فقد بقيت أغلبية العلماء بمنأى عن تأجيج هذه الفتنة وظلوا يبثون العلم ويوطنون الأنفس. وليس مسلك القاضي أبو محمد عاشر بن عاشر عندما رفض التعاون مع القاضي الثائر ابن أبي جعفر، وانكب على العلم يفيد ويستفيد، إلا نموذجاً لمسلك أغلبية العلماء التي لم تكن تريد علواً في الأرض ولا فساداً.

وقد عبر عدد من العلماء عن رفضهم سلوك الطريق الذي سلكه زملاؤهم الثائرون واعتبروا عمل هؤلاء نكثاً لبيعة صحيحة يجب الوفاء بها للمرابطين. فهذا القاضي أبو جعفر ابن الحسين بن الحسن الأزدي رفض بيعة القاضي ابن عبدالعزيز قائلاً: «والله لا أفعل وبيعة تاشفين في عنقي»[3].

وأصر القاضي جعفر بن الحسين بن أبي البقاء، على بيعة المرابطين[4]. وحتى الذين اضطروا إلى التعاون مع هؤلاء الثائرين، ولو في أضيق الحدود، فإنهم كانوا يحسون بمرارة هذا العمل وتؤنبهم ضمائرهم على ذلك، وخير مثال على ذلك هو الفقيه القاضي أبو عبدالله بن غلام الفرس الذي أرغمه ابن عبدالعزيز على تقلد الخطابة بجامع دانية فكان إذا سئل عن حاله يقول: «حال ابن سبعين سنة يطلع على هذه

---

(١) قال عنه ابن الخطيب «أحد الرؤساء أولي السلف والنباهة قام برياسة بلده للعهد المذكور وقصده الناس وامتدحوه حسبما يظهر من شعر أبي بكر بن حبيس فيه ومنه قصيدته المشهورة التي أولها:

يعز بك الإسلام والدين والفخر ... وتخدمك الأقلام والبيض والسمر

واتصلت الرياسة في عقبه» أعمال الأعلام ص٢٥٩.

(٢) لا تتوفر عنه معلومات مفصلة وقد أشار إليه ابن الخطيب في أعمال الأعلام ص٢٥٩ إشارة عابرة.

(٣) النباهي: مصدر سابق ص١٦.

(٤) ابن الأبار: التكملة ج١ ص٢٤١.

الأعواد فيكذب»[1].

ولنا أن نتساءل هل كان عند هؤلاء القضاة برنامج يسعون إلى تحقيقه أو واقع يريدون تغييره؟

لا يجد الباحث أي مبادىء وراء هذه الثورات بل إننا لا نجدها تحمل أي شعارات مناهضة للمرابطين أو تسوق اتهامات ضدهم كما رأينا مع المهدي بن تومرت وثورته في المغرب. إذاً لماذا ثار هؤلاء الفقهاء؟ وهم مظنة معرفة أضرار الفتن وما تجره من ويلات، وأكثر من ذلك يعرفون حرمة الخروج على الإمام وشق عصى الطاعة وتفريق كلمة المسلمين. أو ليس إمامهم إمام دار الهجرة مالك بن أنس هو القائل «سلطان جائر سبعين سنة، خير من أمة سائبة ساعة من نهار»[2].

والذي يبدو لي هو أن هذه الثورات كانت ثورات من أجل الثورة حاديها الطموح الأعمى والجشع وقلة الإيمان وقصر النظر. وقد ساعد هؤلاء النفر من القضاة على ترؤس هذه الثورات ما تمتعوا به من نفوذ وثراء على عهد الدولة المرابطية جعلهم أعيان مدنهم وزعماءها. إن النظرة التحليلية إلى هذه الثورات تظهر أن العلماء الذين قادوها لم يعرضوا عملهم هذا على ميزان الشرع الذي يقدم درء المفاسد على جلب المنافع، هذا إن تحقق وجود هذه المنافع فبأحرى إن كانت منافع متوهمة وشخصية في مقابل مفاسد محققة من سفك للدماء وترويع للآمنين وإضعاف لكلمة المسلمين، وهو ما حدث بالضبط في الأندلس فازدادت أوضاعها سوءاً وقوي طمع عدوها وازداد كلبه.

---

(١) ابن عبدالملك: الذيل والتكملة السفر ٦ الترجمة رقم ٤٤٠ ص١٦٦.

(٢) ابن فرحون: الديباج المذهب ج٢ ص١٥٤.

# الفصل الثالث

## العلماء حكاماً

لقد رأينا في الفصل الماضي، مرحلة من مراحل الطموح لدى العلماء في العهد المرابطي والتي تمثلت في الثورة على الدولة القائمة. وقد رأينا كيف انتهت تلك الثورات في معظمها إلى الفشل. وفي هذا الفصل سنحاول التعرف على تجربة بعض العلماء في الحكم، وكيف تعاملوا مع معضلة التسيير اليومي لشؤون مناطقهم.

ومن خلال ذلك سنتبين مدى صدق الحكم الذي أصدره ابن خلدون على العلماء واصفاً إياهم بأنهم من بين البشر أبعد الناس عن السياسة ومذاهبها، وقد علل هذا الحكم بقوله أنهم «معتادون النظر الفكري والغواص عن المعاني وانتزاعها من المحسوسات وتجريدها في الذهن أموراً كلية عامة ليحكم عليها بأمر العموم لا بخصوص مادة وشخص ولا جيل ولا أمة ولا صنف من الناس ويطبقون بعد ذلك الكلي على الخارجيات وأيضاً يقيسون الأمور على أشباهها وأمثالها بما اعتادوه من القياس الفقهي. فهم متعودون في سائر أنظارهم الأمور الذهنية والأنظار الفكرية لا يعرفون سواها.

والسياسة يحتاج صاحبها إلى مراعاة ما في الخارج وما يلحقها من الأحوال ويتبعها فإنها خفية، ولعل أن يكون فيها ما يمنع من إلحاقها بشبه أو مثال وينافي الكلي الذي يحاول تطبيقه عليها... فيقعون في الغلط كثيراً

ولا يؤمن عليهم»[1].

وسنتحدث في هذا الفصل عن تجربة عالمين هما: القاضي أبو أحمد بن الجحاف البلنسي وأبو جعفر حمدين بن محمد بن حمدين القرطبي.

## ١ ـ القاضي ابن جحاف ـ حاكم بلنسية:

هو أبو أحمد جعفر بن عبدالله بن جحاف المعافري البلنسي، وأسرة بني جحاف أسرة عريقة في بلنسية فـ«لها فيها الأصالة الماجدة، الناطقة بالقدم الشاهدة»[2] وقد تكرر في أفرادها ولاية القضاء فقد ولي جده جحاف بن يمن القضاء للخليفة عبدالرحمن الناصر، واستشهد في غزاة «الخندق» عام ٣٢٧هـ[3]. وتولى القضاء ابنه جعفر بن جحاف المتوفى سنة ٣٧٦هـ[4]. وممن تولى القضاء منهم القاضي أبو المطرف عبدالرحمن بن عبدالله بن جحاف المتوفى سنة ٤٧٢هـ[5].

أخذ أبو أحمد العلم عن كثير من العلماء من أبرزهم حافظ المغرب أبو عمر بن عبدالبر وأبو العباس العذري[6].

### أ ـ الحالة السياسية في بلنسية قبل حكم ابن جحاف:

كانت بلنسية قاعدة الحكم في شرق الأندلس أيام بني أمية. فلما كانت

---

(١) ابن خلدون: المقدمة ج٢ ص٢٤٢.

(٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص٢٠٣.

(٣) الضبي: بغية الملتمس ج١ ص٣٢٢؛ الحميدي: جذوة المقتبس ج١ ص٢٩٤.

(٤) ابن الفرضي: علماء الأندلس ج١ ص١٨٩.

(٥) ابن بشكوال: الصلة ج١ ص٣٢٥.

(٦) أبو العباس أحمد بن عمر بن قطبة العذري (ت٤٧٨هـ): محدث مشهور له رحلة إلى المشرق في طلب العلم دامت سنوات عدة. ولما عاد إلى الأندلس أخذ الناس عنه كثيراً وحدث عنه من كبار العلماء أبو عمر بن عبدالبر وأبو محمد بن حزم وأبو علي الغساني وغيرهم من كبار الشيوخ (الحميدي: جذوة الاقتباس ج١ ص٢١٣؛ ابن بشكوال ج١ ص٦٩).

الفتنة وسقطت هذه الدولة استقل بها صقلبيان من موالي المنصور بن أبي عامر[١] هما مبارك ومظفر فتقاسما سلطنتها، مات أولهما سنة ٤٠٨هـ وقد ثارت العامة على مظفر وقتلوه في نفس السنة[٢].

ثم آل الأمر فيها إلى عبدالعزيز بن عبدالرحمن أحد أحفاد المنصور بن أبي عامر وذلك سنة ٤١١هـ وظل يحكمها إلى سنة ٤٥٢هـ وخلفه فيها ابنه عبدالملك غير أن مدته لم تطل فقد خلعه صهره المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة سنة ٤٥٧هـ[٣]. وقد نوب المأمون أبا بكر بن عبدالعزيز[٤] في إدارة بلنسية، وظل يديرها بالنيابة إلى أن توفي المأمون بن ذي النون سنة ٤٦٧هـ «فصفت له مشاربه وخلا له جانبه وضعف عنه مطالبه»[٥] فاستقل بها. وخلف عليها عند وفاته سنة ٤٧٨هـ ابنه أبو عمرو عثمان.

وفي هذا الوقت كانت الأندلس تعيش أوقاتاً مصيرية في حياتها فقد سقطت طليطلة في يد القشتاليين في صفر ٤٧٨هـ. وكان لهذا الحدث الجلل الذي هز الأندلس من أقصاها إلى أقصاها أثر كبير وخطير في شرق الأندلس عموماً وفي مملكة بلنسية بالخصوص.

كان ألفونس السادس عندما استولى على طليطلة تعهد لمليكها

---

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص٢٢٥؛ ابن عذارى: البيان المغرب ج٣ ص١٥٨.

(٢) ابن عذارى: المصدر السابق ص١٦٣.

(٣) ابن بسام: الذخيرة ق٣ مج١ ص٢٤٩ ـ ٢٥٠؛ ابن عذارى: المصدر السابق ص١٦٤ ـ ١٦٦.

(٤) أبو بكر بن عبدالعزيز (ت٤٧٨هـ): قال عنه ابن بسام «كان أحد ممن سبق وادعاً وتجاوز ذروة الشرف متواضعاً، وكان من أراجح كبار الكتاب، الطالعين في دمس هذه الفتنة المدلهمة كتب أبو بكر لعبد الملك بن عبدالعزيز لما خلف أباه في حكم بلنسية، فأظهر كفاية واضطلع بما حمل. غير أنه مالأ ابن ذي النون عندما أراد احتلال بلنسية ومهد له السبيل إلى أن خلع عبدالملك. وقد كافأه ابن ذي النون بأن جعله نائباً عنه على بلنسية» (ابن بسام: الذخيرة ق٣ مج١ ص٤٠ ـ ٤٤؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص٢٠٢).

(٥) ابن بسام: الذخيرة ق٣ مج١ ص٤٢.

المخلوع القادر بن ذي النون أن يعينه على الاستيلاء على بلنسية، التي كانت قد خرجت عن طاعته[1].

وكان ألفونس السادس يسعى من وراء ذلك إلى تحقيق هدفين هما: تعويض القادر عن طليطلة ولكن الأهم من ذلك أنه كان يريد بسط نفوذه على بلنسية من خلال القادر الذي لا يعدو أن يكون تابعاً ذليلاً.

وإنجازاً لهذا الوعد سار القادر بن ذي النون إلى بلنسية ومعه سرية قوية من الجند النصارى أمدّه بها ألفونس السادس تحت قيادة ألبرهانس[2].

لم تجد هذه القوة مقاومة من أهل بلنسية، فقد رأى هؤلاء أنه لا مقدرة لهم على صد هجوم القشتاليين وبالتالي فقد سلموا مدينتهم طوعاً للقادر وخلعوا عثمان بن أبي بكر، فدخل القادر بلنسية في شوال ٤٧٨هـ[3].

وبدخول القادر بلنسية قامت دولة بني ذي النون في شرق الأندلس بعد أن درست في طليطلة لكنها كانت دولة ضعيفة تابعة، تدين بوجودها وبقائها لحراب الجند النصارى، الذين دخلوا مع القادر المدينة.

سلك القادر في حكمه لبلنسية سياسة اتسمت بالجور والظلم «فأحدث فيها أحداثاً وغير أحكاماً وأظهر منكراً كثيراً»[4]. كما أرهق الرعية بالإتاوات

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب ج٣ ص٣٠٤؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٨٢.

(٢) ألبرهانس: هو الاسم العربي للفارس القشتالي ALVARHANES، ابن عم المغامر المشهور «السيد الكمبيطور» الذي سنتحدث عنه في الصفحات التالية، وأحد قواد ألفونس السادس صاحب قشتالة وقد اشترك في جميع المواقع التي جرت بين ألفونس والمرابطين. وقد كان من كبار فرسان قشتالة في معركة «أقليش» في ٥٠١هـ، وانهزم مع من انهزم. وقد خسر إقطاعيته في قرية توريتا حينما استولى المرابطون على قونقة بعد انتصارهم في أقليش. توفي سنة ٥٠٧هـ (١١١٤م) (ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص١٥٩؛ حسين مؤنس: الثغر الأعلى في عصر المرابطين ص٣٩).

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب ج٣ ص٣٠٤.

(٤) ابن عذارى: البيان المغرب ج٣ ص٣٠٥.

ليسدد مطالب حماته القشتاليين. وزاد من سوء الوضع بالنسبة للبلنسيين أن العسف لم يأت فقط من طرف حاكمهم الجديد بل أن الجنود القشتاليين أرهقوهم بمؤنهم ومغارمهم. وفرضت لذلك ضريبة خاصة على سائر الناس[١]. وغدت السيادة الحقيقية في المدينة لألبرهانس وجنده، فغادر كثير من الأعيان والأكابر بلنسية فراراً من هذا الطغيان المرهق[٢].

وفي أثناء ذلك كانت تجري في جنوب الأندلس أحداث مصيرية في تاريخ البلاد فقد عبر المرابطون إلى البلاد الأندلسية في ربيع الآخر **٤٧٩**هـ، استجابة لنداء الإسلام وأهله في هذه البلاد، كما ذكرنا في الفصول الماضية.

ولمواجهة هذا الخطر بدأ ألفونس في جمع قواته فاستدعى ألبرهانس وقواته من بلنسية. وحدثت بين الطرفين الإسلامي بقيادة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين والمسيحي بقيادة ألفونس السادس معركة الزلاقة والتي انتهت، كما ذكرنا من قبل، بانتصار باهر للمرابطين وحلفائهم. وقد أحيا هذا النصر الأمل في نفوس الأندلسيين قاطبة، وفرح به البلنسيون لأكثر من سبب: فقد أبعد المرابطون بدخولهم الأندلس عن بلنسية ضغط القشتاليين، ولو إلى حين، كما أضعف هذا الابتعاد موقف ومكانة القادر بن ذي النون.

بادر القادر عقب نصر الزلاقة بمراسلة يوسف بن تاشفين ومحاولة التقرب إليه أسوة بباقي أمراء الأندلس[٣]، ولكن يوسف كان في ذلك الوقت مشغولاً عن شؤون شرق الأندلس. شعر البلنسيون بأن الظرف أصبح مناسباً للتخلص من القادر وظلمه وجوره، فأصبحوا يتحينون به الفرص ويأتمرون عليه. كما بدأ حكام الحصون التابعة لبلنسية في التحرك والعصيان. وإلى جانب هذا الخطر الداخلي كان القادر يتعرض لأخطار خارجية تتمثل في

---

(١) محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الثاني ص٢٢٨.
(٢) نفس المرجع والصفحة.
(٣) ابن بسام: الذخيرة ق٣ ج١، ص٩٣ ـ ٩٤.

المنذر ابن هود[1] صاحب لاردة[2] وطرطوشة[3] الذي كان يرقب الأوضاع في بلنسية ويتحين الفرص للاستيلاء عليها. ورأى في هذا الظرف الزمني الوقت المناسب لتحقيق هدفه، فاتجه بقواته صوب بلنسية وضرب عليها الحصار.

أحس القادر بجسامة الأخطار المحدقة به، وكان يدرك أن لا طاقة له بالتصدي لها، فبدأ يبحث حوله عن معين، فاستغاث بألفونس ملك قشتالة، كما استنجد بالمستعين بن هود[4] صاحب سرقسطة وخصم المنذر. لكن

---

(١) المنذر بن أحمد المقتدر بن هود (ت٤٨٣هـ): أحد أمراء إمارة سرقسطة، لما توفي أبوه أحمد المقتدر سنة ٤٧٤ انقسمت إمارة سرقسطة التي كان يحكمها بين ابنيه يوسف المؤتمن واستقل بمدينة سرقسطة وغربي الإمارة، والمنذر هذا الذي انفرد بطرطوشة ولاردة ودانية، وتلقب بالحاجب عماد الدولة وقد نشبت الحرب بين الأخوين. ولم يخمد أوارها وفاة يوسف سنة ٤٧٦هـ بل نهض بأوزارها من بعده ابنه أحمد بن يوسف المتلقب بالمستعين. وقد جعل كلاهما يستعين على خصمه بمن استطاع الاستعانة به من ملوك النصارى. وقد انقضت حياة المنذر على هذا المنوال في الحرب مع ابن أخيه إلى أن توفي سنة ٤٨٣هـ (ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٩٩).

(٢) لاردة: مدينة مشهورة بالأندلس، تقع شرقي قرطبة تتصل أعمالها بأعمال طركونة ينسب إلى كورتها عدة مدن وحصون ينسب إليها جماعة من أهل العلم.

(٣) طرطوشة: من مدن الأندلس، وهي في سفح جبل، ولها سور حصين وبها أسواق وعمارات، ومن أهلها الفقيه الإمام أبو بكر محمد بن الوليد بن رندقة الطرطوشي (ت٥٢٠هـ) نزيل الإسكندرية صاحب كتاب «سراج الملوك» وكانت طرطوشة تابعة لكورة بلنسية وهي تقع إلى الشرق منها. (الحميري: الروض المعطار ص٣٩١؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤ ص٣٠).

(٤) أحمد بن يوسف بن هود المتلقب بالمستعين (ت٥٠٣هـ): تولى إمارة سرقسطة بعد وفاة أبيه يوسف المؤتمن سنة ٤٧٦هـ وقد استطاع أن يحافظ على مملكته رغم أطماع النصارى المجاورين وذلك في أغلب الأحيان بتحالفه مع بعضهم ضد البعض الآخر. وعندما ظهر المرابطون وأزالوا ملوك الطوائف أبقوه في ملكه ربما ليظل حائلاً بين إمارات النصارى وما يليها من بلاد المسلمين في شرق الأندلس وذلك على رغم مداخلته للنصارى ومحالفته لهم. وقد استشهد المستعين في معركة بينه وبين ملك أرغون في رجب ٥٠٣هـ (ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٩٩ ـ ٢٠٢؛ ابن سعيد: المغرب ج٢ ص٤٢٧، مجهول: الحلل الموشية ٧٣ ـ ٧٦).

هؤلاء كانوا «يسرون حسواً تحت رغو»[1]، فقد كان المستعين يطمح إلى تملُّك بلنسية، فرأى في هذه الدعوة فرصته في تحقيق هذا الأمل، فبادر إلى الاستجابة. وعقد من أجل ذلك عقداً مع مغامر قشتالي مشهور هو: السيد الكمبيطور وبموجب هذا العقد تؤول إلى السيد الأسلاب والغنائم التي تظفر بها الحملة، ويحوز المستعين البلد.

وهنا نرى من المفيد أن نتوقف قليلاً لإلقاء الضوء والتعرف عن قرب على شخصية السيد الكمبيطور وذلك لأهمية الأدوار التي لعبتها هذه الشخصية في تاريخ الأندلس وبالخصوص في شرق الأندلس وفي تاريخ بلنسية بالذات في هذا العهد.

لقد جعل الشعراء الشعبيون الإسبان من هذا المغامر أعظم رجال عصره[2]، ولم يقتصر التنويه به وإضفاء هالة العظمة عليه على شعراء العصور الوسطى بل شاركهم في ذلك بعض الأكاديميين الإسبان من أمثال مننذ بيدال الذي جعله أعظم أبطال التاريخ الإسباني إطلاقاً وذلك في كتاب ألفه عنه بعنوان: «إسبانيا السيد»[3].

وسنتبين من خلال تعرفنا على أدوار هذا المغامر القشتالي كم هي بعيدة عن الحقيقة تلك الأحكام السالفة الذكر.

إن الاسم الحقيقي للسيد الكمبيطور هو: رودريجو دياذ دي بيفار Rodri Go Diaz de Bivar (٤٣٦ـ٤٩٥هـ/ ١٠٤٥ـ١١٠٢م) وتسميه المصادر العربية باسم «لذريق» و«رذريق» أو «الطاغية روذريق» كما عرف باسم «الكمبيطور»[4]. عاش السيد حياته الأولى في خدمة ملكه فرناندو الأول

---

(١) مثل يضرب في من يظهر أمراً في حين يعمل لتحصيل غيره.

(٢) أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ص١٠٦.

(٣) PIDAL: LA ESPANA del CID, MADRID, 1929

(٤) يعرف ابن عذارى القمبيطور بأنه صاحب الفحص (البيان المغرب ج٣ ص٣٠٥) ويقول حسين مؤنس أن مقابل اللفظ في اللاتينية Campidoctus وأن معناها بناء على تفسير ابن عذارى: قائد الغارات في بلاد الأعداء (حسين مؤنس: السيد القمبيطور =

(ت١٠٦٥م) ملك قشتالة وليون واشترك في حملاته العسكرية.

وبعد وفاة فرناندو خدم أبناءه[١]، شانجة إلى أن قتل عام ١٠٧٢م ثم أخاه ألفونس السادس. وفي ظل هذا الأخير بدأت مكانة «السيد» ترتفع فأصبح سفيره إلى أمراء الطوائف[٢]. غير أن العلاقة بين «السيد» وملكه لم تستمر كثيراً إذ طرد ألفونس «السيد» من بلاطه. فلجأ إلى بلاط بني هود في سرقسطة «الذين أخرجوه من الخمول مستظهرين به على بغيهم الطويل، وسعيهم المذموم المخذول، وسلطوه على أقطار الجزيرة، يضع قدمه على صفحات أنجادها، ويركز علمه في أفلاذ كبدها، حتى غلظ أمره، وعم أقاصيها ودانيها شره»[٣]. وخدم «السيد» جماعة من ملوك بني هود المقتدر[٤] ثم ابنه المؤتمن الذي كان يبالغ في إكرام «السيد» ويعتز بصداقته ومحالفته ويأخذ بنصحه في معظم الأمور[٥]. ولما توفي المؤتمن سنة ٤٧٨هـ خلفه ولده المستعين فاستمر «السيد» في خدمته. وقد قدم «السيد» لبني هود، في البداية خدمات جليلة فحارب لحسابهم أرغون وبرشلونة. كما أفاد هو من ذلك فوائد كبيرة، فقد تحرر من التبعية وأصبح فارساً حراً يعمل لحساب نفسه وأصبح مطلق العنان في شرق الأندلس كله، فاتسعت ثروته

---

= وعلاقاته بالمسلمين، المجلة التاريخية المصرية المجلد الثالث العدد الأول مايو ١٩٥٠ ص٤٤).

(١) لما توفي فرناندو الأول سنة ١٠٦٥م، وكان قد قسم بين أبنائه الثلاثة: سانشو (شانجة) وألفونس السادس وغرسية، نشبت بين هؤلاء حرب طاحنة وقد خدم السيد خلال هذه الحرب سانشو. ولما قتل هذا خدم مكرهاً ألفونس السادس (ليفي بروفنسال: الإسلام في المغرب والأندلس ص١٧٧ ـ ١٧٨).

(٢) أشباخ: المصدر السابق ص١٠٧؛ ليفي بروفنسال: المصدر السابق ص١٨٠.

(٣) ابن بسام: الذخيرة ق٣ ج١ ص٩٥.

(٤) أبو جعفر أحمد بن سليمان بن هود (ت٤٧٤هـ) المتلقب بالمقتدر بالله: ثاني أمراء بني هود بسرقسطة وأقوى أمراء هذه الأسرة وأوسعهم في تاريخ فترة الطوائف ذكراً. وقد كانت سرقسطة في أيامه من (٤٤١ ـ ٤٧٤هـ) درة الأندلس الإسلامي إلى جانب أشبيلية وقد ابتنى فيها «قصر الجعفرية». (ابن عذارى: البيان المغرب ج٣ ص٢٢٤؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٩٨؛ ابن سعيد: المغرب ص٤٣٦).

(٥) بروفينسال: مرجع سابق ص١٨٤.

وكثر أتباعه[١]. ويبدو أنه حمل اللقب الذي عرف به وهو «السيد» ELCID في هذه الفترة. وهي تحريف لكلمة السيد بالعربية وقد أطلقها عليه المسلمون الذين كان يخدم بينهم ويحارب معهم. وفي هذه الفترة بدأ «السيد» يتطلع إلى بلنسية ويهتم بشؤونها. وكانت الفرصة الأولى عندما استنجد القادر بن ذي النون بالمستعين بن هود لصد هجوم المنذر بن هود، كما ذكرنا ذلك سالفاً، فقد سار «السيد» إلى بلنسية صحبة المستعين وكان كلاهما يضطرم بنيات ومشاريع خاصة. ولما اقترب الجيش المتحالف من بلنسية اضطر المنذر أن يرفع عنها الحصار وانسحب عائداً لبلاده. عندئذ بدأت المفاوضات والتحالفات السرية بين الأطراف الثلاثة المتبقية أي القادر والمستعين و«السيد».

بادر القادر بعقد اتفاق سري مع السيد وبعث إليه بجملة من الأموال والتحف، فغدا «السيد» ينصح القادر سراً بألا يسلم المدينة لأحد وأنه سوف يعينه على تحقيق بغيته في كف طمع المستعين عنه، ثم هو يعد حليفه المستعين أنه على استعداد لمساعدته على أخذ بلنسية. ثم يبعث سراً إلى المنذر بن هود يعقد معه اتفاقاً بالصداقة والتحالف. ثم هو أخيراً يرسل إلى ألفونس ملك قشتالة يؤكد له أنه فيما يعمله ويغنمه إنما هو تابع له[٢].

وهنا ظهر «السيد» على حقيقته كمغامر لا ذمام له يبيع العدو والصديق معاً وينتهز الفرصة بأي ثمن. وأدرك المستعين خلال ذلك، مدى خداع «السيد» وغدره، فاتجه إلى محالفة برنجير كونت برشلونة وكان من ألدِّ أعداء السيد وقدم إليه أموالاً جزيلة ودعاه إلى مساعدته في حصار بلنسية فاستجاب برنجير لذلك[٣].

وأمام هذا التحالف الجديد استغاث القادر بحليفه الجديد «السيد»،

---

(١) حسين مؤنس: السيد القمبيطور ص٥١.

(٢) بروفينسال: المرجع السابق ص١٨٦ ـ ١٨٧.

(٣) نفس المرجع والصفحة.

الذي كان قد سافر إلى قشتالة لاسترضاء ملكه ألفونس وهو ما حصل عليه. فبادر «السيد» بالرجوع إلى بلنسية يقود جيشاً كبيراً من المرتزقة. وحين اقترب من بلنسية دارت بينه وبين برنجير معركة هزم فيها هذا الأخير وحصل في الأسر ولم يطلق «السيد» سراحه إلا لقاء فدية كبيرة. وقد فتحت هذه المعركة الطريق أمام «السيد» ليحتل بلنسية فدخلها وتلقاه القادر بالأموال والتحف وأبلغه أنه يضع نفسه تحت حمايته[١].

ويبدو أن السيد فضل أن يبقي القادر نائباً عنه ويكتفي هو باستنزافه إذ فرض عليه مائة ألف دينار في العام كجزية وهو مبلغ طائل في ذلك العصر[٢]. ولم تقف طموحات الكمبيطور عند هذا الحد بل كان يسعى لأن يكون سيد شرق الأندلس كله فعاث فساداً في البلاد فخشيت صولته مما دفع أمراء بني رزين[٣] أصحاب شنتمرية الشرق[٤] وابن لبون[٥] صاحب

---

(١) محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الثاني ص٢٣٧.

(٢) حسين مؤنس: مرجع سابق ص٥٦.

(٣) بنو رزين: أسرة بربرية قديمة في شرق الأندلس أسست لها دولة صغيرة بأرض السهلة الواقعة بين مملكة بلنسية وجهة ثغر سرقسطة وحضرتها مدينة شنتمرية وقد قامت هذه الدولة عند انتشار عقد الأندلس بسقوط الدولة الأموية ودامت دولتهم نيفاً وتسعين سنة (٤٠٣ ـ ٤٩٧هـ). وانتهت هذه الدولة باحتلال المرابطين لها. ومن أبرز أمراء بني رزين هذيل بن خلف بن رزين المعروف بابن الأصلع حكم ما بين ٤٠٣ ـ ٤٣٦هـ ثم ابنه عبدالملك وقد حكم شنتمرية زهاء ستين سنة (٤٣٦ ـ ٤٩٦هـ) وفي عهده كان نشاط «السيد» في شرق الأندلس. (ابن الأبار: الحلة السيراء ج٢ ص١١٠ ـ ١١٥؛ ابن عذارى: البيان المغرب ج٣ ص٣٠٥ ـ ٣١١).

(٤) شنتمرية الشرق: تمييزاً لها عن شنتمرية الغرب وهي الواقعة في جنوب غربي ولاية الغرب الأندلسي، وكانت شنتمرية الغرب في عهد الطوائف تحت نفوذ رجل اسمه محمد بن سعيد بن هارون بويع له فيها سنة ٤٣٣هـ ثم غلبه عليها المعتضد بن عباد سنة ٤٤٣هـ وأضافها إلى مملكته (ابن عذارى: البيان المغرب ج٣ ص٢٩٨).

(٥) أبو عيسى لبون بن عبدالعزيز بن لبون: كان من جملة أصحاب القادر يحيى بن ذي النون ثم استقل بحصن مربيطر إلا أن أيامه بها لم تطل فتخلى عنها لأبي مروان عبدالملك بن رزين، وكان أبو عيسى معدوداً من الأجواد موصوفاً بجودة الشعر (ابن خاقان: قلائد العقيان ج١ ص٢٨٩؛ ابن سعيد: المغرب ج٢ ص٣٧٦).

مربيطر[١] وصاحب البونت[٢] أن يدفعوا له الجزية التي كانوا يدفعونها لألفونس السادس ملك قشتالة.

لم تكن محاولات السيد الكمبيطور لتشييد مجد خاص وخلق منطقة نفوذ خاضعة لسلطانه، محل ترحيب ولا رضى من طرف ملكه ألفونس السادس. ولهذا كانت العلاقة بين الطرفين مشوبة بالحذر والتوتر. لكن كان يحكمها في النهاية الحرص على الهدف المشترك في حرب «الكفرة» وإنزال الضربات بهم[٣].

## ب ـ ثورة القاضي ابن الجحاف:

في هذه الفترة الممتدة من ٤٨١ـ٤٨٤هـ كانت الأندلس تشهد أحداثاً مهمة فقد أقدم المرابطون على استنزال أمراء الطوائف عن عروشهم لما وجدوا فيهم من ضعف عن تحمل مسؤولية الدفاع عن الإسلام والحفاظ عليه. ووصل المرابطون إلى شرق الأندلس باحتلالهم لمرسية في شوال ٤٨٤هـ[٤]. وبدأ أهل شرق الأندلس يتوقون إلى الخلاص مما هم فيه من مكابدة النصارى، وتعلقت أنظارهم وآمالهم بالجيوش المرابطية الزاحفة. وكان أهل بلنسية، كما رأينا، أشد المعانين من النصارى والكمبيطور على الخصوص الذي «أخذ بمخنق بلنسية وألقى زوره عليها يجبي رعيتها ويستغلها حاضرة وبادية»[٥] على حد قول ابن عذارى.

وبدأ أهل بلنسية يفكرون في كيفية التخلص من لذريق وصنيعته ابن

---

(١) مربيطر: مدينة بالأندلس قريبة من طرطوشة بينها وبين بلنسية أربعة فراسخ وهي مشهورة بآثارها القديمة (الحميري: الروض المعطاء ص٥٤٠).

(٢) صاحبها آنذاك هو أبو محمد عبدالله بن محمد بن قاسم من بني قاسم أمراء إقليم البونت فترة الطوائف وكانوا يخضعون لملك قشتالة إلى أن استولى عليها المرابطون (ابن خاقان: قلائد العقيان ج١ ص٣٧٧؛ ابن سعيد: المغرب ج٢ ص٣٩٦).

(٣) ليفي بروفنسال: الإسلام في المغرب والأندلس ص١٨٧ ـ ١٨٨.

(٤) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٥٥.

(٥) ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص٣١.

ذي النون وجرأهم على ذلك ما كان يحققه المرابطون من انتصارات باهرة.

وأتت البلنسيين الفرصة فقد انتقل الكمبيطور إلى سرقسطة في شعبان ٤٨٤هـ إثر استدعاء ابن هود وكان الغرض من هذا الاستدعاء هو التحالف على دفع خطر المرابطين الداهم وهذا ما يشير إليه ابن بسام بقوله «ولما أحس أحمد بن يوسف بن هود المنتزي إلى وقتنا هذا على ثغر سرقسطة، بعساكر أمير المسلمين تنسل من كل حدب، وتطلع على أطرافه من كل مرقب، آسد كلباً من أكلب الجلالقة يسمى لذريق ويدعى بالكمبيطور، وكان عقالاً، وداءً عضالاً له في الجزيرة وقائع وعلى طوائفها بضروب المكروه إطلاعات ومطالع»[١] وأراد ابن هود بذلك «أن يضعه بينه وبين سرعان عساكر أمير المسلمين»[٢].

وكان يتزعم البلنسيين لتحقيق طموحاتهم في الانعتاق من خطة الخسف، القاضي أبو أحمد جعفر بن جحاف الذي ذهب إلى دانية[٣] لمقابلة محمد بن عائشة قائد جيوش المرابطين في المنطقة ودعاه إلى المسير إلى بلنسية لإنقاذها. وكان طبيعياً أن يستجيب ابن عائشة لطلب ابن جحاف فقد كان الهدف الذي يسعى إليه الطرفان واحداً وهو محاربة النصارى واستنقاذ البلاد الإسلامية التي يحتلونها، فوجه إليه جمعاً من المرابطين بقيادة ابن نصر المرابطي[٤].

وأمام هذه التطورات حاول عملاء الكمبيطور في بلنسية وعلى رأسهم ابن الفرج، الذي كان ممثل الكمبيطور في المدينة، أن يتصدوا لابن جحاف ويحبطوا إجراءاته. فقد أرسل ابن الفرج جماعة من أتباعه لاعتقال القاضي ولكنهم فشلوا في ذلك. ومع وصول القوات المرابطية قبض القاضي ابن

---

(١) الذخيرة: ق٣ ج١ ص٩٥.

(٢) نفس المصدر والصفحة.

(٣) دانية: مدينة بالأندلس، من أعمال بلنسية، على ضفة البحر شرقاً وأهلها أقرأ أهل الأندلس (معجم البلدان ج٢ ص٤٣٤).

(٤) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص٢٠٣؛ ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص٣١.

جحاف على ابن الفرج، في حين تمكن النصارى الذين كانوا في المدينة من أتباع الكمبيطور من الفرار[1]. أما القادر بن ذي النون، حاكم بلنسية الاسمي، فقد بادر بإرسال بعض عياله إلى نفر من أصحاب الحصون المجاورة ثم بدأ يخطط للفرار لكن الثائرين بقيادة ابن جحاف اقتحموا القصر وفتشوا عن القادر حتى عثروا عليه، وكان قد اختفى في بعض حمامات القصر، فأمر القاضي ابن جحاف بقتله وأسند أمر قتله إلى رجل من بني الحديدي «طلباً بذحل[2] عما كان هو قد قتل من سلفه وهدم من بيوت شرفه»[3]، وحملت رأسه على رمح وطيف بها في شوارع بلنسية. وذلك في الثالث والعشرين من رمضان سنة ٤٨٥هـ[4]. وفي مقتل ابن ذي النون يقول أبو عبدالرحمن بن طاهر[5] مخاطباً ابن جحاف:

أيها الأخيف[6] مهلاً فلقد جئت عويصا

---

(١) محمد عبدالله عنان: مرجع سابق ص٢٤١.

(٢) الذحل: الثأر والوتر (محمد بن منظور الأفريقي المصري: لسان العرب، المجلد الحادي عشر، الطبعة الثالثة ١٩٩٤م، دار صادر بيروت، ص٢٥٦).

(٣) ابن بسام: الذخيرة ق٣ ج١ ص٩٦، وفي النص إشارة إلى قتل القادر بن ذي النون للقاضي أبي بكر بن الحديدي وزير جدّه المأمون وذلك في سنة ٤٦٨هـ عندما تولى القادر الحكم في طليطلة (ابن بسام: الذخيرة ق٣ ج١ ص١٥١).

(٤) ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص٣١؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص٢٠٣.

(٥) أبو عبدالرحمن محمد بن أحمد بن طاهر القيسي (ت٥٠٧): ينتمي إلى أسرة بني طاهر الشهيرة بمرسية. وقد كان أبو عبدالرحمن كما يقول ابن الخطيب «صدر زمانه والمثل السائر في بلاغته وبيانه». وقد تغلب أبو عبدالرحمن على مرسية وحكمها من سنة ٤٥٥ ـ ٤٧١هـ إلى أن وجه إليه المعتمد بن عباد جيشاً بقيادة وزيره ابن عمار وقائده ابن رشيق سنة ٤٧١هـ ففر ابن طاهر إلى بلنسية ونزل في كنف صاحبها ابن عبدالعزيز. ولما استولى ابن جحاف على السلطة حصل بينهما جفاء. وقد شمله الأسر عند احتلال «السيد» لبلنسية. وتوفي سنة ٥٠٧هـ وقد نيف على التسعين سنة. وقد خصه ابن بسام بتأليف أسماه: «سلك الجواهر في ترسيل ابن طاهر» (ابن بسام: الذخيرة ق٣ ج١ ص٢٤؛ ابن خاقان: قلائد العقيان ج١ ص١٧٠ ـ ٢٠٦؛ ابن الأبار: الحلة السياء ج٢ ص١١٦ ـ ١٢٧؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام ٢٠١ ـ ٢٠٢).

(٦) الأخيف: من كانت إحدى عينيه زرقاء والأخرى سوداء.

إذ قتلت الملك يحيى وتقمصت القميصا
رب يوم فيه تجزى لم تجد عنه محيصا[1]

وفي اليوم التالي لمقتل القادر اختارت «الجماعة» ببلنسية القاضي ابن جحاف رئيساً للجماعة وغدت بلنسية دولة يتولى ابن جحاف رئاستها[2]. واستولى ابن جحاف على طائفة عظيمة من الأموال والذخائر والتحف التي كان يحتفظ بها القادر.

وكان الوضع الأمني والتهديد الخارجي المتوقع من طرف السيد أولى الأولويات التي كان على القاضي ابن جحاف أن يتعامل معها. وبالفعل فقد أخذ في تحصين أطراف المدينة وحشد الجند وأوكل ضمن استعداداته إلى جند المرابطين مهمة حراسة المدينة.

وبدأ ابن جحاف في ممارسة السلطة فرتب أرزاق الجند والخدمة. ويبدو أن تغلب القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد على أشبيلية وحكمه لها من سنة (٤١٤ـ٤٣٣هـ) وتوريثها لأبنائه كان هو المثال الذي كان ابن جحاف يسعى إلى تحقيقه في بلنسية[3]. لكننا نلاحظ أن المثال أي القاضي ابن عباد، والمحتذي أي ابن جحاف وإن اشتركا في بعض الخصائص من كون كليهما قاض طموح يسعى إلى تكوين ملك معتمداً في ذلك على ماضيه ومكانة أسرته في بلده، فإنهما يختلفان في سبل تحقيق هدفيهما، ففي حين كان ابن عباد يبدي في أحكامه وتصرفاته كثيراً من اللين والرفق وكان يعمل في هدوء وأناة على التخلص من سائر منافسيه[4] كان ابن جحاف مستعجلاً في أموره متكبراً في سلوكه، فقد أظهر منذ ابتداء أمره «أبهة الملوك» «واستشعر غلظة الرؤساء» فكان يجلس «مكتنفاً بالوزراء والفقهاء والزعماء

(١) ابن بسام: الذخيرة ق٣ ج١ ص٩٦؛ ابن خاقان: القلائد ج١ ص٢٠٦؛ ابن الأبار: الحلة السيراء ج٢ ص١٢٥ ـ ١٢٦.
(٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص٢٠٣.
(٣) ابن الخطيب: المصدر السابق نفس الصفحة؛ ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص٣٢.
(٤) ابن عذارى: البيان المغرب ج٣ ص١٩٥ ـ ١٩٧.

والغلمة أمامه، ويركب فيتقدمه العبيد والطرد، ويتأخر عنه الجند وتستقبله المصانعة بالدعاء والثناء» كما يقول ابن عذارى[1].

لكن الفارق الأساسي بين الرجلين هو الظرف الزمني فقد استولى ابن عباد على أشبيلية في وقت كان الخطر المسيحي عليها ضعيفاً إلى حد ما والأمراء المسلمون المجاورون كل مشغول في ترتيب بيته وتدعيم سلطته في مدينته. أما ابن جحاف فقد تولى حكم بلنسية وهي تحت حكم النصارى ومحل أطماع جيرانها من بني هود الذين ما فتئوا ينتهزون كل فرصة للاستيلاء عليها. وكان العامل الإيجابي الوحيد الذي من الممكن أن يساند ابن جحاف في سعيه لبسط نفوذه على بلنسية وتدعيم حكمه، هو وجود المرابطين ودعمهم لابن جحاف. غير أننا سنرى كيف ستكون العلاقة بين الطرفين.

علم السيد الكمبيطور بالتطورات التي حدثت في بلنسية عقب خروجه، وكما هو متوقع فقد ساءته هذه الأحداث إذ أن بلنسية هي مورد رزقه الأساسي، فأسرع بالرجوع إلى بلنسية، وفي طريقه إليها عاث فساداً ينسف الزروع ويخرب القرى. وفرض المغارم والأقوات على سائر الحصون الواقعة في طريقه[2]. وقد واصل سيره إلى أن نزل إحدى ضواحي بلنسية وهنالك اجتمع إليه أتباعه وأنصار الملك المخلوع. وفي الحال ضرب الحصار حول المدينة بعد أن أحرق ما حولها من الضياع والمروج واستولى على معظم الأنحاء القريبة، ثم اقتحم الضاحية الشمالية للمدينة وفرض عليها سلطانه[3].

وقد تمكن ابن جحاف بمن معه من الجنود والقوات المرابطية أن يصد الهجمات المتتالية للكمبيطور وأن يصمدوا أمام قوته الزاحفة. ولكن هذا التحالف لن يصمد طويلاً أمام مغريات المصالح الشخصية. فقد بعث السيد سراً إلى ابن جحاف يطلب إليه طرد المرابطين وفي مقابل ذلك يتعهد له بأن

---

(١) البيان المغرب: ج٤ ص٣٢.

(٢) محمد عنان: مرجع سابق ص٢٤١.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص٣٢؛ حسين مؤنس: السيد القمبيطور ص٥٩.

يتركه ملكاً على بلنسية وأن «يقيمه مقام ذي النون، يحمي حوزته ويقاتل عنه»[1]. ويبدو أن هذا العرض أسال لعاب ابن جحاف فجعله ينسى حقيقة شخصية السيد القائمة على الخداع والمكر.

انتهت المفاوضات بين الطرفين إلى:

١ ـ أن يغادر المرابطون المدينة آمنين.

٢ ـ أن يؤدي ابن جحاف إلى السيد ثمن ما كان مودعاً بمخازنه من المؤن وقت مقتل القادر.

٣ ـ أن يؤدي ابن جحاف للسيد الجزية السابق تقريرها ومقدارها ألف دينار في الأسبوع مع متأخراتها من وقت أن بدأت الحرب.

٤ ـ أن تبقى الضاحية الشمالية من المدينة بيد السيد[2].

وهكذا عقدت شروط التسليم وهي شروط كما هو واضح مذلة جردت ابن جحاف من وسائل دفاعه وعنصر المساومة الوحيد الذي كان بيده وهو القوة المرابطية، التي انسحبت من المدينة. ويبدو أنها لم تكن آسفة على ذلك. فابن جحاف كما يبدو لم يكن على وفاق تام مع هذه القوات إذ «كان قد استثقلهم وضاق بمؤنتهم»[3].

وخيب تطبيق الاتفاقية آمال ابن جحاف إذ لم يلتزم السيد بالعهود التي قطع، فأخذ يتردد في جنده على ضواحي المدينة، ويعيث فيها ويرهق ابن جحاف بالمطالبات المالية التي لا يرتوي منها شرهه قط[4].

ولم تقتصر معاناة ابن جحاف على السيد رغم فداحتها، فقد انضافت إليها مشاكل داخلية إذ يبدو أن بعض الزعماء المحليين بدأوا يناوئونه

---

(١) ابن عذارى: المصدر السابق ص٣٣.

(٢) محمد عنان: مرجع سابق ص٢٤٢.

(٣) ابن الخطيب: مصدر سابق ص٢٠٤؛ ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص٣٢.

(٤) محمد عنان: مرجع سابق ص٢٤٢.

ويكيدون له وخصوصاً أبي عبدالرحمن بن طاهر. وقد نقل إلينا ابن بسام نص رسالة بعث بها ابن طاهر إلى فقيه من آل جحاف تظهر مدى توتر العلاقة بين ابن طاهر والقاضي جعفر بن جحاف، ومن هذه الرسالة قوله: «وإن ابن عمك - مد الله بسطته - لما ثار ثورته التي ظن أنه قد بلغ بها السماء، وبذَّ معها الأفلاك، نظر إلي متخازراً متشاوساً وتخيلني محاسداً أو منافساً... فرماني بضروب محنته»[1].

لم يكتف السيد بأن يجوس بخيله ورجله خلال الديار بل طلب من ابن جحاف أن يأذن له في أن ينزل هو وبعض من جنده في الضاحية الشمالية الشرقية وأن ينزل باقي جنده في جنوبها الغربي. وكان يرمي من وراء ذلك إلى إحكام الطوق حول المدينة. ولم يكن في وسع ابن جحاف إلا القبول. لكن السيد عاد واشتط في مطالبه وطلب إلى ابن جحاف أن يسلمه كل موارد المدينة وأن يرسل إليه ابنه رهينة لضمان عدم تمرده وعدم طلب المساعدة من المرابطين[2].

عندئذ أدرك ابن جحاف، لكن متأخراً، أن التعايش مع السيد مطلب لا يدرك، وأن أمل الرئاسة في ظله وهم ذاق ذله قبله القادر بن ذي النون، فرفض مطالب السيد. وقرر أن يخوض سبيل المقاومة من جديد فأغلق أبواب المدينة. وأحسَّ بفداحة إخراجه للمرابطين. فكتب إلى ابن عائشة قائد المرابطين يطلب منه النجدة وكذلك من المستعين ابن هود وحتى من ألفونس ملك قشتالة. وكان جواب كل واحد من هذه الأطراف هو التسويف والوعود[3].

---

(١) الذخيرة: ق٣ مج١ ص٩٠؛ ومع ذلك فقد كانت بعض البيوت الكبرى في بلنسية تساند ابن جحاف في عمله ومن هؤلاء بني واجد وقد وصفهم ابن بشكوال بأنهم بيت فضل وجلالة ونباهة ومن أشهر أفراده في ذلك الوقت محمد بن واجب (ت٥١٩) الذي تولى قضاء بلنسية «وكان محبباً إلى أهل بلده، رفيعاً فيهم، جامد اليد عن أموالهم» (ابن بشكوال: الصلة ج٢ ص٥٤٤؛ ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص٣١).

(٢) محمد عبدالله عنان: مرجع سابق ص٢٤٢.

(٣) Dozy: Recherches sur l'Histoire de L'ANDALUS P.172.

واستصرخ ابن جحاف أمير المسلمين يوسف بن تاشفين وبسط عنده القول فيما نزل بهم على يد السيد الكمبيطور، فاستجاب للنداء. وأمر قواده ورجاله بنجدة أهل بلنسية. فتلاحقت الجيوش المرابطية بشاطبة فاستبشر أهل بلنسية خيراً وارتفعت معنوياتهم أملاً في الخلاص. ثم تحركت هذه القوات بقيادة أبي بكر بن إبراهيم صوب بلنسية[١].

لكن هذا الجيش عاد أدراجه قبل بلوغ أسوار المدينة بسبب غزارة الأمطار وكثرة الوحل في الطرقات والمسالك[٢]. وكان لانسحاب المرابطين على هذا النحو عواقبه الوخيمة على مصير بلنسية. إذ أصيب أهلها بخيبة أمل كبيرة حطمت كل معنوياتهم وفي نفس الوقت «قوي طمع رذريق في ملك بلنسية فلزمها ملازمة الغريم وتلذذ بها تلذذ العشاق بالرسوم، ينتسف أقواتها ويقتل حماتها ويسبق إليها كل أمنية ويطلع عليها من كل ثنية[٣]. ففرض عليها حصاراً شديداً لم يدخر خلاله وسعاً في قطع الأقوات عن المدينة حتى لا يطول صمودها. واستمر الحصار على هذا النحو عشرين شهراً حتى بلغ الضيق بالبلنسيين المنتهى وفتك بهم الجوع أيما فتك حتى «أكلوا الفيران والكلاب والجيف»[٤]. واستوى في عدم القوت الفقراء والأغنياء فقد أمر ابن جحاف باقتحام الدور بحثاً عن القوت لتخفيف وطأة المجاعة. وغدوا كالأشباح هزالاً[٥].

ولئن كان المرء قد يفهم موقف ابن هود، صاحب سرقسطة، المتخاذل وعدم إنجاده لأهل بلنسية رغم مكاتبة ابن جحاف له وترغيبه له

---

(١) حسن محمود: قيام دولة المرابطين ص٢١٥.

(٢) حسين مؤنس: السيد القمبيطور ص٦١.

ومعظم تفاصيل هذه الأحداث ينقلها د. حسين مؤنس ومحمد عنان من موسوعة التاريخ الإسبانية المسماة «المدونة العامة لتاريخ إسبانيا» الطبعة المنشورة عام ١٩٠٦ وهي بالإسبانية ولم تترجم .PRIMERA GRONICA GENERAL, MADRID 1906

(٣) ابن بسام: الذخيرة ق٣ ج١ ص٩٧؛ ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص٣٣.

(٤) ابن بسام: المصدر السابق ص٩٧؛ ابن عذارى: المصدر السابق نفس الصفحة.

(٥) ابن عذارى: المصدر السابق ص١٤٧؛ حسين مؤنس: مرجع سابق ص٦٢.

في المال والبلد مع الأجر في استنقاذ المسلمين من القتل، فإن موقف المرابطين في عدم إنجاد بلنسية وترك أهلها يواجهون مصيرهم البائس المؤلم، يثير الاستغراب. ونتيجة ذلك تحملت بلنسية أسوأ ما يمكن أن تتحمله مدينة من الحرمان والقهر، ومع ذلك فقد صمدت إلى آخر رمق ولم يستطع السيد اقتحامها رغم تكرر هجماته التي كاد أن يؤخذ أسيراً في إحداها[1].

وقد عول السيد في النهاية على استسلام المدينة عن طريق الحصار المشدد. وأظهر السيد أثناء هذا الحصار من القسوة وتحجر القلب والبعد عن الرحمة ما لم يسجل لقائد في تاريخ الحروب فقد كان يقتل كل من أسر من أهل بلنسية أو يفقأ عينيه أو يقطع يديه، كما كان يحرقهم ويعلق جثثهم في «صوامع الأرياض وبواسق الأشجار»[2] فرضي الناس بالموت في المدينة فهلك منهم الكثير[3].

فلما بلغ «بأهل بلنسية الماء الزبى وانتهوا من الصبر إلى الغاية القصوى ولا نصر ولا غوث»[4]، اجتمع الناس إلى الفقيه أبي الوليد الوقشي[5]

---

(١) جوسي: الجغرافيا المصورة لإسبانيا والبرتغال، نقلاً عن شكيب أرسلان: الحلل السندسية ج٣ ص٦٠.

(٢) ابن عذارى: المصدر السابق ص٣٣؛ حسين مؤنس: مرجع سابق ص٦٢.

(٣) من مشاهير من توفي في هذا الحصار: الفقيه محمد بن عبيدالله بن عبدالبر وكان فقيهاً حافظاً مفتياً، وأبو القاسم خلف بن أحمد الصدفي وكان فقيهاً أديباً وقد توفي في ذي الحجة ٤٨٦هـ أي بعد عام وثلاثة أشهر من بدء الحصار.

(٤) ابن عذارى: المصدر السابق ص٣٤.

(٥) أبو الوليد هشام بن أحمد بن هشام الكناني (ت٤٨٩هـ) يعرف بالوقشي: قال عنه ابن بشكوال: «أحد رجال الكمال في وقته باحتوائه على فنون المعارف وجمعه لكليات العلوم وكان عمره عندما حاصر السيد بلنسية قد تجاوز السبعين إذ أن مولده كان سنة ٤٠٨هـ ويذكر حسين مؤنس نقلاً عن «المدونة العامة الأولى» لتاريخ اسبانيا أو الوقشي كان غير راض عن سلوك ابن جحاف وأنه لذلك سعى إلى الاتصال برذريق. وقد اكتفى ابن بشكوال في ختام ترجمته له بالقول: وقد نسبت إليه أشياء الله أعلم بحقيقتها وسائله عنها ومجازيه بها» (الصلة ج٢ ص٦١٧ ـ ٦١٨).

وطلبوا منه التوسط لدى ابن جحاف ليقبل التفاوض مع السيد. ويبدو أن القاضي ابن جحاف كان مصمماً على الصمود حتى الموت بدلاً من التفاوض مع السيد. لكن أمام ضغط أعيان المدينة وعلى رأسهم الفقيه الوقشي قبل ابن جحاف مبدأ التفاوض وأوكل إليهم مهمة ذلك.

ذهب وفد من أعيان المدينة لمفاوضة السيد وتم الاتفاق بين الطرفين على تسليم المدينة إلى السيد بشروط أهمها أن يؤمن السكان في أنفسهم وأموالهم وأن يبقى ابن جحاف قاضياً للمدينة وحاكماً لها وأن يؤمن في نفسه وماله وأهله، وأن يتولى مندوب «السيد» الإشراف على تحصيل الضرائب، وأن تحتل المدينة حامية من النصارى المعاهدين الذين يعيشون بين المسلمين، وأن يرابط السيد بجيشه في الضواحي وألا يغير شيئاً من شرائع المدينة وأحكامها[١]. وفي صباح يوم الخميس ٢٨ جمادي الأولى سنة ٤٨٨هـ[٢] خرج ابن جحاف ومعه عدد من أعيان المدينة ووقعوا عهداً بتسليمها على الشروط السابقة الذكر وأن يسلم ابن جحاف إلى السيد سائر أموال القادر.

دخل «السيد» وجنده بلنسية، فاحتلوا أبراجها خلافاً لشروط المعاهدة ونزل السيد بالقصر. واحتل النصارى معظم دور المدينة وضياعها. وتسلم السيد من ابن الجحاف أموال القادر وذخائره وأبقاه في منصبه قاضياً للمدينة ولكن إلى حين. فقد كان ما بين الرجلين من الأحقاد أعظم من أن تمحوه الاتفاقيات فالسيد لم يغفر لابن جحاف «شدة صبره على تلك الأزمة، واجتهاده في طلب النصرة ودفعه إياه بالمطاولة، رجاء في استمساك البلدة وإبقاء الكلمة»[٣].

---

(١) محمد عبدالله عنان: مرجع سابق ص٢٤٤.

(٢) تختلف الروايات الإسلامية في تاريخ دخول «السيد» بلنسية فيقول ابن بسام وهو معاصر للحادث أنه وقع في سنة ٤٨٨هـ (الذخيرة ق٣ ج١ ص٩٨) ويوافقه ابن عذارى على ذلك (البيان المغرب ج٤ ص١٤٨) في حين يذكر ابن الأبار أنها كانت في سنة ٤٨٧هـ (الحلة السيراء ج٢ ص١٢٥) وكذلك ابن الخطيب (أعمال الأعلام ص٢٠٤) وقد اعتمدنا رواية ابن بسام لأنه أقرب هؤلاء المؤرخين للحدث.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب ج٣ ص٣٨؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص٢٠٤.

«فبقي معه مديدة يضجر من صحبته ويلتمس السبيل إلى نكبته»[١].

ولم تعوز السيد الحيلة[٢] فقد ادعى أنه عثر على بعض ذخائر ابن ذي النون عند القاضي ابن جحاف وأن من شروط التسليم أن تؤدى تلك الذخائر كاملة إلى السيد. فاعتقله وسائر أفراد أسرته وصادر جميع ممتلكاتهم وعذبهم عذاباً شديداً ثم أمر بإعدام ابن جحاف حرقاً فأقيمت له وقدة كبيرة في ساحة المدينة وأحرق فيها بصورة مروعة. يقول ابن بسام بعد أن ذكر واقعة إحراق ابن جحاف: «أخبرني من رآه في ذلك المقام، وقد حفر له حفير إلى رفغيه وأضرمت النار حواليه، وهو يضم ما بعد من الحطب بيديه ليكون أسرع لذهابه، وأقصر لمدة عذابه، كتبها الله في صحيفة حسناته ومحا عنه بها سالف سيئاته... وهم الطاغية يومئذ ـ لعنه الله ـ بتحريق زوجه وبناته، فكلمه فيهن بعض طغاته، فبعد لأي ما لفته عن رأيه وتخلصهن من يدي نكرائه»[٣]. وأمر «السيد» بإحراق جماعة من أعلام بلنسية منهم أبو جعفر البتي[٤] الشاعر المشهور. وطال انتقام «السيد» كل من يشار إليه من أهل بلنسية فثقفهم وأغرمهم حتى استأصل جميع ما عندهم وجعل الناس في المحنة سواء[٥] وقد توفي في هذا الثقاف عدد منهم.

وفي هذه المحنة يقول ابن خفاجة البلنسي:

عاثت بساحتك العدا يا دار ومحا محاسنك البلى والنار

---

(١) ابن بسام: الذخيرة ق٣ ج١ ص٩٨.

(٢) لقد ادعى بعض الكتاب الإسبان أن ابن جحاف كان يدبر أمر الثورة على السيد ونقض العهود التي بينهما وبالتالي استحق القتل (شكيب أرسلان: الحلل السندرسية ج٣ منشورات دار مكتبة الحياة بيروت، ص٦٣).

(٣) الذخيرة: ق٣ ج١ ص٩٩؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص٢٠٤.

(٤) أحمد بن عبدالمولى بن أحمد البتي أبو جعفر (ت٤٨٨هـ): كان كاتباً، شاعراً بليغاً مطبوعاً كثير التصرف، قائماً على الآداب وكتب النحو واللغة والشعر (ابن الأبار: التكملة ج١ تحقيق إبراهيم الإبياري ط١ ١٤١٠هـ دار الكتاب المصري القاهرة ص٤٣، ابن سعيد: المغرب ج٢ ص٣٥٨).

(٥) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص٢٠٤.

فـإذا تـردد فـي جـنـابـك نـاظـر طـال اعـتـبـار فـيـك واسـتـعـبـار
أرض تـقـاذفـت الـخـطـوب بـأهـلـهـا وتـمـحـصـت بـخـرابـهـا الأقـدار
كـتـبـت يـد الـحـدثـان في عـرصـاتـهـا لا أنـت أنـت ولا الـديـار ديـار[1]

أثار سقوط بلنسية بيد «السيد» وإحراق القاضي ابن جحاف موجة عارمة من السخط في صفوف المسلمين بالأندلس وقد عبر عن ذلك ابن بسام، الذي كان معاصراً للأحداث، بقوله: «وأضرم هذا المصاب الجليل يومئذ أقطار الجزيرة ناراً وجلل سائر طبقاتها خزياً وعاراً»[2]. وكان لحرق ابن جحاف أثر كبير على الأوضاع في بلنسية فقد نبه المرابطين إلى ضرورة استنقاذ بلنسية قبل أن تخرب تماماً وقد صدق بيدال، وهو كما أسلفنا مؤرخ حياة السيد، في قوله «إن ابن جحاف استطاع بعد موته أن يكون أشد ضرراً على السيد مما كان في حياته، فإنه أصبح بذلك شهيداً تؤجج روحه حوافز الثورة في المسلمين حوله»[3]. والواقع أن تأثر الناس كان عظيماً وتحول ابن جحاف إلى «شهيد» مات على يد طاغية نصراني، حتى ابن طاهر نفسه، الذي ذكرنا من قبل شكاته من تسلط ابن جحاف شعر بالألم لمصابه وكتب إلى ابن عم له يعزيه فيه ويطنب في مدحه ويستنزل الرحمات عليه[4].

كانت تلك هي النهاية المفجعة لهذا العالم القاضي الذي أراد أن يقيم دولة في بلنسية ففشل في ذلك. ولعلنا نتساءل لماذا فشل هذا القاضي فيما نجح فيه آخرون؟ إن تتبع أعمال ابن جحاف خلال مدة حكمه القصيرة تكشف لنا عن أبرز أسباب فشله: أولها: الجهل بواقع الأمور في بلنسية ومدى قوة كل طرف من أطراف الصراع فيها. ثانيها: وهو نتاج الأول عدم الثبات على الأمر فابن جحاف يحالف المرابطين اليوم ثم يطردهم في الغد

(١) ديوان ابن خفاجة ص٣٥٤.
(٢) الذخيرة ق٣ مج١ ص٩٩.
(٣) حسين مؤنس: السيد القمبيطور ص٧٥.
(٤) ابن بسام: الذخيرة ق٣ مج١ ص١٠٢ ـ ١٠٣.

ويناوىء السيد ثم يهادنه. ثالثها: عدم تقديره لخطورة ما أقدم عليه مما أدى به إلى عدم اتخاذ الأسباب الكفيلة بنجاحه ومن أهمها «استجلاب الرجال» أي تكوين جيش قادر على حماية هذا الكيان الناشىء وإنفاق المال في سبيل ذلك بدل الانشغال في تكديس الثروة. رابعها: قصر النظر في سياساته والذي تمثل في انشغاله بالتمتع بمزايا الرئاسة عن تدبير الأمور التي تكفل بقاءها واستمرارها. كما تمثل في التعجل بتصفية الحسابات مع الخصوم مما أدى إلى فتح جبهة داخلية، فتشتت الجهد. ونختم هذا برأي ابن بسام في ابن جحاف فهو يرى أن أسباب فشله تعود إلى أنه «دفع إلى النظر في أمور سلطانية لم يتقدم في غوامض حقائقها وإلى ركوب أساليب سياسية لم يكن له عهد باقتحام مضايقها، ولا بالدخول في ضنك مآزقها ولم يعلم أن تدبير الأقاليم غير تلقين الخصوم، وأن عقد ألوية البنود، غير الترجيح بين العقود وانتحال الشهود»[1].

إن الظروف الاستثنائية التي كانت تعيشها منطقة شرق الأندلس عامة وبلنسية خاصة كانت تجعل مهمة أي طامح على الأقل صعبة إن لم تكن مستحيلة.

## ٢ ـ أبو جعفر حمدين بن حمدين ـ حاكم قرطبة:

احتفظت قرطبة في بداية عصر المرابطين بمكانة سامية بين مدن الأندلس وقواعدها الهامة. ففيها دعا يوسف بن تاشفين شيوخ لمتونة وأمراءها وفقهاء المرابطين وقادتهم لعقد البيعة لابنه علي وذلك سنة ٤٩٦هـ[2]. وأصبحت قرطبة منذ ذلك الحين مركز الثقل لدولة المرابطين في الأندلس، وكانت في أغلب الأوقات مقراً لنائب أمير المسلمين في الأندلس.

وكانت لقرطبة مكانة كبرى في نفوس الأندلسيين لماضيها المجيد

---

(١) الذخيرة: ق٣ مج١ ص٩٧.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص٤٣؛ الحلل الموشية: ص٧٨.

كعاصمة للخلافة الأموية ولما تضم من بيوتات العلم وأعلام المعرفة. ومن هذه البيوتات العلمية المشهورة بيت آل حمدين التغلبيين وهو من أقدم البيوتات العربية في الأندلس، وقد اشتهرت هذه الأسرة بأنها «بيت علم ودين وفضل وجلالة»[1]. وقد تولى عدد من أفرادها القضاء فقد كان محمد بن علي بن حمدين (ت٥٠٨هـ) وهو والد أبي جعفر، قاضي الجماعة بقرطبة من سنة ٤٩٠ إلى ٥٠٨هـ. قال عنه ابن بشكوال «كان من أهل التفنن في العلوم»[2] وقال عنه تلميذه القاضي عياض: «أحد رجال الأندلس وزعيمها في وقته جلالة ووجاهة»[3]. وهو الذي أفتى أمير المسلمين علي بن يوسف بضرورة مصادرة كتاب الإحياء للإمام الغزالي وحرق نسخه لما فيه من «منكرات». وممن تولى القضاء أيضاً أحمد بن محمد وهو أخو أبي جعفر، وقد تولى قضاء الجماعة بقرطبة «وكان نافذاً في أحكامه جزلاً في أفعاله وقد توفي سنة ٥٢١هـ وهو يتولى القضاء»[4].

أما أبو جعفر حمدين بن محمد بن علي بن حمدين فقد ولي القضاء بقرطبة في شعبان سنة ٥٢٩هـ على أثر مقتل قاضيها أبي عبدالله بن الحاج في تلك السنة[5]. ولكن مدة قضائه لم تطل فقد عزل سنة ٥٣٢هـ نتيجة اختلافه مع حكام المرابطين في قرطبة. وربما كان السبب الأساسي لعزله هو ما بدأ يظهره من تنفذ في قرطبة مستغلاً في ذلك ما كان له من ثقل اجتماعي كبير. وقد عين مكانه القاضي أبو القاسم ابن رشد وهو ابن زعيم فقهاء قرطبة في أوانه وقاضي جماعتها أبو الوليد بن رشد. ويبدو أن هذا التعيين لم يرق لأبي جعفر فقد كان يراه تدعيماً وخلقاً لمنافس له في زعامة قرطبة.

---

(١) ابن بشكوال: الصلة ج١ ص٨١.
(٢) ابن بشكوال: المصدر السابق ج٢ ص٥٣٩.
(٣) عياض: الغنية ص١١٦.
(٤) النباهي: المرقبة العليا ص١٠٣.
(٥) النباهي: المصدر السابق ١٠٢؛ ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص٩٣.

لهذا قد لا يستبعد أن يكون ابن حمدين قد شارك بطريقة أو بأخرى على تثوير العامة ضد قاضيهم ابن رشد سنة ٥٣٤هـ[١].

ويحملنا على هذا الاعتقاد أن المصادر لم تذكر سبباً لهذه الثورة سوى ما ذكره ابن الخطيب من أن ذلك كان «لضعف قاضيها إذ ذاك أحمد بن رشد»[٢]. فهل كان هذا الضعف هو خضوع القاضي ابن رشد لأوامر ونواهي والي المرابطين في قرطبة في حين كان ابن حمدين مناكفاً له؟ ربما كان ذلك وبالإضافة إلى هذا الدور الخفي بادر ابن حمدين عندما اندلعت الثورة إلى التدخل وأسكت ثائرة الأهالي[٣] فظهر بمظهر الزعيم المسموع الكلمة الساعي إلى استتباب الأمن وإقرار النظام.

أدرك القاضي ابن رشد أن بقاءه في منصب القضاء لم يعد ممكناً مع وجود ابن حمدين فاستعفى من منصبه فأعفي. ويبدو أن المرابطين رأوا في هذه الثورة محاولة من أهل قرطبة لإرغامهم على تعيين ابن حمدين، فامتنعوا عن تعيين قاض لقرطبة لمدة عام كامل تأديباً لأهلها وسخطاً من الأمير عليهم، ثم أذن لهم باختيار قاض لهم فأجمعوا على اختيار ابن حمدين. ويبدو أن أبا عمر اللمتوني والي قرطبة لم يكن راضياً عن هذا الاختيار لأن شخصية ابن حمدين أصبحت تمثل وزناً يضاهي وزن الوالي تشعر بأنه يحمل في نفسه طموحات قد تكون خطيرة، لكنه مع ذلك قبل اختيار أهل قرطبة فعينه قاضياً سنة ٥٣٦هـ[٤].

وفي هذا الوقت كانت الدولة المرابطية تمر في المغرب بأوقات عصيبة إذ توالت عليها الهزائم أمام الموحدين. وكانت أنباء هذه الهزائم تصل الأندلس فيتحرج موقف المرابطين هناك وتضعف هيبتهم في النفوس ويشعر الناس أن أمرهم أصبح إلى زوال.

---

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص٢٥٢.
(٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص٢٥٢.
(٣) نفس المصدر السابق والصفحة.
(٤) النباهي: المرقبة العليا ص١٠٣؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص٢٥٣.

وفي ظل هذا الواقع بدأ بعض الطامحين إلى المجد في التفكير في كيفية ملء الفراغ الذي سيحدثه سقوط دولة المرابطين. وكان تفكير البعض منهم ينصب على كيفية المحافظة على المجد الذي كسبوه في عهد المرابطين. وبدأت نزعة التشرذم المتأصلة في النفوس تحيا.

## ثورة ابن حمدين:

جاءت أولى شرارات الثورة على المرابطين إثر قيام جماعات «المريدين»[1] في غرب الأندلس قياماً عاماً تزعمه أبو القاسم أحمد بن الحسين بن قسي واستعان في اجتذاب الناس إلى دعوته بادعاء الهداية «مخرقة وتمويهاً على العامة»[2] وذلك في صفر ٥٣٩هـ[3]. وقد أحدثت هذه الثورة بالإضافة إلى الوضع في المغرب أثرها في نفوس أهل قرطبة الذين بدأت بذور الثورة تختمر من جديد في أذهانهم، وهم شعب معروف بسرعة تقلبه وهياجه.

ووجد أهل قرطبة الفرصة المواتية عندما خرج الأمير أبو زكريا يحيى بن غانية حاكم المرابطين العام بالأندلس والمقيم في قرطبة؛ خرج إلى أشبيلية لمواجهة خطر «المريدين» وقد خلف على قرطبة أبا عمر اللمتوني،

---

(١) المريدين: جماعة صوفية التفت حول ابن قسي وكانوا ينتشرون بمنطقة شلب وميرتلة ولبلة وغيرها من أعمال غرب الأندلس، وكانوا يجتمعون فيتدارسون كتب الصوفية وخصوصاً كتب الغزالي ورسائل إخوان الصفا. ولما ادعى ابن قسي أنه المهدي والإمام بايعه هؤلاء الأتباع فدعاهم إلى الثورة على المرابطين فاستجابوا لذلك واتخذوا «التهليل والتكبير» شعاراً لهم، ولم تدم ثورة المريدين أكثر من سنة ونصف ٥٣٩ ـ ٥٤٠هـ (ابن الأبار: الحلة السيراء ج٢ ص١٩٧؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص٢٤٨؛ عبدالقادر زمامة: حركة ابن قسي، مجلة البينة السنة الأولى ١٩٦٢ العدد الثامن ص٧١ ـ ٧٧).

(٢) ابن الأبار: الحلة ج٢ ص١٩٧؛ ويقول عنه عبدالواحد المراكشي: «وقام بمغرب الأندلس دعاة فتن ورؤوس ضلالات فاستفزوا عقول الجهاد من جملتهم رجل اسمه أحمد بن قسي كان صاحب حيل ورب شعبذة» (المعجب ص٣٠٩).

(٣) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص٢٤٨.

فثار أهل قرطبة به وأعلنوا خلع الدعوة المرابطية. ونادوا برئاسة القاضي أبي جعفر بن حمدين[1]. بويع ابن حمدين بالإمارة في المسجد الجامع فبايعه الخاصة والعامة وذلك في الخامس من رمضان سنة ٥٣٩هـ[2].

واستقر ابن حمدين بقصر الخلافة وتسمى بأمير المسلمين وناصر الدين، ووفقاً لقول ابن الأبار بأمير المسلمين المنصور بالله[3]. فبرز الأمر الذي كان «يجيش في صدره»[4] كما يقول ابن الخطيب. ودعي له على منبر قرطبة ومعظم منابر القواعد الأندلسية.

وكان ابن غانية قد سار عندئذ إلى لبلة[5] ليجهز على المريدين الذين تحصنوا بها، فلما علم بما وقع في قرطبة عاد أدراجه إلى أشبيلية. ولكنه ما كاد يستقر بها حتى ثار به أهلها وناصبوه العداء وجرح أثناء القتال الذي نشب بينه وبينهم. فارتد عندئذ في قواته إلى حصن مرجانة[6].

لم يكن القاضي ابن حمدين الطامح الوحيد إلى الاستئثار بقرطبة والتأمر فيها فقد ظهر في الميدان طامع آخر هو أبو جعفر أحمد بن عبدالملك بن هود الملقب بسيف الدولة، وكنا قد ذكرنا في الفصل الماضي جزءاً من نشاطه ومحاولاته لتكوين إمارة، كما ذكرنا أنه كان أحد أتباع ملك قشتالة. ويبدو أن هذا الأخير أمره بالدخول إلى ميدان الصراع في الأندلس لإثارة أهلها على المرابطين.

وقد نجح ابن هود في مداخلة جملة من أهل قرطبة فاستدعوه إلى مدينتهم. وفي نفس الوقت كان بعض آخر من أهل قرطبة يتزعمه أبو

---

(١) ابن الخطيب: نفس المصدر ص٢٥٣.
(٢) ابن الخطيب: نفس المصدر ص٢٥٣؛ النباهي: المرقبة العليا ص١٠٣.
(٣) ابن الأبار: التكملة ج١ ص٣٨؛ النباهي: تاريخ قضاة الأندلس (المرقبة العليا): ص١٠٣.
(٤) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص٢٥٢.
(٥) لبلة: مدينة قديمة تقع في الجنوب الغربي للأندلس بشمال طريانة قريباً من أشبيلية (الحميري: الروض المعطار ص٥٠٧).
(٦) ابن الخطيب: الإحاطة ج٤ ص٣٤٥.

الحسن بن عتيق[1] يستدعي المريدين، وبالفعل سار جيش من المريدين بقيادة ابن المنذر[2] للاستيلاء على قرطبة[3]. لكن ابن هود، وعلى رأس جيش يتكون في معظمه من قوة من النصارى أمده بها ملك قشتالة، تمكن من دخول قرطبة قبل قوات ابن قسي التي ارتدت خائبة إلى الغرب[4]. بادر ابن حمدين بالفرار إلى حصن فرنجولش المنيع الواقع شمال غربي قرطبة وبقي فيه يترقب الأحداث بينما نودي بسيف الدولة أميراً على قرطبة باسم المستنصر بالله[5].

بيد أن هذه الإمارة لم تطل مدتها إذ سرعان ما تغير عليه القرطبيون كما هي عادتهم، ذلك أن ابن هود لم يمض غير أيام قلائل لم تتجاوز الاثني عشر حتى ثار أهل قرطبة به وهاجموا القصر وقتلوا ابن شماخ وزير

---

(١) أبو الحسن بن عتيق بن مؤمن: ابن الصوفي الكبير أبي بكر بن عتيق صديق ابن العريف وقد تتلمذ أبو الحسن على عدد من شيوخ المريدين وكان «محدثاً راوية، حاضر الذكر للأدب والتواريخ ماهراً في علم الكلام والطب» على حد تعبير ابن عبدالملك (الذيل والتكملة السفر ٥ القسم ١ ص٢٥٦).

(٢) محمد بن عمر بن المنذر (توفي ٥٤٨): أحد أعيان شلب ونبهائها من بيت قديم من المولدين وكان عالماً، أديباً، شاعراً. ولي خطة الشورى ببلده ثم تزهد واعتزل الناس. ثم صاحب ابن قسي وانضم إليه لما أعلن هذا ثورته وقاد عدداً من حملات المريدين. ولما حصلت المنافرة بين ابن قسي وسيد راي بن وزير زعيم يابرة وهو أحد القادة الذين انضافوا إلى ثورة المريدين، طلب ابن قسي من ابن المنذر محاربة ابن وزير إلا أن هذا الأخير تمكن من هزيمة ابن المنذر واعتقله وسمل عينيه. وظل في السجن إلى أن استنقذه الموحدون منه فرجع إلى سلب، حيث ثار على ابن قسي وكان إذ ذاك فيها، وتمكن من قتله في جمادى الأولى ٥٤٦هـ ، ونصب أهل شلب ابن المنذر والياً عليهم، قائماً بالدعوة للموحدين، ولكن سيد راي بن وزير، خصمه القديم انتزعها منه. وهاجر ابن المنذر إلى سلا حيث توفي (ابن الأبار: الحلة السيراء ج٢ ص٢٠٢ - ٢١١).

(٣) ابن الأبار: الحلة السيراء ج٢ ص٢٠٦؛ أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ص٢١٠.

(٤) ابن الأبار: نفس المصدر السابق والصفحة.

(٥) ابن الأبار: نفس المصدر ص٢١٢؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص٢٥٣.

سيف الدولة وعدة من أصحابه، ففر سيف الدولة ناجياً بنفسه. واتجه إلى جيان فانتزعها من القاضي ابن عبدالرحمن بن جزي[١].

ولا شك أن ابن حمدين لم يكن بعيداً من هذه الثورة التي أطاحت بابن هود، فأنصار ابن حمدين وخصوصاً من الفقهاء[٢] ما زالوا أغلبية في قرطبة. وما كاد ابن هود يغادر قرطبة حتى عاد إليها ابن حمدين من حصن فرنجولس واستأنف رياسته[٣].

بدأ ابن حمدين في التخطيط لتكوين دولته الجديدة فدوّن الدواوين، وجنّد الأجناد ورسم الخطط، ثم بدأ يعمل على توسيع نطاق دولته فكاتب القضاة في مدن الأندلس المختلفة يدعوهم فيها إلى خلع بيعة المرابطين في مدنهم والانضواء تحت قيادته وإعلان التبعية له، وقد استجاب لندائه عدد من زملائه الثوار. فقد ثارت مرسية على المرابطين وأسند أهلها أمرها لأبي محمد بن الحاج اللورقي الذي دعا لابن حمدين ثم استعفى فقدم أهل مرسية القاضي أبا جعفر بن أبي جعفر الذي استمر على سياسة سلفه «فجنح أول أمره إلى ابن حمدين وخاطبه مشايعاً ومتابعاً ومصوباً رأيه فيما أتاه»[٤]. وقد قدمه ابن حمدين على خطة القضاء وجه إليه أحد قواده وهو أبو محمد بن فرج الثغري[٥]. ثارت غرناطة أيضاً على المرابطين وقاد ثورتها

---

(١) القاضي يوسف بن عبدالرحمن بن جزي (ت٥٨٩هـ): ثار في جيان وأنشأ بها حكومة اقتداء بزملائه القضاة في قرطبة وغرناطة ومالقة وغيرها. إلا أن رئاسته لم تطل فقد استطاع ابن هود التغلب على جيان في أواخر سنة ٥٣٩هـ (ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص٢٥٩).

(٢) من هؤلاء الفقهاء أحمد بن الحصين بن عطاف العقيلي قال عنه ابن عبدالملك المراكشي: «كان شيخاً حسن الخلقة والخلق وقور المجلس كثير البر كبير الجاه، حريصاً على إفادة العلم مكرماً لطلبته، شوور بغرناطة ثم بقرطبة. فلما كانت الفتنة التي أثارها أبو جعفر بن حمدين داخله في بعض أموره وتصرف معه تصرفاً أنكره بعض الناس عليه والله أعلم بنيته» (الذيل والتكملة السفر١ ص٩٩).

(٣) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص٢٥٣.

(٤) ابن الأبار: المعجم ص٢٣٩.

(٥) أبو محمد عبدالله بن فرج الثغري (ت٥٤١هـ): أحد رجال فترة الاضطراب في =

القاضي أبو الحسن علي بن عمر بن أضحي الذي أعلن تبعيته لابن حمدين فأرسل إليه هذا بعض قواته بقيادة ابن أخيه علي بن أبي القاسم المعروف بابن أم العماد وذلك لمساعدته في حرب المرابطين المحاصرين له في غرناطة[1].

وممن استجاب لدعوة ابن حمدين وانضاف إليه أخيل بن إدريس في رندة[2] وأبو الغمر بن السائب بن عزون في شريش[3] وأركش[4].

كانت تبعية هذه المدن لسلطان ابن حمدين لا تدوم في بعض الأحيان أكثر من أيام ثم تغير ولاءاتها. فقد سادت الفوضى والانقلابات المتوالية وأضحى كل واحد يبحث عن الرئاسة والغنم لنفسه. وقد حاول ابن حمدين أن يجعل لنفسه حلفاء وأنصاراً في معظم المدن الأندلسية وكان يمدهم بالقوة إن استلزم. غير أن الحظ لم يكن حليفه في أكثر تلك المحاولات.

أما في داخل قرطبة فيبدو أن الوضع لم يصف تماماً لابن حمدين فقد ظل فيها خصوم له لم يعجبهم حكمه. وتاق هؤلاء إلى التخلص من هذا الحاكم، فكتبوا إلى يحيى بن غانية في القدوم عليهم واستعادة سلطانه على

---

= الأندلس من سنة ٥٣٩ ـ ٥٤١هـ كان قائداً بكونكة فلما قام ابن حمدين بثورته في قرطبة انضم إليه فلما وصلت ابن حمدين مخاطبة أهل مرسية أرسله إليهم ممثلاً له فيها وقد تقلبت به الأحوال بين الأسر والفرار والحكم في مرسية إلى أن قتله ابن عياض في رجب ٥٤١هـ عند احتلاله لمرسية التي كان الثغري قد انتزعها منه في ذي الحجة ٥٤٠هـ (ابن الأبار: الحلة السيراء ج٢ ص٢١٧ ـ ٢١٨).

(١) ابن الأبار: الحلة السيراء ج٢ ص٢١٢؛ أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ص٢١٠.

(٢) رندة: بضم أوله وسكون ثانيه معقل حصين بالأندلس من أعمال أشبيلية وهي مدينة قديمة. وتقع بين أشبيلية ومالقة (ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٣ ص٧٣؛ الحميري: الروض المعطاء ص٢٦٩).

(٣) شريش: كورة من عمال أشبيلية كثيرة العمارة والأرزاق (ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب ج١ ص٣٠٢؛ الحميري: الروض المعطار ص٣٤٠).

(٤) أركش: معقل من معاقل الأندلس الحصينة من أعمال أشبيلية (ابن سعيد: المغرب ج١ ص٣١٥).

المدينة[1]. كان ابن غانية يراقب الوضع عن كثب ويرصد كل التغيرات في موازين القوى. فقرر الاستجابة لهذا النداء فسار في قواته من نواحي أشبيلية إلى قرطبة في جمادي الآخرة ٥٤٠هـ. وتهيأ ابن حمدين للقاء ابن غانية فبرز إليه في قواته، مما يدل على أن ابن حمدين كان واثقاً من قوته وقدرته على هزيمة المرابطين. التقى الطرفان بأحواز أستجة في جنوب غربي قرطبة ودارت بينهما معركة انتهت بهزيمة ابن حمدين. وفتحت هذه المعركة الطريق أمام ابن غانية لدخول قرطبة، فاتبع ابن حمدين وتمكن من دخول قرطبة في ١٢ من شعبان ٥٤٠هـ[2]، وفر ابن حمدين إلى بطليوس ملتجئاً إلى حماية صاحبها عبدالله بن الصميل[3].

لم يستسلم ابن حمدين لهذه الهزيمة بل بدأ يخطط للعودة إلى قرطبة فسار إلى حصن أندوجر الواقع شرقي قرطبة وتحصن به. وبدأ يبسط سلطانه على البلاد المجاورة فنهض ابن غانية إلى قتاله. وحاصره في أندوجر مدى شهر[4]. وهنا لجأ ابن حمدين إلى تلك الوسيلة الذميمة القديمة، التي كانت عماد الطوائف في محاربة بعضهم بعضاً، وهي الاستنصار بالنصارى فاستنصر بعاهل قشتالة القيصر ألفونس ريمونديس. ووعد ابن حمدين طاغية الروم «بما أطمعه» وهو تمليك قرطبة للقيصر الذي استجاب للدعوة وتحرك إلى نصرته[5]. ولما وصل القيصر إلى أندوجر تبين ابن غانية عدم قدرته على

---

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص٢٥٣.

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة ج٤ ص٣٤٥.

(٣) عبدالله بن علي بن الصميل: أحد قواد المريدين ولا تذكر المصادر عنه سوى أنه والي بطليوس لابن أخته سيد راي بن وزير القيسي زعيم أهل يابرة وأحد المؤيدين الرئيسيين لابن قسي ثم المناهضين له. وقد كان لسيد راي هذا دور ناشط في تاريخ غرب الأندلس في الفترة ما بين ٥٣٩ ـ ٥٤٨هـ . وقد تحالف مع الموحدين ونال لديهم حظوة كبيرة (ابن الأبار: الحلة السيراء ج٢ ص٢٠٣ ـ ٢١١؛ ٢٤٧؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص٢٥٠).

(٤) ابن الخطيب: الإحاطة ج٤ ص٣٤٥؛ أعمال الأعلام ص٢٥٣.

(٥) يذكر أشباخ أن القيصر اكتفى بإرسال بعض قواته بقيادة فرديناند دي ليمان (تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ص٢٢١).

مدافعته فانصرف في قواته إلى قرطبة. ولكن ابن حمدين ومعه القوات النصرانية ساروا في إثره ودخلوا قرطبة في ١٠ من ذي الحجة ٥٤٠هـ. وامتنع ابن غانية بالقصر يدافع النصارى بشجاعة وعزم وصبر. وعاث القشتاليون في شرقي قرطبة، واستباحوا المسجد الجامع وأخذوا ما كان فيه من النواقيس التي كانت رؤوساً للثريات ومزقوا المصاحف ومنها مصحف عثمان بن عفان ونزعوا المنار من الصومعة، وكان من الفضة الخالصة وأحرقوا الأسواق. كل ذلك وابن غانية صامد يدفع النصارى عن القصبة بمنتهى الشدة والبسالة[١].

وحدث في تلك الفترة أن جاءت الأخبار بأن الموحدين قد عبروا البحر إلى الأندلس وأن أهل أشبيلية خلعوا طاعة المرابطين ونادوا بدعوة الموحدين، أزعجت هذه الأخبار القيصر وجعلته يراجع حساباته في ظل هذا العامل الجديد وكان أول استنتاجاته أنه من الضروري الآن «أن يستبقي ابن غانية ويهادنه، وينصبه سداً في وجه القوم»[٢]. فتم التفاهم بين القيصر وابن غانية وتم الاتفاق على جملة من المال وبعضاً من البلاد يتنازل عنها ابن غانية لصالح القيصر بالإضافة إلى الطاعة وأداء الجزية السنوية، مقابل تركه على قرطبة[٣].

أما ابن حمدين فقد غادر قرطبة مع النصارى وسار إلى حصن فرنجولش ولبث فيه فترة قصيرة. ويبدو أن شهوة السلطة لم تهدأ عنده رغم كل هذه النكسات، فصار يشيم كل برق حتى ولو كان خلباً، فعبر البحر إلى المغرب لعله يجد معيناً أو سنداً يحقق له حلمه، وسار إلى مقابلة الخليفة الموحدي عبدالمؤمن بن علي، فاجتمع به في أوائل سنة ٥٤١هـ. وقد وفد مع ابن حمدين بعض من زعماء الثورة في الأندلس مثل أبو الغمر بن عزون زعيم شرش وابن قسي زعيم ثورة المريدين في الغرب

(١) ابن الخطيب: الإحاطة ج٤ ص٣٤٦.
(٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص٢٥٤.
(٣) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص٢٥٤؛ الإحاطة ج٤ ص٣٤٦.

الأندلسي[1]. وكان يجمع بين هؤلاء همٌّ مشترك واحد هو استنهاض همة عبدالمؤمن للتدخل في الشأن الأندلسي[2] وإنجاد زعمائها الثائرين على المرابطين وهم العدو المشترك للطرفين.

استقبل الخليفة عبدالمؤمن القاضي ابن حمدين بحفاوة ولٰكن هذه الحفاوة لم تثمر عملاً ملموساً مما كان يتوق إليه «فاستعجل الرجوع من عنده». واستقر ابن حمدين هذه المرة بمالقة في كنف زميله وحليفه القاضي أبي الحكم بن حسون الثائر بها.

لم ييأس ابن حمدين من استرداد ملكه، فبدأ يخطط لمحاولة جديدة ربما تكون بالتنسيق مع القشتاليين. وفشلت هذه المحاولة الجديدة فارتد إلى مالقة حيث توفي في رجب سنة ٥٤٦هـ[3].

لقد استقصينا في الصفحات الماضية، قدر المستطاع، حياة عالمين عاش أحدهما في فترة شباب الدولة المرابطية في حين عاش الآخر في أواخر أيامها. وتوصلنا من متابعة أعمالهم إلى نتيجة قد تبدو غريبة وهي أن هذين العالمين كانا يمارسان الشأن العام من حكم وما يستتبعه، بمعزل تام عن علمهما إذ لا يظهر لهذا العلم أي أثر في سلوكهما ولا في تعاطيهما مع المشاكل اليومية. فهما شأنهما في ذلك شأن كل منتز طامح إلى لعاعة من الدنيا. يمارسان الخداع والغدر ويستحلان سفك الدماء واغتصاب الأموال ويتحالفان مع أعداء الدين على أهل الملة، ويدفعان الجزية للنصارى مقابل البقاء في سدة الحكم ولو ليوم، ثم هما يجران على المسلمين في بلديهما الكثير من الشرور نتيجة تشبثهما بهواهما. فهل نستنتج من هذين المثالين أن

---

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص٢٥٤؛ النباهي: المرقبة العليا ص١٠٢؛ ابن عذارى: البيان المغرب، قسم الموحدين ص٢٧.

(٢) ابن الخطيب: أعمال الأغلام ص٢٥٤.

(٣) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص٢٥٤؛ في حين يذكر النباهي أنه توفي سنة ٥٤٧ (المرقبة العليا ص١٠٤) وقد ذكرا أن الموحدين لما احتلوا مالقة نبشوا لحده وصلبوه في اثني عشر رجلاً من أصحابه. غير أن هذين المؤرخين لم يبينا السبب الذي دفع الموحدين إلى هذا العمل الشنيع.

العلماء، كما قال ابن خلدون أبعد الناس من السياسة؟ إننا لا نرى ذلك صحيحاً على إطلاقه. ويكفي لتقييده أن نذكر فقط بالإمام عبدالله بن ياسين الذي مارس السياسة الشرعية التي تسعى إلى جلب المصالح ودرء المفاسد. فهذين العالمين فشلا لأنهما لم يطبقا علمهما في عملهما فلم يرفعهما الله به عن حمأة الأهواء. إلا أننا نخرج من دراستنا لهذين العالمين بنتيجة أخرى مهمة وهي أن العالم لكي يحكم يجب أن يملك موهبة خاصة زائدة على العلم وهي «الملكة السياسية» وهي ميزان عقلي دقيق يزن به العالم المصالح والمفاسد ويرتب به الأولويات بينهما، غير أن تلك المصالح والمفاسد نفسها لا يمكن أن تعرف إلا بالعلم.

# الفصل الرابع

## أثر العلماء في الدعوة والجهاد

### أولاً: أثر العلماء في الدعوة:

لقد ارتبطت الدعوة إلى الله منذ بزوغ فجر الإسلام بالعلم والعلماء، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢)﴾[1].

وقد استشعر عدد من العلماء في العهد المرابطي، ابتداءاً بالإمام عبدالله بن ياسين، ضرورة الدعوة وإنذار قومهم ومن جاورهم وإبلاغهم الدين القويم.

ولن نعيد هنا جهود الإمام عبدالله بن ياسين في هذا المجال إذ أننا بسطنا القول فيها في الفصل الأول من الباب الأول ورأينا هنالك كيف أدت تلك الجهود إلى قيام دولة المرابطين التي كان الهدف الأساسي من قيامها هو نشر الإسلام ودعوة الناس إليه.

وقد تتبعنا في الفصول الماضية مسيرة الدولة المرابطية في المغرب الأقصى والأندلس وجهود العلماء في الحفاظ على الإسلام من الزيف والتغيير وصد عدوان أعداء الدين من مسيحيين.

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٢٢.

وسنتعرض هنا للجهود التي قام بها العلماء في الدعوة في الشق الجنوبي من الدولة المرابطية وأثر ذلك على المنطقة.

وقبل أن نتحدث عن تلك الجهود لا بد أن نشير إلى شح المعلومات عن هذا الجزء الجنوبي من الدولة المرابطية، إذ تكاد المعلومات عنه لهذا العهد تنحصر في سطور قليلة في كتاب المسالك للبكري وإشارات عابرة في روض القرطاس لابن أبي زرع وفي الحلل الموشية.

لقد أشرنا في الفصل الأول من الباب الأول إلى الملابسات التي جعلت الأمير أبي بكر بن عمر يتنازل عن الحكم لابن عمه يوسف بن تاشفين سنة ٤٦٤هـ[(١)]، وعودة أبي بكر إلى الجنوب لمواصلة جهاد الوثنيين في بلاد السودان. وقد ذكرنا هنالك بالتفصيل جهود هذا الأمير المجاهد وجهاده المستمر إلى أن استشهد سنة ٤٨٠هـ[(٢)]. لقد كانت السنوات الستة عشر التي أمضاها داعياً إلى الله بالقول والعمل منعطفاً تاريخياً حاسماً في تاريخ منطقة السودان الغربي، إذ ستكون هذه الفترة منطلقاً لتحول المنطقة إلى منطقة إسلامية.

لقد رأينا في ما مضى كيف تمكن الأمير أبو بكر بن عمر من هزيمة إمبراطورية غانة واحتلال عاصمتها سنة ٤٦٩هـ[(٣)].

لقد أدى هذا النصر إلى اعتناق كثير من أهل تلك البلاد الدين الإسلامي، إلا أن العامل الأساسي في ترسيخ هذا الدين في القلوب وجعل أهل السودان الغربي يدخلون فيه أفواجاً، هذا العامل هو الجهد الذي قام به العلماء من الدعوة إلى جانب الجيوش الفاتحة.

لقد كان الدعاة يتعقبون الجيش المرابطي الفاتح فيدعون الناس إلى الإسلام ويعلمون من دخل منهم الإسلام قواعد الدين، ويعملون على تدعيمه في النفوس.

---

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص١٣٥.

(٢) المصدر السابق ونفس الصفحة، الناصري: الاستقصا ج٢ ص٢٤.

(٣) مجهول: الحلل الموشية ص١٧، إبراهيم طرخان: إمبراطورية غانة الإسلامية ص٥٣.

بل إننا نجد بعض الحالات التي سبق فيها العلماء الدُّعاة الجيوش فحولوا الناس إلى الإسلام. ولعل أبرز مثال على ذلك هو اعتناق ملك مالي[1] للإسلام في أواسط القرن الخامس الهجري، فقد قحطت بلاد هذا الملك، وتسميه بعض المصادر[2] برمندانا، سنة تلو سنة فاستسقوا بقرابينهم فلم يسقوا «وكان بأرض هذا الملك رجل من المسلمين يقرىء القرآن ويعلّم السُّنة فشكا إليه الملك ما دهمهم من ذلك، فقال له: أيها الملك لو آمنت بالله تعالى وأقررت بوحدانيته وبمحمد ﷺ وأقررت برسالته واعتقدت شرائع الإسلام كلها لرجوت لك الفرج مما أنت فيه، وأن تعم الرحمة أهل بلدك وأن يحسدك على ذلك من عاداك، فلم يزل به حتى أسلم وأخلص نيته وأقرأه من كتاب الله ما تيسر عليه وعلمه من الفرائض والسنن ما لا يسع جهله ثم أمهله إلى ليلة جمعة فأمره فتطهر فيها طهراً سابغاً وألبسه المسلم ثوب قطن عنده وبرزا إلى ربوة من الأرض، فقام المسلم يصلي والملك عن يمينه يأتم به فصليا من الليل ما شاء الله والمسلم يدعو والملك يؤمن، فما انفجر الصبح إلا وقد عمهم الله بالسقيا. فأمر الملك بكسر الأصنام وأخرج السحرة من بلاده وصح إسلامه وإسلام عقبه. وأطلق عليه لقب المسلماني فما عاد يعرف إلا به»[3].

---

(١) مالي: (١٤٨١م) إحدى ممالك السودان الغربي القديمة، تقع في حوض النيجر الأعلى، وهي مملكة قديمة غير أنها لم تشتهر إلا ابتداءاً من القرن الثالث عشر ميلادي (١٢٣٥م) عندما بدأت تتوسع لترث إمبراطورية غانة، وتصبح مملكة عظمى. وقد بلغت أوج عظمتها في القرن الثامن الهجري الرابع عشر ميلادي وقد اشتهر من ملوكها منسي موسى، حكم من (١٣٠٧ ـ ١٣٣٢م) الذي حجّ سنة ٧٢٤هـ وزار القاهرة فترك في نفوس حكامها المماليك وسكانها أثراً طيباً وتقديراً كبيراً. كما أنه لفت نظر الناس في مكة المكرمة والمدينة المنورة بكثرة عطاياه، وفي عهده زار الرحالة المغربي ابن بطوطة مالي. (البكري: المسالك ج٢ ص٨٧٥، ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار تحقيق محمد عبدالمنعم العريان ط.١ ١٩٨٧ دار إحياء العلوم بيروت ص٦٩٤ ـ ٧١٠؛ ابن خلدون: العبر ج٦ ص٢٠١).

(٢) ابن خلدون: العبر ج٦ ص٢٠٠ Ki-Zerbo: Histoire de L'Afrique P.130

(٣) البكري: المسالك ج٢ ص٨٧٥ ـ ٨٧٦.

ولم يكن المسلماني هذا الملك الوحيد الذي اعتنق الإسلام على يد العلماء والدعاة فقد اعتنق ملك سنغاي[1] زاكوسي الإسلام فيما بين سنتي ٤٧١ـ٤٧٥هـ على يد هؤلاء الدعاة[2]. وقد عثر حديثاً على شواهد قبور في منطقة غاو[3]، تعود إلى أواخر القرن الخامس الهجري تؤكد أن الإسلام قد انتشر بين رجال الحكم في مملكة سنغاي بالإضافة إلى أفراد الشعب[4].

لقد كان هؤلاء الدعاة، في أغلبهم، نموذجاً للمسلم الحق فاتصفوا بالصفات الحميدة من صدق وحسن خلق وصبر وأمانة وإيثار للغير وزهد في الدنيا وإخلاص لله.

---

(١) سنغاي أو صنغاي: (١٥٩١م): مملكة من ممالك السودان الغربي قامت حول النيجر الأوسط. وهي مملكة قديمة ظلت تتوسع من منطقتها الأصلية بمحاذاة الغابات الاستوائية إلى الشمال حتى صارت في القرن الخامس عشر ميلادي (التاسع هجري) إمبراطورية كبرى أسقطت إمبراطورية مالي واحتلت مناطق نفوذها. ومن أشهر ملوك هذه الإمبراطورية الاسكيا محمد الأول الذي حكم من سنة ١٤٩٢ ـ ١٥٢٨م وكان شديد التقوى والتدين محباً للعلم والعلماء وقد قام بفريضة الحج سنة ٩٠٢ ـ ٩٠٥هـ وقد التقى في مصر بالإمام السيوطي وتأثر به تأثراً كبيراً، وقد سقطت هذه المملكة على يد الحملة التي أرسلها المنصور السعدي سلطان المغرب (٩٨٦هـ ـ ١٠١٢هـ) إلى السودان الغربي في سنة ١٠٠٠هـ (١٥٩١م). (تاريخ أفريقيا العام: المجلد الرابع، إشراف وتأليف اللجنة العلمية الدولية لتحرير تاريخ أفريقيا العام (اليونسكو) ص١٩٩ ـ ٢٢٠).

(٢) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية. ترجمة: د. حسن إبراهيم حسن، ط٣، ١٩٧٠م، طبع ونشر مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ص٣٥٥.

(٣) غاو أو كوكو GAO: عاصمة مملكة سنغاي يرجع تاريخ تأسيسها إلى القرن الثامن الميلادي وبلغت ازدهارها في القرن التاسع للهجرة (الخامس عشر الميلادي) وتقع هذه المدينة على منحنى نهر النيجر. وقد ساهمت مساهمة مهمة في الاتصالات التجارية والثقافية بين شمال أفريقيا وغربها منذ أواسط القرن الثاني الهجري. (نقولا زيادة: أفريقيا ت ص٣٤٩).

(٤) باسيل دافدسون: أفريقيا تحت أضواء جديدة، ترجمة جمال أحمد نشر دار الثقافة ص١٥٦. ومن هذه الشواهد شاهد كتب عليه: «هذا قبر الملك الذي أيد دين الله وأعزه أبو عبدالله محمد رحمه الله، ويضيف أن الملك توفي عام ٤٩٤هـ».

وقد أكسبتهم تلك الصفات التقدير والاحترام بين سكان السودان الغربي فكانت كل قرية تضم داراً لاستقبالهم وضيافتهم ويعاملون بإجلال، وفي بعض القبائل مثل الماندنجو[1] كان الدعاة في المرتبة التالية لمرتبة الملك في الاحترام. وقد بلغ من إجلال الناس لأشخاص هؤلاء الدعاة المعلمين، أنه كان لا يتعرض لهم أحد حين يجوسون خلال إمارات يعادي بعضها بعضاً، بل كانوا محل احترام شديد[2].

لا شك أن بساطة التعاليم الإسلامية ووضوحها كان لهما تأثير كبير في جذب هذه الشعوب للإسلام، كما كان لقيمه مثل انعدام التمييز العنصري والطبقي وغيرها كان لها جاذبيتها بالنسبة إلى أهل السودان الغربي، لذا نراهم يدخلون في الإسلام أفواجاً. بل إن البعض منهم حمل مشعل الدعوة منذ دخولهم للإسلام وتعمقهم فيه. وخير مثال على ذلك هم أهل غانة وأغلبهم من السوننك[3] فقد اشتهروا بحماستهم للإسلام ونشره حتى أن بعض العشائر السوننكية تكاد تختص بالعمل في الدعوة إلى الإسلام فقط، بل أن كلمة «سوننك» في أعالي نهر غامبيا كانت مرادفاً لكلمة «داعي» مما يدل على الدور الكبير الذي لعبه هؤلاء في نشر الإسلام[4].

ونفس الشيء ينطبق على شعب الماندنجو الذي يعد من أنشط الدعاة إلى الإسلام منذ دخلوه في القرن الخامس الهجري، وقد انتشر الإسلام بواسطتهم بين الجماعات المجاورة[5]، وقد لعب علماء قبيلة مسوفة دوراً

---

(١) الماندنجو: شعب من شعوب السودان الغربي، أسس إمبراطورية مالي. وينتشر هذا الشعب في عدد من الدول الأفريقية مثل مالي وغينيا والسنغال وفولتا العليا. (اليونسكو: تاريخ أفريقيا العام، المجلد الرابع ص١٣٨).

(٢) ت. آرنولد: مرجع سابق ص٣٩١ ـ ٣٩٢.

(٣) السوننك: أو السراكولا: قبيلة من قبائل السودان الغربي كانت تعيش في الصحراء ثم تركزوا بعد ذلك على حافتها الجنوبية وهم من أول قبائل السودان الغربي الذين احتكوا بأهل الشمال المسلمين. وقد أقام السوننك أقدم إمبراطوريات السودان الغربي وهي إمبراطورية غانة (طرخان: مرجع سابق ص١٨).

(٤) طرخان: م.س. ص٤٨.

(٥) ت. آرنولد: م.س. ص٣٥٦.

كبيراً في نشر الإسلام والدعوة إليه فكان لهم الأثر الكبير في منطقة السودان الغربي(١). وقد أنشأ هؤلاء العلماء الدعاة مدارس كانت منارات علم وطدوا بها إسلام هذه المنطقة، ومن أشهر هذه المدارس مدارس تمبكتو(٢) التي أضحت في القرن العاشر الهجري مناراً للعلوم والثقافة الإسلامية في السودان الغربي وتوافد عليها الطلبة والفقهاء.

وكان «أهلها من أكثر الناس تلطفاً بطلبة العلم وإعانتهم فكثر قراؤها وأدباؤها»(٣) ومثل ما انتشر العلم في تمبكتو انتشر أيضاً في مدينة جني(٤)، بل إنه ازدهر فيها مبكراً، فقد ذكر السعدي، صاحب تاريخ السودان، أن ملك هذه المدينة عندما أراد دخول الإسلام في أواخر القرن الخامس الهجري أي في عهد المرابطين جمع كل العلماء في مملكته فكان عددهم أربعة آلاف ومائتي عالم وأسلم على يديهم، وطلب منهم أن يدعوا الله أن ينصر مدينته،

---

(١) J.Cuoq: op.cit P.58.

(٢) تمبكتو: مدينة تقع على نهر النيجر الأعلى، وقد أنشئت حوالى ٤٩٠هـ (١٠٩٦م) على أيدي الطوارق. وهي مدينة إسلامية منذ البداية. وتعتبر من أهم المراكز التجارية والثقافية في السودان الغربي. وقد بلغت ذروة مجدها في القرن العاشر الهجري. وقد اشتهرت بكثرة علمائها ومكتباتها، ولعل أشهر علمائها هو أحمد بابا التنبكتي (١٥٥٦ - ١٦٢٧م) الذي ألف نحو خمسين مصنفاً في الفقه والنحو والتراجم ومن أشهر مؤلفاته كتاب (نيل الابتهاج بتطريز الديباج) وهو بمثابة صلة لكتاب ابن فرحون (الديباج المذهب في علماء المذهب) عن طبقات فقهاء المذهب المالكي وقد طبع نيل الابتهاج في القاهرة ١٣٥٢هـ ١٩٤٤م. (عبدالرحمن عبدالله السعدي (ت١٠٦٦هـ): تاريخ السودان، نشر وتحقيق هوداس وبنوه، الطبعة الثانية ١٩٦٤م، باريس المدرسة الباريسية لتدريس الألسن الشرقية، ص٢٠ - ٢١).

Mahmood Zouber: (Ahmed Baba de Tombouctou Savie et son œuvre, 1977 Mais on Neuve & Larose, Paris P.XIV).

(٣) محمود كعت: تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، تحقيق هوداس ودلافوس، الطبعة الثانية ١٩٦٤م، المدرسة الباريسية لتدريس الألسن الشرقية، باريس ص١٧٩.

(٤) جني: مدينة على النيجر الأعلى تأسست سنة ٤٣٥هـ (١٠٤٣م) وكانت مركزاً هاماً لتجارة القوافل ومحطة أساسية في التبادل التجاري والثقافي بين الشمال والجنوب (السعدي: م.س. ص١١، ت.آرنولد: م.س. ص٣٥٥).

ثم هدم قصره وبنى مكانه مسجداً عظيماً مبالغة في حبه للدين الإسلامي[1].

ومع أن العدد الذي ذكره السعدي للعلماء مبالغ فيه فإنه يدل على أن الحياة العلمية كانت مزدهرة وأن العلماء الدعاة كانوا كثيرين في هذه المنطقة. وقد أدى اعتناق ملك هذه المدينة للإسلام أن ازدهرت بالعلم أكثر فوفد إليها الطلاب والفقهاء و«ساق الله تعالى لهذه المدينة المباركة، سكاناً من العلماء والصالحين من غير أهلها من قبائل وبلاد شتى»[2] على حد تعبير السعدي لقد ارتبطت المدارس في السودان الغربي ارتباطاً شديداً بالدين. وفي أول الأمر ألحقت المدارس بالرباط، حيث يقيم المرابطون للتعلم والتعبد فكان الإمام عبدالله بن ياسين، معلمهم الأول، يعلمهم الشريعة ويقرئهم الكتاب، حتى صار حوله فقهاء، فكان يأمرهم بالذهاب إلى قبائلهم لينشروا الإسلام على أسس سليمة بعيدة عن البدع والجهل.

وبتوسع المرابطين وخروجهم للجهاد أصبحت المدارس ملحقة بالمساجد فكان إلى جانب كل مسجد غرفة أو غرفتان لتعليم الأولاد، وكانت هناك أمكنة لنوم الطلاب الذين يحضرون من أماكن بعيدة، على أن المساجد كانت بمثابة المقر الرئيسي لتلقي العلم إذ كانت تعقد في المساجد حلقات للدراسة والمناقشة في أمور الدين المختلفة[3].

وقد قلد السودان هذا النوع من المدارس فأصبحت تلحق بكل مسجد مدرسة لتعليم الأطفال وقد كانت مهمة التعليم في أول الأمر مقصورة على العلماء الدعاة الوافدين إلى أرض السودان الغربي من الشمال ولكن بعد مدة تكونت طبقة من أهل العلم من أهالي السودان تولت مهمة التعليم والدعوة[4].

ولكن رغم ظهور علماء من أهل السودان يقومون بالتعليم والدعوة فقد

---

(١) السعدي: مصدر سابق ص١٢.

(٢) السعدي: م.س. ص١٦.

(٣) ابن أبي زرع: م.س. ص١٢٥.

(٤) نقولا زيادة: مرجع سابق، ص٣٤٨ ـ ٣٥١.

ظل اسم المرابطين يطلق في السودان الغربي على المعلمين الدعاة حتى اليوم[١]، إشارة إلى الدور العظيم الذي قام به علماء المرابطين في سبيل نشر الدعوة والعلم في هذه المنطقة.

لم تكن الدعوة إلى الله بالنسبة إلى هؤلاء العلماء، أو جلهم، مهمة مؤقتة، بل كانت واجباً يتحملونه طوال حياتهم، لذلك نرى كثيراً منهم استقر بين الشعوب التي يدعون فيتزوجون من أهل البلاد فيتوطد نفوذهم وتستقر أحوالهم فتزداد مهمتهم في نشر الإسلام بسهولة[٢].

ولعله من الجدير بالذكر أن نشير إلى ظاهرة لفتت انتباه عدد ممن أرخ للمجتمعات في السودان الغربي وتتمثل هذه الظاهرة في تكون جماعات بين هذه المجتمعات ترجع في أصولها إلى علماء دعاة سكنوا هذه البلاد وتزوجوا من أهلها ولكن ذريتهم بدل أن يذوبوا في هذه المجتمعات ظلوا متشبثين بخصوصيتهم المتمثلة في الدعوة إلى الله ونشر الإسلام فلا يعرفون إلا بهذه الهوية وقد أطلقت على هذه الجماعات اسم «التورودوب». وقد تمكن «التورودوب» من تكوين دويلات لهم في مناطق عدة من السودان الغربي. وقد شن هؤلاء حملات الجهاد لنشر الإسلام كما أقاموا المدارس القرآنية وأنشأوا المساجد وقاموا بتدريس اللغة العربية. وصارت المساجد في مجتمعاتهم نقطة الارتكاز للحياة الدينية والدنيوية[٣].

ومن هؤلاء العلماء الدعاة الذين رحلوا من أوطانهم واستقروا في مناطق أخرى من أجل الدعوة إلى الله وبث العلم، الشريف عبدالمؤمن بن صالح الذي أسس مدينة تيشيت[٤] سنة ٥٣٦هـ، وهو أحد تلاميذ القاضي

---

(١) ت. آرنولد: مرجع سابق ص٣٩٢.

(٢) J.C. Froelich: Essai sur les causes et Methodies de L'ISLAMISATION de L'Afrique de L'OUEST du XI-XX Sièce, Oxford UNIV; Press 1969, P.121.

(٣) د. عبدالله إبراهيم: الجهاد والدعوة الإسلامية في جامبيا، (مجلة مركز الوثائق والدراسات الإنسانية، جامعة قطر) العدد ١٣، ١٩٩٣م، ص٢٣٢.

(٤) تيشيت: مدينة في منطقة تكانت في وسط موريتانيا الحالية أنشئت سنة ٥٣٦هـ كانت مركز حياة علمية مزدهرة أنجبت عدداً هاماً من العلماء والمؤلفين المدرسين وهي =

عياض السبتي. وقد أضحت هذه المدينة إحدى منارات العلم والدعوة في موريتانيا وبلاد السودان الغربي[١].

## نتائج جهود العلماء في الدعوة:

لقد أثمرت جهود العلماء في الدعوة نتائج ملموسة وعظيمة يمكن حصر أهمها في النقاط الثلاث التالية:

١ ـ **نشر الإسلام**: وقد استعرضنا فيما مضى كيف أن الإسلام انتشر في منطقة السودان الغربي أساساً بالدعوة المستنيرة القائمة على الحسنى على يد العلماء، وهو أمر ظل محسوساً حتى قرون متأخرة عن العهد المرابطي، إذ لاحظ الأوروبيون في أول اتصالهم بالسودان الغربي أن «المرابطين البيضان هم الذين نقلوا المحمدية (الإسلام) إلى الزنوج، ولهذا كان لهم نفوذ قوي على هذه الشعوب التي تنظر إليهم كأساتذة مرشدين في كل ما يتصل بالدين»[٢].

لقد كان انتشار الإسلام منذ هذا العهد المرابطي انتشاراً متواصلاً ومضطرداً في السودان الغربي وقد شبهه، بحق، أحد الكتاب الأوروبيون بأنه مثل انتشار بقعة زيت[٣]. ولم يكن انتشار الإسلام شكلياً بل كان ذا تأثير عميق في هذه المجتمعات الوثنية فقد غيّر عاداتها وتقاليدها ونقلها نقلة

---

= إحدى مدن الواحات القديمة ومحطات القوافل بين المغرب العربي والسودان الغربي. وهي اليوم إحدى المدن التاريخية التي شاخت ولكنها ما تزال تغالب عوادي الزمن. وهي من أوفر المدن الموريتانية مكتبات ومخطوطات. (أحمد بن الأمين الشنقيطي: الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، الطبعة الرابعة، ١٩٨٩م، مكتبة الخانجي، القاهرة ص٤٥٩، المختار بن حامد: حياة موريتانيا، ج٢، الحياة الثقافية، الدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٩٠م، ص٦).

(١) المختار بن حامد: المرجع السابق نفس الصفحة.

(٢) P.Marty: Etudes sur L'Islam au Senegal T1 Paris 1917 Editions Ernest Leroux. P.69.

(٣) J.Cuoq: op.cit P.47.

حضارية كبرى، دخلت معها هذه المنطقة التاريخ الحضاري. وقد انطبعت هذه المنطقة بالطابع الإسلامي ومظاهره، فانتشرت المساجد والمدارس والاحتكام إلى شرع الله، في الغالب، فضلاً عن استكمال الملبس وستر العورات[١].

وقد ورث أهل السودان الغربي عن المرابطين تشددهم في الدين وتمسكهم بالشعائر إلى أبعد الحدود، فكانوا يواظبون على الصلوات والتزامها في الجماعات فكانت المساجد تزدحم بالمصلين، حتى أن المرء إذا لم يبكر بالذهاب إلى المسجد أيام الجمع لم يجد موضعاً يصلي فيه لكثرة المصلين[٢]. وبالإضافة إلى كل هذا فقد بدأت منطقة السودان الغربي مع هؤلاء الدعاة تدخل فضاء انتماء واسع هو الانتماء إلى أمة الإسلام إلى الحد الذي جعل ملوك غانة الإسلامية يدعون أنهم ينتسبون إلى العترة النبوية الشريفة[٣]، ولم يكن ملوك غانة بدعاً في هذا الانتساب، وإن شكك فيه المؤرخون[٤] فقد ادعى ملوك مالي النسبة إلى بعض الصحابة[٥] وهذا الانتساب، مهما كانت درجة صحته من عدمها، فإنه يدل على رغبة هؤلاء الملوك في إضفاء صفة قدم الإسلام في أسرهم بالإضافة إلى التميز عن سائر مواطنيهم بهذا النسب الإسلامي العريق.

لم يقف إسلام أهل السودان الغربي عند ممارسة الشعائر الدينية من صلاة وزكاة وصوم بل قام هؤلاء بدعوة غيرهم إلى الإسلام وتحمسوا لنشر الإسلام، فدخلت مناطق كثيرة الإسلام بفضل جهدهم وجهادهم، ولعل مثال

---

(١) حسن عيسى عبدالظاهر: الدعوة الإسلامية في غرب أفريقيا وقيام دولة الفلاني، نشر إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض ١٤٠١هـ، ص٩٤.

(٢) ابن بطوطة: مصدر سابق ص٧٠٣.

(٣) ابن خلدون: المقدمة ج١ ص٥٩.

(٤) المصدر السابق نفس الصفحة.

(٥) ادعوا أنهم ينتسبون إلى الصحابي الجليل بلال بن رباح الحبشي رضي الله عنه J.Cuoq: op.cit P.70.

ملك التكرور وارجابي بن رابيس (ت٤٣٥هـ) الذي اعتنق الإسلام ثم ساهم في نشره بين أهل مملكته ثم قام بجهاد ودعوة من يليه من أهل السودان فدخل أهل سلى[١] الإسلام على يديه وحسن إسلام ملكهم الذي قام بدوره بنشر الإسلام والدعوة إليه والجهاد في سبيله في البلاد المجاورة خاصة قلنبؤ[٢].

وقد ورث الملك لابي بن وارجابي عن أبيه هذا التفاني في خدمة الدين فاشترك مع المرابطين في الجهاد ضد الوثنيين كما تحالف مع أمير المرابطين يحيى بن عمر في حربه ضد جدالة[٣].

ومنذ هذا التاريخ، أي القرن الخامس الهجري، وبفضل جهود الدعاة انتقل الإسلام من كونه دين تجار أجانب يفدون على بلاطات ملوك السودان الغربي، إلى دين لأهل السودان ذي دفع ذاتي.

**٢ ـ نشر اللغة العربية**: لقد أدت الدعوة إلى الإسلام وانتشاره في ربوع السودان الغربي إلى انتشار اللغة العربية فأضحت اللغة الأساسية لأهل هذه المنطقة، فهي لغة التجارة ولغة العلاقات الخارجية وهي قبل ذلك لغة الدين والعلم. ومما ساعد على انتشار اللغة العربية أن أهل هذه المنطقة لم تكن لهم لغات مكتوبة. ومع الزمن أضحت اللغة العربية جزءاً من هوية هذه المنطقة. وقد لاحظ الأوروبيون في القرن ١٨م عندما كانوا يقومون بتجارة الرقيق أن عدداً لا يستهان به من هؤلاء الزنوج يجيد كتابة اللغة العربية[٤].

---

(١) سلي: مدينة على نهر السنغال الأعلى تقع إلى الشرق من التكرور والمسافة بينها وبين غانة «عشرون يوماً في عمارة السودان» كما يقول البكري وقد اعتنق أهلها الإسلام في القرن الخامس الهجري (البكري: المسالك ج٢ ص٨٧٤)، مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار ص٢١٧.

(٢) قلنبؤ: مدينة يعتقد أنها كانت على نهر السنغال ذكر البكري أن أهل سلي كانوا يجاهدونها لتدخل الإسلام (البكري: المسالك ج٢ ص٨٧٤).

(٣) البكري: المسالك ج٢ ص٨٧٤.

(٤) J.Ki-Zerbo: op.cit P.220.

ولعله من الجدير بالذكر أن نذكر ما لاحظه المؤرخون من أن بعضاً من هؤلاء الزنوج الذين استقروا في القارة الأمريكية «ظلوا يعبدون الله على مدى أجيال وقد تمكن بعض منهم من إدخال القرآن الكريم إلى موطنه الجديد»[1] كما لاحظوا أن إجادة هؤلاء الزنوج للغة لا يعرفها أسيادهم، وهي اللغة العربية، أعطتهم وسيلة مقاومة كبيرة للمحافظة على كيانهم وهويتهم[2].

٣ ـ **نشر العلم**: لقد كان من ثمار جهد العلماء في الدعوة بمنطقة السودان الغربي أن انتشر العلم في هذه المنطقة واهتم أهلها بتعلمه وأصبحت مدن مثل ولاته[3] وتمبكتو وجني منارات علم وثقافة حتى أضحى جامع سنكري[4] في تمبكتو في القرن العاشر الهجري، بالنسبة إلى السودان الغربي، يعد في مصاف الأزهر بالقاهرة والزيتونة في تونس والقرويين في فاس[5].

وقد لاحظ ابن بطوطة في رحلته إلى السودان الغربي عام ٧٥٣هـ اهتمامهم وعنايتهم بحفظ القرآن العظيم فيقول: «وهم يجعلون لأولادهم القيود إذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه فلا تفك عنهم حتى يحفظوه. ولقد دخلت على القاضي يوم العيد وأولاده مقيدون فقلت له: ألا تسرحهم؟ فقال: لا أفعل حتى يحفظوا القرآن، ومررت يوماً بشاب منهم حسن الصورة

---

(١) J.Ki-Zerbo: op.cit P.224.

(٢) J.Ki-Zerbo: op.cit P.224.

(٣) ولاته: مدينة في الجنوب الشرقي لموريتانيا الحالية، ذات تاريخ عريق لا يعرف بالتحديد تاريخ إنشائها، كانت تعرف بإيولاتن، شهدت ازدهاراً ثقافياً كبيراً خلال القرون ١١ ـ ١٣هـ وقد زارها ابن بطوطة خلال رحلته إلى بلاد السودان الغربي سنة ٧٥٣هـ (ابن الخطيب: الإحاطة ج٣ ص١٩٢؛ ابن بطوطة: تحفة النظار ص٦٨٩، الشنقيطي: الوسيط ص٤٥٩).

(٤) جامع سنكري: جامع بني في القرن العاشر الهجري. وقد أنفقت على بنائه امرأة ثرية من قبيلة لغلال الشنقيطة المعروفة. (السعدي: مصدر سابق ص٢٧).

(٥) السعدي: مصدر سابق ص٢٧.

عليه ثياب فاخرة وفي رجله قيد ثقيل فقلت لمن كان معي: ما فعل هذا؟ أقتل؟ ففهم عني الشاب وضحك وقيل لي: إنما قيد حتى يحفظ القرآن»[1].

ومع أن ابن بطوطة زار السودان الغربي بعد عصر المرابطين بقرنين فإننا نرى أن هذا الاهتمام بالعلم إنما هو امتداد لأثر العلماء المرابطين الذي كان أساس دعوتهم العلم.

## ثانياً: أثر العلماء في الجهاد:

إن الجهاد الذي هو ذروة سنام الإسلام إنما هو طور متقدم من أطوار الدعوة ووسيلة من وسائل إزالة العوائق المعترضة سبيل انتشار الحق. لقد كان العلماء، بحكم صفتهم، أدرى الناس بأهمية هذا الواجب. وفي العصر المرابطي شعر العلماء بضرورة القيام بعبء هذا الواجب. وقد رأينا في الفصل الأول من الباب الأول الدور الجهادي الذي قام به الإمام عبدالله بن ياسين إلى أن استشهد، وما قام به الفقيه سليمان بن عدو وغيره من أجل إعلاء كلمة الله. وقد أدت هذه الجهود الجهادية إلى تأسيس دولة كبرى مهمتها الأساسية الجهاد في سبيل الله والالتزام بشرع الله.

لقد وجدت هذه الدولة أبواب الجهاد مشرعة في الجنوب الوثني وفي الشمال في أرض الأندلس لمدافعة النصارى ووقف زحفهم على الديار الإسلامية.

إننا وإن كنا لا نشك أن الجهاد الذي قام به المرابطون في الجنوب الوثني بأرض السودان الغربي كان عظيماً استناداً إلى نتائجه والمتمثلة في تحويل هذه المنطقة إلى بلاد إسلام فإننا للأسف لا نملك التفاصيل عن ذلك الجهاد فكل ما ذكر لا يتعدى إشارات مجملة متفرقة كما ذكرنا في بداية هذا الفصل.

أما الميدان الجهادي الثاني وهو أرض الأندلس فقد كان للعلماء فيه

---

(١) ابن بطوطة: مصدر سابق ص٧٠٤.

أثر كبير. وقد ذكرنا في الفصل الثالث من الباب الأول الدور الذي قام به العلماء في دعوة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى جهاد النصارى في الأندلس ونصرة المسلمين هناك وبينا هنالك الدور الذي قام به العلماء في معركة الزلاقة واستشهاد طائفة منهم. ثم ذكرنا الجهد الذي قاموا به لتوحيد العدوتين.

لم يكن ضم الأندلس إلى السيادة المرابطية هدفاً في حد ذاته بل كان وسيلة لحماية ونصرة الإسلام والمسلمين في تلك البلاد. وأمام واقع الأندلس المرير المتمثل في تكالب النصارى على الإسلام الذي كان يتراجع كل يوم وتنكمش رقعته، عزم المرابطون على رفع التحدي ومجاهدة النصارى في كل أنحاء الأندلس(١).

وقد بارك العلماء هذا العزم وساندوه قولاً وعملاً، فلا نكاد نجد جيشاً من المرابطين خارجاً للجهاد إلا ونجد فيه عدداً من العلماء المشهورين الذين دونت أخبارهم. وقد استشهد جماعة من مشاهير العلماء في ساحات الجهاد من أمثال: الإمام أبو علي الصدفي الذي استشهد في غزوة كتندة بالثغر الأعلى سنة ٥١٤هـ(٢) واستشهد معه فيها الإمام أبو عبدالله بن الفراء قاضي المرية(٣).

---

(١) المراكشي: المعجب ص٢٥٢.

(٢) عياض: الغنية ص١٩٥؛ ابن بشكوال: الصلة ج١ ص٢٣٥.

(٣) أبو عبدالله محمد بن يحيى المعروف بابن الفراء (ت٥١٤هـ): كان رجلاً صالحاً متواضعاً قوياً في الحق لا تأخذه في الله لومة لائم، ومما يؤثر عنه في ذلك أن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين كتب إليه عندما كان قاضياً للمرية يأمره بفرض المعونة، وهي ضريبة زائدة على الأموال التي تؤخذ عن طريق الزكاة، ويرسل إليه بها. فامتنع ابن الفراء عن فرضها وكتب إلى أمير المسلمين يخبره أنه لا يجوز له فرضها. فأجابه يوسف أن القضاة عنده قد أباحوا له فرضها وأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه فرضها في زمنه فراجعه القاضي ابن الفراء بقوله: بلغني كتابك تذكر فيه ما كان من تأخري عن المعونة وقبضها وأن القضاة والفقهاء أفتوك بقبضها وأن عمر رضي الله عنه اقتضاها. فالقضاة والفقهاء إلى النار دون زبانية، فإن عمر قد اقتضاها وهو صاحب =

وقبلها استشهد القاضي يحيى بن محمد الأموي المعروف بابن قبروق[1] قاضي شاطبة في وقيعة البورت سنة ٥٠٨هـ[2] واستشهد الفقيه أبو زيد عبدالرحمن ابن محمد بن حيات الأنصاري بسرقسطة سنة ٥٠٣هـ[3] واستشهد أبو جعفر عبدالوهاب ابن حكم الأنصاري في وقيعة وشقة سنة ٤٨٩هـ[4].

---

= رسول الله ﷺ ووزيره وضجيعه في قبره ولا شك في عدله، وأنت لست بصاحبه ولا وزيره وقد يشك في عدلك. وما اقتضاها عمر حتى دخل المسجد بحضرة من كان معه من الصحابة رضي الله عنهم وحلف أن ليس عنده درهم في بيت مال المسلمين ينفقه عليهم، فإن كان الفقهاء والقضاة قد أنزلوك كمنزلته في العدل فالله حسيبهم وسائلهم على تقلدهم ذلك، فلتدخل المسجد بحضرة من هنالك من أهل العلم وتحلف أن ليس عندك في بيت مال المسلمين درهم تنفقه عليهم وحينئذ تجب تقويتك. (ابن بشكوال: الصلة ج٢ ص٥٤٢؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٦ ص١١٨؛ الونشريسي: المعيار المعرب ج١١ ص١٣٢).

(١) يحيى بن محمد الأموي أبو الوليد المعروف بابن قبروق (ت٥٠٨هـ): فقيه من أهل لاردة أخذ عن أبي علي الصدفي وولي قضاء شاطبة بأمر من أبي علي الصدفي ثم استعفى فأعفي وانتقل إلى بلنسية فشاوره قاضيها (ابن الأبار: المعجم ص٣١٨).

(٢) البورت (ألبرت) وقعت هذه المعركة سنة ٥٠٨هـ حينما خرج القائد المرابطي محمد بن الحاج في حملة نحو برشلونة لمحاربة أميرها رامون بيرنجير الثالث. وقد حاصرها المرابطون وعاثوا تخريباً في أرباضها وزروعها إلا أنهم عجزوا عن الاستيلاء على البلد لحصانته، وعادوا محملين بالمغانم الوافرة. وأثناء العودة فضل محمد بن الحاج أن يختصر الطريق مع لمة مختارة من جنده فيهم محمد بن عائشة، في حين أرسل معظم الجيش على الطريق الكبير الروماني، وقد سار محمد بن الحاج وصحبه في مفاوز وعرة ومضايق مليئة بالمخاطر فانتهز جند برشلونة الفرصة وكمنوا له عند ضائق وعر وهاجموه «فقاتلهم قتال من أيقن بالموت واغتنم الشهادة، إذ لم يجد منفذاً يخلص منه فاستشهد، رحمه الله، واستشهد معه جماعة من المتطوعة، وتخلص منهم القائد محمد بن عائشة في نفر بالحيلة إلى بلاد المسلمين». وسُمِّيت هذه المعركة بموقعة ألبرت (ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٦٠ ـ ١٦١، ابن الأبار: المعجم ص٣١٨).

(٣) شكيب أرسلان: الحلل السندسية ج٢ ص١٨٠ وقد عزا معلوماته إلى ابن الأبار في التكملة. ترجمة عبدالرحمن بن حيات الأنصاري ضمن الأجزاء التي لم تنشر من تحقيق عزت العطار الحسيني، القاهرة ١٩٥٦.

(٤) شكيب أرسلان: الحلل السندسية ج٢ ص١٥٥ ونسب المعلومة إلى ابن الأبار في التكملة ولكني لم أجدها في الطبعة التي اعتمدت عليها وهي التي نشرها عزت العطار الحسيني، القاهرة ١٩٥٦.

والفقيه أحمد بن ثابت العوفي في وقيعة البورت[1]. واستشهد معه جماعة من خيرة المجاهدين منهم القائد أبو عبدالله ابن الحاج[2] وذو الوزارتين أبو عبدالله بن الحاج الطرطوشي[3].

وقد شارك علماء أعلام آخرون في الجهاد وإن لم تكتب لهم الشهادة في ساحة المعركة مثل الإمام عبدالحق بن غالب بن عطية صاحب كتاب «المحرر الوجيز» في التفسير فقد كان كثير الغزو في جيوش المرابطين[4]. وكذلك الإمام قاضي الجماعة أبو الوليد بن رشد (ت٥٢٠هـ)[5] وقاضي الجماعة محمد بن خلف التجيبي المعروف بابن الحاج (ت٥٢٩هـ)[6].

وكذلك الإمام أبو بكر بن العربي الذي اشترك في كثير من الغزوات التي خاضها المرابطون ومن بينها غزوة كتندة سنة ٥١٤هـ وقد نجا فيها بأعجوبة وعندما سئل عن حاله عند مخلصه منها قال: «حال من ترك الخباء والعباء»[7].

---

(١) ابن الأبار: التكملة ج١ ص٥٠ ـ ٥١.

(٢) أبو عبدالله محمد بن الحاج اللمتوني (ت٥٠٨هـ): من أكابر زعماء لمتونة وقوادها وقد ظهر منذ عبر إلى شبه الجزيرة مع يوسف بن تاشفين في سنة ٤٨٤هـ بمقدرته وأعماله العسكرية البارزة أولاً حين افتتح قرطبة وانتزعها من ابن عباد ثم في محاربته للقشتاليين في كثير من المواقع. وقد تولى ولاية بلنسية وشرقي الأندلس في سنة ٥٠١هـ ثم معها ولاية سرقسطة التي انتزعها من يد بني هود سنة ٥٠٣هـ . وظل ابن الحاج في سرقسطة يحوطها بحمايته ويرد عنها أطماع النصارى إلى أن استشهد (ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص٥٤ ـ ٥٥، ٦١ وقد جعل ابن عذارى تاريخ وفاة ابن الحاج سنة ٥٠٩هـ في حين جعلها ابن الأبار سنة ٥٠٨هـ المعجم ص١٤٢).

(٣) ابن الأبار: التكملة ج١ ص٥١.

(٤) ابن الأبار: المعجم ص٢٦٦.

(٥) نفس المصدر ص٦٤.

(٦) نفس المصدر ص١٢٣.

(٧) نفس المصدر: ص١٧. لقد فهم د. حسين مؤنس من هذا النص أن القاضي أبو بكر بن العربي كان ممن فر يوم كتندة (مقدمة الحلة السيراء ص١٩) إلا أن الباحث قد يميل إلى عكس ذلك لأن القاضي ابن العربي يعرف ما في التولي يوم الزحف من وعيد ثم إنه لو كان ممن فر فعلاً ما كان ليشهد على نفسه بذلك. والذي يظهر =

وقد كان لوجود مثل هؤلاء الأئمة في الجيوش المرابطية الغازية تثبيت للقلوب وتأسية لغيرهم من المجاهدين أن ما يقومون به قربة إلى الله وطاعة من أعظم الطاعات. كما كان خروج هؤلاء العلماء إلى الجهاد مدعاة لغيرهم لأن يقتدوا بهم ولذلك كثر المتطوعة الخارجين مع الجيوش المرابطية. ففي غزوة كتندة عام ٥١٤هـ لم يفقد الجيش المرابطي في المعركة إلا عدداً قليلاً من أفراده في حين استشهد حوالي عشرون ألفاً من المتطوعة[١]. ولا شك أن لخروج الإمامين أبي علي الصدفي وأبي عبدالله بن الفراء في هذه الغزوة تأثير في خروج هذا العدد الكبير من المتطوعة.

وقد جمع العلماء بين الجهاد والعلم فكثير من طلبة العلم أخذ عن الإمام أبي علي الصدفي أثناء اجتيازه بمدنهم غازياً[٢]. وكذلك أخذ الطلبة عن الإمام أبي بكر بن العربي أثناء جهاده فقد أخذ عنه أحمد بن عبدالجبار المعروف بابن ورهزن بكولية من الثغور الشرقية سنة ٥٢٢هـ[٣] كما أخذ عنه غيره[٤].

وبالإضافة إلى المشاركة في القتال فقد ظل العلماء في العهد المرابطي يدعون إلى الجهاد بأقلامهم مستنهضين الهمم مبينين فضله. وفي بعض الأحيان مستصرخين طالبين العون لجزء من أجزاء الأندلس دهمه العدو.

فقد كتب قاضي سرقسطة ثابت بن عبدالله إلى الأمير تميم بن يوسف بن تاشفين والي الأندلس، يستصرخه عندما حاصر النصارى سرقسطة سنة ٥١٢هـ ويبين له عظم ما يلاقيه أهلها ويؤنبه على تباطؤه وتقاعسه عن النجدة ويحذره من مغبة ذلك، ثم يستنهض همته ويخاطب فيه غيرته ودينه.

---

= هو أنه عبر بهذه الجملة عن شدة المأزق الذي وقع فيه وأنه فقد في تلك المعركة كل ما كان عنده، (ابن الأبار: الحلة السيراء، ط١ عام ١٩٦٣م، القاهرة).

(١) ابن الأبار: المعجم ص١٧.

(٢) ابن الأبار: المعجم ص٤٦، ٦٥، ١٠٠، ١٢٠، ١٢٣، ١٢٥، ١٥٨.

(٣) ابن الأبار: التكملة ج١ ص٣٥٠.

(٤) ابن الأبار: التكملة ج١ ص٣٤٤.

ومن هذه الرسالة قوله: «كتابنا أيدك الله بتقواه ووفقك لاشتراء دار حسناه بمجاهدة عداه. . .، عن حال قد عظم بلاؤها وادلهمت ضراؤها فنحن في كرب عظيم وجهد أليم. . . أتحسبون يا معشر المرابطين، وإخواننا في ذات الله المؤمنين إن سبق على سرقسطة القدر، بما يتوقع منه المكروه والحذر أنكم تبلعون بعدها ريقاً. . . كلا والله ليسومنكم الكفار عنها جلاء»[1].

ومن المفيد أن نذكر هنا نصاً للقاضي أبي بكر بن العربي يبين مدى ما يقوم به العلماء من حث للأمراء والرعية على الجهاد. يقول ابن العربي: «ولقد نزل بنا العدو ـ قصمه الله تعالى ـ سنة سبع وعشرين وخمسمائة، فجاس ديارنا وأسر جيرتنا، وتوسط بلادنا في عدد حدد الناس عدده فكان كثيراً، فقلت للوالي والمولى عليه: هذا عدو الله قد حصل في الشرك والشبكة، فلتكن عندكم بركة ولتكن منكم إلى نصرة الدين المتعينة عليكم حركة. فليخرج إليه جميع الناس حتى لا يبقى منهم أحد في جميع الأقطار فيحاط بهم فإنه هالك لا محالة، وأن يسركم الله له فغلبت الذنوب ورجفت بالمعاصي القلوب، وصار كل أحد من الناس ثعلباً يأوي إلى وجاره، وإن رأى المكيدة بجاره فإنا لله وإنا إليه راجعون»[2].

وقد استعمل العلماء أنواع الكتابة من نثر وشعر في هذا الغرض. فهذا الإمام عبدالحق بن عطية كتب رسالة طويلة يطلب فيها الغوث لأهل ميورقة عندما حاصرها أهل جنوة بثلاثمائة مركب سنة ٥١٨هـ يقول ابن عطية:

ونحو أمير المسلمين تطامحت ... نواظر آمال وأيدي رغائب
من الناس من تستدعي حفيظة عدله ... لصدمة جور في ميورقة ناصب

---

(١) مجموعة باحثين: التاريخ الأندلسي من خلال النصوص ص١٤٣؛ حسين مؤنس: الثغر الأعلى الأندلسي ص٤٤.

(٢) أحكام القرآن: تحقيق علي محمد البجاوي: الطبعة الثالث، ١٩٧٢م، دار المعرفة للطباعة والنشر، لبنان، ج٢ ص٩٥٥ عند تفسير قوله تعالى: ﴿أنفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ سورة التوبة.

ألـم فـوافـى جـانـبـاً بـعـد جـانـب مـقـيـم فـإن لـم يـرغـم الـسـعـد أنـفـه

لقد عظمت في القوم سود المصائب لـقـتـل وسـبـي واصـطـلام شـريـعـة[1]

لقد شدت مواقف العلماء هذه في مجملها من أزر حركة الجهاد في الأندلس. وبذلك تمكن التحالف القائم بين المرابطين والعلماء أن يوقف تسارع المد الصليبي وأن يؤجل سقوط الأندلس قروناً.

(١) ابن خاقان: قلائد العقيان ج٣ ص٦٦٨.

# الخاتمة

لقد حاولت من خلال هذه الرسالة أن أجلي الدور التاريخي الذي اضطلع به العلماء في عصر المرابطين من خلال مشاركتهم السياسية في الأحداث.

وقد توصل البحث إلى نتائج أرى أنها مهمة تتمثل فيما يلي:

**أولاً:**

أنه كان للعلماء دور مهم في معظم فترات التاريخ السياسي للمغرب الإسلامي قبل قيام دولة المرابطين فتحمل عدد مهم من العلماء مسؤوليات الدفاع عن الحق راضين بتبعات ذلك، فكان لهم تأثير متميز في مجريات الأحداث. فقد كان دورهم حاسماً وتاريخياً في سقوط النفوذ الشيعي في المغرب الإسلامي. فلولا صمود علماء هذه المنطقة وصبرهم على مبادئهم لترسخ المذهب الشيعي في المغرب الإسلامي. كما كان دورهم فاعلاً في تعريب منطقة المغرب الإسلامي.

**ثانياً:**

أن قيام الدولة المرابطية كان بالأساس نتيجة تفكير وتخطيط العلماء الذين أرادوا لهذه الدولة أن تقوم على التمسك بالإسلام ومنهجه ساعية لاستصلاح الخلق بإرشادهم إلى الطريق المنجي في العاجل والآجل. وقد قام بالدور الأكبر في تحقيق هذا الهدف الإمام عبدالله بن ياسين. وقد أسدى

العلماء بتكوينهم لهذه الدولة خدمة جليلة إلى الأمة الإسلامية، إذ لمت شمل شعوب إسلامية كثيرة وساهمت في الجهاد لإعلاء كلمة الله.

**ثالثاً:**

قام العلماء بدور بارز في توحيد العدوتين الأندلسية والمغربية وكانت آراؤهم وفتاويهم العامل المهم لتحقيق هذه الوحدة التي أرادوا لها أن تكون وسيلة لحفظ ما تبقى من الإسلام في الأندلس بمدافعة النصارى. وقد جلَّيْنَا الجهد الكبير والمتميز الذي أسهم به العلماء في معركة الزلاقة وهو دور أغفله معظم المؤرخين لهذه الفترة في حين اكتفى من ذكروه بالإشارة العابرة.

**رابعاً:**

توصل البحث إلى حقيقة مهمة تتمثل في كون العلماء صاروا في العهد المرابطي هم وسطاء الشعب الحاملين لرغباته المعبرين عن طموحاته وخصوصاً في الأندلس.

**خامساً:**

سعى العلماء إلى توحيد المشارب الفكرية والتزام طريق السلف الصالح في ذلك، مما أثار عليهم الكثير من النقد من طرف بعض المؤرخين.

ورغم ذلك النقد فإن هذا المسعى قد أدى بلا ريب إلى اللحمة بين العناصر البشرية المشكلة للدولة المرابطية وخصوصاً في العدوة الجنوبية.

فعملية المزج والتوحيد وإن كانت في الأساس تهدف إلى تحقيق الوحدة الدينية فقد أدت إلى توحيد سياسي وثقافي وهو مكسب تاريخي لا جدال فيه.

**سادساً:**

أن النفوذ الكبير الذي تمتع به العلماء في دولة المرابطين جعل منهم طبقة مؤثرة مرغوبة ومرهوبة.

**سابعاً:**

خلق هذا النفوذ العام طموحات وأطماعاً شخصية كبيرة لدى بعض العلماء فثار عدد منهم على الدولة المرابطية محاولاً تأسيس ملك وتشييد زعامة. وقد فشل معظم هؤلاء الثائرين في تحقيق هدفهم. وقد أضعف هؤلاء الثوار الدولة المرابطية وشتتوا جهدها مما كان له أسوأ الأثر على حركة الجهاد التي كانت تقودها ضد النصارى في الأندلس.

**ثامناً:**

لم يكن أغلب العلماء الذين تصدوا للقيام بأعباء الحكم على مستوى المسؤولية الملقاة على كاهلهم، وجانب أكثرهم الصواب في التعاطي مع الأحداث. ويرجع سبب ذلك إلى عدم انتفاع هؤلاء بعلمهم وعدم تطبيقهم له في تعاطيهم مع الشأن العام. وكان الاستثناء الأكبر هو الإمام عبدالله بن ياسين الذي ولد جهده قيام دولة المرابطين وأعطى بنجاحه الدليل الأكبر على أن صفة العالم ليست عائقاً عن التعاطي الصحيح مع السياسة بل على العكس إذ أن العلم هو الشرط الأساسي لتكون السياسة خيرة نافعة.

**تاسعاً:**

لقد كان دور العلماء مهماً وفاعلاً في الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله فأثمر جهدهم انتشار الإسلام في السودان الغربي وتحوله من منطقة وثنية إلى منطقة إسلامية. كما ساهم جهدهم في إضعاف حركة الاسترداد المسيحية في الأندلس ولو إلى حين، وأجَّل سقوط هذا الجزء من ديار الإسلام حوالي قرنين من الزمن. كما أبقوا بجهدهم جذوة الجهاد حية في النفوس.

لقد توصلت هذه الرسالة في مجملها إلى حقيقة، أرى أنها لم تجل من قبل، وهي أن العلماء في العهد المرابطي كانوا يشكلون طبقة اجتماعية نشطة وفاعلة أثرت في التاريخ السياسي لمنطقة المغرب الأقصى والأندلس، وحاول أفرادها، في معظمهم، أن يبذلوا ما استطاعوا من جهد في سبيل نشر الخير والعدل وإن تخلل ذلك بعض الضعف البشري من مساع أنانية ومطامح آنية.

# المصادر


**القرآن الكريم.**

**ابن الأبار: أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي البلنسي (ت٦٥٨هـ).**

١ - التكملة لكتاب الصلة. تحقيق السيد عزت العطار الحسيني، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٥٦م، وأعيد طبع الجزء الأول بتحقيق إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ١٤١٠هـ.

٢ - الحلة السيراء، تحقيق د.حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة، القاهرة، ١٩٦٣م.

٣ - المعجم في أصحاب القاضي الصدفي، تحقيق إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ١٩٨٩م.

**ابن الأثير: علي بن محمد بن عبدالكريم بن الأثير (ت٦٣٠هـ).**

٤ - الكامل في التاريخ، طبعة دار صادر، بيروت، ١٩٨٢.

**الإدريسي: محمد بن محمد بن عبدالله بن إدريس الحسيني (ت٥٦٠هـ).**

٥ - نزهة المشتاق (الجزء الخاص بصفة المغرب وأرض السودان، مصر والأندلس) نشر النص العربي وترجمته دغويه ودوزي، ليدن ١٩٦٨م.

**ابن أبي أصيبعة: أحمد بن القاسم بن خليفة (ت٦٦٨هـ).**

٦ - عيون الأنباء في طبقات الأطباء، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥م.

**ابن بسام: علي بن بسام الشنتريني (ت٥٤٢هـ).**

٧ - الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: د .إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٩م.

**ابن بشكوال: أبو القاسم خلف بن عبدالملك (ت٥٧٨هـ).**

٨ - الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم، نشر عزت العطار الحسيني، الطبعة الثانية، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٤م.

**ابن بطوطة: أبو عبدالله محمد بن إبراهيم اللواتي (ت٧٧٩هـ).**

٩ - تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق: محمد عبدالمنعم العريان، ط١، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٩٨٧م.

**البكري: أبو عبيدالله بن عبدالعزيز البكري (ت٤٨٧هـ).**

١٠ ـ المسالك والممالك، تحقيق أدريان فان ليوفان وأندري فيري، الدار العربية للكتاب، ١٩٩٢م.
**البيدق: أبو بكر بن علي.**
١١ ـ أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، تحقيق عبدالوهاب بن منصور، دار المنصور، الرباط، ١٩٧١م.
**التادلي: يوسف بن يحيى المعروف بابن الزيات (٦١٧هـ).**
١٢ ـ التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات جامعة محمد الخامس، الرباط ١٤٠٤هـ.
**الترمذي: أبو عيسى محمد بن عيسى (ت٢٧٩هـ).**
١٣ ـ الجامع الصحيح، مع شرح تحفة الأحوذي للمباركفوري، دار الكتاب العربي، د.ت، بيروت.
**التطيلي: أحمد بن عبدالله بن أبي هريرة (ت٥٢٥هـ).**
١٤ ـ ديوان الأعمي التطيلي، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٣م.
**ابن تيمية: أحمد بن تيمية (ت٧٢٨هـ).**
١٥ ـ مجموع الفتاوى، نشر دار عالم الكتب، الرياض، ١٩٩١م.
**الحاكم النيسابوري: أبو عبدالله محمد بن عبدالله (ت٤٠٥هـ).**
١٦ ـ المستدرك على الصحيحين، مكتبة النصر الحديثة، الرياض، ١٩٦٨م.
**ابن حجر: أحمد بن علي العسقلاني (ت٨٥٢هـ).**
١٧ ـ فتح الباري في شرح صحيح البخاري، تحقيق الشيخ عبدالعزيز بن باز، نشر رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء بالمملكة، الرياض، د.ت.
**ابن حزم: أبو محمد علي بن أحمد (ت٤٥٦هـ).**
١٨ ـ رسائل ابن حزم، تحقيق: د .إحسان عباس، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٦٠م.
**الحموي: شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله (ت٦٢٦هـ).**
١٩ ـ معجم البلدان، دار صادر، بيروت، د.ت.
**الحميدي: أبو عبدالله بن محمد بن أبي نصر (ت٤٨٨هـ).**
٢٠ ـ جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٣م.
**الحميري: محمد بن عبدالمنعم الحميري (ت٧٢٧هـ).**
٢١ ـ الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: د .إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٥م.
**ابن حنبل: أحمد (ت٢٤١هـ).**
٢٢ ـ المسند، ط١، نشر المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٩م.
**ابن حوقل: أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي.**
٢٣ ـ صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٩م.
**ابن خاقان: أبو نصر الفتح بن محمد القيسي (٥٢٩هـ).**

٢٤ - قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، تحقيق: د .حسين يوسف فريوش، مكتبة المنار، الأردن، ١٩٨٩م.
٢٥ - مطمح الأنفس، تحقيق: محمد علي شوابكة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٣م.
**ابن الخطيب: لسان الدين محمد بن عبدالله بن الخطيب (ت٧٧٦هـ).**
٢٦ - الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٣م.
٢٧ - أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام - قسم الأندلس - نشر ليفي بروفنسال بعنوان تاريخ إسبانيا الإسلامية، دار المكشوف، بيروت، ١٩٥٦م.
**ابن خفاجة: أبو إسحاق إبراهيم بن خفاجة (ت٥٣٣هـ).**
٢٨ - ديوان ابن خفاجة الأندلسي، تحقيق: كرم البستاني، دار صادر، بيروت، ١٩٦١م.
**ابن خلدون: عبدالرحمن بن خلدون (ت٨٠٨هـ).**
٢٩ - العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، طبع مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٩م.
٣٠ - المقدمة تصحيح أبي عبدالله السعيد المندوه، ط١، مؤسسة الكتاب الثقافية، بيروت، ١٩٩٤م.
**ابن خلكان: شمس الدين أحمد بن خلكان (ت٦٨١هـ).**
٣١ - وفيات الأعيان، تحقيق: د .إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٥م.
**الدباغ: عبدالرحمن بن محمد الأنصاري (٦٩٦هـ).**
٣٢ - معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق: إبراهيم شبوح، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٨م.
**الدردير: أحمد بن محمد بن أحمد العدوي (ت١٠٢١هـ).**
٣٣ - الشرح الصغير على أقرب المسالك، طبعة وزارة العدل بدولة الإمارات العربية المتحدة، ١٤٠١هـ.
**ابن أبي دينار: محمد بن أبي القاسم الرعيني (القرن ١٢هـ).**
٣٤ - المؤنس في أخبار أفريقيا وتونس، تحقيق: محمد شمام، ط٣، المكتبة العتيقة، تونس، ١٩٦٧م.
**الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت٧٤٨هـ).**
٣٥ - سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٠م.
٣٦ - العبر في خبر من غبر، تحقيق: محمد سعيد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
**ابن رشد: الوليد محمد بن أحمد (ت٥٢٠هـ).**
٣٧ - الفتاوى، تحقيق: المختار بن الطاهر التليلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٧م.
**الرقيق القيرواني: إبراهيم بن القاسم (ت٤١٧هـ).**
٣٨ - تاريخ أفريقية والمغرب، تحقيق: المنجي الكعبي، نشر رفيق السقطي، تونس، ١٩٦٨م.

**الزبيدي: محمد مرتضى (ت١٢٠٥هـ).**
٣٩ ـ تاج العروس من جواهر القاموس، منشورات دار مكتبة الحياة، د.ت، بيروت.
**ابن الزبير: أبو جعفر أحمد بن إبراهيم (ت٧٠٨هـ).**
٤٠ ـ صلة الصلة، نشر ليفي بروفنسال، الرباط، ١٩٣٨م.
**ابن أبي زرع: علي بن عبدالله الفاسي (ت٧٤١هـ).**
٤١ ـ الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة، الرباط، ١٩٧٢م.
**الزركشي: أبو عبدالله محمد بن إبراهيم (ت٩٣٢هـ).**
٤٢ ـ تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق: محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، ١٩٦٦م.
**ابن زيري: الأمير عبدالله بن بلقين (ت نهاية القرن الخامس).**
٤٣ ـ التبيان: تحقيق: أمين توفيق الطيبي، منشورات عكاظ، الرباط، ١٩٩٥م.
**السعدي: عبدالرحمن بن عبدالله (ت١٠٦٦هـ).**
٤٤ ـ تاريخ السودان، نشر وتحقيق: هوداس وبنوه، الطبعة الثانية، المدرسة الباريسية لتدريس الألسن الشرقية، باريس، ١٩٦٤م.
**ابن سعيد: علي بن موسى بن سعيد (ت٦٨٥هـ).**
٤٥ ـ المغرب في حلي المغرب، تحقيق: شوقي ضيف، ط٣، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٨م.
**السلفي: أبو طاهر أحمد بن محمد الأصبهاني (ت٥٧٦هـ).**
٤٦ ـ أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السلفي، أعدها إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٥م.
**ابن صاحب الصلاة: عبدالملك (ت٥٩٤هـ).**
٤٧ ـ المن بالإمامة، تحقيق: د.عبدالهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٧م.
**ابن صالح: عبيدالله.**
٤٨ ـ نص جديد عن فتح العرب للمغرب، نشر ليفي بروفنسال، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد، ١٩٥٤م.
**الضبي: أحمد بن يحيى بن عميرة (ت٥٩٩هـ).**
٤٩ ـ بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة ـ بيروت، ١٩٨٩م.
**الطبري: محمد بن جرير (ت٣١٠هـ).**
٥٠ ـ تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٤م.
**الطرطوشي: أبو بكر محمد بن محمد بن الوليد (ت٥٢٠هـ).**

٥١ - سراج الملوك، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ١٤١٢هـ.
**الطوفي: نجم الدين سليمان بن سعيد (ت٧١٦هـ).**
٥٢ - شرح مختصر الروضة، تحقيق: د .عبدالله التركي، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٧م.
**ابن عبدالملك المراكشي، محمد بن عبدالملك المراكشي (ت٧٠٣هـ).**
٥٣ - الذيل والتكملة،
السفر الأول، تحقيق: د .محمد بن شريفة، دار الثقافة، بيروت.
السفر الخامس، تحقيق: د .إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥م.
السفر الثامن، تحقيق: محمد بن شريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ١٩٨٤م.
**ابن عبدون: محمد بن أحمد التجيبي.**
٥٤ - رسالة في الحسبة، نشر ليفي بروفنسال في المجلة الآسيوية، أبريل - يونيو ١٩٣٤ Journal Asiatique.
**أبو العرب: محمد بن تميم.**
٥٥ - طبقات علماء أفريقية وتونس، تحقيق: علي الشابي ونعيم اليافي، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٦٨م.
**ابن العربي: أبو بكر محمد بن عبدالله بن العربي (ت٥٤٢هـ).**
٥٦ - أحكام القرآن، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٢م.
٥٧ - رحلة ابن العربي، نشر د .عصمت دندش في مجلة المناهل العدد ٩، يوليو ١٩٧٧م.
٥٨ - العواصم من القواصم، تحقيق: د .عمار طالبي، نشره بعنوان آراء أبي بكر بن العربي الكلامية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٤م.
**ابن عذارى المراكشي: أحمد بن محمد بن عذارى.**
٥٩ - البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب:
ج٣ تحقيق ج كولان وليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣م.
ج٤ تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣م.
قسم الموحدين، تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني ومحمد زنيبر ومحمد بن تاويت، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٥م.
**ابن عطية: أبو محمد عبدالحق بن عطية (ت٥٤١هـ).**
٦٠ - فهرس ابن عطية، تحقيق: محمد أبو الأجفان ومحمد الزاهي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٠هـ.
**ابن العماد الحنبلي: أبو الفلاح عبدالحي بن العماد (ت١٠٨٩هـ).**
٦١ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د.ت.
**عياض بن موسى اليحصبي السبتي (ت٥٤٤هـ).**

٦٢ ـ ترتيب المدارك، تحقيق: مجموعة من الباحثين، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، الرباط، ١٩٦٨م.
٦٣ ـ الغنية، فهرست شيوخ القاضي عياض، تحقيق: د .محمد بن عبدالكريم، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، ١٩٧٨م.
**ابن عياض: أبو عبدالله محمد بن القاضي عياض (ت٥٧٥هـ).**
٦٤ ـ التعريف بالقاضي عياض، تحقيق: محمد بن شريفة، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، الرباط، ١٩٨٣م.
**الغزالي: أبو حامد محمد بن محمد (ت٥٠٥هـ).**
٦٥ ـ إحياء علوم الدين، طبعة دمشق، مكتبة عبدالوكيل الدروبي، د.ت.
**الفراء: أبو يعلى محمد بن الحسين (ت٤٥٨هـ).**
٦٦ ـ الأحكام السلطانية، تحقيق: محمد الفقي، ط٢، طبع شركة الحلبي، القاهرة، ١٩٦٦م.
**ابن فرحون: إبراهيم بن علي (ت٧٩٩هـ).**
٦٧ ـ الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق: د .محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، القاهرة، د.ت.
**ابن الفرضي: أبو الوليد عبدالله بن محمد الأزدي القرطبي (ت٤٠٣هـ).**
٦٨ ـ تاريخ علماء الأندلس، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ١٤١٠هـ.
**ابن القاضي: أحمد المكناسي (ت١٠٢٥هـ).**
٦٩ ـ جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور، الرباط، ١٩٧٣م.
**ابن قدامة: عبدالله بن أحمد بن قدامة المقدسي (ت٦٢٠هـ).**
٧٠ ـ المغني، تحقيق: د .عبدالله التركي، ود .عبدالفتاح الحلو، هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ١٤٠٦هـ.
**القرطبي: محمد بن أحمد الأنصاري (ت٦١٧هـ).**
٧١ ـ الجامع لأحكام القرآن، طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٦١م.
**ابن القطان: أبو محمد حسن بن علي بن عبدالملك الكتامي المراكشي.**
٧٢ ـ نظم الجمان، تحقيق: محمود مكي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٠م.
**ابن الكردبوس: عبدالملك بن الكردبوس التوزري.**
٧٣ ـ الاكتفاء في أخبار الخلفاء، تحقيق: أحمد مختار العبادي، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد، المجلد الثالث عشر، ١٩٦٥ـ١٩٦٦م.
**كعت: محمود (القرن العاشر الهجري).**
٧٤ ـ تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، تحقيق هوداس ودلافوس، الطبعة الثانية، المدرسة الباريسية لتدريس الألسن الشرقية، باريس، ١٩٦٤م.
**المالكي: أبو بكر عبدالله بن محمد (ت٤٧٤هـ).**

٧٥ ـ رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وأفريقية، تحقيق بشير البكوش، دار صادر، بيروت، ١٩٨٣م.
**الماوردي: أبو الحسن علي بن محمد (ت٤٥٠هـ).**
٧٦ ـ أدب الدنيا والدين، دار الفكر، دمشق، د.ت.
**مجهول:**
٧٧ ـ الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق: د .سعيد زغلول عبدالحميد، مطبعة جامعة الإسكندرية، ١٩٥٨م.
**مجهول:**
٧٨ ـ بيوتات فاس الكبرى، دار المنصور للطباعة، الرباط، ١٩٧٢م.
**مجهول:**
٧٩ ـ الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق: سهيل زكار وعبدالقادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ١٩٧٩م.
**محمد بن غازي العثماني (ت٩١٩هـ).**
٨٠ ـ الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٦٤م.
**المرادي: أبو بكر محمد بن الحسن الحضرمي (ت٤٨٩هـ).**
٨١ ـ السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة، تحقيق: د .سامي النشار، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٨١م.
**المراكشي: عبدالواحد بن علي (ت٦٦٩هـ).**
٨٢ ـ المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد العريان ومحمد العلمي، ط٧، دار الكتاب، المغرب، ١٩٧٨م.
**المقري: شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني (ت١٠٤١هـ).**
٨٣ ـ أزهار الرياض في أخبار عياض، نشر صندوق إحياء التراث الإسلامي، الرباط، ١٩٧٨م.
٨٤ ـ نفح الطيب، تحقيق: يوسف البقاعي، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٦م.
**المقريزي: أحمد بن علي (ت٨٤٥هـ).**
٨٥ ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مؤسسة الحلبي، القاهرة، د.ت.
**ابن منظور: محمد بن منظور الأفريقي (ت٧١١هـ).**
٨٦ ـ لسان العرب، الطبعة الثالثة، دار صادر، بيروت، ١٩٩٤م.
**الناصري: أبو العباس أحمد بن خالد السلاوي (ت١٣١٥هـ).**
٨٧ ـ الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق ولدي المؤلف: جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء، ١٩٥٤م.
**النباهي: أبو الحسن بن عبدالله المالقي.**
٨٨ ـ تاريخ قضاة الأندلس، المسمى «المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا» المكتب التجاري للطباعة، بيروت، د.ت.
**النويري: أحمد بن عبدالوهاب (ت٧٣٢هـ).**

٨٩ ـ تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط، مستخرج من كتاب نهاية الإرب في فنون الأدب، تحقيق: مصطفى أبو ضيف أحمد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ١٩٨٤م.

**الونشريسي: أبو العباس أحمد بن يحيى (ت٩١٤هـ).**

٩٠ ـ المعيار المعرب والجامع المغرب في فتاوى أهل أفريقية والأندلس والمغرب، تحقيق: جماعة من الباحثين نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، الرباط، ١٩٨١م.

**ابن أبي يعلى: القاضي أبو الحسين محمد بن أبي يعلى (ت٥٢٦هـ).**

٩١ ـ طبقات الحنابلة، طبعة دار المعرفة، بيروت.

## المراجع:

**د. إبراهيم بوتشيش.**

٩٢ ـ المغرب والأندلس في عصر المرابطين، نشر دار الطليعة، بيروت، ١٩٩٣م.

**إبراهيم الجمل.**

٩٣ ـ الإمام عبدالله بن ياسين، دار الإصلاح، القاهرة، د.ت.

**د. إبراهيم حركات.**

٩٤ ـ المغرب عبر التاريخ، نشر دار السلمي، الدار البيضاء، ١٩٦٥م.

٩٥ ـ النظام السياسي والحربي في عهد المرابطين، منشورات مكتبة الوحدة العربية، الدار البيضاء، د.ت.

**د. إبراهيم طرخان.**

٩٦ ـ إمبراطورية غانة الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٧٠م.

**د. إحسان عباس.**

٩٧ ـ تاريخ الأدب الأندلسي «عصر الطوائف والمرابطين»، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٥م.

**أحمد بن الأمين.**

٩٨ ـ الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٩م.

**د. أحمد مختار العبادي.**

٩٩ ـ دراسة حول كتاب الحلل الموشية، مجلة تطوان، العدد٥، ١٩٦٠م.

١٠٠ ـ في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، د.ت.

**إدريس العلوي.**

١٠١ ـ الدرر البهية والجواهر النبوية، طبعة حجرية، فاس، ١٨٩٦م.

**ارشيالد لويس.**

١٠٢ ـ القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ترجمة: أحمد عيسى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٠م.

**د. محمد بن عبود.**

١٠٣ ـ جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري، مطبعة النور، تطوان، ١٩٨٧م.
**بالنثيا، انخل جنثالث.**
١٠٤ ـ تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة: د .حسين مؤنس، ط١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٥م.
**بل، ألفريد.**
١٠٥ ـ الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي، ترجمة: د .عبدالرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي، ط٣، بيروت، ١٩٨٧م.
**توماس أرنولد.**
١٠٦ ـ الدعوة إلى الإسلام بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية، ط٣، نشر مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٠م.
**جودت الركابي.**
١٠٧ ـ في الأدب الأندلسي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٠م.
**جوليان، شارل أندري.**
١٠٨ ـ تاريخ أفريقيا الشمالية، ترجمة: محمد مزالي والبشير سلامة، ط .الدار التونسية للنشر بتونس، والشركة الوطنية للنشر بالجزائر ١٩٧٩م.
**الحبيب الجنحاني.**
١٠٩ ـ دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٦م.
**د. حسن إبراهيم حسن.**
١١٠ ـ تاريخ الدولة الفاطمية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٤م.
**د. حسن أحمد محمود.**
١١١ ـ قيام دولة المرابطين، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٧م.
**الحسن السائح.**
١١٢ ـ الحضارة الإسلامية في المغرب، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٨٦م.
١١٣ ـ موقف القاضي عياض من الإمام الغزالي، دورة القاضي عياض، نشر وزارة الأوقاف، الرباط، ١٩٨٣م.
**د. حسن عيسى عبدالظاهر.**
١١٤ ـ الدعوة الإسلامية في غرب أفريقيا وقيام دولة الفلاني، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، ١٤٠١هـ.
**د. حسن الوراكلي.**
١١٥ ـ أبو الفضل القاضي عياض السبتي (ثبت ببليوجرافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٤م).
١١٦ ـ ابن صارة الشنتريني، مطبعة النور، تطوان، ١٤٠٥هـ.
**د. حسين مؤنس.**

١١٧ ـ أطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للإعلام، القاهرة، ١٩٨٧م.
١١٨ ـ تاريخ المغرب وحضارته، نشر العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٢م.
١١٩ ـ الثغر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٩٢م.
١٢٠ ـ سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد، المجلد الثاني، ١٩٥٤م.
١٢١ ـ السيد القمبيطور وعلاقته بالمسلمين، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الثالث، العدد الأول، ١٩٥٠م.
١٢٢ ـ شيوخ العصر، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٥م.

**زامباور، إدوار دفون.**

١٢٣ ـ معجم الأنساب والأسر الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة: د .زكي محمد حسن، حسن أحمد محمود، جامعة فؤاد الأول، القاهرة، ١٩٥١م.

**الزركلي، خير الدين.**

١٢٤ ـ الأعلام، الطبعة الرابعة، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٩م.

**د. سامي النشار.**

١٢٥ ـ نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٧م.

**د. سعدون عباس نصرالله.**

١٢٦ ـ دولة المرابطين في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٥م.

**سعيد أعراب.**

١٢٧ ـ مع القاضي أبي بكر بن العربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٧م.

**د. السيد عبدالعزيز سالم.**

١٢٨ ـ تاريخ مدينة المرية، قاعدة وأسطول الأندلس، نشر مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، الإسكندرية، ١٩٨٤م.
١٢٩ ـ تاريخ المغرب الكبير، (العصر الإسلامي) دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م.

**شكيب أرسلان.**

١٣٠ ـ الحلل السندسية، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.

**د. صباح الشيخلي.**

١٣١ ـ حقائق جديدة عن الحركة المرابطية، مجلة المؤرخ العربي، العدد ٢٧، سنة ١٩٨٦م.

**الصديق بن العربي.**

١٣٢ ـ المغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٤هـ.

**د. ضريف محمد.**

١٣٣ ـ تاريخ الفكر السياسي بالمغرب، نشر أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ١٩٨٩م.

**العباس بن إبراهيم السملالي.**

١٣٤ ـ الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٧٤م.

**د. عباس الجراري.**

١٣٥ ـ أسباب انتشار المذهب المالكي، ندوة الإمام مالك، ج١، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية.
١٣٦ ـ الأدب المغرب من خلال ظواهره وقضاياه، مكتبة المعارف، الرباط، ١٩٨٢م.
١٣٧ ـ الموحدون ثورة سياسية ومذهبية، مجلة المناهل، العدد الأول، سنة ١٩٧٤م.
**د. عبدالبديع الخولي.**
١٣٨ ـ الفكر التربوي في الأندلس، دار الفكر العربي، القاهرة ن١٩٨٥م.
**د. عبدالرحمن الحجي.**
١٣٩ ـ التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي إلى سقوط غرناطة، دار الإصلاح، الدمام، ١٤٠٣هـ.
**عبدالرحمن الفاسي.**
١٤٠ ـ ذيل وتعليق حول قضية المعتمد بن عباد، المناهل، العدد العاشر، سنة ١٩٧٧م.
**د. عبدالكريم عثمان.**
١٤١ ـ سيرة الغزالي، دار الفكر، دمشق، د.ت.
**د. عبدالله العروي.**
١٤٢ ـ مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٤م.
**عبدالله كنون.**
١٤٣ ـ ذكريات مشاهير رجال المغرب «عبدالله بن ياسين»، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧١م.
١٤٤ ـ النبوغ المغربي في الأدب العربي، بيروت، ١٩٧٥م.
**د. عبدالمجيد بدوي.**
١٤٥ ـ التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في الشرق الإسلامي من القرن الخامس الهجري حتى سقوط بغداد، دار الوفاء، المنصورة، ١٩٨٨م.
**د. عبدالمجيد النجار.**
١٤٦ ـ المهدي بن تومرت، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٣٥م.
**د. عبدالواحد شعيب.**
١٤٧ ـ دور المرابطين في الجهاد بالأندلس، مالطا، ١٩٩٠م.
**عبدالوهاب بن منصور.**
١٤٨ ـ قبائل المغرب، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٦٨م.
**د. عصمت دندش.**
١٤٩ ـ أضواء جديدة على المرابطين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩١م.
١٥٠ ـ دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب أفريقيا مع نشر وتحقيق رسائل أبي بكر ابن العربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨م.
١٥١ ـ الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨م.
**د. أبو العلاء عفيفي.**

١٥٢ ـ أبو القاسم بن قسي وكتابه خلع النعلين، مجلة كلية آداب الإسكندرية، المجلد ١١، ١٩٥٧م.
**د. عمر فروخ.**
١٥٣ ـ تاريخ الفكر العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٩م.
**ليفي بروفنسال.**
١٥٤ ـ الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة: السيد عبدالعزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٠م.
**مجموعة باحثين.**
١٥٥ ـ التاريخ الأندلسي من خلال النصوص، نشر شركة المدارس، الدار البيضاء، ١٤١٢هـ.
**د. محمد أحمد الغربي.**
١٥٦ ـ موريتانيا ومشاغل المغرب الأفريقية، مطبعة ملاطو، الرباط، ١٩٦٤م.
**محمد بن تاويت.**
١٥٧ ـ تاريخ سبتة، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٤٠٢هـ.
**د. محمد رزوق.**
١٥٨ ـ دراسات في تاريخ المغرب، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ١٩٩١م.
**د. محمد بن شريفة.**
١٥٩ ـ أسرة بني عشرة، مجلة تطوان، العدد ١٠، ١٩٦٥م.
**د. محمد شعيرة.**
١٦٠ ـ المرابطون: تاريخهم السياسي، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، ١٩٦٥م.
**محمد الطاهر بن عاشور.**
١٦١ ـ التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.
**محمد عبدالله عنان.**
١٦٢ ـ دولة الإسلام في الأندلس ـ العصر الثاني «دول الطوائف»، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٨م.
١٦٣ ـ دولة الإسلام في الأندلس «العصر الثالث» عصر المرابطين والموحدين، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٠م.
**محمد بن محمد مخلوف.**
١٦٤ ـ شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤٩هـ.
**محمد المختار السوسي.**
١٦٥ ـ سوس العالمة، مطبعة فضالة، المحمدية (المغرب)، ١٩٦٠م.
١٦٦ ـ المعسول، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٦١م.
**محمود إسماعيل عبدالرازق.**
١٦٧ ـ الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن ٤هـ، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٧٦م.
**محمود مكي.**

١٦٨ ـ وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد، المجلدان السابع والثامن، ١٩٥٩ـ١٩٦٠م.

**محيي الدين اللاذقاني.**

١٦٩ ـ فانتازيا التاريخ، بحث مقدم لندوة الأندلس، قرون من التقلبات والعطاءات، مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالرياض، ١٩٩٣م.

**المختار بن حامد.**

١٧٠ ـ حياة موريتانيا (الحياة الثقافية)، الدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٩٠م.

**مصطفى بنسباع.**

١٧١ ـ إحراق كتاب الإحياء، ملتقى الدراسات المغربية الأندلسية، الندوة الخامسة، نشر كلية الآداب بتطوان، ١٩٩٣م.

**منجد مصطفى بهجت.**

١٧٢ ـ الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهد الطوائف والمرابطين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٦م.

**نقولا زيادة.**

١٧٣ ـ أفريقيات، نشر رياض الريس للكتب، لندن، ١٩٩١م.

**هويسي ميراندة.**

١٧٤ ـ علي بن يوسف وأعماله في الأندلس، مجلة تطوان، العدد ٣ـ٤، سنة ١٩٥٨، ١٩٥٩م.

**يوسف أشباخ.**

١٧٥ ـ تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة: محمد عبدالله عنان، ط٢، مؤسسة الخانجي، القاهرة، ١٩٥٨م.

**يوسف حوالة.**

١٧٦ ـ بنو عباد في أشبيلية، طبع دار العلم، جدة، ١٤٠١هـ.

## الموسوعات

١٧٧ ـ تاريخ أفريقيا العام (اللجنة العلمية الدولية لتحرير تاريخ أفريقيا العام، اليونسكو، باريس ١٩٨٨م).

١٧٨ ـ الموسوعة الإسلامية الميسرة أشرف على تحريرها هـ.أ.جب، وج.هـ.كالمرز، ترجمة راشد البراوي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٥م.

Ben Achen hou (A):

1- **Sidiabdallah Mou - 1 gara ou Abdallah Ibn Yassin, Hesperis 1946.**

Cuoq (J):

2- **Histoire de l'Islamisation de L'afrique de L'ouest, paris 1984.**

Delachapelle (F):

3- **Esquisse D'une Histoire du sahara occidental, Hesperis, T11, 1930.**

Delafosse (M):

4- **Ghana & Le Mali & L'emplacement de leurs Capitales B.C.E.H.S.A.O.F. 1924.**

Devisse (J):

5- **Te Gdaoust, paris 1970.**

6- **The Almoravides.**

DOZY (R):

7- **Recherches sur l'histoire de L'andalus.**

8- **Histoire des Musulmans de L'Espagne. LYDE 1932.**

Froelich (J):

9- **Essai sur les Causes et Methodies de L'Islamisation de L'Afrique de L'ouest du XI - XX Siècle, Oxford 1969.**

Gruvel & Chudeau:

10- **A travers La Mauritanie occidentale De saint-Louis a Part - Etienne volume 1, Paris 1909.**

Ki - Zerbo (J):

11- **Histoire de L'Afrique, Paris 1972.**

Lavoix (H):

12- **Catalogue des Monnaies de la Biblioteque Nationale de Paris.**

Levi - Provencal:

13- **Histoire de l'Espagne Musulmane, Paris 1967.**

14- **La fondation de Marrakech Alger 1957.**

Marcais (M):

15- **La Berberie Musulmane & L'orient au moyen age, Paris 1946.**

16- **Manuel d'art Musulman, Paris 1926.**

Marty (P):

17- **Etudes Sur L'Islam au Senegal, Paris 1917.**

Mirinda (H):

18- **La Salida de Los Almoravides del desierto, Hesperis 1959.**

Mones (H):

19- **Le Rôle des Hommes de religion dans l'histoire de l'espagne musulmane Jusqu'a la fin du califat, studia islamica, XX.**

SLAUCH (N):

20- **L'Empire de Bergouata, Revue du Monde Musulman t10, 1919.**

Terrasse' (H):

21- **Histoire du Maroc casablanca 1950.**

**22- Sanctuaires et forteresses Almohade, hesperis t4, 1924.**

Zouber (M):

**23- Ahmed Baba de toubouctou, Paris 1977.**

# الفهرس


| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |
| **الإهداء** | ٥ |
| **تقديم** | ٧ |
| ١ ـ أهمية الموضوع | ٧ |
| ٢ ـ عرض لمصادر البحث ومراجعه | ٩ |
| التمهيد العلماء وأدوارهم التاريخية (السياسية) في المغرب الإسلامي قبل المرابطين | ١٥ |
| أدوار العلماء في المغرب في أواخر الدولة الأموية وبداية الدولة العباسية | ١٩ |
| أدوار العلماء في الدولة الأغلبية | ٢٢ |
| أدوار العلماء بدولة الفاطميين | ٢٥ |
| مكانة العلماء في المجتمع الأندلسي | ٣١ |
| **الباب الأول: العلماء والدولة المرابطة** | ٤٧ |
| **الفصل الأول: العلماء وتأسيس الدولة** | ٤٩ |
| التعريف بصنهاجة اللثام | ٤٩ |
| عبدالله بن ياسين ودوره في قيام دورة المرابطين | ٥٧ |
| مرحلة الرباط | ٦٠ |
| مرحلة الخروج من الرباط | ٦٤ |
| الجهاد في المغرب الأقصى | ٦٧ |
| الأمير أبو بكر بن عمر والجهاد في السودان الغربي | ٩١ |

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |


الفصل الثاني: أثر العلماء في الاتجاه الفكري للدولة ........ ٩٧
١ ـ المذهب الفقهي للمرابطين ........ ٩٧
٢ ـ مذهب العلماء في الحكم في عهد المرابطين ........ ١٠٩
٣ ـ مذهب العلماء المرابطين العقائدي وموقفهم من التصوف ........ ١١٦
الفصل الثالث: العلماء وسياسة المرابطين الوحدوية ........ ١٣٠
١ ـ الحال في الأندلس عند قيام دولة المرابطين ........ ١٣٠
الباب الثاني: العلماء والسلطة ........ ١٦٥
الفصل الأول: العلماء في مواقع النفوذ ........ ١٦٧
الفصل الثاني: العلماء في مواجهة السلطة ........ ٢٠٦
١ ـ التكوين العلمي لابن تومرت ........ ٢٠٧
٢ ـ مرحلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ........ ٢١٠
٣ ـ مرحلة إعلان المبادىء ........ ٢١٦
٤ ـ مرحلة تينملل ........ ٢٢١
٥ ـ ثورات القضاة في الأندلس ........ ٢٣١
الفصل الثالث: العلماء حكاماً ........ ٢٤٢
١ ـ القاضي ابن جحاف ـ حاكم بلنسية ........ ٢٤٣
٢ ـ أبو جعفر حمدين بن حمدين ـ حاكم قرطبة ........ ٢٦٤
الفصل الرابع: أثر العلماء في الدعوة والجهاد ........ ٢٧٦
أولاً أثر العلماء في الدعوة ........ ٢٧٦
ثانياً أثر العلماء في الجهاد ........ ٢٨٨
الخاتمة ........ ٢٩٥
المصادر ........ ٢٩٨
المراجع ........ ٣٠٥
الموسوعات ........ ٣١٠
الفهرس ........ ٣١٣